ميقات الحج

١٤



بسم الله الرحمن الرحیم

دو فصلنامه « میقات الحج »

کاتب:

محمدی ری شهری

نشرت فی الطباعة:

مشعر

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

الفهرس

میقات الحج المجلد۱۴

اشارة

عنوان و نام پدیدآور : میقات الحج[پیایند: مجله]
مشخصات نشر : تهران: منظمة الحج و الزیارة، ۱۴۱۷ ق. - = ۱۳۷۵ -
فاصله انتشار : شش ماه یکبار
یادداشت : عربی
فهرست‌نویسی براساس سال۳ شماره۵ سال۱۴۱۷ق.
یادداشت : این نشریه در بیروت نیز منتشر می‌شود
یادداشت : المدیرالمسؤول: محمد محمدی‌ری‌شهری
رئیس‌التحریر: علی قاضی‌عسکر
یادداشت : کتابنامه
ترجمه عنوان : Mighat al - haj
موضوع : حج -- نشریات ادواری
شناسه افزوده : محمدی ری‌شهری، محمد، ۱۳۲۵، -مدیر مسئول
Muhammadi Reyshahri, Muhammad
قاضی عسکر، سیدعلی، ۱۳۲۵، - سردبیر
شناسه افزوده : سازمان حج و زیارت
رده بندی کنگره : BP۱۸۸/۸
رده بندی د... : ۲۹۷/۳۵۷۰۵
ص: ۱

من احادیث الامام الخمینی قدس سره

ص: ٢

العدد الرابع عشر

من أحاديث الإمام الخمينى قدس سره

انّما يريد اللَّه ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهِّركم تطهيراً قل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثمّ نبتهل فنجعل لعنة اللَّه على الكاذبين (١)

.

الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون

١- ١ النساء: ٦١.

ص: ۳

قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله:

«عليٌّ مع القرآن والقرآن مع عليّ، لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض.

«عليٌّ مع الحقّ والحقّ مع عليّ».

«أنا مدينة الحكمة وعليٌّ بابها، فمَنْ أراد الحكمة فليأتِ الباب».

«مثل عليّ فيكم- أو قال: فى هذه الامّة- كمثل الكعبة المستورة، النظر إليها عبادة، والحجّ إليها فريضة».

«إنّما مثلك فى الأمّة مثل الكعبة نصبها اللّه علماً، وإنّما تؤتى من كلّ فجّ عميق، ونادٍ سحيق، وإنّما أنت العلم علم الهدى ونور الدين، وهو نور اللّه» (۱).

قال الإمام على عليه السلام وقوله الحقّ وفعله الصدق:

«يا دنيا غرّى غيرى، إلىّ تعرّضت، أم إلىَّ تشوّقت، هيهات هيهات. لقد طلّقتك ثلاثاً لا رجعة فيها، فعمرك قصير، وخطرك كبير، وعيشك حقير، آه، آه من قلّة الزاد، وبُعد السفر، ووحشة الطريق.»

«... على أئمّة الحقّ أن يتأسّوا بأضعف رعيتهم حالًا فى الأكل واللباس، ولا يتميّزون عليهم بشىء لا يقدرون عليه، ليراهم الفقير فيرضى عن اللّه تعالى بما هو فيه، ويراهم الغنى فيزداد شكراً وتواضعاً.»

الهوامش:

---

۱ - ۱ انظر: ذخائر العقبى: ۱۴۲، تاريخ بغداد ۱۱: ۲۰۴، كفاية الطالب: ۱۶۱، المناقب لابن شهرآشوب: ۳/ ۲، كلّها عن أبى ذر، خصائص الأئمّة: ۷۳ عن أبى موسى الضرير البجلى عن أبى الحسن عن أبيه عن الإمام على عليهم السلام وغيرها.

ص: ۴

ص: ۵

إنّ ممّا يجب أن نأسف له أن أيادی الغدر والخيانة لم تمنح شخصية الإمام علی عليه السلام الفرصة لتتبلور وتظهر إلی حيّز الوجود بأبعادها المختلفة وزواياها المتعددة؛ بسبب ما افتعلته تلك الأيدی من حروب ومعارك خلال فترة خلافته القصيرة. إن لشخصية الإمام علی عليه السلام أبعاداً ليست لغيره فشخصيته تجمع صفات وخصائص خلقت منه شخصيّةً ربّانيّة وإذا قدر للصفات الربّانيّة أن تتجلّی فی شخصٍ فإنّ علياً كان مظهراً لها كلّ ذلك بفضل رسول اللّه الأكرم صلی الله عليه و آله. وما خفی من صفات تلك الشخصية وأبعادها، كان أعظم ممّا ظهر منها. إن ما تعرفت عليه البشريّة وستتعرّف عليه من صفات وأبعاد متناقضة ومتضادة كلّها تجمّعت فی رجل واحد، ألا وهو أمير المؤمنين علی عليه السلام، الزاهد العابد والمقاتل المجاهد...، وهی صفات لا يمكن اجتماعها فی رجلٍ واحد، فالزاهد لا يستطيع بطبيعة الحال أن يكون محارباً أو مقاتلًا صنديداً، والعكس صحيح. فمع كون علی بن أبی‌طالب عليه السلام كان قوی الساعدين شديد البنية قویّ الجسم، لكنه كان يعيش فی زهد وقناعة كاملتين فی مأكله ومشربه وطريقة معيشته، وفی الوقت الذی كان فيه يمتلك من

ص: ۶

العلوم المعنويـة والروحانية وسائر العلوم الإسـلامية الأخرى ما لم يحظَ أحد غيره ولو بجزء ضـئيل منها، كانت كل ملّة تصـنّفه على أنه منها وأنه ينتمى إليها. فالأبطال والبواسل يعتبرونه منهم بطلًا مغواراً، والفلاسـفة تعـدّه واحـداً منها، والعرفاء ينسـبونه عليه السـلام إليهم، والفقهاء يـدّعون أنه ينتمى إلى مـذهبهم، وهكذا الحال مع باقى الملل والنّحل الأخرى، والحق أن أمير المؤمنين عليه السـلام هو واحد من كلّ تلك الطوائف وفرد من كلّ ملّة من تلكم الملل.

إنّ بعض كمالاـت أمير المؤمنين عليه السـلام وصـفاته المتميزة التى لاـ زالت غير معروفـة للكثير يمكننـا الاطّلاع عليها من خلال قراءة لبعض أدعيته عليه السـلام المأثورة. فـدعاء كميل هو أحـد تلك الأدعية العجيبة، وأقول عجيبة لأن بعض الفقرات الواردة فيه لا يمكن أن تكون صـادرة من إنسـان عـادى على الإطلاق. فلاحظ مثلًا عبارة: «إلهى وسـيدى ومولاى وربى هبنى صبرتُ على عـذابك فكيف أصبر على فراقك؟»؛ مَن مِن البشـر له القـدرة على التفوّه بمثل هـذا الكلام؟ مَن مِنّا يحبّ اللّه تعالى بهـذه الكيفيّـة كما يحبّه علىّ عليه السـلام؟ فهو يصـرّح بـأنه لاـ يخـاف من جهنّم ولا يخشـى نارها، بل إن جلّ ما يخشاه هو أن يؤدى دخوله إلى جهنم إلى إنزال مرتبته ومكـانته بحيث يكون ذلـك سـبباً فى حرمـانه من حبّ اللّه تعـالى والقرب منه. إنه عليه السـلام ينوح بسـبب فراقه عن بـارئه واحتمـال ابتعاده عنه سـبحانه. وليس لنا والحال هذه أن نتعجب أو نشك فى أن أعماله وأفعاله وكل تصـرفاته نابعة من صـميم حبّه للّه عزّوجلّ، ذلك الحبّ الذى ملك زمام قلبه، وسيطر على كيانه وهيكله فى كلّ مكان وزمان. إن المعيار الذى يعتمده الإمام على عليه السلام هو حبّه للّهسبحانه والفناء فى ذلك الحبّ من أجله تعالى، وهو ما صرّح به الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله حينما قال: «ضربة على يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين»...

من احاديث الامام الخامنئى مدّ ظلّه

ص: ۷

من أحاديث الإمام الخامنئى (مدّ ظلّه)

من محاسن الصدف أنّ عيد الغدير تكرر مرتين فى سنة ۱۳۷۹ الشمسية (۱)، وعلى هذا فليس هناك أجمل ولا أبهى من تسمية هذا العام ب (عام الإمام أمير المؤمنين على عليه السلام). فلنحاول إذن الاقتراب من هذا الرجل العظيم والاقتداء به، فهو القدوة الحسنة لجميع الناس، فشبابه المليئ بالحماسة الجياشة والبطولة الفذة خير أسوة لكلّ الشباب. وحكومته التى كانت مليئةً بالعدل والإنصاف هى أنموذج صالح لكلّ المؤمنين، ومبادئه الحرّة كانت مناراً لكلّ الأحرار فى العالم، وكلماته الحكيمة ودروسه الخالدة ظلت مشعل هداية لجميع العلماء والمفكرين والمثقفين..

لقد كان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يدير دفة الحكم ويطبّق أركان العدل والمساواة، بحزم وصلابة، ويأخذ بحقوق الضعفاء والمساكين والمحتاجين بقوّة ولا تأخذه فى الله لومة لائم، لكنه كان عليه السلام متسامحاً فى حقه وحقوقه الخاصّة به، فلا يأبه بضياعها ما دامت حقوق الآخرين محفوظة مصانة. لقد كان الإمام على بن أبى‌طالب عليه السلام مثالًا رائعاً ونموذجاً عالياً للعبد الصالح، وشخصية فذة تتمتع بكل

۱- ۱ السنة الشمسيّة أكثر من السنة القمريّة بعشرة أيّام؛ ولهذا وقع عيد الغدير فى أوّل هذه السنة وفى آخرها.

ص: ۸

الصفات المعنویة والجهادیة العالیة. فیا حبذا لو سرنا علی هذا النهج القویم والمثل السلیم، وبهما نستطیع تحقیق أملنا المنشود وهدفنا المقصود فی إرساء أسس العدالة الاجتماعیة وتثبیت قواعدها وهو ما ینشده بلدنا العظیم وشعبنا الغالی...

الهوامش:

بین یدیک، سیّدی ابا تراب

ص: ۹

بین یدیک، سیّدی أبا تراب

محسن الأسدی

یا من کنتَ مصباحاً یتلألأ بل مشکاةً فیها مصباحٌ، المصباح فی زجاجة، الزجاجة کأنّها کوکبٌ درّی.

ها هی بین یدیک المبارکتین، مجلّة میقات الحجّ فی عامها السابع وفی عددٍ خاصّ جاء تیمّناً بذکری مولدک المبارک، وإطلالةً علی عامک هذا (عام الإمام أمیرالمؤمنین علیه السلام) الذی تشرّف بإعلانه قائد الثورة الإسلامیة الإمام الخامنئی حفظه اللّه.

لهذا راحت مجلّتنا تعلن عن مشارکتها، فجاءت ببضاعتها المزجاة هذه رمزَ ولاءٍ وشکرٍ وحبّ ووفاءٍ ..

وتمشّیاً مع اختصاصها ارتأینا أن تدور مضامینها حول ما أفردناه وأسمیناه بالمرحلة الأولی من حیاتک المبارکة؛ التی قضیتها فی الحجاز- إلّاإذا اقتضت الضرورة تجاوزها- بما انطوت علیه من صناعة ربّانیة نبویّة صاغت لک مناقب وفضائل وصفاتٍ، ترکت بصماتها علی شخصیتک الفریدة، وارتسمت معالمها

ص: ۱۰

وآثارها على سيرتک المفعمة بأحداث عظام وأمور جسام ومواقف عظيمة ومبادرات كريمة ...

ومع أنّى واكبتُ جميع أعداد المجلّة هذه محرّراً.. وسعيداً بها، إلّاأنّ تلك السعادة لم تغمر قلبى ولم أذق شربةً أنقع لغليلى من هذا العدد- على بساطته- الذى يعيش ذكراک ويتفيّأ ظلالک...

*** بدءاً نقول: لعلّ الحكمة- سيّدى- فى إعلان هذا العام عاماً خاصاً، هى تجميع للجهود المحبّة والمتفانية فيک، وتذكيرٌ للغافلين، وفرصةٌ للمناوئين... وإلّا فإنّ من يقصد وجه اللَّه تعالى الذى أحببتَه وآمنتَ به وآثرتَه وسكنتَ إليه، وأفنيتَ عمرک الشريف فيه مؤمناً مجاهداً... حتّى قضيتَ نحبک فى سبيله، وفاضت روحک إليه، مضرّجاً بدمک فى محراب عبادته، فى بيتٍ من بيوت اللَّه تعالى، فى مسجد الكوفة، وقد انطلق صوتک، ودوّى صداه عالياً فى جنبات المسجد وفى سمائه.. فُزتُ وربِّ الكعبة، فزتُ وربِّ الكعبة..

نعم، إنّ من يقصد ذلک الوجه الكريم ويرجو لقاءه بقلب سليم ويأمل أجره وفضله ويخشى حسابه ويخاف عقابه، يجب أن تبقى ذكراک ماثلةً أمامه، حيّةً فى سيرته، فاعلةً فى حياته، شجرةً خضراء ينعم بظلالها الوارفة ويشمّ عطرها ويستنشق عبيرها، ويرتشف من معينها قيماً جميلةً ومعانى عظيمة ومفاهيم جليلة، وأن يقرأک إنساناً وإيماناً وتقوًى وزهداً وجهاداً وعلماً وأدباً وفكراً..

إذن، أن يبقى كلّ منا يعيشک دائماً قدوةً صالحةً واسوةً حسنةً، وهو الذى يجب أن نعوّد أنفسنا عليه ونتبنّاه فى حياتنا الدينية والاجتماعية بكلّ مفاصلها. لا ذكرى فقط تمرّ مرور الكرام..

ولعلّ الحكمة فى أن يكون مولدک فى جوف الكعبة؛ القبلة، لتكون قبلةً للأنام، للمؤمنين رعاةً كانوا أو رعيةً مهما بعدت بهم البقاع ونأى بهم الزمن، يستقبلونک مبادئ وقيماً ومثلًا عليا كلّما توجّهوا إليها فى فرضٍ أو مستحبٍّ أو دعاءٍ..

لذاک قبلة من صلّى لخالقه غدا ومقصد من للحجّ يأتيه

حقّاً لتبقى بل ليبقى عليٌّ شاخصاً أمامنا بكلّ ما يحمله من قيم السماء ومبادئ الدين الحنيف، وبكلّ ما يتحلّى به من إيمانٍ ثابت وإسلام وثيق، وجهاد مرير وتضحيات جسام، ومن علم غزير وأدب جميل وسيرة عطرة حسنة، تمنّاها كلّ مَن حولک والذين جاءوا من بعدهم.. فعصت عليهم جميعاً، ولم تجد غيرک إناءً صالحاً، وبوتقةً تصهرها، فتنتج عليّاً إسلاماً يتحرّک وقرآناً ناطقاً، وإيماناً حيّاً يجسّد كلّ معانى السماء.

*** لقد كنت- سيّدى- بين محرابى الولادة والشهادة محراباً لا يدانيک أحدٌ أبداً، وكيف لا تكون كذلک وأنت أكثرهم جهاداً وأمضاهم عزيمةً وأشدّهم توثّباً حتّى قال فيک تلميذُک حبرُ الامّة عبداللَّه بن عبّاس: ما رأيتُ محراباً مثله؟!

كنت جريئاً على الموت مقتحماً لميادينه، لا تخشى ولا تهاب أحداً بالغاً ما بلغ من القوّة والشجاعة والاقدام، بل لا تجد هيبة هولاء الأبطال من قلبک شيئاً.

فقد نزل عمرو بن ودّ المعروف بقوّته وصلابته وصولته وبأنّه يعدل ألف فارس، وقد لفّه الحديد من هامته إلى أخمص قدمه، ينادى بصوت مخيف هل من مبارز؟

أين جنتكم التى زعمتم أنّكم داخلوها إن قتلتم؟.. ولا مجيب إلّاصوتک «أنا له يا رسول اللَّه» فوثبتَ إليه، وصوت رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يلاحقک: «برز الإيمان كلّه إلى الشرک كلّه» فإذا هو مجدّل بين يديک بضربة تعدل عبادة الثقلين، ولا ذت الأحزاب بالفرار.

وأنت فى عبادتک الأواب المتبتّل الواله بربّه، الذى عبد اللَّه كأنّه يراه، وأنت القائل: أفأعبد ما لا أرى (۱)؟

وأنت القلب الطاهر المطمئن الذى لا يخفق إلّابحبّ اللَّه وحبّ رسوله...

وأنت القِمّة السامقة فى تسليمک وانقيادک إلى اللَّه سبحانه وتعالى، فكنت الإيمان كلّه، وكنت الغاية فى الإخلاص والغاية فى الصدق.

وأنت فی فصاحتک الخطیب الأوّل الغنیّ ببدائع الخطابة وألوان البیان وضروب الحکمة وفنون الکلام.

۱- ۱ انظر إجابته ذعلب الیمانی حینما سأله: هل رأیت ربّک...؟ ۱۷۹- من کلامه علیه السلام فی نهج البلاغة: ۲۸۵، صبحی الصالح.

ص: ۱۲

وأنت الـذی اتسـمتَ بالثراء والفرادة فی إیمانک وفی صـدقک وعـدلک وورعک وفی علمک وعبقریتک وحصافتک وفی زهـدک وقناعتک وفی نهجک وطریقتک، فخصائصک ما أعظمها وأخلاقک وما أسماها وفضائلک ما أکثرها!

وهـذه کتب التأریخ والحدیث عند الفریقین.. وقد ملئت بخصالک ومناقبک وفضائلک وآثارک وجهودک ومواقفک ولم یذکر فیها لغیرک ما ذکر لک.

یقول أحمد بن حنبل وإسماعیل القاضی وأحمد بن شعیب بن علی النسائی وأبو علی النیسابوری: «لم یرو فی فضائل أحد من الصحابة بالأسانید الحسان ما روی فی فضائل علی بن أبی طالب علیه السلام».

ولیس هـذا فحسب، بـل کـان الأوحـد فی صـفاته وفضائله. دلّنی علی فضـیلة لم یکن علیّ فیها الأشـهر ولم یکن المتفرّد بها دون غیره سواء أکانوا فی زمنه أو الأزمان المتعاقبة الاخری!

*** وهکـذا أنت- سـیّدی- فی عطائک الذی کاد أن یبلغ حدّ الاسـطورة، أثریت به تراثنا الدینی والأخلاقی والإنسانی... وما أحوجنا إلی تراثک الخالد خاصة فی عالمنا الصاخب الملیء بمختلف الأفکار والأمواج والأعاصیر...

وإنّ الإحاطـة بکلّ ما قدّمته فی حیاتک المبارکة أمر صـعب، کما أنّ محاولة التعمّق فیه وسبر أغواره هو الآخر أمر عسـیر فالرجل مهما اوتی من القدرة والاستعداد والصبر فإنّه یتخصّص بفنٍّ واحدٍ أو فنّین، إلّاأنت- سیّدی- فقد جمعت مناقب کثیرة، وفنوناً وعبقریات هی الاخری متعدّدة.

ما فرّق اللّه شیئاً فی خلیقته من الفضائل إلّاعندک اجتمعا

لقـد اصـطنعتک السـماءُ وأفـاضت علیک خصائص وفضائل خلقت منک إنساناً ربّانیاً فی کلّ ما حملتَه واتسـمّتَ به. وأقحمتک عالَماً آخر غیر مـا ألفـوه فتحیّرت عقـولهم وأذهلت نفوسـهم، فراحوا یتنـازعون أمرهم فیـک؛ تعـدّدت آراؤهم وتنوّعت فیـک اجتهـاداتهم، وتقاطعت فیک مواقفهم، ولما أدحضتهم حجّتُک وألجمت ألسنتهم وخیّبت أدلّتهم وکشفت افتراءاتهم.. لم تطاوعهم أنفسهم المقیتة

ص: ۱۳

علی الرضوخ للحق والانصیاع للعدل فأبت إلّاًنفوراً واستكباراً. وركن شانئوك ومن نصبوا لك العداء إلى سيوفهم فلعلّ آمالهم وأطماعهم تتحقّق، فما اشتبكت الأسنّة على أحدٍ كما اشتبكت عليك، ولا اختلفت الألسن والأقلام فی أحدٍ كما اختلفت فيك.. فَظَلمك قومٌ وأنصفك آخرون، وختاماً تركوك وحيداً- وإن كنت حقّاً الوحيد بينهم بنعم ظلّت حسرةً عليهم- إلّاأنّهم لم يتركوك حبّاً لغيرك وتفضيلًا له عليك، وهم يعرفون أن ليس هناك من يدانيك إيماناً وعلماً وفضلًا... بل تركوك؛ لأنّهم لم يتحمّلوا صدقك ولم يطيقوا عدلك.. خافوك على دنياهم وخفتهم على آخرتك.

*** إنّ تاريخك لحافل وإن حياتك لصالحة وإنّ ميراثك لعظيم وإنّك لفی مقام كريم.. استوقفت هيبتك الجميع، وبهرتهم صفاتك وأذهلتهم فضائلك حتّى لم يجدوا شيئاً منها فی بشرٍ سواك.. فكانوا طوائف ثلاث:

فطائفة منهم أحبّتك حتّى ذابت فيك، وأنت القائل: «لو أحبّنی جبل لتهافت» وذلك هو الفوز العظيم.

وأخرى أحبّتك حتّى العبادة، فيما بغى عليك قومٌ آخرون حسداً لما آتاك اللَّه من فضله، وكلاهما من أصحاب النار هم فيها خالدون.

حقّاً ما قلتَه: «هلك فيَّ اثنان، محبٌّ غالٍ ومبغضٌ قالٍ»!

يقول الدكتور الجميلی:

«الرجل الذی هلك فی حبّه نفرٌ كثيرٌ، وهو ذات الرجل الذی أهلكت عداوته نفراً كثيراً، فإنّ منالذين غالوا فی حبّه هلكی، ومنالذين قلوه ونفسوا عليه هلكی أيضاً؛ لأنّ حبّه جدير بالتفانی فيه، وقلاه أجدر علیأن يسحت أعداءَه ومبغضيه» (۱).

*** لقد راح- سيّدی- قوم عاصروك وآخرون جاءوا من بعدهم ينتهلون من علمك ويتعلّمون من حلمك ويقلّدون شجاعتك.. إلّاأنّهم- وإن تمنّوا- لا يكونون مثلك أبداً.. وأنّى لهم وخصالك صنعتها يد الغيب، وسمات شخصيتك أفردتها لك

۱- ۱ انظر الدكتور السيد الجميلی فی كتابه، صحابة النبی صلی الله علیه و آله: ۶۲.

ص: ۱۴

السماء، ومناقبک صاغتها مبادئ الدين الحنيف تحت ظِلال النبوّة المباركة.. كما راحت امّتنا واممٌ أُخرى، من ديانات أُخر ومذاهب شتّى بمفكّريها وعلمائها وادبائها وشعرائها.. يقفون أمام تراثک مبهورين وإزاء عبقريتک متحيّرين.. وقد عرفوا ذلک كلّه، إلّاأنّهم أبوا إلّاأن يقولوا فيک شيئاً. فراحت أفكارهم وأقلامهم ومع سموّها لا- تستطيع كشف إلّاما ظهر من عظمتک ولا تذكر إلّاما بان من شخصيتک، وهو غنى ثرىّ عظيم.. أمّا ما خفى فاللَّه ورسوله أعلم به.

وصدق رسول اللَّه صلى الله عليه و آله إذ قال: «يا علىّ ما عرفک إلّااللَّه وأنا وما عرفنى إلّااللَّه وأنت».

حقّاً- سيّدى- إنّک نعمة كبرى أنعمتها علينا السماء، إنّک كنز عظيم غفلنا عنه، وينبوع لا ينضب جهلنا قدره، وصورة مضيئة للإسلام والإنسانية بكلّ معانيها الجميلة، لم نعطها حقّها..

لقد أكبرنا- سيّدى- الإسلام الذى تجسّد فيک، وفضائلک الرائعة ومناقبک الجميلة ومواقفک الشجاعة والجريئة.. التى باتت رصيد كلّ خير وعطاء، وثورة وإباء، وعدل ورحمة، وغدوت حياة لأولى الألباب..

إنّ اسمک- سيّدى- شفاء للنفوس، وذكراک ضياءٌ للعقول، وهدى للقلوب، وحافز للثورة والثوّار مهما كانت صولة الباطل مريرة وقسوته شديدة..

إنّ كلّ ما حولنا يستضىء بنورک ويستهدى بهداک، وكلّ ما عندنا مدين لمبادئک وقيمک، التى هى قيم السماء، فذكراک لا يحدّها حدّ ولا يختصرها زمن. وكيف يكون ذلک وعلىّ بين الولادة والشهادة تجده شمساً مضيئةً لا يحجبها شىء، وقمراً منيراً لا يحبسه سحاب؟!

وتجده إيماناً لا يشوبه شكّ ولا يعتريه ريب، وكيف يخالط إيمانه ذلک وهو القائل: «لو كشف لى الغطاء ما ازددت يقيناً».

وتجده عِلماً لا جهل معه ولا نقص يعتريه، أليس هو القائل: «سلونى قبل أن تفقدونى» ولم يقلها غيره؟

كلّ ذلک وغيره بفضل النبوّة التى راحت تشرق عليه منذ نعومة أظفاره، وبنعمة

ص: ۱۵

الرسالـة التی احتضـنته فأسـبغت علیه حللها، وببرکـة ما أودعه رسول‌اللَّه صـلی الله علیه و آله فی صـدر هذا الفتی حتّی یضـحی امتداداً طبیعیاً للرسالة والنبوّة یهدی به اللَّه من اتبع رضوانه سُبل السلام..

لقـد کان رسول اللَّه صـلی الله علیه و آله یعلمه مبادئ السـماء ویبثّه علمه ویغذّیه أخلاقه طیلة طفولته وصـباه، فتخلّق بأخلاقه صـلی الله علیه و آله التی قالت عنها السـماء: وَإِنَّکَ لَعَلی خُلُقٍ عَظِیمٍ واتصف بجمیع صفاته وتحلّی بجمیع شمائله، کما راح یستقی منه علماً جمّاً ممّـا جعله بلاـ ریب ولاـ شـکّ أفضل أصـحابه صـلی الله علیه و آله وأعلمهم وأفقههم وأورعهم وأزهـدهم وأشـجعهم وأکثرهم عطاءً للإسلام ومبادئه..

فصاغ لنا تاریخاً ملیئاً بالخیر والعطاء وحاضـراً مشـرقاً بالحبّ ومسـتقبلًا زاهراً بالأمل، فسـیرته المبارکـة الحافلة بمناقبها وفضائلها وما فیها من أحداث مریرة ووقائع عظام، ومواقف جلیلة، والبعیدة عن کلّ وسائل اللهو والزیغ والانحراف..

المطبوعة بالاسـتقامة والتقوی.. خیر دلیل علی عظمته.. بل کانت ولا زالت آیةً للحقّ والعدل والإنسانیة والصدق والإخلاص والصـلابة والثبات والشجاعة والفداء.

فقـد قضـی عمره الشـریف کلّه فی طاعـة اللَّه وعبادته راجیاً رضاه محارباً لأعـدائه هادفاً تثبیت أرکان دین اللَّه بکلّ ما عنـده من قـدرة وشجاعة.

یقول فیه رسول اللَّه صلی الله علیه و آله: «لولا أن یقول فیک الغالون من امّتی ما قالت النصاری فی عیسی بن مریم؛ لقلت فیک قولًا لا تمرُّ بملإٍ من الناس إلّاأخذوا التراب من تحت قدمیک یستشفون به».

الهوامش:

ص: ۱۶

*** إطلالة علی حیاة الإمام علی (علیه السلام)

إطلالة علی حیاة الإمام علی علیه السلام

ذریّة بعضها من بعض

کان علیّ بن أبی طالب من سلالة ذریة طیّبة وعائلة کریمة فی صفاتها، صالحة فی أخلاقها وسیرتها، محمودة فی خصالها، رفیعة فی شمائلها، متمیّزة فی رجالها وسیادتها، فبنو هاشم، سادة قریش بل سادة الدنیا، «ملح الأرض، وزینة الدنیا، وحلی العالم، والسنام الأضخم، والکاهل الأعظم، ولباب کلّ جوهر کریم، وسرّ کلّ عنصر شریف، والطینة البیضاء، والمغرس المبارک، والنصاب الوثیق، والمعدن الفهم، وینبوع العلم...» (۱).

فقد کان منها أکرم خلق اللّه تعالی علی الإطلاق، محمّد بن عبداللّه وکان منهم آله الطاهرون، وأعظمهم وأفضلهم سیّدهم علیّ بن أبی طالب الذی اجتمع فیه من الخصال ما لم یجتمع لغیره، ومن المکارم ما لم یحظ بها أحد غیره، ومن السجایا ما لم یحظَ بها الآخرون، فحسبٌ شریف، وخلقٌ عالٍ، وفطرةٌ سلیمة لم تتلوّث ببراثن الجاهلیة، وعقیدةٌ صافیة، وعلم جمّ، وشجاعة لا مثیل لها...

۱- ۱ الجاحظ، زهرة الآداب: ۵۹.

ص: ۱۷

فأبوه: شیبة بنی هاشم شیخ قریش وزعیمها وسیّد قومه أبو طالب، الذی انطوت نفسه علی خصال کریمة کلّها شموخ وعزّة وفضائل... وهو الکافل المدافع الذابّ عن رسول اللَّه صلی الله علیه و آله، والذی أحاط رسول اللَّه بعنایة عظیمة ورعایة قلَّ نظیرها خصوصاً إذا عرفنا مکانته فی قریش وبین زعمائها وما سبّبه ذلک من إحراج له وضیق وأذًی، ومع هذا کلّه فقد صبر أیما صبر دفاعاً عن محمّد ورسالته حتّی إنّ قریشاً لم تکن قادرةً علی أذی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله مع رغبتها فی ذلک حتّی توفی أبو طالب فراحت تکید له..

یقول رسول اللَّه صلی الله علیه و آله: «واللَّه ما نالت قریش منّی شیئاً أکرهه حتّی مات أبوطالب».

ولم یهاجر إلی المدینة إلّابعد وفاة عمّه رضوان اللَّه علیه. هذا أبوه.

وأمّا جدّه: فهو عبد المطّلب شیبة الحمد أمیر مکّة وسیّد البطحاء له ولایة البیت الحرام من السقایة والرفادة.. وکان ذا مهابة ووقار ومیل إلی الدین والنسک، وهو الذی قام بحفر بئر زمزم التی تفجّرت تحت قدمی جدّه إسماعیل من قبل، بعد أن غاب أثرها ولم یهتدِ إلیها أحد حتّی هتف به هاتف فی منامه، فراح یحفر حتّی اهتدی إلیها مستعیناً بابنه الحارث الذی کان وحیده وقتذاک.

ثمّ هو الذی خذل اللَّهُ علی یدیه ابرهة الحبشی وجنده الذین جاؤوا لهدم الکعبة وصرف الحاجّ عنها إلی بیت بناه فی الیمن، ولمّا التقی ابرهة بعبد المطلب أراد أن یستمیله إلی جنبه، فما وجد منه إلّاالرفض، وإلّا الثقة العالیة باللَّه، مکتفیاً بأن یرد إلیه إبله وشویهاته التی أخذها جنده.

فقال ابرهة: کنت فی نفسی کبیراً وسمعت أنّک وجیه فی قومک، فلمّا سألتک عن حاجتک وذکرت الإبل والشیاه ونسیت بلدک وأهلک وبیتک المقدّس سقطت من عینی.

فقال عبد المطلب: الإبل لی، وللبیت ربّ یحمیه.

ص: ۱۸

فقال ابرهة: ما كان ليمتنع منّى.

فقال عبد المطلب: أنت وذلك، وصعد على الجبل وتضرّع إلى اللَّه وأنشد:

يارب عادِ من عاداك وامنعهموا أن يهدموا حماك

ثمّ راح يستحثّ قومه على ترك مكّة واللجوء إلى الجبل خشية بطش ابرهة وجيشه، والتوجّه إلى اللَّه بالدعاء. فحلّت الكارثة بابرهة وجنده... وهناك سورة الفيل تحكى هذه الحادثة..

أُمّه: فاطمة بنت أسد بن هاشم فهى ابنة عمّ أبى طالب وهى أوّل هاشمية تزوّجها هاشمى، وعلىّ أوّل مولود (مع اخوته) ولد لهاشميين فقد تعوّد بنو هاشم أن يصهروا إلى اسر اخرى. كانت ذات منزلة رفيعة، جعلتها من اللائى امتازت حياتهنّ بمواقف جليلة فى حركة الأنبياء ومسيرتهم عبر التاريخ، فقد أثنى عليها رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وكان شاكراً لها ولمعروفها ورعايتها له، فكان يدعوها «امّى بعد امّى التى ولدتنى» (۱)

وراحت هى الاخرى تفضّله على جميع أولادها الأربعة، فقد كان طالب أكبر أولادها ثمّ عقيل، ثمّ جعفر ثمّ علىّ، وكلّ واحد أكبر من الذى بعده بعشر سنوات، وكان علىّ عليه السلام أصغر أولادها.

حظيت هذه السيّدة والمرأة المؤمنة الطاهرة بمكانة عظيمة فى قلب رسول‌اللَّه، وتركت فى نفسه آثاراً طيّبة راح يذكرها طيلة حياته، ويترحّم عليها ويدعو لها..

تقول الرواية:

لمّا ماتت فاطمة بنت أسد أُمّ علىّ- وكانت قد أوصت لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله وقَبِل وصيتها- ألبسها النبى صلى الله عليه و آله قميصه واضطجع معها فى قبرها، فقالوا: ما رأيناك يا رسول اللَّه صنعت هذا!

فقال: إنّه لم يكن أحد بعد أبى طالب أبرَّ بى منها، إنّما ألبستها قميصى لتكسى من حُلل الجنّة واضطجعت معها ليُهوَّن عليها.

۱- ۱ كنز العمّال ۱۳: ۶۳۶، ۳۷۶۰۷.

ص: ۱۹

وفى دعاءٍ خاص لها قال: اللّهم اغفر لُامّى فاطمة بنت أسد، ولقنها حجّتها، ووسّع عليها مدخلها. وخرج من قبرها وعيناه تذرفان.

لقد كانت رضوان اللَّه عليها لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله بمنزلة الامّ، بل كانت أُمّاً بكلّ ما تعنيه هذه الكلمة من معنى، وقد كانت بارّة برسول اللَّه صلى الله عليه و آله «لم يكن بعد أبى طالب أبرّ بى منها» (۱)

، فحنانها وشفقتها ورعايتها له بلغت مبلغاً عظيماً حتّى فاقت رعايتها لأبنائها وكأنّها تعلم أنّ له مكانة عظيمة وشأنا جميلًا، تقول بعض الروايات كان أولادها يصبحون شعثاً رمصاً ويصبح رسول اللَّه صلى الله عليه و آله كحيلًا دهيناً.

هذا فى مداراتها لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله وحبّها له.

أمّا فى إيمانها فقد كانت بدرجة عظيمة، ومن السابقات إلى الإسلام والمهاجرات الاول إلى المدينة وهى بدرية (۲).

فذاک أبوه وجدّه وهذه امّه، فهو وليد هذه الاسرة الهاشمية المبارکة.

ثمّ بعد هذا كان علىّ عليه السلام قد اختصّ بقرابة من رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فهو إضافة إلى كونه ابن عمّه وقد ربّاه فى حجره تربية الوالد لولده و... كان زوجاً لابنته الزهراء التى كانت بضعة منه صلى الله عليه و آله، وأباً لريحانتيه المباركتين الحسن والحسين عليهما السلام وكان أخاه يوم المؤاخاة، وكان خليفته ووصيه ووزيره وعيبة علمه...

بين يدى النبوّة

لقد كنت سيّدى شجرة طيّبة توسّطت روضة فيحاء وباحة خضراء ودوحة معطاء، فكان أصلها ثابتاً وفرعها فى السماء تؤتى اكلها كلّ حين بإذن ربّها.

ففى ربى النبوّة أبصرت النور بعد أن انبرى رسول الرحمة لرعايتک وتربيتک، ومن نسيمها العذب وأريجها الفوّاح تنشقت الحياة، ومن نمير ساقيتها الصافى الذى كانت النبوّة نبعه الدافق ارتشفت أوّل قطرة ماء، وعلى أديمها الأخضر كانت أوّل خطواتک. كان حضن النبوّة يرعاک فكنت فى جنّة عالية، قطوفها دانية.

شممت رائحة النبوّة فى مراحل حياتک الأولى، ورأيت نور الوحى والرسالة

۱- ۱ الاستيعاب ۴: ۴۴۶، ۳۴۸۶، سير أعلام النبلاء ۲: ۱۱۸.

۲- ۲ انظر مقالتنا جعفر الطيّار فى العدد ۸ مجلّة ميقات الحجّ مع بعض التغيير.

ص: ۲۰

بعد أن وضعك رسول اللّه صلى الله عليه و آله في حجره وضمّك إلى صدره وكنفك في فراشه ومسّك جسده الطاهر وأشمّك عَرْفه.. فجنيت بروض النبوّة ورداً وذقت بكأسها شهداً.

وكيف لا تجنى ذلك كلّه وقد اختارتك السماء برعماً تحتضنك شجرة النبوّة والرسالة، ثمّ لتكون بعد ذلك بقية النبوّة والامتداد الطبيعي للرسالة..؟!

روت فاطمة بنت أسد «امّ عليّ»: بينا أنا أسوق هدياً إذ استقبلني رسولاللّه صلى الله عليه و آله، وهو يومئذ غلام شاب قبل البعثة فقال لي: يا أمّاه إنّي أُعلمك شيئاً فهل تكتمينه عليَّ؟

قلت: نعم.

قال: اذهبي بهذا القربان فقولي: كفرت بهبل (كبير آلهة المشركين وهو أوّل صنم نصب بمكة) وآمنت باللّه وحده لا شريك له.

فقلتُ: أعمل ذلك لِما أعلمه من صدقك يا محمّد، ففعلت ذلك.

فلمّا كان بعد أربعة أشهر، ومحمّد يأكل معي ومع عمّه أبي طالب، إذ نظر إليَّ وقال: يا امّ ما لَك! مالي أراك حائلة اللون؟!

ثمّ قال لأبي طالب: إن كانت حاملًا انثى فزوجنيها.

فقال أبو طالب: إن كان ذكراً فهو لك عبد، وإن كان انثى فهو لك جارية وزوجة.

فلمّا وضعتُه- في الكعبة- جعلته في غشاوة، فقال أبو طالب: لا تفتحوها حتّى يجيء محمّد فيأخذ حقّه.

فجاء محمّد ففتح الغشاوة فأخرج منها غلاماً حسناً فشاله بيده، وسمّاه عليّاً، وأصلح أمره، ثمّ إنّه لقمه لسانه فما زال يمصّه حتّى نام.

وقد سمّته أوّل الأمر حيدرة بمعنى أسد على اسم أبيها، فغلب عليه اسم عليّ الذي سمّاه به محمّد صلى الله عليه و آله.

***

ص: ۲۱

ثمّ راح علیّ علیه السلام الذی ما إن فتح عینیه فی بیت أبی طالب حتی وجد محمّداً صلی الله علیه و آله یضمّه إلی صدره ویبثّه کلماته ویعلمه خطواته...

ولمّا تزوّج خدیجة رضوان اللَّه علیها انتقل إلی بیته الجدید، ففارق بیت عمّه أبی طالب ولکنّه لم یترک برّه لعمّه ورعایته لابن عمّه علیّ علیه السلام، ومنذ ذلک الیوم راح یتعهده رسول اللَّه صلی الله علیه و آله ویرعاه رعایة خاصّة ومنذ نعومة أظفاره..

وبدأ علیّ علیه السلام یلتهم زاده الوحید مبادئ السماء وقیمها حتّی شحن بها فکره الثاقب، وغدت نفسه الطاهرة ترتشف الایمان وتستنشق عقیدته وعبیرها؛ لتسمو نفسه ولتصبح مصباحاً یستضیء به من حوله.

اخترتُ من اختاره اللَّه

ولمّا مرّ أبو طالب فی سنة أصابته بل أصابت قریشاً وقحط حلّ بهم وهو ذو عیال کثیرة، ویبدو أنّ الابتلاء هذا کان عامّاً لقریش بسبب ما عانته من الجفاف.

تقول الروایة: إنّ قریشاً أصابتها أزمة وقحط، فقال رسول اللَّه صلی الله علیه و آله لعمّیه حمزة والعبّاس: ألا نحمل ثقل أبی طالب فی هذا المحل؟

فجاءوا إلیه وسألوه أن یدفع إلیهم ولِدَه لیکفوه أمرهم، فقال: دَعُوا لی عقیلًا وخذوا من شئتم- وکان شدید الحبّ لعقیل- فأخذ العبّاس طالباً، وأخذ حمزة جعفراً، وأخذ محمّد صلی الله علیه و آله علیّاً، وقال لهم: «قد اخترتُ من اختاره اللَّه لی علیکم، علیّاً».

فکان علی علیه السلام فی حجر رسول اللَّه صلی الله علیه و آله منذ کان عمره ستّ سنین (۱).

والذی أمیل إلیه أنّ علیّاً علیه السلام لم یکن ذلک القحط وهذا الجفاف هما السبب فی ملازمته لرسول اللَّه صلی الله علیه و آله، بل إنّ الأمر سبق هذا کلّه وسبق هذا العمر الذی یحددونه لبدایة هذه الملازمة (۶ سنوات) نعم الانتقال من بیت أبی طالب إلی بیت رسول‌اللَّه قد یکون تمّ وعلیّ‌له ۶ سنوات، إلّاأنّ تلک الرعایة من رسول اللَّه صلی الله علیه و آله لعلیّ وذلک الاهتمام کان منذ الیوم الأوّل لولادته علیه السلام فرسول اللَّه صلی الله علیه و آله حینما عاد من

۱- ۱ انظر شرح نهج البلاغة ۱: ۱۵، وانظر المستدرک علی الصحیحین ۳: ۶۶۶، ۶۴۶۳، وسیرة ابن هشام ۱: ۲۶۲، والطبری ۲: ۳۱۳.

ص: ۲۲

غـار حراء وقـد بشّـر بولادة علی راحت یـده المبارکـة تتوسّـده وتضـفی علیه برکات انعکست ثمارها علی حیاته علیه السـلام فی کلّ المیادین...

تقـول الروایـة عـن یزیـد بن قعنب: ولـدت (فاطمـة بنت أسـد) علیّـاً... فی بیت‌اللَّه الحرام، إکرامـاً من اللَّه عزّ اسـمه وإجلالًا لمحلّه فی التعظیم...، فأحبّه رسول‌اللَّه صلی الله علیه و آله حبّاً شدیداً وقال لها: «اجعلی مهده بقرب فراشی»، وکان یتولی أکثر تربیته، وکان یطهّر علیّاً فی وقت غسله، ویوجره اللبن عند شربه، ویحرِّک مهده عند نومه، ویناغیه فی یقظته، ویحمله علی صدره (۱).

وهنا نعیش لحظات جمیلة مع علیّ علیه السـلام نفسه، وهو یصوِّر لنا منزلته من رسول اللَّه صلی الله علیه و آله ویصف رعایته له وتعلّقه به وملازمته له حتّی یمکن وصـفها بأنّهـا ملازمـة الظـلّ لصاحبه لا یفارقه إلّافی أوقاته المخصوصـة، فتواشـجت روحه مع أجواء ذلک البیت الطاهر وهی أجواء الرسالـة والنبوّة والوحی، انظره فی خطبـة القاصـعة حیث یصف تلک الملازمة والمواشـجة بشـکل دقیق طفلًا وصبیّاً وفتًی..

«ولقدعلمتم موضـعی من رسول‌اللَّه صـلی الله علیه و آله بالقرابة القریبة و المنزلة الخصـیصة، وضعنی فی حجره وأنا ولید، یضمّنی إلی صدره، ویکنفنی فی فراشه، ویمسّـنی جسده ویُشمنی عَرْفه، وکان یمضغ الشیء، ثمّ یلقمنیه، وما وجد لی کذبة فی قول، ولا خطلة فی فعل، ولقد قرن اللَّه به صـلی الله علیه و آله من لدن أن کان فطیماً أعظم ملک من ملائکته، یسـلک به طریق المکارم ومحاسن أخلاق العالم، لیله ونهاره، ولقد کنت أتبعه اتباع الفصیل إثر امّه، یرفع لی فی کلّ یوم من أخلاقه علماً، ویأمرنی بالاقتداء به. ولقد کان یجاور فی کلّ سنة بحراء، فأراه ولا یراه غیری».

ولدتُ علی الفطرة

من اللافت الـذی أدهش من تتبع حیاته أنّ ولادته علیه السـلام- التی کانت فی الکعبـة یوم الجمعـة لثلاث عشـرة لیلة خلت من رجب علی قول الأکثر- کانت فی الیوم الأوّل لدخول رسول اللَّه صلی الله علیه و آله غار حراء للتعبّد والمناجاة، وللتدبّر والتفکیر فی

۱- ۱ انظر: ارشاد القلوب: ۲۱۱، کشف الیقین: ۳۲.

ص: ۲۳

ملكوت السماوات والأرض وما بينهما وما فيهما.. وكان هذا بعد عام الفيل بثلاثين سنة، حقّاً أنّه أمر يثير العجب، أن السماء راحت تعدّ أمرين فی آنٍ واحـد ووظيفتين فی وقت واحـد؛ ففی غار حراء علی بعـد من الحرم المكّی أعـدّت رسولًا نبيّاً، وفی داخل الحرم المكی راحت تعـدّ إماماً ووزيراً وخليلًا وفيّاً؛ ليكمـل الشوط ويملأ الفراغ «أنت منّی بمنزلـة هارون من موسـی إلّاأنّه لا نبی بعـدی أو لا نبوّة بعدی» «أنت أخی ووصيی وخليفتی...».

يقول ابن أبی الحديـد المعتزلی فی شـرحه القيم لنهـج البلاغة فی قوله عليه السـلام: «فإنّی ولدتُ علی الفطرة» وفی جوابه عن قول من يقول: كيف علّل نهيه عن البراءة منه عليه السـلام، بقوله: «فإنّی ولدتُ علی الفطرة)؛ فإنّ هذا التعليل لا يختص به عليه السلام؛ لأنّ كلّ أحد (واحد) يولد علی الفطرة، قال النبی صلی الله عليه و آله: «كلّ مولود يولد علی الفطرة؛ وإنّما أبواه يهودانه وينصّرانه»؟

فكان أحـد أجوبته الثلاثـة: بأنّه عليه السـلام علل نهيه لهم عن البراءة منه بمجموع امور وعلل وهی كونه ولد علی الفطرة، وكونه سـبق إلی الإيمان والهجرة، ولم يعلّل بآحاد هـذا المجموع، ومراده هاهنا بالولادة علی الفطرة أنه لم يولـد فی الجاهلية؛ لأنّه ولد عليه السـلام لثلاثين عاماً مضت من عام الفيل، والنبی صـلی الله عليه و آله أرسل لأربعين سـنة مضت من عام الفيل؛ وقد جاء فی الأخبار الصـحيحة أنه صـلی الله عليه و آله مكث قبل الرسالة سـنين عشراً يسمع الصوت ويری الضوء، ولا يخاطبه أحد، وكان ذلك إرهاصاً لرسالته عليه السـلام فحُكم تلك السنين العشر حكم أيّام رسالته صلی الله عليه و آله فالمولود فيها إذا كان فی حجره وهو المتولی لتربيته مولود فی أيّام كأيّام النبوّة، وليس بمولود فی جاهلية محضة، ففارقت حاله حال من يدّعی له من الصحابة مماثلته فی الفضل.

وقد روی أنّ السـنة التی ولد فيها علیٌّ عليه السـلام هی السـنة التی بدئ فيها برسالة رسول اللَّه صـلی الله عليه و آله، فاسمع الهتاف من الأحجار والأشجار، وكشف عن بصره، فشاهد أنواراً وأشخاصاً ولم يخاطب فيها بشیء. وهذه السنة هی السنة التی ابتدأ فيها

ص: ۲۴

بالتبتّل والانقطاع والعزلهٔ فی جبل حراء، فلم یزل حتّی کوشف بالرسالهٔ وأنزل علیه الوحی. وکان رسول اللّه صلی الله علیه و آله یتیمّن بتلک السنهٔ، وبولادهٔ علی علیه السلام فیها، ویسمّیها سنهٔ الخیر وسنهٔ البرکهٔ، وقال لأهله لیلهٔ ولادته، وفیها شاهد ما شاهد من الکرامات والقدرهٔ الإلهیهٔ ولم یکن من قبلها شاهد من ذلک شیئاً: «لقد ولد لنا اللیلهٔ مولود یفتح اللّه علینا به أبواباً کثیرهٔ من النعمهٔ والرحمهٔ».

وهنا یقول ابن أبی الحدید: وکان کما قال صلی الله علیه و آله فإنّه علیه السلام کان ناصره والمحامی عنه، وکاشف الغماء عن وجهه، وبسیفه ثبت دین الإسلام وأرست قواعده.

کما یذکر تفسیراً آخر: بأنّه علیه السلام أراد بالفطرهٔ العصمهٔ، وأنه منذ أن ولد لم یواقع قبیحاً ولا کان کافراً طرفهٔ عین قط ولا مخطئاً ولا غالطاً فی شیء من الأشیاء المتعلّقهٔ بالدین وهذا تفسیر الإمامیهٔ (۱).

فقد روی عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله أنه قال: «إن سُبّاق الامم ثلاثهٔ لم یکفروا طرفهٔ عین: علی بن أبی طالب وصاحب یاسین ومؤمن آل فرعون فهم الصدّیقون وعلیّ أفضلهم» (۲).

وعن رسول اللّه صلی الله علیه و آله أنّه قال: «ثلاثهٔ لم یکفروا باللّه قط: مؤمن آل یاسین وعلی بن أبی طالب وآسیهٔ امرأهٔ فرعون» (۳).

لم یسجد لصنم قطّ

بعد نعمهٔ تربیهٔ رسول اللّه صلی الله علیه و آله له وصناعته کما تریدها السماء، راحت نعمُ اللّه تتری علی هذا العبد الصالح، وتواکبه فلم تنجّسه الجاهلیهٔ بأنجاسها، لم یعبد صنماً قطّ بل لم تمل نفسه إلیها أبداً، وهذا أمر لیس سهلًا خاصهً وهو یعیش فی مجتمع حالک متسربل برداء الشرک یعیش رکاماً من الجهل والعبودیهٔ والطغیان، فی بیئهٔ أنّی اتجهت وجدت صنماً یُعبد وتمثالًا یرکع له ویسجد، ومن حوله کبار قریش وزعماؤها وقد ملئت بیوتهم بهذه التماثیل وکانوا لها عاکفین.

فی مجتمع فاسد کهذا تمّت صیاغهٔ علی علیه السلام لأنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله أحسن غذاءه

۱- ۱ شرح نهج البلاغهٔ ۴: ۱۱۴- ۱۱۵.

۲- ۲ المناقب لابن شهرآشوب ۲: ۶۱.

۳- ۳ تاریخ دمشق ۴۲: ۳۱۳، ۸۸۶۴.

ص: ۲۵

وتنشئته وإعداده، وراحت يداه المباركتان ترعاه أحسن رعاية وتحفظه من كلّ تحديات مجتمعه وانحرافاته، فولد وعاش طفولته وصباه وقد كرّم اللَّه وجهه من أن يسجد للّات أو يركع للعزّى أو يشطط به قدم هنا وهناك، ومثل هذا ما نراه فى كلام العقّاد الآتى فيما بعد.

وكيف يسجد لصنم أو ينحرف به السير.. ولحمه لحم رسول اللَّه ودمه دمه وهو وعلى من نور واحد ومن شجرة واحدة وفى صلبه ذرية رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وهو من رسول اللَّه ورسول اللَّه منه (۱)؟!

ثمّ كيف يسجد لصنم وهو يكرهها صغيراً بل وهو جنين- فبغضه لها من بغض رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لها- وهو الذى راح يقلعها كبيراً ويطهِّر الأرض منها والقلوب؟!

يقول عليه السلام: انطلق رسول اللَّه صلى الله عليه و آله إلى الكعبة فقال لى: اجلس.

فجلست، فصعد على منكبى.

فقال لى: انهض.

فنهضت فعرف ضعفى تحته.

قال لى: اجلس.

فجلست، ثمّ نهض بى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فخيّل إلى أننى لو شئت نلت أُفق السماء، فصعدت إلى الكعبة.

وتنحّى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وقال: ألق صنمهم الأكبر، صنم قريش. وكان من نحاس مُوتّدٍ بأوتاد من حديد فى الأرض.

فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: عالجه.

فجعلت أُعالجه، حتى استمكنت منه. فقال: اقذفه، فقذفته حتّى انكسر.

ونزلت من فوق الكعبة، وانطلقت أنا والنبى صلى الله عليه و آله نسعى وخشينا أن يرانا أحد من قريش وغيرهم.

وهناك مصادر تقول: إنّ هذه القصّة مع بعض التغيير وقعت بعد فتح مكّة.

۱- ۱ مضامين لأحاديث رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وأقواله فى علىّ عليه السلام. انظر الخصال ۳۱: ۱۰۸ وآمال الصدوق: ۳۰۷، ۳۵۱، وشرح الأخبار ۱: ۲۲۰، ۲۰۰، والفضائل: ۸۲ و ۱۰۸.

ص: ۲۶

إسلامه

وقـد تعـدّدت واختلفت أقوال المؤرِّخين فی عمره الشـریف حین إسـلامه وتصـدیقه بالنبوّة، بین من یقول کان له ثمان سـنین وبین من یقول له تسع وآخر یقول له عشـر، ورابع یقول له إحدی عشـرة سنة وخامس یقول له اثنتا عشرة سنة وسادس یقول له ثلاث عشرة سنة وهنـاک من یقول: له خمس عشـرة سـنة أو ست عشـرة سـنة، وکلّ هـذا إنّما یـدلّ علی تحدیـد عمره المبارک وقت أن أعلن الرسول رسالته للخاصّة من مریدیه وموقفه الرسمی إن صحّ التعبیر منها، وإلّا فإنّ روحه لم تتلوّث بالشرک فهو الذی لم یکفر باللّه قط. وهذا ما نجده فی الروایات أعلاه وفی قول الإمام زین العابدین جواباً عن سؤال من سأله عن عمر الإمام علیّ علیه السلام عند إیمانه، فقال علیه السلام: أو کان کافراً؟! إنما کان لعلی حین بعث اللّه عزّوجلّ رسوله صلی الله علیه و آله عشر سنین ولم یکن کافراً (۱).

والذی یؤیّد أن عمره کان عشر سنوات أنّ عمر الدعوة الإسلامیة فی مکّة ثلاث عشرة سنة وهاجر إلی المدینة وله ثلاث وعشرون سنة وأنه استشهد سنة ۴۰ ه وهو ابن ثلاث وستّین سنة.

ویمیل ابن أبی‌الحدید إلی أنّ عمره الشریف کان ثلاث عشرة سنة، متقیداً من قوله علیه السلام: «لقد عبدتُ اللّه قبل أن یعبده أحد من هذه الأمّة سبع سنین»، وقوله علیه السلام:

«کنت أسمع الصوت وأبصر الضوء سنین سبعاً، ورسول اللّه صلی الله علیه و آله حینئذ صامت ما أُذِنَ له فی الإنذار والتبلیغ».

وذلک- والقول ما زال لابن أبی‌الحدید- لأنّه إذا کان عمره یوم إظهار الدعوة ثلاث عشرة سنة، وتسلیمه إلی رسول اللّه صلی الله علیه و آله من أبیه وهو ابن ستّ، فقد صحّ أنّه کان یعبد اللّه قبل الناس بأجمعهم سـبع سـنین، وابن ستّ تصحّ منه العبادة، إذا کان ذا تمییز، علی أنّ عبـادة مثله هی التعظیم والإجلال وخشوع القلب... (۲) وقد جاء فی ترجمة الإمام علی علیه السـلام فی الاستیعاب أنّ: المروی عن سلمان وأبی

۱- ۱ الکافی ۸.

۲- ۲ شرح نهج البلاغة لابن أبی‌الحدید ۱: ۱۴.

ص: ۲۷

ذر والمقداد وخبّاب وأبی سعید الخدری وزید بن أسلمه أنّ علیاً علیه السلام أوّل من أسلم وفضّله هؤلاء علی غیره.

وقال ابن إسحاق: أوّل من آمن باللّه وبمحمّد رسول اللّه صلی الله علیه و آله علی بن أبی طالب علیه السلام وهو قول ابن شهرآشوب إلّاأنّه قال: من الرجال بعد خدیجة.

وعن ابن عبّاس قال: سمعت عمر بن الخطّاب وعنده جماعة فتذاكروا السابقین إلی الإسلام فقال عمر: أمّا علیّ، فسمعت رسول اللّه صلی الله علیه و آله یقول فیه ثلاث خصال لوددت أنّ لی واحدة منهنّ، فکان أحبّ إلیَّ ممّا طلعت علیه الشمس، کنت أنا وأبو عبیدة وأبو بکر وجماعة من الصحابة إذ ضرب النبی صلی الله علیه و آله بیده علی منکب علیّ فقال له: یا علیّ أنت أوّل المؤمنین إیماناً وأوّل المسلمین إسلاماً وأنت منّی بمنزلة هارون من موسی (۱).

یقول جورج جرداق عن إسلام أمیر المؤمنین علیّ علیه السلام:

وإذا أسلم بعض الوجوه من قریش منذ أوّل الدعوة احتکاماً للعقل وتخلّصاً من الوثنیة، وإذا أسلم کثیر من العبید والأرقّاء والمضطهدین طلباً للعدالة التی تتدفّق بها رسالة محمّد واستنکاراً للجور الذی یلهب ظهورهم بسیاطه، وإذا أسلم قوم بعد انتصار النبی امتثالًا للواقع وتزلّفاً للمنتصر کما هی الحال بالنسبة لأکثر الأمویین. إذا أسلم هؤلاء جمیعاً فی ظروف تتفاوت من حیث قیمتها ومعانیها الإنسانیة وتتّحد فی خضوعها للمنطق أو للواقع الراهن فإنّ علی بن أبی طالب قد ولد مسلماً؛ لأنّه من معدن الرسالة مولداً ونشأةً وفی ذاته خلقاً وفطرةً، ثمّ إنّ الظرف الذی أعلن فیه عمّا یکمن فی کیانه من روح الإسلام ومن حقیقته لم یکن شیئاً من ظروف الآخرین ولم یرتبط بموجبات العمر؛ لأنّ إسلام علیّ کان أعمق من ضرورة الارتباط بالظروف، إذ کان جاریاً فی روحه کما تجری الأشیاء من معادنها والمیاه من ینابیعها، فإنّ الصبی ما کاد یستطیع التعبیر عن خلجات نفسه حتی أدّی فرض الصلاة وشهد باللّه ورسوله دون أن یستأذن أو یستشیر.

۱- ۱ تاریخ دمشق ۴۲: ۱۶۷، ۸۵۸۱.

ص: ۲۸

لقد کان أوّل سجود المسلمین الأوّل لآلهة قریش، وکان أوّل سجود علیّ لإله محمّد! إلّاأنّه إسلام الرجل الذی اتیح له أن ینشأ علی حبّ الخیر وینمو فی رعایة النبی ویصبح إمام العادلین من بعده وربّان السفینة فی غمرة العواصف والأمواج (۱).

کما أنّ العقاد یقول عن إسلام علی:

ولد علیٌّ فی داخل الکعبة، وکرّم اللَّه وجهه عن السجود لأصنامها، فکأنّما کان میلاده إیذاناً بعهد جدید للکعبة وللعبادة فیها. وکاد علیٌّ أن یولد مسلماً.. بل لقد ولد مسلماً علی التحقیق إذا نحن نظرنا إلی میلاد العقیدة والروح؛ لأنّه فتح عینیه علی الإسلام ولم یعرف قط عبادة الأصنام... (۲).

الذبیح الثالث

إنّ من قدّر له أن یتصفّح حیاته علیه السلام لا یجد فیها شیئاً من الخوف أو التردّد من الموت، إنّ قاموس حیاته المبارکة خالٍ من ذلک کلّه. إنّ علیّاً علیه السلام قهر الموت وقضی علیه فمن أی شیء یا تری یخاف؟!

ولهذا تراه یستسلم ویطیع رسول اللَّه صلی الله علیه و آله حینما یُلقی به فی لهوات الحرب ویرمی به فی أحلک الأمور وأعسرها.

حان الوقت، وجاء الیوم الموعود وتشابکت خیوط المؤامرة وتسابق القوم من هنا وهناک، واجتمع زعماء القبائل فی دار الندوة فی مکة، وکان فیهم أبو جهل وعروة بن هشام وأبو البختری، وقرّروا أن یضعوا لهذا الأمر نهایة وأن یطووا صفحته إلی الأبد. فجمعوا شجعانهم لیضربوا محمّداً ضربة رجل واحد فیتوزّع دمه هنا وهناک علی جمیع القبائل فیضیع وتضیع المطالبة به، وحدّدوا لمکرهم هذا وقتاً وموعداً.

هاجر رسول اللَّه صلی الله علیه و آله خفیةً وأمر علیّاً بالمبیت تلک اللیلة فی فراشه، لیعتّم علیهم هجرته، إنّه فراش الموت، فما کان من علیّ إلّاالتسلیم والانقیاد وهو یعلم

۱- ۱ الإمام علی، صوت العدالة الإنسانیة: ۳۸.

۲- ۲ المجموعة الکاملة ۲: ۳۵.

ص: ۲۹

جیّداً أنّ القوم قد تآمروا علی ابن عمّه رسول اللَّه صلی الله علیه و آله وأنّهم قاتِلوه فی فراشه، وأنّهم مباغتوه لا محالهٔ، ولا ینجو منهم إلّاوهو أشلاء ممزّقهٔ وأعضاء مقطّعهٔ، مؤامرهٔ نافذهٔ واقعهٔ لا شکّ فیها ولا ریب.

اختاره الرسول صلی الله علیه و آله لهذه المهمّهٔ وهو شاب یافع فی مقتبل العمر! إنّه ثالث قربان یقدَّم بعد إسماعیل وعبداللَّه والد النبی صلی الله علیه و آله وشتّان بین الذبیحین علیّ وإسماعیل، وعلیّ وعبداللَّه، فکلّ منهما بید أب شفیق رحیم یرقّ قلبه وترتجف یده، وهو بسیف عدوٍّ نزعت الرحمهٔ من قلبه، وبخنجر یمسک بقوّهٔ حاقد بغیض، وبیدٍ صلبهٔ لا ینتابها الخوف ولا تربکها الرحمهٔ..

إنّه امتحان عصیب لهم جمیعاً، ولکن أی الثلاثهٔ أشدّ محنهً وأقسی؟! وأیّ امتحان هذا لإیمانه وانقیاده واستسلامه؟!

لقد تیقّن فتی بنی هاشم أنّه ما إن یغمض عینیه حتّی تنهال علیه مدیّهم التی امتشطوها وسیوفهم التی حملوها وتبضعه خناجرهم... فلا تردّد ولا خوف بل لسان حاله یقول: نعم ستجدنی إن شاء اللَّه من الصابرین..

فأنجاهما اللَّه برحمته من کید المشرکین ومکرهم، وأنزل فی ذلک: وَإِذْ یَمْکُرُ بِکَ الَّذِینَ کَفَرُوا لِیُثْبِتُوکَ أَوْ یَقْتُلُوکَ أَوْ یُخْرِجُوکَ وَیَمْکُرُونَ وَیَمْکُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَیْرُ الْمَاکِرِینَ (۱).

زواجه المبارک

کان عمره علیه السلام حینما هاجر إلی المدینهٔ بعد هجرهٔ رسولاللَّه صلی الله علیه و آله ثلاثاً وعشرین سنهٔ، وهناک کانت بضعهٔ رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فاطمهٔ الزهراء علیها السلام التی طالما تمنی التشرف بها کبار الصحابهٔ؛ ومن أهل السابقهٔ فی الإسلام والفضل والشرف والمال؛ لأنّها بنت رسول اللَّه صلی الله علیه و آله ولکثرهٔ ما کانوا یسمعون منه صلی الله علیه و آله فی ثنائه علیها واحترامها وتقدیرها، ولموقعها العظیم منه صلی الله علیه و آله. راحت نفوسهم تطمح للاقتران بها، وکانوا کلّما تقدّم واحد منهم لم یجد عنده صلی الله علیه و آله إلّاأن یعرض بوجهه الکریم حتّی یخرج منه

۱- ۱ الأنفال: ۳۰.

ص: ۳۰

القادم وهو یظنّ أنّه صلی الله علیه و آله ساخط علیه وغیر راضٍ عنه، وإلّا الرفض، وأنّه ینتظر فی زواجها أمر اللَّه وقضاءه (۱).

تقدّم علیٌّ علیه السلام بخطوات یکتنفها الحیاء، وراحت نظراته تتوزع هنا وهناک، نظرة إلی وجه رسول اللَّه صلی الله علیه و آله وأخری یرسلها بعیداً، وثالثة إلی ما بین یدیه، ماذا یقول ویده خالیة.

حانت نظرة من رسول اللَّه صلی الله علیه و آله إلیه فعرف ما یرید: إنّ علیاً جاء لحاجة، وحاجة علیّ یمنعه حیاؤه من التحدّث بها، فبادره رسول اللَّه صلی الله علیه و آله مشجّعاً حتّی ینطق، وما إن نطق حتّی کان ذلک البیت من أبهی وأزهی وأزکی وأعظم بیوت الدنیا بل وأغناها إیماناً وطهارةً وأثراها أخلاقاً وعلماً... إنّه بیت علیّ وفاطمة ثمّ ریحانتی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله الحسن والحسین علیهما السلام والذرّیة الصالحة!

وفی السنن الکبری یقول علیّ علیه السلام: «لقد خطبت فاطمة بنت النبیّ صلی الله علیه و آله فقالت لی مولاة: هل علمت أنّ فاطمة تخطب؟

قلت: لا- أو نعم-

قالت: فاخطبها إلیک.

قال: قلت: وهل عندی شیء أخطبها علیه؟! قال: فواللَّه ما زالت ترجینی حتّی دخلت علیه،- وکنّا نجلّه ونعظّمه- فلمّا جلستُ بین یدیه ألجمت حتّی ما استطعت الکلام.

قال: هل لک من حاجة؟ فسکتُ فقالها ثلاث مرّات.

قال: لعلّک جئت تخطب فاطمة!

قلت: نعم یا رسول اللَّه.

قال: هل عندک من شیء تستحلّها به؟

قال: قلت: لا واللَّه یا رسول اللَّه.

قال: فما فعلت بالدرع التی کنتُ سلّحتکها؟

۱- ۱ انظر ذخائر العقبی: ۷۰، تاریخ الیعقوبی ۲: ۴۱، المعجم الکبیر ۱۰: ۱۵۶، ۱۰۳۵۰، تاریخ دمشق ۴۲: ۱۲۵، ۸۴۹۴.

ص: ۳۱

قال علیّ: واللَّه إنّها درع حُطمیة ما ثمنها إلّاأربعمائة درهم.

قال: اذهب فقد زوّجتکها، وابعث بها إلیها فاستحلّها به» (۱).

وقال رسول اللَّه صلی الله علیه و آله: «إنّ اللَّه أمرنی أن أزوّج فاطمة من علیّ» (۲).

وقال صلی الله علیه و آله أیضاً: «واللَّه ما ألوت (أی ما قصّرت فی أمرک وأمری) أن أزوجک خیر أهلی» (۳).

وعن عائشة وأمّسلمة: أمرنا رسول اللَّه صلی اللَّه علیه و آله أن نجهّز فاطمة حتّی ندخلها علی علیّ، فعمدنا إلی البیت ففرشناه تراباً لیّناً من أعراض البطحاء، ثمّ حشونا مرفقتین لیفاً فنفشناه بأیدینا ثمّ أطعمنا تمراً وزبیباً وسقینا ماءً عذباً، وعمدنا إلی عود فعرضناه فی جانب البیت لیلقی علیه الثوب، ویعلّق علیه السقاء، فمارأینا عرساً أحسن من عرس فاطمة (۴).

العبادة عند علیّ علیه السلام

وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِیَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِینَ لَهُ الدِّینَ (۵)

العبادة کانت عنده علیه السلام وقفة مع السماء یتأمّل فیها، ویتدبّر حیاته وسیرته، ویربّی فیها نفسه ویبعدها عن کلّ مزالق الشیطان، ویقوّی فیها إیمانه، ویکسب فیها مزیداً من التقوی.

العبادة عنده علیه السلام عبادة الأحرار لا عبادة التجّار أو العبید «وجدته أهلًا للعبادة فعبدته» إذن لا طمع فی جنّة وثواب ولا خوف من نار وعذاب.

العبادة عنده علیه السلام نموّ مستمر وسمو متواصل واستلهام واعٍ لکلّ معانی العزّ والفخر والخیر والعطاء. «إلهی کفی بی عزّاً أن أکون لک عبداً، وکفی بی فخراً أن تکون لی ربّاً، أنت کما أحبّ فاجعلنی کما تحبّ».

العبادة عند علیّ علیه السلام خشوع وتواضع لخالق السماوات والأرض.

العبادة عند أمیر المؤمنین علیه السلام شکر لنعمه تعالی المتواصلة علی العباد.

العبادة عنده علیه السلام اعتراف بخالق الکون ورضا بقضائه وتسلیمٌ لقدره.

۱- ۱ السنن الکبری ۷: ۳۸۳، ۱۴۳۵۱، البدایة والنهایة ۳: ۳۴۶، الطبقات الکبری ۸: ۲۰...

۲- ۲ المعجم الکبیر ۱۰: ۱۵۶، ۱۰۳۰۵.

۳- ۳ الطبقات الکبری ۸: ۲۴، کنزالعمال ۱۱: ۶۰۵، ۳۲۹۲۶.

۴- ۴ انظر سنن ابن ماجة ۱: ۶۱۶، ۱۹۱۱.

۵- ۵ البیّنة: ۵.

ص: ۳۲

العبادة عنده علیه السلام تحمّل لأمانة السماء، ومسؤولیة کبری أمام اللَّه سبحانه وتعالی من جهة وإزاء المجتمع من جهة اخری.

إذن فهی لیست عبارات جوفاء ومفردات لا معنی لها و حرکات منتظمة وحسب.

هکذا یؤدّی علیّ علیه السلام عبادته بخشوع عظیم وبصوت حزین ونغمة شجیّ.

فیما رواه عروة بن الزبیر: کنّا جلوساً فی مسجد رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فتذاکرنا أهل بدر وبیعة الرضوان، فقال أبو الدرداء: یا قوم ألا أُخبرکم بأقلّ القوم مالًا وأکثرهم ورعاً وأشدّهم اجتهاداً فی العبادة؟

قالوا: مَنْ هو؟

قال: علی بن أبی طالب.

قال: فواللَّه لقد رأیت کلّ من کان فی المجلس إلّاأعرض بوجهه عنّی. فقال: یا عَوَیمر لقد تکلّمت بکلمة ما وافقک علیها أحد مذ أتیت بها.

فقال أبو الدرداء: یا قوم إنّی قائل ما رأیته. ولیقلّ کلّ قوم ما رأی. شهدت علی بن أبی طالب علیه السلام بسویحات بنی النجار، وقد اعتزل عن موالیه واختفی ممّن یلیه، واستتر ببعیلات النخل فافتقدته وبَعُدَ علیّ مکانه، فقلت لحق بمنزله. فإذا بصوت حزین، ونغمة شجی وهو یقول:

«إلهی کم من موبقة حملتُها فقابلتَها بنعمتک. وکم من جریرة تکرّمت عن کشفها بکرمک. إلهی إن طال فی عصیانک عمری وعظم فی الصحف ذنبی، فما أنا بغیر غفرانک طامع، ولا أنا براجٍ غیر رضوانک».

فشغلنی الصوت واقتفیت الأثر. فإذا هو علیّ بن أبی طالب علیه السلام بعینه.

فاستترت له لأسمع کلامه، فرکع رکعات فی جوف اللیل، ثمّ فزع إلی الدعاء والتضرّع والبکاء والبثّ والشکوی. فکان ممّا ناجی به اللَّه أن قال:

«إلهی أُفکّر فی عفوک فتهون علیَّ خطیئتی، ثمّ أذکر العظیم من أخذک، فتعظم

ص: ۳۳

علیَّ بلیتی».

ثمّ قال:

«آه إن أنا قرأتُ فی الصحف سیئة أنا ناسیها، وأنت محصیها، فتقول خذوه فیا لَه من مأخوذ لا تنجیه عشیرته ولا تنفعه قبیلته. یرحمه الملأ إذا أذّن فیه النداء».

ثمّ قال:

«آه من نار تنضح الأکباد والکلی. آه من نار نزّاعة للشوی. آه من غمرة من ملهبات لظی». ثمّ انفجر فی البکاء، فلم أسمع له حسّاً ولا حرکة فقلت غلب علیه النوم لطول السهر، أوقظهُ لصلاة الفجر (قال أبو الدرداء) فأتیته فإذا هو کالخشبة الملقاة، فحرّکته فلم یتحرّک، وزویته فلم ینزو، قلت: إنّا للّهوإنّا إلیه راجعون.

مات واللّه علی بن أبی طالب. فأتیت منزله مبادراً أنعاه إلیهم.

فقالتفاطمة علیها السلام: «یا أبا الدرداء، ما کان من شأنه و من قصّته؟»، فأخبرتها الخبر.

فقالت: «هی واللّه یا أباالدرداء الغشیة التی تأخذه من خشیة اللّه»، ثمّ أتوه بماء فنضحوه علی وجهه، فأفاق ونظر إلیَّ وأنا أبکی.

فقال: ممَّ بکاؤک یا أباالدرداء؟

فقلت: ممّا أراه تنزله بنفسک.

فقال: یا أبا الدرداء، فکیف لو رأیتنی ودُعی بی إلی الحساب، وأیقن أهل الجرائم بالعذاب، واحتوشتنی ملائکة غلاظ، وزبانیة حفاظ، فوقفت بین یدی الملک الجبّار، قد أسلمنی الأحبّاء، ورحمنی أهل الدنیا، لکنتَ أشدّ رحمة لی بین یدی من لا تخفی علیه خافیة.

فقال أبوالدرداء: فواللّه ما رأیت ذلک لأحد من أصحاب رسول اللّه صلی الله علیه و آله (۱) ممّا قالوه

ما تقول فی علیٍّ علیه السلام؟

سؤال أجاب عنه الخلیل بن أحمد الفراهیدی.

۱- ۱ الأمالی للصدوق: ۱۳۶- ۱۳۷ وغیره.

ص: ۳۴

«فقال: هو إمام الكلّ.

قالوا: ما دليلك عليه؟

قال: استغناؤه عن الكلّ واحتياج الكلّ إليه، دليل على أنّه إمام الكلّ».

حقّاً سيّدى إنّك لم تكن نبيّاً ولكنّك كنت إماماً ووصيّاً، لم تكن رسولًا ولكنّك كنت أخاً ووزيراً، وكنت قدوةً، وكنت جوهرةً يتيمةً، خلقها اللّه وصاغها محمّد صلى الله عليه و آله وضيّعها الناس، كلمة ما أعظمها نطق بها جورج جرداق حينما سئل عن الإمام علىّ عليه السلام: «ما عسانى أن أقول فى جوهرة يتيمة، خلقها اللّه وصاغها محمّد صلى الله عليه و آله!»

إذن ما عسانا أن نقول فيك- وأنت إمام الكلّ- وفى فضائلك ومناقبك وفى إيمانك وتقواك وجهادك وشجاعتك، وفى علمك وأدبك وفى فصاحتك وبلاغتك، أنستطيع أن نصوغ معانيها البليغة والجميلة والعظيمة؟ وكيف نجرؤ أن نفرغ منقبة من مناقبك سيدى فى قوالب حروف وكلمات لا نراها إلّاميتة؟ اللّهم إلّاأن نقول وهو الحقّ: إنّها تبعث حيّة بذكر خصالك وفضائلك...

وحقّاً ما يقوله أبو إسحاق النظام: «علىّ بن أبى طالب محنة على المتكلّم، إن وفاه حقّه غلا وإن بخسه حقّه أساء!».

وحقّاً أيضاً ما يقوله المتنبى فى جواب من اعترض عليه فى عدم مدحك على كثرة أشعاره وقصائده..

وتركتُ مدحى للوصى تعمّداً إذ كان نوراً مستطيلًا شاملا

وإذا استطال الشىء قام بنفسه وصفات ضوء الشمس تذهب باطلا

حقّاً كلمة يتيمة ولدت فى غير زمنها ولكنّها مشيئة اللّه.

مسك كلما حاول أعداؤه إخفاءَه انتشر عَرفه، وكلّما بذلوا جهودهم لأن يكتموه تضوع نشره، فشمسك يا سيدى لا تخفيها أكفُّ الظالمين والحاسدين

ص: ۳۵

والمبغضین...

نعم کانوا لا یُطیقون ظهور فضائلک ولا الإصغاء إلیها فضلًا عن الارتواء من نمیرها.

لقد عثرتُ علی قول آخر للخلیل بن أحمد الفراهیدی:

«ما أقول فی حقّ امرئٍ کتمت مناقبه أولیاؤه خوفاً وأعداؤه حسداً، ثمّ ظهر ما بین الکتمین ما ملأ الخافقین. بل ظهر نزر یسیر فکان له کلّ هذا».

ممّا فعلوه

لقد کنت سیّدی فریداً نأت عنه هذه الأمّة بسوء حظّها، ووحیداً جفته لسوء طالعها.

کم دأب الأعداء علی محو آثارک ومعالمک، فلعلّ ذاکرة التاریخ تنساها، فخاب کیدهم، وأنصفک التاریخ، فهذه کتب التأریخ والحدیث والآثار تحکی لنا أنّ الذی زیّن صفحاتها کان ذِکرک، وأنّ الذی لوّن لوحاتها کانت مناقبک وفضائلک، فقد بهر ما ظهر منها العیون وحیّر العقول خاصة إذا تتبعنا ما أفرغه الأعداء من جهود وما بذلوه من أموالٍ لشراء الذمم وما سخّروه من وسائلهم الإعلامیة- بعد أن عقد حبّک وولاؤک علی قلوب محبّیک ومریدیک- علی مدی سبعین سنة أو تزید: منابر تشتمک، وألسن تتبرأ منک، وأخری تلعنک.. وفی قبالها نفوس تزهق، وألسن قطعت؛ لأنّها لا- تقول فیک شیئاً نکراً لطمس فضائلک ودفنها، فخابت جهودهم وبطلت أحلامهم.

لم یکتفوا بالحسد «فکلّ ذی نعمة محسود» ونعمتک ما أعظمها: فآیات نزلت بحقّک، وروایات تواترت بفضلک، وأقوال لرسول اللَّه صلی الله علیه و آله أخذت تشید بک، ومواقف رسالیة راحت تتباهی بک.. هذا فضلًا عن الصیاغة الربّانیة لک: قدرات عجیبة، وصفات فریدة، ومناقب جلیلة... فکیف لا یحسدوک وکلّ منهم خال الوفاض منها؟!

ص: ۳۶

يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ

إن يحسدوك على علاك فإنّما متسافل الدرجات يحسد من علا

بل مزجوا حسدهم بحقد دفين وثارات عقيمة، فی حصيلتها النهائية كانت بغضاً للّهولرسوله وعداءً للدين الذی حلّ بين ظهرانيهم، فلم يستطيعوا الكيد له، رغم كلّ جهودهم، فكادوك لأنّ سيفك كان على رؤوسهم لينطقوا بالحقّ، وما كانوا ليهتدوا فقالوها مرغمين، ولم يستطيعوا شتم الرسول صلى الله عليه و آله فشتموك..

فهذا عبداللّه بن عبّاس حبر الأمّة وترجمان القرآن، كان يقوده سعيد بن جبير- وقد كفّ بصره- فمرّ على زمزم فإذا بقوم من أهل الشام يسبّون عليّاً كرّم اللّه وجهه، فسمعهم عبداللّه بن عبّاس، فقال لسعيد: ردّنی إليهم، فردّه إليهم فقال:

أيّكم السابّ للّهعزّوجلّ؟

فقالوا: سبحان اللّه ما فينا من سبّ اللّه عزّوجلّ!

فقال: أيّكم السابّ لرسول اللّه صلى الله عليه و آله؟

فقالوا: ما فينا من سبَّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله!

فقال: أيكم السابّ لعلیّ بن أبی طالب؟

فقالوا: أما هذا فكان منه شیء.

فقال: شهدت على رسول اللّه صلى الله عليه و آله بما سمعته يقول لعلیّ بن أبی طالب: «يا علیّ مَنْ سبّک فقد سبّنی، ومن سبّنی فقد سبّ اللّه، ومن سبّ اللّه، أكبّه اللّه على منخريه فی النار». ثمّ تولّى عنهم... (۱) يقول عبداللّه بن أحمد بن حنبل: «سألت أبی عن علیّ وأعدائه، فقال: يا بنی إنّ عليّاً كان كثير الأعداء، ففتش عليه أعداؤه شيئاً مكروهاً ولم يجدوا، وجاؤوا إليه وحاربوه وقاتلوه وخلعوه كيداً منهم له».

نعم، حاربوک فكانت حربهم ظالمة، كادوا لک فردّ كيدهم إلى نحورهم،

۱- ۱ نور الأبصار للشبلنجی: ۱۱۰.

ص: ۳۷

افتروا علیک فکانت افتراءاتهم جائرة.

لم یجدوا عیباً فیک سیّدی فلاذوا بطمس معالمک وفضائلک وألجموا الألسنة الناطقة بمناقبک، لقد بنوا کیانهم علی شتمک وسبّک وطمس آثارک.. وکأن حکمهم لیس له هدف إلّاإنهاء ذکرک، وکأن لیس لهم همٌّ إلّاإخفاء فضلک...

أما آن لک- یا معاویة- أن تترک علیّاً وشأنه، وتأمر بترک مسبّته علی المنابر؟

قال: لا، حتّی یموت علیها الکبیر ویربو علیها الصغیر.

فقد أبت نفوس هؤلاء الطلقاء قبول علیّ بفضائله ومناقبه ومواقفه الجلیلة التی کانت دفاعاً عن الرسالة والرسول، وعن کلمة الحقّ والعدل.. أبت قلوبهم ذلک کلّه، فراحت سیاستهم تقوم علی نبذ هذه المناقب والفضائل بل التصدّی لها بکلّ حزم حتّی صارت أساس سیاستهم والبناء الذی تقوم علیه، فأصدر زعیم هؤلاء القوم وعمیدهم معاویة بن أبی سفیان أمراً سلطانیاً: برئت الذمّة ممّن روی شیئاً فی فضل أبی تراب وأهل بیته.

ولم یکتف بهذا بل عمّم کتاباً آخر إلی جمیع عمّاله یقول فیه:

إذا جاءکم کتابی هذا فادعوا الناس إلی الروایة فی فضائل الصحابة والخلفاء الأوّلین، ولا تترکوا خبراً یرویه أحدٌ من المسلمین فی أبی تراب، إلّاوتأتونی بمناقضٍ له فی الصحابة، فإنّ هذا أحبُّ إلیَّ وأقرُّ لعینی، وأدحضُ لحجّة أبی تراب وشیعته (۱).

وبسبب هذا کلّه وتشجیعاً من السلطان الظالم ظهر الوضّاعون وکثروا، وظهر البهتان وانتشر وشاعت المختلقات من الروایات وذاعت بین الآفاق، وتجرأ أعداء الدین علی تشویه معالمه والکید له..

معاویة یقدم قومه

ولکن هیهات هیهات! فالزوابع بغبارها لا تخفی الحقیقة التی علت ناصعةً تتحدّاهم جمیعاً، فقد ذاع صیتک وعطّر الخافقین عبیرک، وحتّی هؤلاء الأعداء

۱- ۱ شرح نهج البلاغة، لابن أبی الحدید ۱۱: ۴۴- ۴۶.

ص: ۳۸

راحت ألسنتهم تنطق بالحقّ، نطقت بصفاتک، ونشرت مجالسهم عظیم مناقبک...

فلسان مناوئیک أنطقه اللَّه الذی أنطق کلّ شیء، لتکون الحجّة علیهم أقوی، فالفضل ما شهدت به الأعداء.

جاء ابن أحور التمیمی إلی معاویة فقال: یا أمیر المؤمنین جئتک من عند ألأم الناس، وأبخل الناس، وأعیا الناس، وأجبن الناس.

فقال: ویلک وأنّی أتاه اللؤم، ولکنا نتحدّث أن لو کان لعلیّ بیتٌ من تبن وآخر من تبر، لأنفد التبر قبل التبن، وأنّی أتاه العی وإن کنّا لنتحدّث أنه ما جرت المواسی علی رأس رجل من قریش أفصح من علیّ، ویلک وأنّی أتاه الجبن؟ وما برز له رجل قطّ إلّاصرعه، واللَّه یا ابن أحور، لولا أنّ الحرب خدعة لضربتُ عنقک، اخرج فلا تقیمن فی بلدی (۱).

وله أیضاً: فواللَّه لو أنّ ألسن الناس جمعت فجعلت لساناً واحداً لکفاها لسان علیّ (۲). ولو لم یکن للأمّة إلّاللسان علی لکفاها (۳).

ولمّا جاء ابن أبی محفن معاویة قال له: جئتک من عند أعیا الناس.

قال له: ویحک! کیف یکون أعیا الناس؟! فواللَّه ما سنّ الفصاحة لقریش غیره (۴).

قال معاویة لضرار بن ضمرة من أصحاب علیّ علیه السلام بعد مصرعه:

صِف لی علیّاً.

فقال ضرار: اعفنی.

قال معاویة: لَتصِفنَّه.

قال: أمّا إذ لابدّ من وصفه، فکان واللَّه بعید المدی، شدید القوی، یقول فصلًا، ویحکم عدلًا، یتفجّر العلم من جوانبه، وتنطلق الحکمة من نواحیه، ویستوحش من الدنیا وزهرتها، ویستأنس باللیل ووحشته.

وکان غزیر العبرة، طویل الفکرة، یعجبه من اللباس ما قصر، ومن الطعام

۱- ۱ تاریخ دمشق ۴۲: ۴۱۴.

۲- ۲ الإمامة والسیاسة ۱: ۱۳۴.

۳- ۳ شرح الأخبار ۲: ۹۹.

۴- ۴ شرح نهج البلاغة ۱: ۲۴.

ص: ۳۹

ما خشن.

وكان فينا كأحدنا، يجيبنا إذا سألناه، وينبئنا إذا استنبأناه. ونحن واللَّه- مع تقريبه إيّانا وقربه منّا- لا نكاد نكلّمه هيبةً له.

ويعظّم أهل الدين، ويقرب المساكين، لا يطمع القوى فى باطله، ولا ييئس الضعيف من عدله.

وأشهد أنّى لقد رأيته فى بعض مواقفه، وقد أرخى الليل سدوله، وغارت نجومه، قابضاً على لحيته، يتململ تململ السليم، ويبكى بكاء الحزين، ويقول:

يا دنيا غُرّى غيرى! أإلىّ تعرّضتِ أم إلىّ تشوّقتِ؟!

هيهات هيهات!

قد باينتك ثلاثاً لا رجعة فيها، فعمرك قصير، وخطرك قليل.

آه من قلّة الزاد، وبُعد السفر، ووحشة الطريق!

ولما انتهى ضرار من وصفه هذا يقول الخبر: فبكى معاوية حتّى اخضلّت لحيته وقال: رحم اللَّه أبا الحسن، كان واللَّه كذلك.

فكيف حزنك عليه يا ضرار؟

قال: حزن من ذُبحَ وحيدُها فى حجرها.

ولمّا بلغ معاوية قتل على عليه السلام قال:

ذهب الفقه والعلم بموت ابن أبى طالب.

فقال له أخوه عتبة بن أبى سفيان: لا يسمع هذا منك أهل الشام.

فقال له: دعك منّى (۱).

وكان يقول عن علم علىّ عليه السلام: كان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يغره العلمَ غرّاً (۲) رحم اللَّه أباالحسن فلقد سبق من كان قبله، وأعجز من يأتى بعده (۳).

... هيهات هيهات! عقمت النساء أن يلدن مثله (۴) وهذا عمرو بن العاص العدوّ اللدود لعلىّ عليه السلام حينما راح يخيّر نفسه بين

۱- ۱ انظر «على إمام المتّقين» لعبد الرحمن الشرقاوى: ۲۰.

۲- ۲ فضائل الصحابة لابن حنبل ۲: ۶۷۵.

۳- ۳ شرح نهج البلاغة ۱۱: ۲۵۳.

۴- ۴ شرح نهج البلاغة ۱۱: ۲۵۳.

ص: ۴۰

علی ومعاویة:

أمّا علیٌّ فدین لیس یشرکه دنیا وذاک له دنیا وسلطان.

وفیما کتبه إلی معاویة قبل التحاقه به: ویحک یا معاویة! أما علمت أنّ أباالحسن بذل نفسه بین رسول اللَّه صلی الله علیه و آله وقد قال فیه یوم غدیر خم: ألا ـ من کنت مولاه فعلیّ مولاه، اللّهمّ والِ من والاه، وعادِ من عاده... (۱)... حیث نقاتل من تعلم سابقته وفضله وقرابته، ولکنّا إنّما أردنا هذه الدنیا...

وراح یخاطب معاویة... ومهما نسیت فلا تنسی أنّک علی باطل...

أوهل یستغنون عنک؟!

فوجئ علیٌّ علیه السلام یوماً بجمع من صحابة رسول اللَّه صلی الله علیه و آله وکان فیهم حبر الأمّة عبداللَّه بن عبّاس والخلیفة أبو بکر ورجل یهودی یقرعون علیه باب داره.

ذلک أنّ مالک بن أنس روی أنّ یهودیاً دخل المسجد فسأل الناس:

أین وصیّ رسول اللَّه؟ فأشار القوم إلی أبی بکر.

فقال الرجل: أرید أن أسألک عن أشیاء لا یعلمها إلّاوصیّ أو نبیّ... قال أبوبکر: سل عمّا بدا لک.

قال الیهودی: اخبرنی عمّا لیس للَّه، وعمّا لیس عند اللَّه.. وعمّا لا یعلمه اللَّه...

قال أبو بکر: هذه مسائل الزنادقة یا یهودی!

همّ أبو بکر والمسلمون رضی اللَّه عنهم بالیهودی، فقال ابن عبّاس رضی الله عنه: ما أنصفتم الرجل!... فقال أبو بکر: أما سمعت ما تکلّم به؟

فقال ابن عبّاس: إن کان عندکم جوابه، وإلّا فاذهبوا إلی علی رضی الله عنه یجیبه، فإنّی سمعت رسول اللَّه صلی الله علیه و آله یقول لعلی بن أبی طالب: «اللّهم اهدِ قلبه وثبّت لسانه».

فقام أبو بکر رضی الله عنه، ومن حضره، فأتوا علیّ بن أبی طالب فی داره، فاستأذنوا علیه.

۱- ۱ المناقب للخوارزمی: ۱۹۹.

ص: ۴۱

فقال أبو بكر: يا أبا الحسن إنّ هذا اليهودى سألنى مسائل الزندقة!

فقال علىّ كرّم اللَّه وجهه: «ما تقوله يا يهودىّ؟»

قال: أسألک عن أشياء لا يعلمها إلّانبىّ أو وصىّ نبىّ.

فقال له: قلّ.

فأعاد اليهودى الأسئلة.

فقال علىّ رضى الله عنه:

أما ما لا يعلمه اللَّه فذلک قولكم معشر اليهود أن عزيراً ابن اللَّه، واللَّه لا يعلم أنّ له ولداً (إذ لو كان له ولد لكان يعلمه).

وأمّا قولک: أخبرنى بما ليس عند اللَّه.

فليس عنده ظلمٌ للعباد.

وأمّا قولک: أخبرنى بما ليس لِلَّه.

فليس لِلَّه شريک.

فقال اليهودى: أشهد أنّ محمّداً رسول اللَّه وأنّک وصىّ رسول اللَّه.

فارتاح أبو بكر والمسلمون من جواب علىّ، وقالوا: يا مفرِّج الكروب! (۱).

وهكذا كان يفعل الخليفتان الثانى والثالث فهم جميعاً لم يستغنوا عن آراء الإمام علىّ عليه السلام فى الفقه والقضاء والجهاد والسياسة والإدارة.. وكان يمدّ لهم يدَ العون والرشد ما دامت هناک مصلحة إسلامية، والشواهد كثيرة على هذا.

مع بعض أقواله عليه السلام

«لا يقيم أمر اللَّه سبحانه وتعالى إلّامن لا يصانع ولا يتبع المطامع..»

وممّا كان يعظ به من يتولّى أمراً من أُمور المسلمين صغر هذا الأمر أو كبر:

«لا ينبغى أن يكون الوالى على الفروج والدماء والمغانم والأحكام وإمامة المسلمين البخيل، فتكون أموالهم نهمته، ولا الجاهل فيضلّهم بجهله، ولا الجافى

۱- ۱ انظر إمام المتّقين، لعبد الرحمن الشرقاوى: ۷۶- ۷۷.

ص: ۴۲

فیقطعهم بجفائه، ولا الخائف للدول فیتّخذ قوماً دون قوم، ولا المرتشی فی الحکم فیذهب بالحقوق، ولا المعطل للسنّة فیهلک الأمّة. ومَن نصب نفسه للناس فلیبدأ بتعلیم نفسه قبل تعلیم غیره، ولیکن تهذیبه بسیرته قبل تهذیبه بلسانه، ومعلم نفسه ومؤدّبها أحقّ بالإجلال من معلم الناس ومؤدّبهم».

ولمّا رأی الثراء فاحشاً فی الناس وأخلاق السوء قد دبّت فیهم، ولما رآهم یتزاحمون علی نیل المناصب والجاه، ولمّا رآهم یتّصفون بالتفاخر والتکاثر بالأموال والأنفس، ولمّا رآهم وقد عادت العصبیة إلی سیرتهم والقومیة تنهش بهم وقد نهی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله وقال:

«دعوها إنّها نتنة»، و «لیس منّا من دعا إلی عصبیة».

راح علیّ علیه السلام یعظهم ویحذّرهم ممّا یترکه ذلک علی نفوسهم وعواقب ما هم فیه:

«أکثر مصارع العقول تحت بروق المطامع».

«من أصبح علی الدنیا حزیناً، فقد أصبح لقضاء اللَّه ساخطاً».

«ومن أصبح یشکو مصیبة نزلت به، فقد أصبح یشکو ربّه».

«ومن أتی غنیاً فتواضع لغناه ذهب ثلثا دینه».

«ما بال ابن آدم والفخر؟ أوّله نطفة، وآخره جیفة، لا یرزق نفسه ولا یدفع حتفه».

«یاابن آدم؛ کن وصی نفسک فی مالک، واعمل فیه ما تؤثر أن یُعمل فیه من بعدک».

«ظلم الضعیف أفحش الظلم».

«لا تَظلم کما لا تُحبّ أن تُظلَم».

«من ظلم عباد اللَّه کان اللَّه خصمه دون عباده، ومن خاصمه اللَّه أدحض حجّته، وکان اللَّه حرباً علیه حتّی ینزع عن ظلمه ویتوب، ولیس شیء أدعی إلی تغییر

ص: ۴۳

نعمة اللّه وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم، فإنّ اللّه يسمع دعوة المضطهدين، وهو للظالمين بالمرصاد».

«لا يغرّنكم ما أصبح فيه أهل الغرور، فإنّما هو ظلٌّ ممدود إلى أجلٍ محدود».

مداخلات

وختاماً نكتفى بما ذكره بعض كبار الكتّاب والمفكّرين:

عبّاس محمود العقّاد

تدلّ أخباره- كما تدلّ صفاته- على قوّة جسدية بالغة فى المكانة والصلابة على العوارض والآفات. فربما رفع الفارس بيده فجلد به الأرض غير جاهد ولا حافل، ويمسك بذراع الرجل فكأنّه أمسك بنفَسِهِ فلا يستطيع أن يتنفّس، واشتهر عنه انّه لم يصارع أحداً إلّاصرعه، ولم يبارز أحداً إلّاقتله، وقد يزحزح الحجر الضخم لا يزحزحه إلّارجال، ويحمل الباب الكبير يعيى بقلبه الأشدّاء، ويصيح الصيحة فتنخلع لها قلوب الشجعان... لا ينهض له أحد فى ميدان مناجزة، فكان لجرأته على الموت لا يهاب قرناً من الأقران بالغاً ما بلغ من الصولة ورهبة الصيت...

ويزيد شجاعته تشريفاً أنّها ازدانت بأجمل الصفات التى تزين شجاعةالشجعان الأقوياء.. فلا يعرف الناس حلية للشجاعة أجمل من تلك الصفات التى طبع عليها علىّ بغير كلفة ولا مجاهدة رأى. وهى التورّع عن البغى، والمروءة مع الخصم قويّاً أو ضعيفاً على السواء، وسلامة الصدر من الضغن على العدوّ بعد الفراغ من القتال.

أمّا مروءته فى هذا الباب فكانت أندر بين ذوى المروءة من شجاعته بين الشجعان. فأبى على جنده وهم ناقمون أن يقتلوا مدبراً أو يجهزوا على جريح أو يكشفوا ستراً أو يأخذوا مالًا. وصلّى فى وقعة الجمل على القتلى من أصحابه ومن أعدائه على السواء، وظفر بعبداللّه بن الزبير ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص

ص: ۴۴

وهم ألـدّ أعـدائه المؤلّبين عليه فعفـا عنهم ولم يتعقّبهم بسوء، وظفر بعمرو بن العـاص وهو أخطر عليه من جيش ذى عـدّة فأعرض عنه وتركه ينجو بحياته حين كشف عن سوأته اتقاءً لضـربته.. وحال جند معاوية بينه وبين الماء فى معركة صفّين وهم يقولون له: ولا قطرة حتى تموت عطشاً.. فلمّا حمل عليهم وأجلاهم عنه سوَّغ لهم أن يشـربوا منه كما يشـرب جنـده، وزار السـيّدة عائشـة بعـد وقعة الجمل فصـاحت به صـفية أم طلحـة الطلحـات: أيتم اللّه منـك أولاـدك كمـا أيتمت أولاـدى. فلم يرد عليهـا شـيئاً، ثمّ خرج فأعـادت عليه ما استقبلته به فسكت ولم يرد عليها. قال رجل أغضبه مقالها: يا أمير المؤمنين! أتسكت عن هذه المرأة وهى تقول ما تسمع؟

فـانتهره وهو يقول: ويحـك؟ إنّـا أُمرنا أن نكفّ عن النساء وهن مشـركات أفلا نكفّ عنهنّ وهن مسـلمات؟ وإنّه لفى طريقه إذ أخبره بعض أتباعه عن رجلين ينالان من عائشـة فأمر بجلـدهما مائـة جلـدة. ثمّ ودّع السـيّدة عائشة أكرم وداع وسار فى ركابها أميالًا وأرسـل معهـا من يخـدمها ويحفّ بها. قيل: إنّه أرسل معها عشـرين امرأة من نساء عبـد القيس عمّمهن بالعمائم وقلّـدهن السـيوف.. فلمّا كانت ببعض الطريق ذكرته بما لا يجوز أن يـذكر به وتأفّفت وقالت: هتك سترى برجاله وجنـده الذين وكّلهم بى.. فلمّا وصـلت إلى المدينة ألقى النساء عمائمهنّ وقلن لها: إنّما نحن نسوة.

[وهنا تقول عائشة: ما ازددت واللّه يا ابن أبى طالب إلّاكرماً.]

وكانت هذه المروءة سنّته مع خصومه، من اسـتحق منهم الكرامة ومن لم يسـتحقها، ومن كان فى حرمة عائشة رضـى اللّه عنها ومن لم تكن له قط حرمة، وهى أندر مروءة عرفت من مقاتل فى وغر القتال..

وتعدلها فى النبل والندرة سـلامة صدره من الضـغن على أعدى الناس له وأضـرّهم به وأشـهرهم بالضـغن عليه. فنهى أهله وصـحبه أن يمثّلوا بقـاتله وأن يقتلوا أحـداً غيره، ورثى طلحـة الـذى خلع بيعته وجمع الجموع لحربه رثـاءً محزون يفيض كلاـمه بالألـم والمودّة، وأوصى أتباعه ألا يقاتلوا الخوارج الذين شقوا

ص: ۴۵

صفوفه وأفسدوا عليه أمره وكانوا شرّاً عليه من معاوية وجنده، لأنّه رآهم مخلصين وإن كانوا مخطئين وعلى خطئهم مصرِّين..

وعن صفة الثقة والاعتزاز بالنفس فی المواقف الحرجة والعلم... يقول العقاد: فما منعته الطفولة الباكرة يوماً أن يعلم أنّه شیء فی هذه الدنيا وأنّه قوّة لها جوار يركن إليه المستجير. ولقد كان فی العاشرة أو نحوها يوم أحاط القروم القرشيون بالنبیّ عليه السلام ينذرونه وينكرونه وهو يقلب عينيه فی وجوههم ويسأل عن النصير ولا نصير.. لو كان بعلى أن يرتاع فی مقام نجدة أو مقام عزيمة لارتاع يومئذ بين أولئك الشيوخ الذين رفعتهم الوجاهة ورفعتهم آداب القبيلة البدوية إلى مقام الخشية والخشوع. ولكنّه كان عليّاً فی تلك السن الباكرة كما كان عليّاً وهو فی الخمسين أو الستّين.. فما تردّد وهم صامتون مستهزئون أن يصيح صيحة الواثق الغضوب: أنا نصيرك.. فضحكوا منه ضحك الجهل والاستكبار، وعلم القدر وحده فی تلك اللحظة أن تأييد ذلك الغلام أعظم وأقوم من حرب أولئك القروم..

علیّ هذا هو الذی نام فی فراش النبیّ ليلة الهجرة، وقد علم ما تأتمر به مكّة كلّها من قتل الراقد على ذلك الفراش.

وعلیّ هذا هو الذی تصدّى لعمرو بن ود مرّةً بعد مرّةً والنبیّ يجلسه ويحذّره العاقبة التی حذرها فرسان العرب من غير تحذير، يقول النبی: اجلس. إنّه عمرو.

فيقول: وإن كان عمراً.. كأنّه لا يعرف من يخاف ولا يعرف كيف يخاف، ولا يعرف إلّا الشجاعة التی هو ممتلئ بها واثق فيها فی غير كلفة ولا اكتراث.

أن يعتصم المرء منه بثقة لا تنخذل، وأنفة لا تلين. فمن شواهد هذه الثقة بنفسه انّه حملها من ميدان الشجاعة إلى ميدان العلم والرأی حين كان يقول:

«اسألونی قبل أن تفقدونی، فوالذی نفسی بيده لا تسألونی فی شیء فيما بينكم وبين الساعة، ولا عن فئة تهدی مائة وتضلّ مائة إلّاأنبأتكم بناعقها وقائدها

ص: ۴۶

وسائقها، ومناخ رکابها ومحطّ رحالها».

ومن شواهدها أنّه کان یقول والخارجون علیه یرجمونه بالمروق: «ما أعرف أحداً من هذه الامّة عَبَدَ اللَّه بعد نبیّنا غیری، عبدت اللَّه قبل أن یعبده أحد من هذا الامّة تسع سنین».

وزاده اتهام من حوله معتصماً بالثقة بنفسه، فلمّا عتب علیه خصماه طلحة والزبیر أنه ترک مشورتهما قال: «نظرت إلی کتاب اللَّه وما وضع لنا وأمرنا بالحکم به فاتّبعته. وما استنّ النبیّ صلّی اللَّه علیه وسلّم فاقتدیته. فلم أحتج فی ذلک إلی رأیکما ولا رأی غیرکما، ولا وقع حکم جهلته فأستشیرکما واخوانی المسلمین، ولو کان ذلک لم أرغب عنکما ولا عن غیرکما...».

ومن أقوال العقّاد الأخری: کان مثلًا یخرج إلی مبارزیه حاسر الرأس ومبارزوه مقنّعون بالحدید. أفعجیب منه أن یخرج إلیهم حاسر النفس وهم مقنّعون بالحیلة والریاء؟ وکان یغفل الخضاب أحیاناً ویرسل الشیب ناصعاً وهو لا یحرم خضابه فی غیر ذلک من الأحیان. أفعجیب منه، مع هذا، أن یقل اکتراثه لکلّ خضاب ساتراً ما ستر، أو کاشفاً ما کشف، من رأی وخلیقة؟

وعن صدقه وزهده فیقول العقاد:... فما استطاع أحد قطّ أن یحصی علیه کلمة خالف فیها الحقّ الصراح فی سلمه وحربه، وبین صحبه أو بین أعدائه، ولعلّه کان أحوج إلی المصانعة بین النصراء ممّا کان بین الأعداء، لأنّهم أرهقوه باللجاجة وأعنتوه بالخلاف. فما عدا معهم قول الصدق فی شدّة ولا رخاء، حتی قال فیه أقرب الناس إلیه: إنّه رجل یعرف من الحرب شجاعتها ولکنّه لا یعرف خدعتها.

وکان أبدا عند قوله: «علامة الایمان أن تؤثر الصدق حیث یضرّک، علی الکذب حیث ینفعک، وألا یکون فی حدیثک فضل علی علمک، وأن تتّقی اللَّه فی حدیث غیرک».

وصدق فی تقواه وإیمانه کما صدق فی عمل یمینه ومقالة لسانه. فلم یعرف أحد

ص: ۴۷

من الخلفاء أزهد منه فی لذّة دنیا أو سیب دولة، وکان وهو أمیر المؤمنین یأکل الشعیر وتطحنه امرأته بیدیها، وکان یختم علی الجراب الذی فیه دقیق الشعیر فیقول: «لا أحبّ أن یدخل بطنی ما لا أعلم».. قال عمر بن عبد العزیز وهو من أسرة أمیّة التی تبغض علیّاً وتخلق له السیّئات وتُخفی ما توافر له من الحسنات:

«أزهد الناس فی الدنیا علیّ بن أبی طالب». وقال سفیان: «إنّ علیّاً لم یبن آجرة علی آجرة ولا لبنة علی لبنة ولا قصبة علی قصبة» وقد أبی أن ینزل القصر الأبیض بالکوفة إیثاراً للخصاص التی یسکنها الفقراء. وربما باع سیفه لیشتری بثمنه الکساء والطعام. وروی النضر بن منصور عن عقبة بن علقمة قال: «دخلت علی علیّ علیه السلام فإذا بین یدیه لبن حامض آذتنی حموضته وکسر یابسة. فقلت: یا أمیر المؤمنین، أتأکل مثل هذا؟ فقال لی: یا أبا الجنوب، کان رسول اللّه یأکل أیبس من هذا ویلبس أخشن من هذا- وأشار إلی ثیابه- فإن لم آخذ بما أخذ به خفت ألا ألحق به»..

... هذه صفات تنتظم فی نسق موصول: رجل شجاع لأنّه قوی، وصادق لأنّه شجاع، وزاهد مستقیم لأنّه صادق، ومثار للخلاف؛ لأنّ الصدق لا یدور بصاحبه مع الرضا والسخط والقبول والنفور، وأصدق الشهادات لهذا الرجل الصادق أنّ الناس قد أثبتوا له فی حیاته أجمل صفاته المُثلی، فلم یختلفوا علی شیء منها إلّاالذی اصطدم بالمطامع...

عبد الفتاح عبد المقصود:

أجل لقد واجه أبو طالب دنیاه فقیراً، ومات عبد المطّلب عنه وهو بعد فی نحو من السن لم یکن کدحه قد أفاء علیه من الخیر ما یشتهیه. ولم یورثه أیضاً سیادة القوم لأنّه أوصی لآخر من بنیه هو الزبیر. فلئن أقبلت الدنیا علی هذا الفقیر فحبته بمکرمة هی آیة المکرمات فقد کان هذا من القدر غایة المرتجی عند ذی رجاء...

ص: ۴۸

... فإذا تمّ لأبى طالب الفقير المعسر بعض أمره فى جوار كعبة الحرم، فإنّ أمره هذا لجليل فى عيون القوم لأنّه اكتسب أبلغ شرف بأشرف جوار فى أقدس دار، فكيف لو تمّ له أمره ذاك بغير سابق ترتيب منه، بل بصدفة هى عند أولئك الناس منّة منّ اللّه وحظوة أراد أن يشرف بها ابن عبد المطّلب كما لم يشرف بمثلها قبله أو بعده من الرجال كثير ولا قليل؟

*** تلك ليلة فذة فى الليالى، أضاء نجمها على الدنيا مرّه ثمّ لم يقدر بعدها لضوئه أن يبزغ ثانية كمثل بزوغه لأنّ مثيلاتها لا تعود. ولكن ضياء أشدّ لمعاناً من نور النجم توهّج، ثمّ سطع، ثمّ فاض بنوره على الآفاق سيرة كوجه الشمس رفاقة الإشراق.. سيرة إن فاتها أن تنفرد وحدها بالمبنى الساحر فقليل سواها ضمّ ما كان لها من معنى قاهر، بل أقلّ القليل، بل الأندر منه. ولو أنّك استطعت أن تتحلّل من شباك الزمن وتنفض خيوطها عنك، وسبحت عائداً إلى الماضى لرأيت ابنة أسد- فاطمة- تجول بالبيت الحرام تلتمس البركة، لأنّها سيّدة تجمّعت فيها مزايا آلها الكرام وامتلأ- كمثلهم- قلبها طهراً. ثمّ لرأيتها تأتى الكعبة فتطوف بها مرّة فمرّات متمسّحة بأستارها آونة مقبّلتها أُخرى. ولكنّك لا تلبث حتّى تشهدها وقد أوشك أن يصيبها أعياء تكاد أن تنوء به، وتنكر هى- بادئ الأمر- ما تحسّه، ثمّ تمضى متجلّدة تستحثّ نفسها وتستنهضها. ولكنّها رغم هذا لا تقوى، ولا تستطيع أن تقوم عودها. وإذا هى تتشبّث أصابعها بأستار الكعبة تستعين بها وقد أخذت تحسّ شيئاً غاب عن ذهنها، وتقف مجهودة لا يستقرّ بها موطئ القدمين، كمن على طرف كثيب رخو من الرمال. وتجيل فيما حولها عيناً حائرة لعلّها تبصر زوجها أبا طالب يسعى هنا أو هناك فتجد لديه عوناً على ما تلقى، ولكنّها لا تراه لأنّ ما حضرها فى هذه اللحظة غاب عن حسابه..

ثمّ لعلّك تتبعها وقد خشيت هى أن تلقفها الأبصار المتطلّعة ممّن حضر من

ص: ۴۹

أناس كان دأبهم الاجتماع فى أروقة البيت وفى أفنائه فإذا رأيتها قد انحازت ناحية، ودلفت إلى أستار الكعبة فتوارت خلفها عن عيون القوم فكفاك ما شهدت. وقف منها على ملقط السمع دون مرمى العين لأنّها شاءت أن تتّخذ من الستر المقدّس رداءاً. واسمع بعد هذا حسيساً خافتاً يأتيک من لدنها. وأنيناً يحكمه الجلد واصطناع الاحتمال، وصرخات مكتومة تكاد أن تضلّها الأذن كأنّها تأتى من مهوى سحيق بعيد القرار. ثمّ اسمع نبرة بكاء تخالط هذه الصرخات، لها غير جرسها وغير رنتها، رقيقة، رنانة فى غير حدّة، كأنّها شدو طائر تفتّحت عيناه على شعاع فجر أسفر أو أوشک على اسفار. وقد يأخذک العجب، وتملکک الدهشة، ولكنّه عجب قصير أجله، ودهشة لن يطول بک مداها ما دامت فاطمة قد بدت ثانية لناظريک، واهنة، وأشدّ ضعفاً ممّا رأيتها من قبل، كسا وجهها الشحوب ومشت فى أوصالها رجفة الاعياء، وقد احتملت- مدثراً بستر الكعبة الشريف- وليدها بين صدرها وكفّيها.

*** تلک ولادة لم تكن قبل طفلها هذا الوليد ولم يحز فخرها بعده وليد أكرمه بها اللّه وأكرم امّه وأباه، فكان تكريماً لفرعى هاشم الذى انحدر منه الطفل عن فاطمة وعن أبى طالب حفيدى الأصل الثابت الكريم.

وأقبل القوم- حين انتبهوا- يستبقون إلى السيّدة، يعاونونها: ويأخذون بيدها، ويملأون الأبصار بطلعة ذلک الذى كان بيت اللّه مولده، وستر الكعبة ثوبه، كأنّما أوسع له فى الشرف باجتماعه فى كلا المولد والمحتد وهم لو استطاعوا أن يسبقوا زمانهم كما تأخّرت أنت لرأوه أيضاً يجتمع له نفس هذا الشرف حين يقبل عليه الموت فيلقاه فى بيت اللّه يهمّ أن يقوم بالصلاة...

أمّا فاطمة فقد أحبّت أن تحى فى وليدها اسم أبيها فدعته بمعناه وان لم تدعه بلفظه، وقالت لزوجها وهى تحاوره:

«هو حيدرة».

ص: ۵۰

وأمّا أبو طالب فقد كان أكثر توفيقاً حين اختار. رأى وليده قد علا شرفاً بمكان مولده كما علا من قبل بأصله الرفيع فقال:

«بل على».

وبدأت عند هذا حياة الرجل الذى ساير أخطر الأحداث فى هذه الدنيا، وعاشر أطهر الخلق وسيّد النبيّين، واحتمل نصيبه من عبء كبير ألقاه اللّه على مختاره الأمين، الذى خصّه بوحيه ورسالته الإلهية لهداية العالم.

وعاش علىّ عمره لغيره من المثل ومن الرجال، فكان فى صباه القريب المفتدى، وفى شبابه الصديق المقتدى بالنبى الكريم، وبين هذا وذاك من أطوار العمر وما جاء فى أعقابها من فترات، التزم غايات الكمال فى الفِعال والخِلال، فلمّا انطوى بعض أجله، ومضى من الدنيا وعن هاديه، كان المعقب له وقد ذهب العقب. وأجل من أخذ عنه فأجاد، وركب جادته فما حاد.

محمود أبو ريّه

علىٌّ أوّل من أسلم وتربّى فى حجر النبى وعاش تحت كنفه من قبل البعثة وظلّ معه إلى أن انتقل النبىّ إلى الرفيق الأعلى، لم يفارقه لا فى سفر ولا فى حضر، وهو ابن عمّه وزوج ابنته فاطمة الزهراء، شهد المشاهد كلّها سوى تبوك، فقد استخلفه النبىّ صلى الله عليه و آله فيها على المدينة فقال: يا رسول اللّه، أتخلفنى فى النساء والصبيان؟ فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «أما ترضى أن تكون منّى بمنزلة هارون من موسى إلّاأنّه لا نبىّ بعدى؟».

هذا الإمام الذى لا يكاد يضارعه أحد من الصحابة جميعاً فى العلم...

ثمّ واصل أبورية حديثه تحت عنوان: غريبة توجب الحيرة:

من أغرب الأمور، وممّا يدعو إلى الحيرة أنّهم لم يذكروا اسم علىّ رضى الله عنه فيمن عهد إليهم بجمع القرآن وكتابته، لا فى عهد أبى بكر ولا فى عهد عثمان! ويذكرون غيره ممّن هم أقلّ منه درجة فى العلم والفقه!

ص: ۵۱

فهل كان عليّ لا يُحسن شيئاً من هذا الأمر، أو كان من غير الموثوق بهم، أو ممّن لا يصحّ استشارتهم أو إشراكهم فی هذا الأمر؟!

اللّهم إنّ العقل والمنطق ليقضيان بأن يكون عليّ أوّل من يعهد إليه بهذا الأمر، وأعظم من يشارك فيه، وذلک بما أُتيح له من صفات ومزايا لم تتهيّأ لغيره من بين الصحابة جميعاً، فقد ربّاه النبی صلی الله علیه و آله علی عينه، وعاش زمناً طويلًا تحت كنفه، وشهد الوحی من أوّل نزوله إلی يوم انقطاعه، بحيث لم يند عنه آية من آياته!! فإذا لم يدع إلی هذا الأمر الخطير فإلی أیّ شیء يدعی؟!

وإذا كانوا قد انتحلوا معاذير ليسوغوا بها تخطيهم إيّاه فی أمر خلافة أبی بكر، فلم يسألوه عنها ولم يستشيروه فيها؛ فبأی شیء يعتذرون من عدم دعوته لأمر كتابة القرآن؟

فبماذا نعلّل ذلک؟ وبماذا يحكم القاضی العادل فيه؟

حقّاً إنّ الأمر لعجيب، وما علينا إلّاأن نقول كلمةً لا نملک غيرها وهی:

لک اللَّه يا عليّ! ما أنصفوک فی شیء! (۱) فتحی يكن فی رحاب نهج البلاغة:

يصعب جدّاً الإحاطة بما تضمّنه كتاب نهج البلاغة للإمام علی بن أبی طالب كرّم اللَّه وجهه ورضی اللَّه عنه وأرضاه، من موضوعات تتعلّق بمختلف شؤون الحياة، سابرة أغوارها، مستكشفة أبعادها، مقدمة المواعظ والعبر والدروس والحكم النافعة الجليلة من خلالها.

سأتناول من (نهج البلاغة) سفراً من أسفاره، وقبساً من قبساته، والذی يلفت فيه ببلاغة العالم، وعلم الرسالی، وإحاطة الداعية، وسرّ نجاح وفلاح الإمام حيث يقول: «من نصب نفسه للناس إماماً، فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تهذيبه بسيرته قبل تهذيبه بلسانه، ومعلم نفسه ومهذّبها أحقّ بالإجلال من معلم الناس ومهذّبهم».

۱- ۱ أضواء علی السنّة المحمّدية أو دفاع عن الحديث: ۲۲۴، ۲۲۵، ۲۴۹.

ص: ۵۲

إنّه سرّ نجاح الإمامۀ، وخلفيۀ تألّق الإمام... سواء كانت إمامۀ دعوۀ، أو إمامۀ ولايۀ، وسواء كانت إمامۀ صغرى أو كبرى..

فسبب النجاح يبقى هو هو، وسرّ الأثر لا يتبدّل ولا يتغيّر... إنّه تأكيد للسنّۀ الإلهيۀ الثابتۀ الماضيۀ: وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا تلكم هى (سنّۀ التغيير) التى تتجلّى فى قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَايُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ.

فمن يتصدّى للإمامۀ.. للقيادۀ.. للدعوۀ.. للرسالۀ.. للإمامۀ... لابدّ وأن يكون تمكّن من إمامۀ نفسه، وقيادۀ ذاته برسالۀ الإسلام، كما لابدّ وأن يكون قد أحكم قياد حياته وفق أمر اللَّه وأمر رسوله صلى الله عليه و آله. وهذا مناط قوله عليه السلام: «فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره».

ومن يفعل ذلك يكن ماضياً وفق السنّۀ الإلهيۀ.. ومن التزم السنن الإلهيۀ لا يضلّ ولا يشقى، وإنّما يبقى مسدّداً مهتدياً راشداً مسترشداً.

إذا لم يكن عون من اللَّه للفتى فأوّل ما يقضى عليه اجتهاده

فالذى يُطلّ على الناس بحال الإسلام غير الذى يطل عليهم بمقال الإسلام..

والذى يترجم الإسلام بأعماله غير الذى يترجمه بلسانه.. وهذا مناط قوله رضى الله عنه:

«وليكن تهذيبه بسيرته قبل تهذيبه بلسانه».

إنّ حالۀ الانفصام بين الادّعاء والواقع، وبين القول والعمل، وبين الشعار والمضمون حالۀ مرضيۀ ومذمومۀ، وقبيحۀ ومقبوحۀ، ورذيلۀ ومرذولۀ، ويجب أن لا ترى النور ضمن الدائرۀ الإسلاميۀ التى تفرض التجانس والوئام بين النظريۀ والتطبيق؛ ليتحقّق الفوز والفلاح فى الحياۀ الدنيا «ومعلّم نفسه ومهذّبها أحقّ بالإجلال من معلّم الناس ومهذّبهم». فضلًا عن الفوز برضا اللَّه تعالى، وذلک هو الفوز العظيم.

من هنا كان الخطاب القرآنى يتهدّد ويتوعّد أولئک المصابين بداء انفصام

ص: ۵۳

الشخصیهٔ فیقول: یَا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَاتَفْعَلُونَ* کَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَاتَفْعَلُونَ.

سلیمان کتّانی

... آتیاً إلینا من فضاء لا ینتهی افقه، ولا ینتهی لألاؤه، إنّه الإمام علیّ:

انسوجهٔ بکر- کأنّها أبداً- بکر.. سبحان اللَّه، وقد نسلَه من فسحات المعانی، کأن الفضائل کلّها فیه، إنّما هی من أجل صفوات المبانی، شدّت إلیه لیکون بها المثال، فی بنیهٔ الإنسان، وکلّ مجتمعات الإنسان.

ولستُ أظنّ فضائله تُحصی برقم، فهی الوسیعهٔ، والرفیعهٔ، والمدیدهٔ...

یوسعها الحجی، ویرفعها الصدق، ویمدّدها الجمال... أما آفاقها- فی نعیم انصباباتها- فهی اللَّه- جلّ شأنه- فی اتصافه الوجودی المطلق، تمنطق بها الإمام علیّ، من أجل أن یفسّر جلالات الرسالهٔ النازلهٔ سوراً فی قرآن نبی الإسلام صلی الله علیه و آله... وکلّها لبناء مجتمعات الإنسان أکان هناک فی الغرب أم هنا فی الشرق..

یا للإمام علیّ! کیف له أن یُدرَک فی معانیه الأنیقهٔ وفی مبانیه الوثیقهٔ... إنّ المعانی کلّها عند الإمام، لا تزل تثیر فینا المحجات، وتوسّع لنا المسافات، وتشدّد بنا الخطوات...

الهوامش:

القرآن مع علیّ علیه السلام

ص: ۵۶

القرآن مع علىّ عليه السلام

حسن الحاجّ

ماذا ينقمون منك؟ وهل ينقمون إلّاصدق إيمانك وسابقة ولائك وعظيم منزلتك وجهادك وخصالك ومناقبك الكثيرة؟! إضافةً إلى أحاديث رسول اللَّه التى وردت فيك وأقوالٍ عظيمة تشيد بمكانتك وعلو قدرك... هناك آيات نزلت بحقّك وتفرّدتَ بها وأخرى وقد انضمّت إليك فيها نفوسٌ طاهرةٌ: سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء وولداك سيّدا شباب أهل الجنّة الحسن والحسين عليهما السلام، نأتى على ذكر بعض هذه الآيات بما يتناسب وهذه المقالة المختصرة جدّاً البعيدة عن الإطالة والتفصيل الذى يتطلّبه الخوض فى هذه الآيات وفى موردها وما أثير حولها من إيرادات وإشكالات والإجابة عنها، التى تكفّلت بها كتب ومصادر مطولة. ومن شبهات، غرضها إبعاد أىّ فضيلة للإمام عليه السلام تحملها آيات كريمة أو روايات شريفة أو مواقف جريئة أو أقوال صادقة، فراحت أقلامهم وأفكارهم تختلق منهجاً آخر فى محاربتك فغدوا يحرفون الكلم من بعد مواضعه ويبدلون قولًا غير الذى سمعوه وعقلوه... وهو أمر ورثوه من آبائهم وتعبدوا به.. وراحوا يلتزمون روايات مختلقة أو ضعيفة للوصول إلى

ص: ۵۷

أهدافهم فی تقویض فضائلک وإلغاء أو تهمیش دورک ومواقفک الرسالیة...

فبعیداً عن کلّ هذا، نشیر إلی بعض تلک الآیات:

إِنَّمَا وَلِیُّکُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِینَ آمَنُوا الَّذِینَ یُقِیمُونَ الصَّلَاةَ وَیُؤْتُونَ الزَّکَاةَ وَهُمْ رَاکِعُونَ (۱)

هناک حیث راح علیٌّ علیه السلام یؤدّی صلاته، إذ جاءه سائل یطلب شیئاً، فما کان من الإمام علیه السلام وهو فی رکوعه وقد أوجع السائل قلبه، إلّاأنّ مدّ إلیه یده متصدّقاً بخاتم کان فی إصبعه.

«وقد ذکرت روایات یقوی بعضها بعضاً- وهذا القول للدکتور وهبة الزحیلی- أنّها نزلت فی علیّ بن أبی‌طالب، الذی سأله السائل وهو راکع فی تطوع، فتصدّق علیه بخاتمه...» (۲) الواحدی فی أسباب النزول عن ابن عبّاس أنّه قال:

أقبل عبداللَّه بن سلام ومعه نفر من قومه قد آمنوا، فقالوا: یا رسول اللَّه، إنّ منازلنا بعیدة، ولیس لنا مجلس ولا متحدّث، وإن قومنا لما رأونا آمنا باللَّه ورسوله وصدّقناه، رفضونا وآلوا علی أنفسهم أن لا یجالسونا، ولا یناکحونا ولا یکلّمونا، فشقّ ذلک علینا. فقال لهم النبیّ: إِنَّمَا وَلِیُّکُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِینَ آمَنُوا...

الآیة.

ثمّ إنّ النبیّ صلی الله علیه و آله خرج إلی المسجد والناس بین قائم وراکع، فنظر سائلًا، فقال:

هل أعطاک أحدٌ شیئاً؟

قال: نعم خاتم من ذهب [فضّة].

قال: من أعطاکه؟

قال: ذلک القائم، وأومأ بیده إلی علیّ بن أبی‌طالب.

فقال: علی أیّ حال أعطاک؟

۱- ۱ المائدة: ۵۵.

۲- ۲ التفسیر المنیر ۶: ۲۳۲.

ص: ۵۸

قال: أعطانی وهو راکع.

فکبر النبیّ صلی الله علیه و آله ثمّ قرأ: وَمَنْ یَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِینَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمْ الْغَالِبُونَ (۱)

.

وفی هذا یقول حسان بن ثابت:

أبا حَسَنٍ تفدیک نفسی ومهجتی وکلّ بطیءٍ فی الهدی ومُسارع

فأنت الذی أعطیت إذ کنتَ راکعاً فدتک نفوس الخلق یا خیر راکع

بخاتمک المیمون یا خیر سید ویا خیر شارٍ ثمّ یا خیر بایع

فأنزل فیک اللَّه خیر ولایة وبیّنها فی محکمات الشرایع

وهناک مصادر کثیرة من الفریقین أکّدت هذا المورد لهذه الآیة المبارکة (۲).

فَمَنْ حَاجَّکَ فِیهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَکَ مِنْ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَکُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَکُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَکُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَی الْکَاذِبِینَ (۳)

.

قد ینتهی‌الجدال إلی باب أو طریق مسدود، فیقف کلا الطرفین متمسکاً بما عنده، وهنا قد یبادر أحدهما حرصاً منه علی الثمرة، فیعلن شیئاً- بعیداً عن أدلّة کلّ منهما؛ لأنّ الحجج والأدلّة لم تؤدِ إلی نتیجة- یحسم ذلک النزاع، وهو ما فعله رسول اللَّه صلی الله علیه و آله- المتیقن للحقّ الذی بین یدیه- فی نقاشه الحاد مع نصاری نجران، الذین راحوا یتمسکون بباطلهم، وحتّی یکشف القناع عن وجوههم وعنادهم، فدعاهم إلی المباهلة بأن یدعو کلّ فریق أحباءه الخلّص، ثمّ یدعو اللَّه تعالی أن یصبّ لعنته وغضبه علی الکاذب منهما وأن یطرده من رحمته.

الواحدی فی أسباب النزول عن جابر بن عبداللَّه أنّه قال: قدم وفد أهل نجران علی النبیّ صلی الله علیه و آله: العاقب والسید، فدعاهما إلی الإسلام، فقالا: أسلمنا قبلک،

۱- ۱ المائدة: ۵۶؛ أسباب نزول القرآن: ۲۰۲.

۲- ۲ شواهد التنزیل ۱: ۲۲۳، ۲۳۱، الدرّ المنثور ۳: ۱۰۵، تفسیر الطبری ۴: الجزء السادس، ۲۸۹، سبط بن الجوزی فی تذکرته وتفسیر بن کثیر ۳: ۱۳۰ وتفسیر الفخر الرازی ۱۲: ۲۸، تذکرة الخواص ۱۵، تاریخ دمشق ۴۲: ۳۵۷، المعجم الوسیط ۶: ۲۱۸، ۶۲۳۲ والخوارزمی فی مناقبه: ۱۸۶ ونصّ علیه الحافظ البلخی الحنفی فی ینابیعه... إضافة إلی مصادر الإمامیة.

۳- ۳ آل عمران: ۶۱.

ص: ۵۹

قال: کذبتما، إن شئتما أخبرتکما بما یمنعکما من الإسلام، فقالا: هات أنبئنا، قال:

حبّ الصلیب، وشرب الخمر، وأکل لحم الخنزیر [وفی روایة أخری عن الحسن أنّه علیه السلام قال لهما: کذبتما یمنعکما من الإسلام [ثلاث]: سجودکما للصلیب، وقولکما:

اتخذ اللّه ولداً، وشربکما الخمر، فقالا: ما تقول فی عیسی؟

قال: فسکت النبیّ صلی الله علیه و آله ونزل القرآن: ذَلِکَ نَتْلُوهُ عَلَیْکَ مِنْ الْآیَاتِ وَالذِّکْرِ الْحَکِیمِ* إِنَّ مَثَلَ عِیسَی عِنْدَ اللَّهِ- إلی قوله- فَقُلْ تَعَالَوْا نَـدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَکُمْ.... فدعاهما رسول اللّه صلی الله علیه و آله إلی الملاعنة، فوعداه إلی الملاعنة علی أن یغادیاه بالغداة، فغدا رسول اللّه صلی الله علیه و آله فأخذ بید علیّ وفاطمة، وبید الحسن والحسین، ثمّ أرسل إلیهما، فأبیا أن یجیبا، فأقرّا له بالخراج، فقال النبیّ صلی الله علیه و آله:

«والذی بعثنی بالحقّ لو فعلا لمطر الوادی ناراً».

قال جابر: فنزلت فیهم هذه الآیة: فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَکُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَکُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَکُمْ.

قال الشعبی: أبناءنا: الحسن والحسین، ونساءنا: فاطمة، وأنفسنا: علیّ بن أبی‌طالب رضی اللّه عنه (۱).

وفی الکشّاف... فقال أسقف نجران: یا معشر النصاری! إنّی لأری وجوهاً لو شاء اللّه أن یزیل جبلًا من مکانه لأزاله بها، فلا تباهلوا فتهلکوا، ولا یبقی علی وجه الأرض نصرانی إلی یوم القیامة (۲).

ولما سئل أبوعبدالرحمن محمّد بن عائشة عن أفضل أصحاب رسول اللّه صلی الله علیه و آله، راح یعدد أصحاب رسول اللّه صلی الله علیه و آله فقال: أبوبکر، وعمر، وعثمان، وطلحة، والزبیر، وسعد، وسعید، وعبدالرحمن بن عوف، وأبوعبیدة بن الجرّاح.

فقال له السائل: فأین علی بن أبی‌طالب علیه السلام؟

قال: یا هذا! تستفتی عن أصحابه أم عن نفسه؟

قال: بل عن أصحابه.

۱- ۱ أسباب النزول: ۱۰۸.

۲- ۲ الکشاف ۱: ۱۹۳.

ص: ۶۰

قـال: إنّ اللَّه تبـارک وتعـالی یقول: فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَکُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَکُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَکُمْ فکیف یکون أصحابه مثل نفسه؟! (۱) وهناک مصادر أخری (۲).

إِنَّمَا یُرِیدُ اللَّهُ لِیُذْهِبَ عَنْکُمْ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَیْتِ وَیُطَهِّرَکُمْ تَطْهِیراً (۳)

.

إنّ مسألـة طهارة (الإمـام علی وفاطمـة الزهراء والحسن والحسین علیهم السـلام) أمر متّفـق علیه عنـد جمیع المسـلمین، بـل حتّی عند أعـدائهم یعـدّ أمراً واضـحاً لا لبس فیه ولا غموض، ولا شکّ یعتریه، وأمامک التأریـخ والتراجم، فلا تجد شـخصاً إلّا ویقول بتزکیتهم وطهارتهم بل لم یذکر لنا التاریخ عیباً فیهم أو خطأ ارتکبوه أو شططاً وقعوا فیه فیما کثرت زلّات غیرهم وعظمت أخطاؤهم ومعاصیهم سواء أکانوا رجالًا أو نساء... فسیرتهم علیهم السـلام صالحهٔ، ونفوسـهم طاهرهٔ، وحیاتهم مبارکهٔ... نعم اختلفوا معهم، ناصبوهم العداء، ثـاروا علیهم، تمرّدوا علیهم، افتروا علیهم... ولکن لا ـ شـک فی طهـارتهم وإنّمـا هی الـدنیا ومطامعهـا و «إنّه الملـک لو نـازعتنی علیه لأخذتُ الذی فیه عیناک» (۴).

ثمّ إنّ عدل القرآن کالقرآن فی طهارته وصفائه: «... إنّی تارک فیکم الثقلین:

کتاب اللَّه وعترتی أهل بیتی..».

فقـد راح رسول اللَّه صـلی الله علیه و آله یعـدّهم لیکونوا منهلًا عـذباً تنتهل منه الأمّهٔ، ومصدرَ خیروعطاءللناس و منبع تبلیغ لدین اللَّه و أحکامه و سـنهٔ نبیّه صـلی الله علیه و آله، ومرجعاًللأمّـهٔ تعود إلیهم دائماً فی تلقّی الأحکام وفی اتّخاذ المواقف... فلا بدّ من أن یکونوا علیهم السـلام علی درجـهٔ عالیـهٔ من تزکیـهٔ النفـوس وطهارتهـا وعلی یقین وبصـیرهٔ بـدین اللَّه وسـنهٔ نـبیّه الأ ـکرم، فطهـارتهم وبالتـالی عصمتهم هبهٔ إلهیّهٔ اختصّهم بها اللَّه تعالی دون الآخرین.

وکانت أمّ المؤمنین أمّ سلمهٔ تتمنّی أن تکون من أهل البیت علیهم السلام الذین کانوا فی بیتها مجتمعین تحت کساء واحد.

۱- ۱ أنظر المحاسن والمساوئ: ۴۲.

۲- ۲ الفخر الرازی ۸: ۸۸، تفسیر الطبری ۳: ۳۰۰، تذکرهٔ الخواص: ۱۴، الصواعق المحرقهٔ: ۱۴۵، ۱۵۵، التفسیر المنیر ۳: ۲۴۸، دلائل النبوّهٔ لابن نعیم: ۳۵۴، ۳۴۴، تفسیر ابن کثیر ۲: ۴۵، شواهد التنزیل ۱: ۱۶۳، ۱۷۳. الدر المنثور ۲: ۲۳۱... ومصادر الإمامیّهٔ.

۳- ۳ الأحزاب: ۳۳.

۴- ۴ من کلام هارون الرشید لابنه المأمون.

ص: ۶۱

فقـد جمع رسول اللّه صـلی الله علیه و آله علیّاً وفاطمـهٔ والحسن تحت کساء واحـد وقال: «اللّهمّ هؤلاء أهل بیتی أذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهیراً.»

فتقول أمّ سلمهٔ لرسول اللّه صلی الله علیه و آله: فأنا معهم یا نبیّ اللّه؟!

فیقول لها: «أنتِ علی مکانک، وأنت علی خیر».

انظر الواحدی فی أسباب النزول: بسنده عن أمّ سلمهٔ: أنّ النبیّ صلی الله علیه و آله کان فی بیتها، فأتته فاطمهٔ رضی اللّه عنها بِبُرمهٔ فیها خزیرهٔ، فدخلت بها علیه، فقال لها:

ادعی لی زوجک وابنیک، قالت: فجاء علیّ والحسن والحسین، فـدخلوا فجلسوا یأکلون من تلک الخزیرهٔ، وهو علی منامـهٔ له، وکان تحته کساء خیبریّ، قالت:

وأنا فی الحجرهٔ أصلّی، فأنزل اللّه تعالی هذه الآیهٔ: إِنَّمَا یُرِیدُ اللَّهُ لِیُذْهِبَ عَنْکُمْ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَیْتِ وَیُطَهِّرَکُمْ تَطْهِیراً.

قالت: فأخذ فضل الکساء فغشّاهم به، ثمّ أخرج یدیه فألوی بهما إلی السماء ثمّ قال: اللّهم هؤلاء أهل بیتی وخاصّتی [وحامیتی] فأذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهیراً.

قالت: فأدخلت رأسی البیت فقلت: وأنا معکم یا رسول اللّه، قال: إنّک إلی خیرٍ إنّک إلی خیر، ونقل أیضاً عن أبی سعید أنّ هذه الآیهٔ «نزلت فی خمسهٔ: فی النبیّ صلی الله علیه و آله وعلیّ وفاطمهٔ والحسن والحسین رضوان اللّه علیهم أجمعین (۱).

وانظر غیره من المصادر (۲).

أَفَمَنْ کَانَ مُؤْمِناً کَمَنْ کَانَ فَاسِقاً لَایَسْتَوُونَ (۳)

.

الطبری فی تفسیره عن عطاء بن یسار؛ نزلت بالمدینهٔ فی علیّ بن أبی‌طالب علیه السلام والولید بن عقبهٔ بن أبی معیط، کان بین الولید وبین علیّ علیه السلام کلام، فقال الولید بن عقبهٔ: أنا أبسط منک لساناً، وأحدّ منک سناناً، وأردّ منک للکتیبهٔ.

فقال علی علیه السلام: اسکت، فإنّک فاسق.

۱- ۱ أسباب نزول القرآن: ۳۶۸- ۳۶۹.

۲- ۲ ابن جریر الطبری فی تفسیره جامع البیان، والسیوطی فی تفسیره الدرّ المنثور، والترمذی فی تفسیره والحاکم عن عطاء بن یسار عن أمسلمه.. وقد صحّحه ووافقه الذهبی، وغیرها من کتب التفسیر والحدیث والتاریخ کالاستیعاب وأسد الغابهٔ... إضافهً إلی روایات الإمامیّهٔ.

۳- ۳ السجدهٔ: ۱۸.

ص: ۶۲

فأنزل اللّه فيهما: أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَايَسْتَوُونَ- إلى قوله- بِهِ تُكَذِّبُونَ.

وقال ابن عبّاس وغيره من المفسّرين: يعنى بالمؤمن عليّاً وبالفاسق الوليد ابن عقبهٔ (۱).

وختاماً لهـذا الإيجاز نقول: إنّ هـذه بعض الآيات التى حظى عليٌّ إما بها كاملـهٔ وإمّا بنصـيب وافر منها فعن حليهٔ الأولياء أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال: «ما أنزل اللّه آيهً فيها يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إلّاوعلىّ رأسها وأميرها» (۲).

وعن عبـداللّه بن عبّاس أنّه قال: «ليس من آيـهٔ فى القرآن فيها: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إلّاوعلىّ رأسـها وأميرها وشـريفها، [وعن حذيفهٔ بن اليمـان... إلّـا وكـان لعلىّ لبّهـا ولبابها. كما فى شواهـد التنزيل ۱: ۶۳، ۶۷] وقـد عـاتب اللّه أصـحاب محمّـد فى القرآن، وما ذكر عليّاً إلّابخير» (۳).

وعنه أيضاً: «ما نزل فى أحد من كتاب اللّه تعالى ما نزل فى علىّ» (۴).

الهوامش:

نظرهٔ موجزهٔ حول كتاب الولايهٔ لمحمد بن جرير الطبرىّ

۱- ۱ تفسير الطبرى ۱۱، الجزء ۲۱: ۱۰۷، وأنساب الأشراف ۲: ۳۸۰ وتاريخ بغداد ۱۳، ۳۲۱، ۷۱۹۱، الأغانى ۵: ۱۵۳، فضائل الصحابهٔ لابن حنبل ۲: ۶۱۱، ۱۰۴۳ تاريخ دمشق ۶۳: ۲۳۵...

۲- ۲ حليهٔ الأولياء ۱: ۶۴.

۳- ۳ فضائـل الصـحابهٔ لابن حنبل ۲: ۶۵۴، ۱۱۱۴، المعجم الكـبير ۱۱: ۲۱۱، ۱۱۶۸۷ تاريـخ دمشق، ترجمـهٔ علىّ عليه السـلام. تاريخ الخلفاء: ۲۰۳ شواهدالتنزيل ۱: ۶۴، ۷۰... ومصادر الإماميّهٔ.

۴- ۴ شواهد التنزيل ۱: ۵۲، ۴۹ وتاريخ الخلفاء: ۲۰۳.

ص:۶۳

ص: ۶۴

نظرة موجزة حول كتاب «الولاية» لمحمد بن جرير الطبرىّ

رسول جعفريان تمهيد:

قلّ مَن لاـ يعرف منّا محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبرىّ الآملىّ (۲۲۴- ۲۸ شوال ۳۱۰ ه) المحدّث والمفسّر والفقيه والمؤرّخ المشهور، من أهل السنّة الذى وُلِد فى القرن الثالث وتوفى فى أوائل القرن الرابع الهجرى. وقد تمّ تأليف الكثير من كتب التحقيق والدراسات حول هذه الشخصية العلمية البارزة، وعلى هذا فلا حاجة بنا هنا إلى تكرار ذلك أو التذكير به (۱). وعند مقارنتنا بين مؤلفات الطبرىّ وبين ما أفرزته قريحة علماء آخرين من بغداد فى القرن نفسه لاـ نشك بتقدّم منزلته عليهم فى كثير من العلوم كالفقه (۲) والحديث والتفسير، وخصوصاً فى مجال التاريخ الذى تناول فيه معظم معاصريه فى تلك الفترة. ويمكن اعتبار الطبرى فى عِداد كبار المؤرخين من أهل السنّة من أمثال الخطيب البغدادىّ وابن الجوزى وشمس الدين الذهبى وابن حَجَر، وذلك لِما خلّفه من آثار قيّمة فى تاريخ الفكر السنّىّ ومن تآليف جيّدة وخالدة- خصوصاً كتابيه المشهورين فى التاريخ والتفسير- ويعرّف شخصيّته الفريدة، ما ولّدته تلك الكتب من تأثير كبير على

۱- ۱ تاريخ الإسلام للذهبى: ۳۱۰- ۳۲۰، ۲۷۹- ۲۸۶، حيث ذكرت هناك عشرات المصادر فى شرح تلكالشخصية. راجع كذلك لسان العرب ۵: ۷۵۷، ش ۷۱۹۰، إذ ذكرت هناك بالترتيب المصادر التى شرحت فيها استناداً إلى مصادر كثيرة أخرى. وقد عدّ السيوطى فى رسالته الموسومة «التنبيه بمن يبعثه اللّه على رأس كل مائة» الطبرى بأنه جدير اعتباره شخصية متميزة رأس المئة الثانية للهجرة.- خلاصة عبقات الأنوار ۶: ۹۴ طبعة قم ۱۴۰۴ ه، نقلًا عن الرسالة المذكورة-.

۲- ۲ يصف الطبرانى المتوفى ۳۶۰ المحدث الكبير وصاحب المعاجم الثلاثة الصغيرة المعروفة: الصغير والأوسطوالكبير، الطبرىّ ب «الطبرىّ الفقيه». راجع: المعجم الكبير ۹: ۲۹۲.

ص: ۶۵

التأليفات التى كتبها كلّ من جاء بعده.

وقـد تطرّقنا إلى معتقـدات الطبرى الدينية فى مكان آخر وذكرنا الظروف العقائدية الغريبة التى كانت سائدة فى بغداد فى تلك الحقبة من التاريخ والتى قادت الطبرى يومئذ إلى مواجهة مباشـرة مع الحنابلة والمتطرّفين (۱). ويمكننا القول: إنّه ليس بمقدورنا الوقوف على الحافز الرئيس الـذى دفع الطبرى إلى تأليف كتاب (الولايـة) والـذى جمع فيه كلّ طرق الحـديث الخاصـة بحادثة الغدير، دون مطالعة تلك الكتابات ودراسـة أبعادها. فقـد كان حنابلـة بغداد الذين ورثوا العداوة للإمام على عليه السـلام عن الأمويين ينكرون فضائله عليه السـلام جهراً وعلانيـة، حتى بلغت تلك العداوة مبلغاً أثارت معها حفيظة ابن قُتيبة (العالم والمحدّث وهو من أهل السنّة) وأشـعلت نار الغضب والسّخط فى أعماقه (۲). أضف إلى ذلـك نظرة العثمـانيين إلى الحـديث والأخبـار وانقيـادهم الأعمى وراء بعض الأحاديث المختلقة والمنسوبة إلى الرسول الأعظم صـلى الله عليه و آله ممّا تسـبّبت فى عدم إجازتهم علماء الإسـلام، ولو للحظة واحدة، التخطّى عن ظهور تلـك الأحـاديث. وفى خضم تلـك الأحـداث انبرى الطبرىّ الـذى كـان يرى فى نفسه أنّه أعلى مرتبـة من الجميع بمـا فيهم أحمد بن حنبل، انبرى للتصدى لتلك المجموعة وفى مختلف الصُّعُد كاسراً بذلك طوق الحصار الذى فرضته تلك العناصر.

وسـنعالج لاحقاً السـبب وراء تأليف الطبرىّ كتاب (الولايـة). وأمّا ما نودّ التنويه إليه هنا هو أنّ مؤلف الكتاب المذكور- والذى فُقِدَت نُسخته الأصلية حسب ما لدينا من المعلومات- لا محالة هو محمد بن جرير الطبرىّ المؤرّخ المشهور الذى ذاع صيته فى بغداد. ولحسن الحظ توجـد لدينا فى هذا المجال مصادر قديمة يبدو أنّها دوّنت فى الجيل الذى تلا الطبرىّ وحتى القرن العاشـر الهجرى، وهى عبارة عن نصوص قيّمة تشير إلى ما نحن بصدده، وسنحاول التّعريف بها بعد حين.

۱- ۱ راجع المقالـة تحت عنوان «أهل الحـديث وكتاب- السـنّة- للطبرىّ» فى قسم «المقالات التاريخيـة» المجلدالثانى؛ وكذلك مقالة «دور أحمد بن حنبل فى تعديل مذهب أهل السنّة» فى قسم «المقالات التاريخية» أيضاً المجلد السادس.

۲- ۲ يشـير ابن قتيبـة إلى تقصـير أهل الحـديث فى نقل الأحاديث الخاصة بفضائل الإمام على عليه السـلام تعليقاً له على ردّفعلهم فى مقابل الرافضة الذين قيل عنهم أنّهم يُغالون فى رفع منزلة على عليه السلام فوق كلّ منزلة، حيث يقول: «لقد أخرج هؤلاء علياً من زمرة أئمـة الهـدى مُـدخلين إيّاه فى جُملـة قادة الفِتَن ولا يثبتون له حقاً الخلافـة بحجـة أنّ الناس لم يجتمعوا إليه لمبايعته، لكنّهم ومن جهة أخرى يقبلون بيزيـد كونه خليفـةً لاجتمـاع الناس إليه ومبايعته». ثم يسـتطرد ابن قتيبـة بقوله: «وتحامى كثير من المحـدثين أن يحـدثوا بفضائله كرم اللّه وجهه أو يظهروا ما يجب له، وكل تلك الاحاديث لها مخارج صـحاح. وجعلوا ابنه الحسـين عليه السلام خارجيّاً شاقّا لعصـا المسـلمين، حلال الـدم، لقول النبىّ صـلّى اللّه عليه وسـلم من خرج على امّتى و هم جميع، فاقتلوه كائناً من كان. و سوّوا بينه فى الفضل وبين أهل الشورى لأن عمر لو تبيّن له فضـله لقـدّمه عليهم و لم يجعل الأمر شورى بينهم. وأهملوا من ذكره أو روى حديثاً من فضائله حتى تحامى كثير من المحدثين أن يتحدثوا بها وعنوا بجمع فضائل عمرو بن العاص و معاوية كأنهم لا يريدونهما بذلك وإنما يريدونه. فإن قال قائل: أخو رسول اللّه صـلّى اللّه عليه وسـلم علىّ وأبو سبطيه الحسن والحسين وأصحاب الكساء علىّ وفاطمة والحسن والحسـين؛ تمعّرت الوجوه وتنكّرت العيون وطرّت حسائـك الصـدور. وإن ذكر ذاكر قول النبىّ صـلّى اللّه عليه و سـلم من كنتُ مولاه فعلىّ مولاـه و أنتَ مِنّى بمنزلـة هـارون من موسـى؛ وأشـباه هـذا، التمسوا لتلك الأحاديث المخارج لينقصوه ويبخسوا حقّه بُغْضاً منهم للرّافضة وإلزاماً لعلىّ عليه السـلام بسـببهم ما لايلزمه وهذا هو الجهل بعينه. والسلامة لك أن لاتهلك بمحبّته ولا تهلك ببغضته وأن لا تحتمل ضـغناً عليه بجناية غيره، فإن فعلتَ فأنتَ جاهل مفرط فى بغضه وإن تعرف له مكانة من رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم بالتربية

والأخوة والصـهر والصبر فى مجاهدة أعدائه وبذل مهجته فى الحروب بين يديه مع مكانه فى العلم والدين والبأس والفضل من غير أن تتجاوز به الموضع الـذى وضـعه به خيـار السـلف لما تسـمعه من كثير فضائله فهم كانوا أعلم به وبغيره ولأنّ ما أجمعوا عليه هو العيان الذى لاشكّ فيه، والأحاديث المنقولة قد يدخلها تحريف وشوب ولو كان إكرامك لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم هو الذى دعاك الى محبّة من نازع علياً وحاربه ولعنه إذ صـحب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسـلم وخدمه وكنت قد سـلكت فى ذلك سبيل المستسـلم لأنـت بـذلك فى علىّ عليه السـلام أولى لسابقته وفضـله وخاصـته وقرابته والـدناوة التى جعلها اللّه بينه وبين رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسـلم عنـد المباهلـة، حين قال تعالى: «قل تعالوا نـدع أبناءنا وأبناءكم...» فـدعا حَسـناً وحُسـيناً «و نساءنا و نساءكم» فـدعا فاطمـة عليها السـلام «و أنفسـنا و أنفسـكم» فـدعا علياً عليه السـلام. ومن أراد اللّه تبصـيره بصّـره ومن أراد به غير ذلك حيّره». راجع: الاختلاف فى اللفظ: ۴۱– ۴۳ بيروت، دارالكتب العلمية.

ص: ۶۶

صحيح أنّ هناك واحداً أو اثنين من الشّخصيات سميت كذلك باسم (الطبرىّ) وأنّ أحدهم هو الطبرىّ الشيعىّ صاحب كتاب (المسترشد) (۱) والآخر هو الطبرىّ مؤلّف كتاب (دلائل الإمامة) (۲)، إلّاأنّ نسبة ذلك الكتاب (وأعنى كتاب الولاية) وهو كتاب بُيِّنت فيه طُرُق حديث (الغدير) إلى ذلك العالِم الشيعىّ لا يمكن أن يدلّ إلّاعلى جهل تامّ بالمعلومات الواردة فى النصوص التأريخية المتقنة؛ وباختصار ليس ذلك إلّارَجماً بالغيب والظنون التى لا تستند إلى أىّ أساس تأريخىّ على الإطلاق (۳).

عنوان الكتاب:

لقد أُطلِقت أسماء مختلفة على كتاب الطبرىّ، كما جرت العادة على ذلك وكما هو الحال مع الكثير من الرسائل والكتب القديمة، ويمكننا تعليل ذلك فى كون أنّ الأوائل كانوا يطلقون على بعض الكتب تسميات متعددة وذلك حسب ميولهم وحسب ما يقتضيه الموضوع العام للكتاب نفسه معتقدين بتناسب تلك التسميات مع ما تتضمّنه تلك الكتب من محتويات. إضافة إلى ذلك يبدو أنّ بعضاً من تلك التسميات يشير إلى مجموعة من الموضوعات المتنوعة والمكتوبة جنباً إلى جنب، وقد تشير تسميات أخرى إلى بعض أقسام أو فصول الكتاب نفسه والتى قد تُكتَب أحياناً بصورة مستقلة. فعلى سبيل المثال العنوان الذى ذكره ابن طاووس على أنّه عنوان الكتاب الذى ألّفه الطبرى هو عنوان يمكن أن يشمل كذلك موضوع حديث الولاية وهو الموضوع الذى غدا بعد ذلك كتاباً مستقلًا بحدّ ذاته، إضافة إلى استخدام عنوان كتاب (الولاية) وتكرار ذكره من قِبَل الدّارسين والمطالعين لهذا الكتاب، فقد ذكره كذلك ابن شهراشوب فى كتاب ببليوغرافىّ معروف وأشار إليه بالحرف الواحد (۴).

وورد عنوان آخر للكتاب نفسه فى الرجال للنجاشىّ، وهو: (الردّ على الحرقوصية) مؤكداً على أنّه كتاب للطبرىّ (المؤرّخ السنىّ المعروف) مشيراً إلى أنّه

۱- ۱ تحقيق أحمد المحمودى، قم، مؤسسة الثقافة الإسلامية لكوشانپور، ۱۴۱۵ مقدمة المصحح.

۲- ۲ تحقيق قسم الدراسات الإسلامية فى مؤسسة البعثة، قم، ۱۴۱۳.

۳- ۳ البداية والنهاية ۱۱- ۱۲: ۱۶۷، ذيل حوادث سنة ۳۱۰؛ والذريعة ۱۶: ۳۵؛ وشرح الأخبار ۱: ۱۳۱- ۱۳۲ الهامش. وقال كلبرگ، مشيراً إلى اعتقاد آقابزرگ الطهرانى فى هذا المجال من أنّ كتاب مناقب أهل‌البيت والذى نسبه ابن طاووس إلى الطبرىّ المؤرخ المعروف، إنّما يعود إلى الطبرىّ الشيعىّ، قال: «الظاهر هو عدم وجود أىّ مصدر موثوق يؤيّد إعتقاد آقا بزرگ». مكتبة ابن طاووس: ۳۹۸، ش ۳۵۶.

۴- ۴ معالم العلماء: ۱۰۶، ش ۷۱۵؛ راجع كذلك عمدة عيون صحاح الاخبار لابن بطريق: ۱۵۷.

ص: ۶۷

قد تناول فی الکتاب المذکور مسألة (حدیث الغدیر) حیث قال: «له کتاب الردّ علی الحرقوصیة، ذکر (فیه) طرق خبر یوم الغدیر» (۱).
وصرح ابن طاووس کذلک أنّ الطبری سمّی کتابه (الردّ علی الحرقوصیة) (۲)، ویعتقد ابن طاووس أنّ السبب الذی دعا الطبریّ إلی تسمیة کتابه بهذا الاسم هو کون أحمد بن حنبل ینحدر نسبه من حرقوص بن زهیر زعیم الخوارج (۳). وأما (روزنثال) فقد احتمل أن تکون تسمیة الکتاب قد جاءت بسبب احتقار الطبریّ أبا بکر بن أبی داود السجستانیّ وازدرائه وهو الأمر الذی دعاه إلی تألیف کتاب (الولایة) کردّ علی السجستانیّ هذا، مشیراً إلی أنّ کلمة (حرقوص) فی اللغة تعنی (ذبابة) أو (دویبة نحو البرغوث) (۴). وربما أمکننا إضافة الاحتمال التالی إلی ما سبق وهو أنّ الطبریّ فی استخدامه لهذا الاسم أراد الإشارة إلی فلسفته فی تصنیف هذا الکتاب للردّ علی شخص ناصبیّ إذا ما علمنا أنّ الخوارج کانوا أعداءً لعلیّ علیه السلام وأنّ زعیمهم کان حرقوص بن زهیر، ومن هنا استلهم الطبریّ اسم کتابه یرید بذلک إظهار الحنابلة المتطرفین بمظهر الخوارج والناصبین، وبذلک ینتفی الزّعم القائل بکون الاسم مستوحًی من نسب أحمد بن حنبل.
وتجدر الإشارة هنا إلی أنّ العنوان (رسالة فی طرق حدیث الغدیر) یتلاءم تماماً مع مضمون الکتاب الذی أطلقت علیه هذه التسمیة ودون أیّ التباس أو إبهام (۵). وموازاةً مع ما ذُکِر، فقد أورد (کالبرگ) عنوان کتاب (الولایة) وکتاب (المناقب) فی موضعین، فی حین یشیر هو شخصیاً إلی إمکانیة کون کتاب (الولایة) جزءاً من کتاب أشمل یدعی کتاب (الفضائل) أو کتاباً آخر بعنوان (المناقب) (۶).

وأما کلّ من استند إلی هذا الکتاب أو تدارسه أو اقتبس منه فقد أشار إلیه تارةً علی أنّه کتاب (فضائل علیّ علیه السلام) أو (المناقب) تارةً أخری، لکنهم جمیعاً قاموا بنقل حدیث الغدیر من هذا الکتاب تماماً، کما فعل البعض من أمثال ابن

۱- ۱ رجال النجاشیّ: ۳۲۲، ش ۸۷۹.

۲- ۲ إقبال الأعمال ۲: ۳۰ قم ۱۴۱۵ ه.

۳- ۳ الطرائف: ۱۴۲.

۴- ۴ مکتبة ابن طاووس: ۲۸۸.

۵- ۵ للحصول علی معلومات أکثر بهذا الخصوص راجع: مکتبة ابن طاووس: ۲۸۶.

۶- ۶ مکتبة ابن طاووس: ۲۸۶، ش ۱۷۱؛ ص ۳۹۸، ش ۳۵۶.

ص: ۶۸

شهراشوب حين أورد اسم كتاب (الولايـة) فى مُصـنّفه الموسوم ب (المناقب) وقاموا بنقل الفضائل عنه. ومن هنا يتّضـح لنا عدم مراعاة الدقة فى هذه المسألة بالشكل الكافى.

من الذى كان يملك كتاب (الغدير) أو (المناقب)؟:

كلّ ما نعلمه هو أنّ كتاب (الغـدير) أو (المناقب) كان بحيازة عـدد قليل من المؤلفين والمؤرخين والمحـدثين المسلـمين والكبار منهم على الأخصّ وذلك حتى القرن التاسع (۱)(۲). وإليك أسماء بعض ممّن تداولوا الكتاب المذكور:

۱- القاضى نعمان الإسماعيلىّ (ت: ۳۶۳) وهو أكثر من نقل عن هذا الكتاب.

۲- النجاشىّ (۳۷۲- ۴۵۰)؛ ذكر اسم الكتاب وأشار إلى أنّه اعتمد عليه فى تثبيت طرق اسناده.

۳- الشيخ الطوسى (ت: ۴۶۰) أيضاً.

۴- ياقوت الحموىّ (ت: ۶۲۶) الذى نوّه بالتفصيل إلى كيفية تصنيف هذا الكتاب.

۵- ابن بطريق (ت: ۶۰۰) الذى أشار إلى عدد الطرق فى نقل حديث الغدير الوارد فى هذا الكتاب.

۶- ابن شهراشوب (ت: ۵۸۸) والذى أورد اسم الكتاب خلال ترجمته للمصنّف، وأشار كذلك إلى عدد الطرق فى نقل حديث الغدير الوارد فى هذا الكتاب، وذكر أيضاً اسم هذا الكتاب فى مواضع عديدة من كتابه (المناقب).

۷- ابن طاووس (ت: ۶۶۴)؛ فقد أورد اسم الكتاب وقام بالنّقل عنه.

۸- شمس الدين الذهبىّ (ت: ۷۴۸) الذى قيل إنّه رأى الكتاب المذكور بأمّ عينه وقام كذلك بنقل أحاديث كثيرة عنه.

۹- ابن كثير (ت: ۷۷۴) وهو كذلك ممّن رأى الكتاب وقام بنَقل عدة روايات عنه.

۱- ۱ الغريب أنّ فؤاد سزگين لم يُشر إلى أىّ من محتويات كتاب الطبرىّ هـذا لا من قريب ولا من بعيد تاريخ التراث العربى المجلّد الأوّل، التـدوين التاريخىّ: ۱۶۸، ولا حتى الإشارة إليه فى فهرست أسـماء الكتب بكونه من مصـنفات الطبرىّ سوى إلماعـة بسيطة عن رسالة الردّ على الحرقوصية فى ذيل هامش ت

۲- ۱ الغريب أنّ فؤاد سزگين لم يُشر إلى أىّ من محتويات كتاب الطبرىّ هـذا لا من قريب ولا من بعيد تاريخ التراث العربى المجلّد الأوّل، التـدوين التاريخىّ: ۱۶۸، ولا حتى الإشارة إليه فى فهرست أسـماء الكتب بكونه من مصـنفات الطبرىّ سوى إلماعـة بسيطة عن رسالة الردّ على الحرقوصية فى ذيل هامش تلك الصفحة نقلًا عن (بروكلمان) مشيراً إلى حديث النّجاشى دون التنويه فى كتبه اللاحقة إلى باقى محتويات هذا الكتاب القيّم.

ص: ۶۹

۱۰- ابن حَجَر (ت: ۸۵۲) وهو أيضاً كان قد شاهد الكتاب بنفسه.

والواقع أنّ هذا الأمر على قدر من الوضوح والجلاء بحيث لا يحتاج إلى مزيد إثبات من أحد. وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ أحداً لم يتطرّق إلى التعريف بهذا الكتاب النفيس مثلما فعل الأستاذ العلامة المرحوم السيّد عبد العزيز الطباطبائىّ الذى أوقف جلّ عمره فى التّحقيق فيما يخصّ الإمام أمير المؤمنين وأهل البيت (عليهم السلام) عموماً (۱).

والآن دعونا نطالع ما قيل فى حقّ الكتاب الذى نحن بصدده:

إنّ القاضى نعمان- أبو حنيفة نعمان بن محمّد التميمىّ المغربىّ الكاتب العالِم والإسماعيلىّ المذهب فى عهد الدولة الفاطمية (ت: ۳۶۳)- أكثر من نقل عن الكتاب المذكور (كتاب الولاية) وذلك فى المجلد الأول من كتاب (شرح الأخبار فى فضائل الأئمة الأطهار)، وسنتحدّث عن ذلك بالتفصيل فى السطور التالية.

كتب أبو العباس أحمد بن على النّجاشىّ عن الطبرىّ وكتابه (الغدير) يقول:

«أبو جعفر الطّبرى عامىّ، له كتاب الردّ على الحرقوصية، ذكر طرق خبر يوم الغدير، أخبرنا القاضى أبو إسحاق إبراهيم بن مخلّد، قال: حدّثنا أبى، قال: حدّثنا محمد بن جرير بكتابه (الردُّ على الحرقوصية)» (۲).

وقال الشيخ الطوسىّ كذلك مشيراً إلى الكتاب المذكور:

«محمد بن جرير الطبرى، أبو جعفر، صاحب التاريخ، عامىّ المذهب. له كتاب خبر غدير خمّ، تصنيفه وشرح أمره. أخبرنا أحمد بن عبدون، عن أبى بكر الدورى، عن ابن كامل، عنه» (۳).

وعلّق يحيى بن الحسن المعروف بابن البطريق (۵۲۳- ۶۰۰) بقوله:

«وقد ذكر محمد بن جرير الطبرى، صاحب التاريخ خبر يوم الغدير وطرقه من خمسة وسبعين طريقاً، وأفرد له كتاباً سمّاه كتاب (الولاية)» (۴).

وأشار ابن شهراشوب إلى كتاب (الولاية) للطبرىّ أيضاً حيث قال:

۱- ۱ الغدير فى التراث الاسلامىّ: ۳۵- ۳۷؛ أهل البيت فى المكتبة العربية: ۶۶۱- ۶۶۴.

۲- ۲ رجال النجاشىّ، تحقيق السيد موسى الشبيرى، قم: ۳۲۲، ش ۸۷۹.

۳- ۳ كذا؛ وفى موضع آخر: كتاب خبر غدير خم وشرح أمره، تصنيفه. فهرسة كتب الشيعة وأصولها، تحقيق السيد عبدالعزيز الطباطبائى، قم، ۱۴۲۰: ۴۲۴، ش ۶۵۵.

۴- ۴ عمدة عيون صحاح الأخبار: ۱۵۷ قم، ۱۴۱۲ ه.

ص: ۷۰

«أبوجعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبرى صاحب التاريخ، عامىّ، له كتاب غدير خمّ وشرح أمره، وسمّاه كتاب (الولاية)» (۱).

وسنرى كيف أنّه (أى ابن شهراشوب) قام بنقل بعض الروايات عن هذا الكتاب فى مصنّفه الموسوم ب (مناقب آل أبى طالب).

وخلال إثباته لتواتر حديث الغدير، أشار الشيخ سديد الدين محمود الحمصىّ الرازىّ (من علماء القرن السابع الهجرىّ) إلى مؤلفات أصحاب الحديث، ومن جملة ما قال معلّقاً على ذلك:

«لأن أصحاب الحديث أوردوه من طرق كثيرة، كمحمد بن جرير الطبرى فإنّه أورده من نيّف وسبعين طريقاً فى كتابه» (۲).

وكتب أحمد بن موسى بن طاووس (أحد العلماء الذين اشتهروا فى منتصف القرن السابع الهجرىّ) بهذا الصدد قائلًا:

«وساقه [أى حديث الغدير] أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى (صاحب التفسير والتاريخ الكبير) من خمسة وسبعين طريقاً» (۳).

ونقل رضىّ الدين علىّ بن طاووس (۵۸۹- ۶۶۴) بعض النصوص من كتاب (مناقب أهل البيت) للطبرىّ (۴) وفى مكان آخر أشار كذلك إلى كتاب (الولاية) أيضاً والذى سنأتى على تفصيله فيما بعد. وأما ما قاله ابن طاووس تعليقاً على كتاب (الولاية) للطبرىّ فهو كالآتى:

«ومن ذلك ما رواه محمد بن جرير الطبرى صاحب التاريخ الكبير صنّفه وسمّاه كتاب (الردّ على الحرقوصية)، روى فيه حديث يوم الغدير وما نصّ النبى على علىّ عليه السلام بالولاية والمقام الكبير، وروى ذلك من خمس وسبعين طريقاً» (۵).

وقال فى مكان آخر:

«وأما الذى ذكره محمد بن جرير صاحب التاريخ فإنّه فى مجلّد» (۶).

وكتب فى موضع غيره:

۱- ۱ معالم العلماء: ۱۰۶، ش ۷۱۵.

۲- ۲ المنقذ من الضلال ۱: ۳۳۴ قم، مؤسسة النشر الاسلامى، ۱۴۱۴ ه.

۳- ۳ بناء المقالة الفاطمية فى نقض الرسالة العثمانية، مؤسسة آل البيت، قم، ۱۴۱۱ ه: ۲۹۹- ۳۰۰.

۴- ۴ اليقين: ۲۱۵.

۵- ۵ إقبال الأعمال ۲: ۳۰ قم ۱۴۱۵ ه.

۶- ۶ المصدر السابق ۲: ۲۴۸.

ص: ۷۱

«وقد روى الحديث فى ذلک محمد بن جرير الطبرى صاحب التاريخ من خمس وسبعين طريقاً وأفرد له كتاباً سمّاه (حديث الولاية)» (۱).

وكتب شمس الدين الذهبىّ (۶۷۳- ۷۴۸) يقول:

«ولمّا بلغه أنّ ابن أبى داود تكلّم فى حديث غدير خم، عمل كتاب (الفضائل) وتكلّم على تصحيح الحديث. قلت: رأيت مجلداً من طرق الحديث لابن جرير فاندهشْتُ له لكثرة الطرق» (۲).

وسنرى أنّ الذهبىّ الذى نظنّه لم يرَ من الكتاب إلّاجزؤه الثانى، كيف ينقل بعض الروايات من هذا الكتاب فى كتابه (طرق حديث- من كنتُ مولاه-). وقال الذهبىّ فى موضع غير هذا:

«قال محمد بن جرير الطبرى فى المجلّد الثانى من كتاب (غدير خم) له، وأظنه بمثل جمع هذا الكتاب نسب الى التشيّع، فقال:...» (۳).

وذكر ابن كثير (ت: ۷۷۴) فى ترجمته للطبرىّ فى ذيل حوادث سنة (۳۱۰) مايلى:

«وقد رأيتُ له كتاباً جمع فيه أحاديث غدير خمّ فى مجلدين ضخمين» (۴).

وكتب ابن حَجَر العسقلانى (۷۷۳- ۸۵۲) معلّقاً على ما أورده المزىّ فى (تهذيب الكمال) بقوله:

«لم يزد على ما أتى به ابن عبد ربّه فى الاستيعاب سوى نقله لحديث الموالاة (۵) وقد جمعه ابن جرير الطبرىّ فى مؤلّف فيه أضعاف من ذكر (۶) وصحّحه واعتنى بجمع طرقه أبو العبّاس بن عقدة فأخرجه من حديث سبعين صحابيّاً أو أكثر» (۷).

هدف الطبرىّ من تأليف كتاب (الولاية):

أشار بعض المصادر إلى الهدف الذى توخّاه الطبرى وراء تأليفه لكتاب (الولاية). وخلاصة الأمر أنّ عالماً من سجستان (هو ابن السجستانىّ المعروف

۱- ۱ الطرائف: ۱۴۲؛ وانظر أيضاً: ۱۵۴ قم، ۱۴۰۰ ه.

۲- ۲ تذكرة الحفّاظ، بيروت، دار الكتب العلمية ۲: ۷۱۳.

۳- ۳ «طرق حديث من كنت...»: ۶۲، ش ۶۱.

۴- ۴ البداية والنهاية ۱۱- ۱۲: ۱۶۷، ذيل حوادث سنة ۳۱۰.

۵- ۵ تهذيب الكمال ۲۰: ۴۸۴.

۶- ۶ كتب فى فتح البارى ۷: ۶۱ دون الإشارة إلى كتاب الطبرى يقول: «وأوعب من جمع مناقبه [يعنى علياً] من الأحاديث الجياد النسائى فى كتاب الخصائص؛ وأما حديث من كنت مولاه فعلىّ مولاه، فقد أخرجه الترمذى والنسائى وهو كثير الطرق جداً، وقد استودعها ابن عقدة فى كتاب مفرد؛ وكثير من أسانيدها صحاح وحسان».

۷- ۷ «تهذيب التهذيب» ۷: ۲۹۷ بيروت، دارالفكر. وكانت توجد نسخة من كتاب «جمع طرق حديث الغدير» لابن عقدة فى حوزة ابن حجر. راجع: «المقالات التاريخيّة»، المجلد السادس، مقالة المصادر التاريخيّة لابن حجر فى الإصابة: ۳۶۳.

ص: ۷۲

صاحب السنّن) قام بتفنيد حديث الغدير مّما حدا بالطبريّ إلى تأليف الكتاب المذكور (كردّ على تلك الصيحة). دعونا نتابع التقارير المدوّنة فى المصادر القديمة فيما يخصّ هذا الأمر.

يعدّ القاضى نعمان أوّل من بيّن العلّة فى تأليف كتاب (الولاية)، فهو القائل:

«فمن ذلك أنّ كتابه الذى ذكرناه وهو كتاب لطيف بسيط ذكر فيه فضائل علىّ عليه السلام وذكر أنّ سبب بسطه إيّاه، إنّما كان لأنّ سائلًا سأله عن ذلك لأمر بلغه عن قائل زعم أنّ عليّاً عليه السلام لم يكن شهد مع رسول اللَّه صلّى اللَّه عليه وآله حجّة الوداع الّتى قيل إنّه قام فيها بولاية على بغدير خمّ ليدفع بذلك- بزعمه- عنه حديث رسول اللَّه صلّى اللَّه عليه وآله: «من كنتُ مولاه فهذا علىّ مولاه». فأكثر الطّبرىّ التّعجب من جهل هذا القائل واحتجّ على ذلك بالروايات الثابتة على قدوم علىّ من اليمن على رسول اللَّه صلّى اللَّه عليه وآله» (۱).

وأمّا ياقوت الحموىّ فقد أخذ جلّ معلوماته من أبى بكر بن كامل بخصوص الطبرىّ. فمن جملة ما قال (عند إحصائه لعدد من مؤلفات الطبرىّ):

«وكتاب فضائل على بن أبى طالب رضى اللَّه عنه تكلّم فى أولّه بصحّة الأخبار الواردة فى غدير خمّ، ثم تلاه بالفضائل ولم يتمّ» (۲).

وفى إشارة له على كون الطبرىّ كان قد غفر لكلّ مَن أساء إليه إلّاأولئك الذين اتّهموه بالبدعة، مدح ياقوت الحموىّ الطبرىّ على سجيّته هذه، ثم ينقل ما قاله أبو بكر بن كامل:

«وكان إذا عرف من إنسان بدعة أبعده وأطرحه. وكان قد قال بعض الشيوخ ببغداد بتكذيب حديث غدير خمّ، وقال: إنّ علىّ بن أبى طالب كان باليمن فى الوقت الذى كان رسول اللَّه صلّى اللَّه عليه وآله بغدير خمّ. وقال هذا الإنسان فى قصيدة مزدوجةٍ يصف فيه بلدًا بلدًا ومنزلًا منزلًا يُلَوِّح فيها الى معنى حديث

۱- ۱ شرح الأخبار ۱: ۱۳۰- ۱۳۲.

۲- ۲ معجم الأدباء ۱۸: ۸۰.

ص: ۷۳

غدير خمّ فقال:

ثمّ مَرَرنا بغدير خمّ كم قائل فيه بزور جَمّ

على علىٍّ والنبىّ الأمىّ

وبلغ أبا جعفر ذلك، فابتدأ بالكلام فى فضائل علىّ بن أبى طالب عليه السلام وذكر طريق حديث خُمّ، فكَثُر الناس لاستماع ذلك واستمع [اجتمع] قوم من الرّوافض من بسط لسانه بما لايَصْلُحُ فى الصّحابة فابتدأ بفضائل أبى بكر وعمر» (۱).

ويُلاحظ فى النصّ السابق عدم ذِكر اسم الشخص الذى طرح هذا الإشكال، لكنّ شمس الدين الذهبىّ يعطى صورة أوضح لهذه المسألة مقتبساً قوله من أبى محمد عبد اللّه بن أحمد بن جعفر الفَرَغانىّ (الذى اعتبره الذهبىّ صديقاً للطبرىّ (۲) وأنّه هو الذى قام بنقل أغلب ما نعلمه عن الطبرىّ، وهو الذى وشّح كتاب التاريخ للطبرىّ بحاشيته) (۳). يقول الذهبىّ:

«ولمّا بلغه [الطبرىّ] أنّ ابن أبى داود تكلّم فى حديث غدير خمّ، عمل كتاب الفضائل وتكلّم على تصحيح الحديث» (۴).

وفى مكان آخر حينما عدّ ما ألّفه الطبرى من الكتب يقول الذهبىّ:

«ولمّا بلغه أنّ أبا بكر بن أبى داود تكلّم فى حديث غدير خمّ، حمل كتاب الفضائل، فبدأ بفضل الخلفاء الراشدين، وتكلّم على تصحيح حديث غدير خمّ، واحتجّ لتصحيحه» (۵).

والفرغانىّ هو القائل لهذه الكلمات وابن عساكر هو الذى نقلها بأكملها، فقد كتب يقول بعد أن عدّ مؤلفات الطبرىّ بالتّفصيل:

«ولمّا بلغه أن أبا بكر بن أبى داود السجستانىّ [ت ۳۱۶] تكلّم فى حديث غدير خمّ عمل كتاب الفضائل، فبدأ بفضل أبى بكر وعمر وعثمان وعلى رحمة اللّه عليهم، وتكلّم على تصحيح حديث غدير خمّ واحتجّ لتصحيحه وأتى من فضائل

۱- ۱ المصدر السابق ۱۸: ۸۴- ۸۵.

۲- ۲ تاريخ الإسلام للذهبىّ: ۳۱۰- ۳۲۰، ۲۸۱.

۳- ۳ راجع بهذا الخصوص: سير أعلام النّبلاء ۱۶: ۱۳۲.

۴- ۴ تذكرة الحفّاظ ۲: ۷۱۳.

۵- ۵ تاريخ الإسلام للذهبىّ: ۳۱۰- ۳۲۰، ۲۸۳.

ص: ۷۴

أمير المؤمنين علىّ بما انتهى إليه ولم يتم الكتاب، وكان ممّن لايأخذه فى دين اللّه لومة لائم...» (۱).

وهناك إشارات واضحة كذلك إلى الإشكال الذى صدر عن أبى بكر عبد اللّه ابن أبى داود سليمان السّجستانىّ فى مؤلفات الشيعة فى مجال علم الكلام عند بحث مسألة حديث الغدير، وأُشير أيضاً إلى تصدّى الطبرىّ للسجستانىّ هذا. فمن جملة تلك الإشارات ما ورد عن السيد الشريف المرتضى فى (الذخيرة) حيث أبطل كلام السجستانىّ مشيراً إلى مواجهة الطبرىّ له (۲).

وعبّر المرتضى كذلك فى (الشافى) عمّا صدر عن السجستانى بأنّه مجرد إشكال محض مشيراً إلى أنّ جميع الرواة من سُنة وشيعة قاموا بنقل حديث الغدير المتنازَع عليه. وإلى جانب ما ذكره من أنّ وجهة نظر السجستانى ليست إلّاوجهة نظر شاذّة وفريدة من نوعها، ونقل الشريف المرتضى كلام السجستانىّ الذى ينكر فيه حديث الغدير وذلك فى خضم مواجهته للطبرىّ ومنازعته فى المسألة إيّاها (۳).

وقد ورد فى هذه المصادر أيضاً أنّ السجستانىّ فنّد هذه النسبة مصرّحاً بأنّه لا ينكر أصل الحديث وحسب، بل وينكر كذلك وجود مسجد باسم مسجد غدير خمّ حتى ذلك التاريخ.

وكتب أبو الصلاح الحلبىّ فى (تقريب المعارف) مشيراً إلى تواتر حديث الغدير يقول:

«ولايقدح فى هذا ما حكاه الطبرىّ عن ابن أبى داود السجستانى من انكار خبر الغدير... على أنّ المضاف إلى السجستانى من ذلك موقوف على حكاية الطبرى، مع ما بينهما من الملاحاة والشنآن، وقد أُكذب الطّبرى فى حكايته عنه، وصرّح بأنه لم ينكر الخبر وإنما أنكر أن يكون المسجد بغدير خم متقدّماً وصنّف كتاباً معروفاً يتعذّر مما قرفه به الطبرى ويتبرّأ منه» (۴).

۱- ۱ تاريخ دمشق ۵۲: ۱۹۸.

۲- ۲ الذخيرة: ۴۴۲ تصحيح السيد أحمد الحسينى الأشكورى. على الرغم من الإشارة فى نسختى كلتيهما من أنّ المقصود ب أبى بكر هو ابن أبى داود السجستانىّ صاحب السنن، فقد توهّم المصحّح وقام بتخطئة ذلك، فأورد اسم السجستانى نفسه فى النصّ.

۳- ۳ الشافى فى الإمامة ۲: ۲۶۴ تصحيح السيد عبد الزهراء الخطيب، طهران، مؤسسة الصادق عليه السلام.

۴- ۴ تقريب المعارف، تحقيق فارس حسون، قم، ۱۴۱۷ ه: ۲۰۷- ۲۰۸.

ص: ۷۵

کتاب (الولاية) وتهمة (التّشيّع):

ذكر الذّهبىّ أنّ السبب وراء اتّهام الطبرىّ بالتشيّع هو تأليفه كتاب (الولايـة)؛ (۱) وذلك لأنّ أصحاب الحديث لا يؤيّدون حديث (الغدير)، وحتى الذين يقبلون هذا الحديث (من أصحاب الحديث) لم يُجيزوا لأحد على الإطلاق تأليف كتب فى طرق الحديث المذكور حتّى للطبرىّ الذى كان يومها إماماً وعَلَماً مرهوب الجانب، ذلك أنّ من شأن كتاب كهذا أن يكون حجّة فى يد الشيعة. بل ولم يجرؤ حتى البخارى على ذكر حديث الغدير واكتفى بنقل الأحاديث الموجودة فى حوزة أهل الحديث مع أنّ للحديث المذكور طرقاً كثيرة ومتعدّدة.

وإذا سلّطنا الضوء على الكتاب الآخر الذى ألّفه الطبرى والمعروف بكتاب (حديث الطير) الذى بيّن فيه بالتّفصيل أفضلية الإمام على عليه السلام على باقى الصحابة، ستتّضح لنا الأسباب التى حدت بالكثيرين إلى اتهامه بالتشيّع.

وقد قال ابن كثير واصفاً الكتاب المشار إليه: «ورأيت فيه مجلّداً فى جمع طرقه وألفاظه لأبى جعفر محمّد بن جرير الطبرى المفسّر صاحب التاريخ». ثم يستطرد قائلًا بأنّ أبا بكر الباقلانى ألّف كتاباً فى تضعيف طرق ودلالات هذه الرواية وذلك فى معرض ردّه على كتاب الطبرىّ (۲).

وبعد كلّ ما ذكرنا، تبدو المسألة واضحة المعالم تماماً؛ فلم يكن أمام أعداء الطبرىّ خيار آخر إلّااللّجوء إلى اتهامه بالتشيع وخصوصاً فى ظروف مثل تلك التى كانت سائدة فى بغداد آنذاك حيث تتمركز قوّة الحنابلة وثِقلها الأكبر فيخرج عليهم الطبرىّ بتأليفاته فى (حديث الغدير) تارةً، وفى كتاباته التى يبيّن فيها فضائل علىّ بن أبى طالب عليه السلام صراحة تارةً أخرى، على ذلك فلا بدّ وان يتّهم بالتشيّع.

وطريف هنا أن نذكر أنّ ابن خزيمة (المحدّث السنّى المعروف وأحد رجال الحديث المشهورين وهو من المشبّهة) نزيل نيسابور كتب يقول: «ما أعلمُ على أديم الأرض أعلمَ من محمّد بن جرير، ولقد ظلمته الحنابلة» (۳).

۱- ۱ طرق حديث «من كنت...»: ۶۲؛ وأظنه بسبب جمع هذا الكتاب نسب الى التشيّع.

۲- ۲ البداية والنهاية ۷: ۳۹۰ دار إحياء التراث العربى، ۱۴۱۳ ه.

۳- ۳ تاريخ بغداد ۲: ۱۶۴؛ تاريخ دمشق ۵۲: ۱۹۶؛ الأنساب ۴: ۴۶؛ مُعجم الأدباء ۱۸: ۴۳؛ تاريخ الإسلام للذهبىّ: ۳۱۰- ۳۲۰، ۲۸۲.

ص: ۷۶

وتجدر الإشارة إلى أنّ حقد الحنابلة على ابن جرير الطبرىّ (۱) له أسباب أخرى غير التى ذُكرت (۲)، لكن هذه الواحدة تعتبر الأكبر بين أخواتها. والحقّ أنّه لم تكن بيد الحنابلة وسيلة أنجع من هذه ولا فى جعبتهم حيلة أخرى غير تلك لاتّهام الطبرىّ بالتشيع.

وكتب ابن مسكويه بهذا الخصوص يقول:

«وفيها [سنة ۳۱۰] تُوُفّى محمّد بن جرير الطبرىّ، وله نحو تسعين سنة، ودفن ليلًا، لأنّ العامة اجْتمعت و مَنَعَتْ من دفْنِه نهاراً. وادّعت عليه الرّفض، ثم ادّعت عليه الإلحاد» (۳).

وقد نقل ياقوت الحموىّ كلاماً للخطيب البغدادىّ حول الطّبرى، منه:

«قال غير الخطيب: ودُفِنَ ليلًا خوفاً من العامّة لأنَّه كان يُتَّهم بالتشيع» (۴).

ونقل ابن الجوزىّ كذلك ما قاله ثابت بن سنان عن الطبرىّ جاء فيه:

«وذكر ثابت بن سنان فى تأريخه: أنه إنّما أُخفيت حاله؛ لأنّ العامّة اجتمعوا ومنعوا من دفنه بالنّهار و ادّعوا عليه الرّفض، ثم ادّعوا عليه الإلحاد» (۵).

ويضيف ابن الجوزىّ أنّ السبب الآخر فى اتّهام الحنابلة الطبرى بالرّفض هو الفتوى التى أصدرها الطبرىّ فى جواز مسح القدم فى الوضوء واعتباره الغسل والشطف أمراً غير ذى ضرورة، بقوله «فلهذا نُسب إلى الرّفض» (۶).

وكتب ابن الأثير، مقتبساً ذلك من كلام لابن مسكويه، يقول:

«وفى هذه السنة [۳۱۰] تُوُفِّىَ محمدُ بن جرير الطبرى، صاحب التاريخ ببغداد، ومولده سنة أربع وعشرين ومئتين، ودفن ليلًا بداره، لأن العامّة اجتمعت، ومنعت من دفنه نهاراً، وادّعوا عليه الرّفض، ثم ادعوا عليه الإلحاد» (۷).

وتجدر الإشارة إلى أنّ ابن الأثير لايوافق على استخدام لفظة (العامّة) كتعبير عن أهل السّنة، وبعد تأكيده على عدم اتيان المخالفة من قِبَل العامّة (أى أهل

۱- ۱ قال: كانت الحنابلة تَمْنَع ولاتَتْرُك أحدًا يَسْمَع عليه. معجم الأدباء ۱۸: ۴۳.

۲- ۲ من جملة ذلك إنكار حديث الجلوس على العرش والذى كان عنه أنّه محال وكان يردّد البيت التالى:

سبحان من ليس له أنيس ولا له فى عرشه جليس

ياقوت الحموىّ، معجم الأدباء ۱۸: ۵۸؛ الوافى بالوفيات ۲: ۲۸۷. ويضيف قائلًا: فلمّا سمع ذلك الحنابلة منه وأصحاب الحديث، وثَبوا ورموه بمحابرهم وقيل كانت الوفا، فقام أبو جعفر بنفسه ودخل داره، فرموا داره بالحجارة حتى صار على بابه كالتّلِّ العظيم، وركب نازوك صاحب الشُّرطة فى عشرات الألوف من الجند يمنع عنه العامّة. ووقف على بابه يوما إلى الليل وأمر برفع الحجارة عنه. وكان قد كتب على بابه:

سبحان من ليس له انيس و لا له فى عرشه جليس

فأمر نازوك بمحو ذلك. وكتب مكانه بعض أصحاب الحديث...

واستسلم الطبرىّ أمام هذه الضغوط وكتب ما وافق مَيل الحنابلة.

وإضافة إلى ما ذُكِر، فقد ذكر ابن الجوزى قولًا حول وجود اختلافات أخرى فى وجهات النظر بين الطبرى وأبى‌بكر بن أبى داود فيما يخصّ المسائل العقائدية، وحول سعى ابن أبى داود فى إيصال الأمر إلى السلطات آنئذ وجواب الطبرى عن ذلك. راجع: المنتظم ۱۳:

.۲۱۷

والسبب الآخر وراء عـداء الحنابلـة للطبرىّ يكمن فى أنّه لم ير أهميـة تُـذكر لفِقه أحمـد بن حنبل ولم يعتن به، فقد كتب ابن الوردى يقول: وصـنّف كتاباً فيه اختلاـف الفقهـاء ولم يـذكر فيه أحمـد بن حنبل، فقيل له فى ذلك، فقال: إنّما كان أحمـد بن حنبل محـدّثاً. فاشـتدّ ذلـك على الحنابلـة وكـانوا لاـيحصون كثرةً ببغـداد، ورموه بالرّفض تعصّـباً وتشـنيعاً عليه. [تاريـخ ابن الوردى ۱: ۳۵۶ النجف الأشرف، المطبعة الحيدرية، ۱۳۸۹ ق.؛ المختصر فى أخبار البشر ۱: ۷۱ القاهرة، مكتبة المتنبى].

۳- ۳ تجارب الأمم ۵: ۱۴۲ تصحيح الدكتور أبو القاسم الإمامىّ، طهران، سروش، ۱۹۹۸ م.

۴- ۴ معجم الأدباء ۱۸: ۴۰ دار الفكر.

۵- ۵ المنتظم ۱۳: ۲۱۷.

۶- ۶ المصدر السابق.

۷- ۷ الكامل فى التاريخ ۵: ۷۴ ذيل حوادث سنة ۳۱۰ بيروت، مؤسسة التاريخ العربى.

ص: ۷۷

السّنة) يلقى باللّوم والتقصير على الحنابلة فيقول: «وإنّما بعض الحنابلة تعصّبُوا عليه ووقعوا فيه، فتَبِعهم غيرهم» (۱).

وكتب ابن كثير أيضاً حول المواجهة التى كانت بين الحنابلة والطبرىّ حيث قال:

«ودُفِنَ فى داره؛ لأنّ بعض عوام الحنابلة ورعاعهم منعوا دفنه نهاراً ونسبوه إلى الرفض... وإنّما تقلّدوا ذلك عن أبى بكر محمد بن داود الفقيه الظاهرى، حيث تكلّم فيه ويرميه بالعظائم وبالرّفض» (۲).

وإذا أمعنا النّظر فى عبارات ابن كثير السابقة نجده قد خلط (إن عمداً أو سهواً) بين أبى‌بكر عبد اللّه بن أبى داود السجستانىّ (ت: ۳۱۶) والمتهم بكونه ناصبيّاً وبين أبى‌بكر محمّد بن على بن داود الفقيه الظاهرىّ (۳). فالشخص الذى كان يتّهم الطبرىّ بالتشيّع هو السجستانىّ- ابن السجستانىّ صاحب السّنن- والذى هو نفسه كان متّهماً بأنّه ناصبىّ، ولهذا فعندما وصل الخبر إلى الطبرىّ بأنّ السجستانىّ يروى فضائل على عليه السلام علّق على ذلك بقوله: تَكبيرةٌ من حارس (۴).

ثم يُشير الذّهبى بعد ذلك إلى العداء القائم بينهما، وعن السجستانىّ بأنّه ناصبىّ، حيث ينكر هو ذلك بالطّبع (۵). وخلال شرحه لحال السجستانىّ يُشير ابن النّديم إلى قيامه بتصنيف كتاب فى التّفسير وكان الطّبرى قد سَبقه بتأليف مُشابه (۶)، وهذا شاهد آخر على شدّة المنافسة بين هذين الرجلَين.

وأمّا ناصبيّة السجستانى فقد أدّت إلى قيام ابن فرات إلى نفيه إلى واسط وإبعاده عن بغداد إلى أن قيل عنه بأنّه بدأ يُشيع فضائل الإمام على عليه السلام وحينئذ سمح له على بن عيسى بالرجوع إلى بغداد حتى أصبح شيخاً للحنابلة «ثم تَحَنْبَلَ، فصار شيخاً فيهم وهو مقبول عند أهل الحديث. وقد وصل الأمر بالسجستانى حدّاً مزرياً حتى قال فيه أبوه: ابنى عبد اللّه كذّاب!» (۷).

ونقل الذّهبىّ فى كتابه (ميزان الاعتدال) عند ترجمته للطبرىّ كلام أحد

۱- ۱ المصدر السابق.

۲- ۲ البداية والنهاية ۱۱- ۱۲: ۱۶۷ بيروت، مؤسسة التاريخ العربى، ۱۴۱۳ ه.

۳- ۳ لا شكّ فى وجود اختلاف فى وجهات النظر بين الطبرىّ وبين على بن داود الظاهرىّ، والذى كان السبب فى‌قيام ابن الظاهرىّ محمّد بن على بن داود الظاهرىّ، إلّاأنّ تلك الحادثة لا علاقة لها فيما نحن بصدده وهو مسألة الغدير. [راجع: معجم الأدباء ۱۸: ۷۹- ۸۰].

۴- ۴ تاريخ الإسلام للذهبىّ: ۳۱۰- ۳۲۰، ۵۱۶.

۵- ۵ المصدر السابق: ۵۱۷.

۶- ۶ الفهرست: ۲۸۸.

۷- ۷ تاريخ الإسلام للذّهبى: ۳۱۰- ۳۲۰، ۵۱۸.

ص: ٧٨

المحدثين من أهل السّنة حوله قائلًا: «أقذع أحمد بن على السّليمانى الحافظ فقال: كـان يضع للروافض» (١)، ثم قـام بالردّ عليه مادحاً الطبرىّ بقوله: «ثقـةٌ صادقٌ فيه تشيّعٌ يَسـير وموالاة لاتَضُـرّ» (٢)، واحتمـل أنّ يكون السّليمانى قاصداً الردّ على ابن جرير الشيعى الذى قام بتأليف كتاب (الرواة عن أهل البيت).

وبعـد الأخذ بنظر الاعتبار النّصوص الموجودة لدينا والخاصة باتّهام الطبرىّ بالتشيّع، يتأكد لنا من أنّ الشـخص الذى قصده السـليمانى فى كتابه هو الطبرىّ لا غير، علاوةً على ذلك فإنّ ابن جرير الشيعىّ لم يكن معروفاً فى الأوساط السنّية.

وفى كتابه (لسان الميزان) قام ابن حجر بنقل كلام الـذّهبىّ مؤيّـداً إيّاه ومـدافعاً عن السّـليمانى الذى اعتبره إماماً متقناً، ثم أكّد أنّه إنّما عنى بكلامه ابن جرير الثانى (أى الإمامىّ المـذهب)! لكنّه مع ذلك يُشـير إلى نقطـة مهمّة تتعلّق بالطبرىّ بقوله: «وإنّما نُبِزَ بالتّشـيّع لأنّه صحّح حديثَ غدير خُمّ» (٣).

تشيّع الطبرىّ (۴)

قبـل الشـروع بـالبحث فى روايات الغـدير فى كتاب الطبرى، لا بأس من طرح سؤال هنا على سبيل الاسـتدراك وهو: هل كان هـذا هو السـبب الوحيـد الـذى بواسـطته اتُّهِمَ الطبرىّ بالتّشـيع، أم كانت هناك أسـباب أخرى؟ ثم لِمَ لم يذكر بل لَم يُشـر الطبرىّ إلى حَديثى (الغـدير) و (الطير) المشـهورَين فى كتـابيه (التاريـخ) و (التّفسـير) ولكنّه قـام فى سـنىّ عمره الأـخيرة بتـأليف كتـاب يتنـاول الحـديثَين المذكورين بشكل مفصّل وهو يعلم علم اليقين العواقب الخطيرة التى يمكن أن تترتّب على تأليفه مثل ذلك الكتاب؟

هـل يمكن أن نقول: إنّ تحوّلًا جـذريّاً قـد طرأ على عقيـدة الطبرىّ الدينيّـة؟ إنّ احتمالًا كهـذا يبـدو غير صـحيح؛ وذلك إذا ما أخـذنا شخصية الطبرىّ وتآليفه المعروفة بنظر الاعتبار. الحقّ أنّ هذه المسألة تكمن وراءها أمور عديدة تعمل كلّها على تشويه الصورة الأصلية لها.

١- ١ ميزان الاعتدال ٣: ۴٩٩.

٢- ٢ المصدر السابق.

٣- ٣ لسان الميزان ۵: ٧۵٨ بيروت، تحقيق محمد عبد الرّحمن المرعشلى.

۴- ۴ إنّ هناك فرقاً بين الاتّهام بالتشيّع والاتهام بالرّفض. راجع بهـذا الخصوص البحوث الأوليّـة فى كتاب- تاريخ التّشـيع فى إيران- المجلد الأول.

ص: ۷۹

كـلّ ما فى الأمر أنّ أبا بكر محمّـد بن عباس الخوارزمىّ (۳۱۶- ۳۸۳) (۱)الأديب المعروف والشاعر الذائع الصيت فى العصر البويهىّ والمعروف بتشيّعه (۲) كان ابن أخت الطبرىّ، وهو نفسه يُشير إلى ذلك فى أبيات شـعريّة ذاكراً أنّه أخذ تشيّعه عن أخواله (أى عائلة ابن جرير الطبرى هذا).

هذا وقد ثبتت نسبة الخوارزمىّ إلى الطبرىّ بكون الأخير خاله وذلك فى نصوص المصادر القديمة من جملتها ما كتبه السّمعانىّ (ت: ۵۶۲) فى ذيل مدخل الخوارزمىّ حيث قال: «... والشاعر المعروف أبو بكر محمد بن العبّاس الخوارزمىّ الأديب، وقيل له: الطبرىّ لأنّه ابـن أخت محمـد بن جرير بن يزيـد الطـبرىّ» (۳). وذكر هـذا المسألـة كـذلك كـلّ من ابن خلكان (۴)، شـمس الـدين الذهبىّ (۵)، الصفدىّ (۶)، ابن عماد الحنبلىّ (۷)، اليافعىّ (۸) وغيرهم.

وربما اقتبس هؤلاء هذه النكتة من بعضـهم البعض، لكنّ النصّ الأهمّ والأقدم من كلّ ما سبق، حتى من نصّ السمعانىّ نفسه، هو النصّ الذى كتبه الحاكم النيسابورىّ (ربيع الأول من عام ۳۲۱- صفر عام ۴۰۵) فى كتابه المفقود (تاريخ نيسابور) والذى ذكر فيه كلّ تلك الأمور (۹).

وكتب ابن فنـدق البيهقىّ فى شـرحه للتأليفات التأريخية يقول: «ثم صـنّف بعده محمد بن جرير الطبرىّ (وهو خال أبو بكر الخوارزمىّ الأديب) (التاريخ الكبير)، وقـد قادنى ذلك إلى معرفـة نسب محمّـد بن جرير المؤرّخ كما ذكر هـذا الحاكم أبو عبـد اللّٰه الحافظ فى (تاريخ نيسابور)» (۱۰). وكتب فى مكـان آخر أيضـاً: «وكان الخواجـة أبو القاسم الحسـين بن أبى الحسن البيهقى رجلًا شـجاعاً شـهماً وكانت ملوك عصره تعزّه وتقدّره. والدته هى بنت أبى الفضل بن الأستاذ العالم أبى بكر الخوارزمىّ.

والأسـتاذ العالم الفاضل أبو بكر الخوارزمىّ هو ابن أخت محمّد بن جرير الطبرىّ والذى إليه يُنسـبون كتابى (التاريخ) و (التفسـير) وقد ذكر هذا الحاكم أبو عبد اللّٰه الحافظ فى كتابه (تاريخ نيسابور)» (۱۱).

۱- ۱ حول سنة ولادته، راجع: مقدمة ديوان أبى بكر الخوارزمىّ، للدكتور حامد صدقى: ۱۰۷.

۲- ۲ انظر رسالته إلى الشيعة فى نيسابور والمجموعة فى كتاب رسائل الخوارزمىّ، طبعة بيروت: ۱۶. وكانالأستاذ صدقى قد جمع كلّ عبـاراته الـتى يمكن من خلالهـا استشـمام رائحـة التّشيع عنـد الرجـل ووضـعها فى مقدمـة ديوان أبى بكر الخوارزمىّ طهران، الـتراث المكتوب، ۱۹۹۷ م: ۱۱۵- ۱۱۷.

۳- ۳ الأنساب ۲: ۴۰۸.

۴- ۴ وفيات الأعيان ۴: ۱۹۲ و ۴۰۰.

۵- ۵ سير أعلام النّبلاء ۱۶: ۵۲۶.

۶- ۶ الوافى بالوفيات ۲: ۲۸۴.

۷- ۷ شذرات الذهب ۳: ۱۰۵.

۸- ۸ مرآة الزّمان ۲: ۴۱۶.

۹- ۹ تاريخ نيسابور، تصحيح محمد رضا شفيعى كدكنى، طهران، ۱۹۹۶ م: ۱۸۵. وردت هناك العبارة التالية: «محمد بن العباس، ابن أخت محمد بن جرير، أبو بكر الأديب الخوارزمىّ»: ۱۸۵، ش ۲۴۴۵.

۱۰- ۱۰ تاريخ بيهق: ۱۶.

۱۱- ۱۱ المصدر السابق: ۱۶.

ص: ٨٠

إذاً، ومع كلّ تلك التّصاريح لا يبقى بوسع أحد تفنيدها بأىّ شكل من الأشكال، إلّاياقوت وحده حيث شكّك فى هذا الأمر حين قال: «وكان يزعم أن أبا جعفر الطبرىّ خاله» (١).

هـذا وقد قام الأقا محمّد على الكرمانشاهى (٢)، مؤلّف (روضات الجنّات) (٣) وصاحب (أعيان الشيعة) (۴) بمساعدة القاضى نور اللّه الشوشترىّ (۵) بـالردّ على يـاقوت مبرهناً على كون الخوارزمىّ هو ابن أخت الطبرىّ الشـيعىّ وهو لا ريب يناقض ما ورد فى النّصوص التأريخيّة (۶).

وأمّا محمد حسـين الأعرجىّ فقد أورد إشـكالًا فى مقدمة كتاب (الأمثال) للخوارزمىّ (٧) حول تأريـخ ولادة الخوارزمىّ وتزامن ذلك مع فترة حياة الطبرىّ المؤرخ، يريـد بـذلك دَحض مسألة كون الخوارزمىّ ابن أخت الطبرىّ. وتجدر الإشارة إلى أنّه لو ثبتت معاصـرة محمد بن جرير الشيعىّ للطبرىّ المؤرخ فإنّ الإشكال عينه أيضاً سيبرز إلى السطح. إضافةً إلى ذلك فإنّ الفترة من وفاة الطبرىّ المؤرّخ (ت: ٣١٠) إلى الفترة التى عاش خلالها الخوارزمى والتى تبلغ (٧٣) سنة تبدو نادرة بعض الشيء، لكنّها قد تصدق فى نفس الوقت.

ثم ليس بالضـرورة أن يكون الخوارزمىّ ابن أخت الطبرىّ مباشـرةً، فقـد يكون مثلًا حفيد أخت الطبرىّ. على أيّة حال، المهمّ لدينا هنا هو النّصوص التأريخيّة وخصوصاً تلك المدوّنة فى كتاب (تاريخ نيسابور)، فمؤلّف هذا الكتاب أعلم مِن أن يكون قد جهل شخصـية الطبرىّ المؤرّخ، أو أن يكون قـد خلط بينه وبين غيره. ونتيجـة لهـذا لا يعقل أن يـذكر الحاكم النيسابورىّ أمراً كهـذا بالصدفة، ثم من ناحيـة أخرى يقوم أبو بكر الخوارزمىّ بالإشـارة إلى نفس الموضوع صـراحةً فى شـعره. ومهما يكن من أمر، فبالرغم من كون مؤلفات الطبرىّ المورّخ لا تمتّ إلى الإمامية ولا التّشيّع بصلة، وبالرغم كذلك من عدم وجود نصّ تأريخىّ يثبت ولو بقَدر ضئيل كون أبى‌بكر الخوارزمىّ كان إمامىّ المذهب (٨)- برغم تشيّعه الشديد

١- ١ معجم البلدان ١: ٧٧.

٢- ٢ مقامع الفضل ١: ۴۶۴- ۴۶۵ قم، تحقيق ونشر مؤسسة العلامة الوحيد البهبهانى، ١۴٢١ ه.

٣- ٣ المجلّد السابع: ٢٩٣- ٢٩۴.

۴- ۴ المجلّد التاسع: ٣٧٧- ٣٧٨.

۵- ۵ مجالس المؤمنين ١: ٩٨.

۶- ۶ وعلى هـذا اسـتند المرحوم المحدّث الأرموى فى تعليقات النّقض ٢: ۶۵٨؛ معتـبراً الخوارزمى ابن أخت الطبرى المؤرّخ، وهو ما أيّده الأستاذ حامد صدقى واعتبره مطابقاً لِما ورد فى المصادر التأريخيّة. راجع: مقدمة ديوان أبى بكر الخوارزمى: ١١١.

٧- ٧ مقدمة ديوان أبى بكر الخوارزمى: ١١٢- ١١٣.

٨- ٨ سوى الأبيات التى سنأتى على ذكرها فيما بعد.

ص: ۸۱

كما هو الحال مع الصاحب بن عباد- فإنّ هذا الإشكال قائم وباقٍ.

وبعد تجاوز مسألة النسبة بين الخوارزمىّ والطبرىّ، نواجه أمراً آخر لا يقلّ أهميّة عن سابقه، وهو نسبة أبى بكر الخوارزمىّ نفسه إلى التّشيع والرّفض من خلال بَيتين للشعر ثم يُرجع ذلك إلى كون أخواله هم من الشيعة أيضاً.

كتب ياقوت الحموىّ (ت: ۶۲۶) فى مادة (آمل) (۱) ما نصّه:

«ولذلك قال أبو بكر محمّد بن العباس الخوارزمىّ، وأصله من آمل أيضا، وكان يزعم أن أبا جعفر الطبرىّ خاله:

بآمُل مولدى وبنو جريرٍ فأخوالى، ويحكى المرءُ خالَهْ

فها أنا رافضىّ عن تراثٍ وغيرى رافضىّ عن كَلاله

وكذب، لم يكن أبو جعفر، رحمه اللّه، رافضياً، وإنّما حَسدته الحنابلة فرموه بذلك، فاغتنمها الخوارزمىّ، وكان سبّاباً رافضياً مُجاهراً بذلك متبجّحاً».

وكتب عبد الجليل القزوينىّ (۲) كذلك يقول:

«وأبو بكر الخوارزمىّ معروف بتشيّعه ولا ينكر أحد من الفضلاء قَدره ومنزلته وفضله. والبيتان التاليان يدلّان على حقيقة ذلك وإن كان المصنّف (ويعنى بذلك الشخص الذى ألّف عبد الجليل كتابه- النّقض- للردّ عليه) يعتقد بعدم تسمية الشيعىّ نفسه ب (أبى بكر):

بآمُل مولدى وبنو جريرٍ فأخوالى، ويحكى المرءُ خالَهْ

فمن يك رافضيّاً عن تُراث فإنّى رافضىّ عن كلالَهْ».

والمصرع الأول للبيت الثانى هنا وإن كان يشبه مثيله الذى ذكره ياقوت الحموىّ إلّاأنّه يبدو صحيحاً أكثر من سابقه. وأورد ابن فندق البيهقى كذلك البيت الأوّل دون الثانى (۳).

۱- ۱ معجم البلدان ۱: ۷۷؛ أورد القاضى نور اللّه البَيتين المذكورين كذلك فى كتابه مجالس المؤمنين ۱: ۹۸.

۲- ۲ النّقض: ۲۱۸.

۳- ۳ تاريخ بيهق: ۱۰۸. بالرّغم من أنّ هذين البَيتين قد وردا فى ثلاثة مصادر قديمة، إلّاأنّ ابن أبى‌الحديد فى شرح نهج البلاغة ۲: ۳۶ ذكر كلاماً غير هذا. فقد كتب مشيراً إلى كتاب المسترشد الذى صنّفه محمد بن جرير الطبرىّ، يقول: «ذاك ليس بمحمد بن جرير صاحب التاريخ بل هو من رجال الشيعة، وأعتقد أنّ أمّه من بنى جرير من مدينة آمل بطبرستان. بنو جرير الآمليون شيعة مستهترون بالتشيع، فنسب إلى أخواله». ثم يستطرد قائلًا: «وله بيتين من الشعر يؤكدان هذا الأمر». ثم أورد البيتين المذكورين مع تغيير طفيف:

بآمل مولدى وبنو جرير فأخوالى ويحكى المرءُ خالَهْ

فمَن يَكُ رافضيّاً عن أبيه فإنى رافضىّ عن كلالَهْ

ولا يُعرف السبب وراء نسبة ابن أبى الحديد تشيّع محمد بن جرير الرافضىّ وهو نفسه من بنى جرير إلى أخواله الذين نسبهم كذلك إلى بَنى جرير.

ص: ۸۲

إضافةً إلى ذلک، فإنّ ما ذکره الطبریّ من نصوص فی کتابه (مناقب أهل البیت علیهم السلام) رغم قوة شوکة الحنابلة فی بغداد وقتئذ وتسلّطهم علیها، یمکن أن تکون خیر شاهد علی أنّ الطبریّ کان شیعیّاً ولیس رافضیاً. بل وهناک روایات تدلّ صراحةً ودون أیّ التباس علی کونه شیعیّاً إمامیّاً إثنیعشریّاً. من جملة تلک الروایات، تلک التی ذکرها ابن طاووس فی کتاب (الیقین) وفیها دلالة واضحة علی أنّ سلمان [الفارسیّ] نقل عن رسول اللَّه صلی الله علیه و آله قوله: «إنّ علیّ بن أبی طالب علیه السلام وصیّی ووارثی و قاضی دینی وعدتی وهو الفاروق بین الحقّ والباطل، وهو یعسوب المسلمین وإمام المتّقین وقائد الغرّ المحجلین والحامل غداً لواء ربّ العالمین. هو وولده من بعده. ثمّ من الحسین ابنی، أئمة تسعة هداة مهدیّون إلی یوم القیامة.

أشکو إلی اللَّه جحود أُمّتی لأخی وتظاهرهم علیه وظلمهم له وأخذهم حقّه».

ولأهمیّة النصّ المذکور لدیه ونقله علی لسان الطبریّ، کتب ابن طاووس یقول: «إذا لم یکن فی الإسلام حدیث معتمد قد نُقِل إلّاهذا (الذی ینقله لنا الطبریّ الذی ما علمناه إلّاممدوحاً موثوقاً) لکان ذلک حَسب علیّ بن أبیطالب، والنبیّ صلی الله علیه و آله الذی صرّح باستقرار الإمامة فی وُلد علیّ» (۱).

القاضی نُعمان وکتاب الولایة:

یُعتَبر کتاب (شَرح الأخبار فی فضائل الأئمة الأطهار علیهم السلام) الذی صنّفه القاضی نُعمان بن محمّد التمیمیّ المغربیّ الإسماعیلیّ المذهب (ت: ۳۶۳) من أقدم المصادر التی تفرّدت بحصة الأسد فی الاقتباس عن کتابی (الولایة) و (مناقب أهل البیت) للطبریّ. ولکن، وممّا یُؤسَف له أنّ الکتاب المذکور مع تصریحه بنقل معظم روایاته عن کتاب الطبری إلّاأنّ مؤلفه أسقط اسناد الکثیر من الروایات المنقولة سوی النّزر الیسیر منها، الأمر الذی أفقد الکتابَ اعتباره وأهمیّته. فعلی سبیل المثال کتب القاضی نعمان تعلیقاً بعد نقله لخبر «أنتَ أخی ووصیّی وخلیفتی من بعدی» یقول فیه:

۱- ۱ الیقین: ۴۸۸.

ص: ۸۳

«وممّن رواه وأدخله فی کتاب ذکر فیه فضائل علی علیه السلام- غیر من تقدّم ذکره- محمد بن جریر الطبری وهو أحد أهل بغداد من العامـة عن قرب عهد فی العلم والحدیث والفقه عندهم» (۱)، ثم یـذکر الطرق المختلفـة التی نقل الطبری عنها ذلک الحدیث (۲). ثم بعـد نقله لعـدد من الروایات عن کتاب الطبریّ، أشار فی نهایـة ذکره للکثیر من الأحادیث بهذه العبارة: «وهو کتاب لطیف بسیط ذکر فیه فضائل علی علیه السـلام». ویبیّن بعد ذلک القسم الخاصّ بروایة الغدیر فی کتاب الطبریّ والغرض الذی توخّاه فی تصـنیفه الکتاب المذکور والذی تقدّم شرحه (۳).

ربما کان یقصد بکتاب (فضائل علی علیه السلام) کتاب (الولایة) أو کتاباً آخر فی فضائل علی، والذی ربما کان قسم منه یتناول طرق حـدیث الغـدیر. وفی آخر نقله للأحـادیث فی بـاب الوصایـة للإمـام علی (عن الطـبری) یشـیر مرة أخری إلی البساطـة التی اسـتخدمها الطبریّ فی کتابه فی نقل فضائل الإمام علی علیه السلام حیث یقول: «وما رواه وبسطه من فضائل علی علیه السلام...» (۴).

وعلی أیّ حـال یمکن القول: إنّ القاضـی نعمـان هو الأـکثر من بین الناقلین عن کتاب الطبریّ فی مصـنّفه (شـرح الأخبار) قیاساً بغیره. لکنّه کما ذکرنا أسـقط اسـناد الأحادیث التی أوردها الطبری فی نقله لها، ونتیجة لذلک فهو لم یأتِ بتفصیل الروایات التی جاءت عند نقل الطبری لحدیث الغدیر؛ وذلک أنّ أسـناد تلک الروایات وحدها کانت مختلفة. لکنّه صـرّح مع ذلک بأنّ الطبریّ کان قد أفرد باباً خاصاً لروایة الغدیر ردّاً علی أبی بکر السجستانی.

وکان السجسـتانیّ قد ذکر بأنّ علیاً علیه السـلام لم یرافق النبیّ صلی الله علیه و آله فی حجة الوداع وعلی هذا تکون روایة الغدیر باطلة من أساسـها. هـذا الأمر هو الـذی أثار حفیظـة الطبری فقام بتألیف کتاب (الولایة). وکتب القاضـی نعمان یقول: «واحتجّ [الطبریّ] علی ذلک بالروایات الثابتـة علی قـدوم علیّ- صـلوات اللّه علیه- من الیمن علی رسول اللّه صـلّی اللّه علیه وآله عنـد وصوله إلی مکة و...» (۵). ویستطرد

۱- ۱ شرح الأخبار ۱: ۱۱۶.

۲- ۲ المصدر السابق: ۱۱۷.

۳- ۳ المصدر السابق: ۱۳۰- ۱۳۱.

۴- ۴ المصدر السابق ۱: ۱۲۸.

۵- ۵ المصدر السابق ۱: ۱۳۲.

ص: ۸۴

القاضـی کـذلک فی بحثه عن کتاب (الولایـة) الـذی تناول جزءاً منه فضائل علیّ ثم عُرِفَ فیما بعـد بشـکله المسـتقلّ، بقوله: «ثم جاء أیضاً فی هـذا الکتاب بباب أفرد فیه الروایات الثابتـة التی جاءت من رسول اللَّه صـلّی اللَّه علیه و آله بأنّه قال قبل حجّـة الوداع وبعـده: «مَن کنتُ مولاه فعلیّ مولاه، اللّهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله». وقوله: «علیّ أمیر المؤمنین وعلی أخی، وعلیّ وزیری، وعلیّ وصیّی، وعلیّ خلیفتی علی أمّتی من بعدی، وعلیّ أولی الناس بالناس من بعدی».

وغیر ذلـک ممّـا یوجب له مقـامه من بعـده، وتسـلیم الأمّـة له ذلک، وأن لایتقـدّم علیه أحـد منها، ولا یتأمّر علیه، فی کلام طویل ذکر ذلک فیه، واحتجاج أکیـد أطاله علی قائل حکی قوله ولا نعلم أحداً قال بمثله، وما حکاه عنه من دفع ما اجتمعت علیه الأمّة علیه ونفیه أن یکون علی علیه السلام مع رسول اللَّه صـلّی اللَّه علیه وآله فی حجة الوداع. وعامة أهل العلم، وأصحاب الحدیث مجمعون علی أنّه کان معه... فأشغل الطبری أکثر کتابه بالاحتجاج علی هذا القائل الجاحد الشاذّ قوله الذی لم یثبت عند أحد من أهل العلم» (۱).

وقـد تعجّب القاضـی نعمان من أنّ الطبریّ رغم نقله لتلک الأحادیث، لماذا عمل طبق مـذهب العامّـة؟ حیث یقول: «وأغفل الطبری أو تجاهل خلافه، لما أثبته ورواه وصـحّحه ممّا قدمنا ذکره. وحکایته عنه فی علیّ علیه السـلام وذهب فیه إلی ما ذهب أصحابه من العامة إلیه من تقدیم أبی بکر وعمر وعثمان علیه» (۲).

وبعـد نقله لروایـات الغـدیر قام القاضـی نعمان بنقل روایات أُخَر فی فضائل الإمام علی علیه السـلام من کتاب الطبری، وأوّلها حـدیث (الطیّر)، قائلًا: «ونحن بعـد هـذا نحکی ممّـا رواه الطبری هـذا من منـاقب علی صـلوات اللَّه علیه وفضائله الموجبـة لما خالفه هو لنؤکّد بذلک ما ذکرناه عنه» (۳). ثم قال (بعـد نقله لحدیث (الطیر): «وجاء الطبری بهذا الحدیث بروایات کثیرة وطُرُق شتّی» (۴). ثم بعد أن یأتی بحدیث

۱- ۱ المصدر السابق: ۱۳۵. ویقصد الکلام الذی قیل فیه: إنّ الإمام علیّاً علیه السلام کان موجوداً فی الیمن وقت حجة الوداع.

۲- ۲ المصدر السابق ۱: ۱۳۶- ۱۳۷.

۳- ۳ المصدر السابق: ۱۳۷.

۴- ۴ المصدر السابق: ۱۳۸.

ص: ۸۵

(الرايـة) يقول: «فجاء الطبرى بهـذا الخبر وما قبله من الأخبار من طرق كثيرة» (۱). وعَقب نقله للخبر الـذى ذُكِر فيه أنّ الإمـام عليّاً عليه السـلام قال مخاطباً أصحابه: (ستُجبَرون على سَبّى مِن بَعدى) قال: «وهذا ممّا أثبتناه فى هذا الكتاب مما آثره الطبرىّ الذى قدّمنا ذكره» (۲)، وجاء ببقيّة حديث رسول اللَّه صلى الله عليه و آله.

وأمّا الشخصـية الأـخرى الـتى اقتبست من كتـاب (الولايـة) للطـبرى بعـد القاضـى نعمـان، هـو ابن عبـد الـبرّ الأندلسـىّ (۳۶۸ - ۴۶۳). والأندلسـىّ هذا قام بنقل ثلاثة أحاديث من كتاب الطبرى فى الجزء الشيّق فيه الخاصّ بشرح حال الإمام على عليه السلام (۳) من كتابه «الاستيعاب»، لكن لا توجـد دلائل تؤكّد على أنّ الأندلسـىّ قام بنقل الأحاديث أو الروايات عن كتاب الولاية أو كتاب الفضائل، إلّاأنّه من المؤكّد أنّ الطبرى قد أورد تلك الأحاديث فى كتابه (فضائل على عليه السلام).

ابن شهرآشوب وكتاب الولاية:

أبو جعفر رشيد الـدين محمّـد بن على المعروف بـابن شـهرآشوب (ت: ۵۸۸) هو الشخصـية الأـخرى التى أشـارت إلى كتاب الولاية للطبرى فى كتاب «المناقب».

فقد كتب يذكر جملة من الذين ذكروا حديث (الغدير) خلال مؤلفاتهم، ومنهم الطبرىّ حيث يقول:

«ابن جرير الطبرىّ من نيّف وسبعين طريقاً فى كتاب الولاية» (۴). وقام ابن شهراشوب كذلك بالاقتباس عن كتاب (الولاية) فى مواطن عديدة من كتابه المناقب، لكننا لا نعلم أنّه قد فعل ذلك بصورة مباشـرة، والمهمّ لدينا هو أنّه قام بالاقتباس عن هذا الكتاب مواضع لم تُـذكَر فى مصادر أخرى. وقد اعتاد ابن شـهرآشوب على ذكر المصادر فى بداية كلّ جملة، كقوله: «حلية أبو نعيم وولاية الطبرىّ، قال النبىّ...» (۵)، أو قوله: «ابن مجاهـد فى التاريخ والطبرى فى الولاية» (۶)، أو قوله فى موضع آخر: «الطبريّان فى الولايـة والمناقب» (۷). ولا ريب أنّه قد قصد كتابى (الولاية) و (المناقب) للطبرىّ. وقال فى مكان

۱- ۱ المصدر السابق ۱: ۱۴۹.

۲- ۲ شرح الأخبار: ۱۶۴.

۳- ۳ الاستيعاب ۳: ۱۰۹۰، ۱۱۱۸، ۱۱۲۶.

۴- ۴ المناقب ۴: ۲۵.

۵- ۵ المصدر السابق ۳: ۴۸.

۶- ۶ المصدر السابق ۳: ۶۷.

۷- ۷ المصدر السابق ۳: ۷۰ و ۴: ۷۳.

ص: ۸۶

آخر: «والطبرىّ فى التاريخ والمناقب» (۱). ويبـدو من خلال ذِكره لعبارة: (أورد الطبرىّ حديث الطير فى كتابه- الولاية) أنّه كان يعتبر كتاب (الولايـة) (۲) أعمّ وأشـمل من كتـاب (الفضائـل). وكـان اسـتعمل مرة هـذه العبارة: (الطبرىّ فى الولايـة) فى كتابه الموسوم ب (متشابه القرآن) (۳).

والنّقطة المهمة الأخرى هى أنّ ابن شهرآشوب راوح بين نَقله صراحةً من كتاب (الولاية) تارةً ومن كتاب (تاريخ الطبرىّ) تارةً أخرى، لكننا نجده فى مواطن أخرى يقوم بنقل الحديث عن الطبرىّ دون أن يشير إلى أىّ كتاب من كتب الطبرى، إلّاأنّه وبعد الّتمعّن بفحوى بعض تلك الأحاديث التى يستشف منها فضائل الإمام علىّ عليه السلام، يمكننا الاستنتاج بأنّها منقولة لا محالة عن كتاب (الولاية).

ابن طاووس وكتاب (المناقب) وحديث (الولاية):

وأمّا ابن طاووس (ت: ۶۶۴) فقـد ذَكر كتـابى الطبرىّ معاً ثم قام بنَقل بعض النصوص عن كتاب (المناقب) خاصـة. يقول ابن طاووس فى كتابه (اليقين): «فيما نذكره من كتاب المناقب لأهل البيت عليهم السـلام تأليف محمد بن جرير الطبرىّ صاحب التأريخ، من تسمية ذى الفقار لعلىّ عليه السلام بأمير المؤمنين»، ثم يبدأ فى نَقله عن الكتاب المذكور بالكلام التالى:

«قال فى خُطبته ما هـذا لفظه: حـدّثنا الشـيخ الموفق [المـدقق] محمـد بن جرير الطبرى ببغداد فى مسـجد الرصافة، قال: هذا ما ألّفته من جميع الروايـات من الكوفيين والبصـريين والمكّيين والشـاميين وأهـل الفضـل كلّهم واختلافهم فى أهـل البيت عليهم السـلام، فجمعْتُه وألّفْتُه أبواباً ومناقب ذكرت فيه باباً باباً وفصّلت بينهم وبين فضائل غيرهم. وخَصَصْتُ أهل هذا البيت بما خصّهم اللّه به من الفضل».

ونسـتنتج من عبـارات ابن طـاووس هـذه أنّه يريـد الإشارة إلى أنّ كتاب الطبرىّ كان مصـنّفاً على أبواب وفصول لقوله (فجمعْتُه وألّفْتُه أبواباً ومناقب ذكرت فيه باباً باباً...)، لكنّه مع ذلك لم يوضّح الأساس الذى استند عليه فى هذا

۱- ۱ المصدر السابق ۳: ۱۲۹.

۲- ۲ المصدر السابق ۲: ۲۸۲.

۳- ۳ متشابه القرآن، قم، منشورات «بيدار»، ۱۴۱۰ ه ۲: ۴۱.

ص: ۸۷

التّبويب، إلّاإشارة واحدة من خلال كلام ذكره ابن طاووس فى مكان آخر حيث قال: «قال محمد بن جرير الطبرىّ المذكور فى كتاب مناقب أهل البيت عليهم السلام فى باب الهاء من حديث نذكر اسناده والمراد منه بلفظه» (۱). وقال كذلك فى كتاب (الطُرَف) مشيراً إلى كتاب (المناقب) للطبرىّ: «ورتّبه أبواباً على حروف المعجم، فقال فى باب الياء ما لفظه:» (۲). وإذا أردنا تبيين المراد من (باب الهاء) أو (باب الياء) توجّب علينا التركيز أكثر على بعض الأمور (۳). وعلى هذا تبدو إعادة ترتيب الكتاب بالشكل الذى كان قد رتّبه هو بنفسه أمراً صعباً بعض الشيء.

ثمّ ينقل ابن طاووس كلاماً للخطيب البغدادىّ (بحذافيره)- كما هو موجود فى كتاب (تاريخ بغداد، ۲/ ۱۶۲) عند ترجمته لابن جرير الطبرىّ (۴). وضمن تأكيده على أنّه لم يَقُم بهذا النّقل إلّاليوطّد قاعدة استدلاله- قال ابن طاووس:

«وقد ذكر فى كتاب المناقب المشار إليه من تسمية مولانا على بن أبى‌طالب عليه السلام بأميرالمؤمنين ثلاثة أحاديث نذكرها فى ثلاثة أبواب ما هذا لفظه» (۵)، ثم يأتى على ذكر نصوص تلك الأحاديث. ولابن طاووس أيضاً إشارات إلى كتاب (الولايـة) والذى ذكرناه فى مواضع أخرى نقلًا عن (الطرائف).

شمس الدين الذهبىّ وكتاب (الولاية):

ذكرنا آنفاً أنّ الذهبى كان قد اطّلع على مجلّد واحد من مجموع مجلّدَين لكتاب الطبرى فيما يخصّ طرق حديث (الغدير) وأنّه دُهش لكثرة ما رأى من الطرق المذكورة لذلك الحديث. وقد قام الذّهبى محاكاةً- كما يبدو- لمُصَنَّف الطبرى بتأليف رسالة مستقلة فى طرق حديث (الغدير) ونقل عدداً من الروايات من كتاب الطبرىّ فى مواضع كثيرة فى كتابه. وقال فى موضع ما من كتابه، بعد إيراده لرواية:

«هكذا روى الحديث بتمامه محمد بن جرير الطبرىّ» (۶)، وقال أيضاً: «حدّثنا ابن جرير فى كتاب غدير خمّ» (۷)، وفى موضع آخر كتب يقول: «قال محمد بن جرير الطبرى فى المجلد الثانى من كتاب (غدير خمّ) له وأظنه به

۱- ۱ اليقين: ۴۷۷.

۲- ۲ الطُرَف، ميراث اسلامى ايران، المجلد الثالث: ۱۸۶.

۳- ۳ كتب كلبرگ- مكتبة ابن طاووس: ۳۹۸، ش ۳۵۶- يقول: إنّ المقصود من ذلك هو ترتيبه الأبواب بحسب‌أسماء الرواة. ومع ذلك لا ـ يمكننا تأييد هذا القول بالكامل إذا ما علمنا أنّه قام مثلًا بنَقل حديث عن سلمان فى اليقين: ۴۷۷ لا يناسب وضعه فى باب الهاء، وشبيه هذا الأمر موجود كذلك فى كتاب الطُرَف.

۴- ۴ وقام كذلك بنقل نصوص أخرى لعلماء من أهل السنّة يمدحون فيها الطبرىّ ويثنون عليه. [اليقين باختصاص‌مولانا علىّ بأمير المؤمنين، تصحيح الأنصارىّ، قم دار الكتب، ۱۴۱۳ ه: ۴۸۷.].

۵- ۵ اليقين: ۲۱۵- ۲۱۶.

۶- ۶ طرق حديث «من كنت مولاه...»: ۲۹.

۷- ۷ المصدر السابق: ۴۱.

ص: ۸۸

مثل جمع هذا الكتاب نسب إلى التشيع§» ۱ المصدر السابق: ۶۲، §.وله كذلك: «رواه محمد بن جرير فى كتاب (الغدير§)» ۲ المصدر السابق: ۹۱.§.

ابن كثير و كتاب (الولاية):

وذكرنا أيضاً أنّ ابن كثير قد أشار هو الآخر إلى كتاب (الولاية). فقد تطرّق إلى حديث (الغدير) فى موضعَين فى كتابه (البداية والنهاية)؛ الموضع الأول فى حوادث سنة (۱۰) للهجرة مشيراً إلى بعض طرقه§ ۳ البداية والنهاية ۵: ۲۲۷– ۲۳۳ بيروت، دار إحياء التّراث العربى، ۱۴۱۲ ه§۳ البداية والنهاية ۵: ۲۲۷– ۲۳۳ بيروت، دار إحياء التّراث العربى، ۱۴۱۲ ه. §.والموضع الثانى جاء به فى آخر أيام أمير المؤمنين عليه السلام وذلك خلال ذِكره فضائله سلام اللَّه عليه، وهنا كذلك أورد بعض طرق حديث (الغدير) إلّاأنّه لم يُشر، لا من قريب ولا مِن بعيد، إلى كتاب الطبرىّ§ ۴ المصدر السابق ۷: ۳۸۳– ۳۸۷.§.

ففى الموضع الأول، وبعد التنويه إلى أنّ الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله قام ببيان إحدى فضائل علىّ عليه السلام على الملإ بالقرب من غدير (خمّ) وذلك عند عودته من حجّة الوداع، كتب ابن كثير يقول: «ولهذا لمّا تفرّغ عليه السلام من بيان المناسك ورجع إلى المدينة بيّن ذلك فى أثناء الطريق، فخطب خطبة عظيمة فى اليوم (۱۸) من ذى حجة عامئذ وكان يوم الأحَد بغدير خمّ تحت شجرة هناك. فبيّن فيها أشياء. وذكر من فضل علىّ وأمانته وعدله وقربه إليه ما أزاح به ما كان فى نفوس كثير من الناس منه! ونحن نورد عيون الأحاديث الواردة فى ذلك ونبيّن ما فيها من صحيح وضعيف بحول اللَّه وقوّته وعونه. وقد اعتنى بأمر هذا الحديث أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى صاحب التفسير والتأريخ، فجمع فيه مجلّدين أورد فيهما طرقه وألفاظه وساق الغثّ والسمين والصحيح والسقيم، على ما جرت به عادة كثير من المحدّثين يوردون ما وقع لهم فى ذلك الباب من غير تمييز صحيحه وضعيفه§» ۵ المصدر السابق ۵: ۲۲۷.§.

ثم يُشير بعد ذلك إلى أنّه ينوى نقل بعض طرق الحديث المذكور، فقام بنقل ذلك.

وبإلقاء نظرة سريعة على الطرق التى قام بنقلها يتّضح لنا بأنّ النصّ هو فى

ص: ۸۹

الواقع جزءٌ من كتاب الطبرىّ. ويبـدو ممّا جاء فى كتاب (البداية والنهاية) أنّ الرسالة المذكورة (فى طرق حديث الغدير) كانت بحوزة ابن كثير.

البياضى وكتاب (الولاية):

ذكر زين الـدين على بن يونس العـاملى فى مقدمـهٔ كتـاب (الصـراط المسـتقيم) فهرساً من مصادره، ومن جملتها اسم كتاب (الولايـهٔ) للطبرىّ (۱). وفى مكـان آخر وخلال ذِكره لمؤلفـات أهل السـنّهٔ حول أهل البيت عليه السـلام، بـدأ بـذِكر كتاب الطبرىّ، حيث قال: «فصـنّف ابن جرير كتاب الغدير وابن شاهين كتاب المناقب...» (۲)، وعلى هـذا الأساس قام بنقل بعض النّصوص من الكتاب المذكور مسـتنداً أغلب الظنّ إلى كتب لابن شـهرآشوب وابن طاووس أو مصادر أخرى. ومن بين تلك المقتبسات، اقتباس مفصّل عن زيـد بن أرقم نقلًا عن كتاب (الولايهٔ) للطبرىّ، والذى يبدو أنّ العلامهٔ الأمينىّ قد قام بنقل ذلك عن البياضىّ (۳)، وذلك لأننا لا نجد عين هذا النصّ فى مكان آخر غير هذا.

وتجـدر الإشارهٔ هنا إلى أنّ البياضـى يذكر تارهً كتاب (الولايهٔ) للطبرىّ بصـريح العبارهٔ، وتارهً أخرى يقوم بنَقل نصّ عنه واضـعاً اسـمه إلى جانب أسماء الرواهٔ الآخرين من أهل السنّهٔ ممّا يؤكّد كون الطبرىّ هذا هو نفسه الطبرىّ المؤرّخ المعروف.

هذا وقد أشار البياضـىّ فى كثير من المواطن إلى كتاب (التأريخ) للطبرىّ (۴)، كما أشار أيضاً إلى الطبرىّ الشيعىّ وكتابه (المسترشد) (۵) واقتطف منه مقاطع كـذلك. وجـدير بالذكر، أنّه يصـعب علينا تحديد مَن هو المقصود بكلمهٔ (الطبرى) التى يذكرها البياضـى فى بعض المواضع التى لا يذكر فيها الاسم الكامل سوى ذِكره لكلمهٔ (الطبرى) وحسب (۶).

وقد نقل عن كتاب الطبرى (المناقب) مورداً يتعلّق بأبى بكر (۷).

ومن الشخصيات التى قامت بنقل بعض الروايات فى فضائل الإمام على عليه السلام

۱- ۱ الصراط المستقيم ۱: ۹.

۲- ۲ المصدر السابق ۱: ۱۵۳.

۳- ۳ الغدير ۱: ۲۱۴؛ راجع: الصراط المستقيم ۱: ۳۰۱.

۴- ۴ الصراط ۳: ۷۹، ۸۱ و ۱۶۲.

۵- ۵ المصدر السابق ۱: ۴، و ۳: ۲۵۵.

۶- ۶ المصـدر السابق ۱: ۲۴۶. وفى ۱: ۲۶۱ يُـدرج اسـمه فى عِداد كتّاب الشـيعهٔ كابن بطريق وابن بابويه، ويحتمل أنّه قـد قصد من الطبرى صاحب «المسترشد».

۷- ۷ الصراط ۱: ۲۳۳؛ وأسند ابن جرير الطبرى فى كتاب المناقب إلى النّبى...

ص: ۹۰

كـذلك عن الطبرىّ، هو العالِم المحـدّث المشـهور لدى أهل السـنّة علاء الدين على المعروف ب (المتّقى الهندى) (ت: ۹۷۵)، حيث قام بنقل العديد من الروايات فى كتابه (كنز العمّال) (۱) والخاصّة بفضائل الإمام على عليه السلام واضعاً اسم ابن جرير فى آخر تلك الروايات. ويقول المتّقى الهندى فى مقدمة الكتاب ما شرحه: «إذا كان أورد اسم ابن جرير مطلقاً فحينئذ يقصد كتابه (تهذيب الآثار)، وأمّا إذا نقله عن كتاب (التّفسير) أو كتاب (التأريخ) فإنّه يـذكر ذلك صراحةً. وهنا ننوّه أنّه لمّا كانت الروايات المنقولة عنه فى باب فضائل أهل البيت كانت كـذلك موجودة يقيناًفى كتاب (مناقب أهل البيت)، ولمّا كان بعضـها يتعلّق بطُرق حـديث (الغـدير)، يمكن اعتبار هذه الأحاديث أيضاً بمثابة جزء من كتاب (الفضائل) أو كتاب (الولاية) اللّذين للطبرىّ.

وتجـدر الإشـارة إلى أنّه لم يصل إلينا من كتاب (تهـذيب الآثار) إلّاقسم من أجزائه فقط، وعلى هـذا فالقسم الأكبر من تلك الروايات غير موجود فى النسخة المطبوعة منه والموجودة فى أيدينا اليوم.

وأخيراً لوحظ اهتمام بالغ بهـذا الكتاب فى كتاب (الغـدير) للعلامـة الأمينى (۱۳۲۰– ۱۳۹۰ هجريـة) الذى ذكر حديث (الغدير) برواية الطبرىّ نقلًا عن (كنز العمّال) و (البداية والنهاية) (۲). ونشير إلى أنّ الأستاذ المرحوم السيد عبد العزيز الطباطبائىّ (ت: ۱۴۱۶) قد ذكر أيضاً كتاب (الولاية) ضمن مؤلّفات أهل السنّة عن أهل البيت عليه السلام (۳).

۱– ۱ بيروت، مؤسسة الرسالة، ۱۴۰۹ ه.

۲– ۲ حول كتاب الولاية راجع: الغدير ۱: ۱۵۲.

۳– ۳ الغـدير فى الـتراث الاسـلامى، بيروت، دار المـؤرخ العربى، ۱۴۱۴ ه: ۳۵– ۳۷؛ أهل البيت فى المكتبـة العربيـة، قم، مؤسـسة آل البيت، ۱۴۱۷ ه: ۶۶۱– ۶۶۴، ش ۸۵۲.

ص: ۹۱

الهوامش:

ص:۹۲

ص:۹۳

ص:۹۴

ص:۹۵

ص:۹۶

ص:٩٧

ص:۹۸

ص: ۹۹

فقه الحجّ عند الإمام على بن أبى طالب (عليه السلام)

فقه الحجّ عند الامام على بن ابى طالب عليه السلام

فقه الحجّ عند الإمام على بن أبى طالب عليه السلام

عبد الكريم آل نجف

ما كادت الفضائل تجتمع فى إنسان اجتماعها فى على بن أبى طالب عليه السلام وما كادت فضائله تبرز بروز علمه وفقهه وإحاطته بالأحكام والسنن والقضايا.

ويكفيه منقبة فى ذلك أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال فى حقّه: «أنا مدينة العلم وعلىّ بابها» (۱)

. فهو المفسِّر الأوّل والمتكلِّم الأوّل والفقيه الأوّل فى الإسلام. رغم ما أبداه الزمان له من جفاء ومؤامرات وخيانة أدّت إلى إسدال الستار على الكثير من علومه وعطائه الثرّ للإسلام والإنسانية، إلى الحدّ الذى يتقطّع معه المنصف ألماً وهو يرى صحيحى البخارى ومسلم فى احتفاء تامّ بأسماء الضعفاء والنكرات فى الموازين الصحيحة للدين والفقه بعيداً عن ضوضاء السياسة وصخبها، أمثال أبى‌هريرة وعكرمة وكعب الأحبار بينما لم يرَ فى أسانيدهما اسم على بن أبى طالب عليه السلام إلّابنحو عفو الخاطر، وعروض العارض الطارئ.

ومقتضى إمامته الفكرية على المسلمين الرجوع إليه فيما يعترض حياتهم من مشكلات فكرية ومطالب دينية، ومن جملتها المطالب الفقهية.

۱- ۱ انظر مصادر ونصوص هذا الحديث فى كتب الفريقين فى هوامش الشيخ حسين الراضى على الفقرة التاسعةمن المراجعة ۴۸ من كتاب المراجعات للإمام السيّد عبد الحسين شرف الدين قدس سره.

ص: ۱۰۰

والدراسة التی بین أیدینا محاولة لتسلیط الضوء علی ما وصل إلینا من تراث الإمام علیه السلام الفقهی فی کتاب الحجّ من أبوابه المختلفة، نأمل أن تکون موفّقة فی تحقیق ما نتوخّاه من أغراض تتّصل بتخلید تراث الإمام الفقهی من جهة، وتسلیط أضواء علویة علی فقه الحجّ من جهة ثانیة.

ومصدر روایات وأحادیث هذه الدراسة یتمثّل بشکل أساس فی:

۱- ما ورد فی وسائل الشیعة للحرّ العاملی من أخبار وروایات نُسبت إلی الإمام علی علیه السلام وعالجت جوانب الحجّ المختلفة.

۲- ما جمعه الدکتور محمد روّاس قلعه چی فی کتابه «موسوعة فقه علی بن أبی طالب» من أخبار وروایات عن الإمام علی علیه السلام فی أبواب الحجّ المختلفة، من مصادر الحدیث والفقه والتفسیر المختلفة لدی مذاهب الجمهور.

والمصدر الأوّل هو الأساس، والمصدر الثانی جیء به لغرض المقارنة والإضافة المناسبة لموضوع البحث. وقد قسّمنا هذه الدراسة إلی أبواب بحسب الأبواب الفقهیة المتعارفة فی کتاب الحجّ قدر الإمکان بعد حذف الأبواب التی لم یرد فیها أثر عن الإمام علی علیه السلام.

أوّلًا- مقدّمات الحجّ

وتشمل الأحکام الفقهیة التمهیدیة لفریضة الحجّ، ممّا له علاقة بمرحلة ما قبل الاحرام، وقد وردت عن الإمام علی علیه السلام آثار فقهیة عن هذه المرحلة نوردها فی النقاط التالیة:

۱- فی وجوب الحج وفضیلته وأرکانه

المعروف من شریعة الإسلام أنّ الحجّ هو من أعظم شعائر الإسلام، وأنّ من سوّف الحجّ حتی یموت بعثه اللّه یوم القیامة یهودیاً أو نصرانیاً، هذا لمن کان مستطیعاً کما فی المروی عن النبی صلی الله علیه و آله (۱).

وقد وردت فی هذا المعنی آثار عدیدة عن أمیر المؤمنین علیه السلام منها ما قاله ضمن

۱- ۱ وسائل الشیعة ۱۱: ۳۲ ط مؤسسة آل البیت علیهم السلام.

ص: ۱۰۱

خطبة له: «ألا ترون أنّ اللّه اختبر الأوّلين من لدن آدم إلى الآخرين من هذا العالم بأحجار ما تضـرّ ولا تنفع، ولا تبصـر ولا تسمع.... ثمّ أمر آدم وولده أن يثنوا أعطافهم نحوه..» (۱).

وقال علیه السـلام فی خطبة أخرى: «فرض عليكم حجّ بيته الذى جعله سبحانه علامة لتواضعهم لعظمته، وإذعانهم لعزّته... فرض حجّه وأوجب حقّه وكتب عليكم وفادته...» (۲)

، وكان علیه السلام يخاطب أبناءه بقوله: «انظروا بيت ربّكم فلا يخلونّ منكم فلا تناضروا» (۳)

كلّ هذا فی الحجّ الواجب.

أمّا فی فضيلة الحجّ واستحبابه فقد ورد عنه علیه السـلام فی خبر روى فی العلل وعيون الأخبار والخصال بسند ينتهى إلى الإمام الرضا علیه السلام عن آبائه علیهم السلام أنّ رجلًا سأل أمير المؤمنين علیه السلام: كم حجّ آدم من حجّة؟

فقال له: سبعمائة حجّة ماشياً على قدميه، وأوّل حجّة حجّها كان معه الصرد يدلّه على الماء وخرج معه من الجنّة.. وسأله عن أوّل من حجّ من أهل السماء فقال: جبرئيل علیه السلام (۴).

وروى عنه علیه السلام أنّه قال: «ضمنت لستّة الجنّة، وعدّ منهم من خرج حاجّاً فمات» (۵).

وكيف كان ففضيلة الحجّ ممّا لا تحتاج إلى بيان، وإنّما وقع البحث فی تحديد النوع الأفضل، فذهب مشهور السنّة إلى أفضلية الإفراد، وذهبت الإمامية إلى أفضلية التمتّع. قال فی الجواهر: «لا خلاف أيضاً فی أفضلية التمتّع على قسميه لمن كان الحجّ مندوباً بالنسبة إليه لعدم استطاعته أو لحصول حجّة الإسلام منه.

والنصوص مستفيضة فيه أو متواترة بل هو من قطعيات مذهب الشيعة، بل فی بعضها عن الصادق علیه السلام: لو حججت ألفى عام ما قدمتها إلّامتمتّعاً» (۶).

وقد سُئل الإمام الصادق علیه السـلام عن ذلك فأجاب علیه السـلام: «إنّ عليّاً علیه السـلام كان يقول لكلّ شـهر عمرة، تمتّع فهو واللّه أفضل..» (۷)، خلافاً لما ترويه المصادر السنّية عنه من

۱- ۱ الوسائل ۱۱: ۱۱- ۱۲.

۲- ۲ الوسائل ۱۱: ۱۵.

۳- ۳ الوسائل ۱۱: ۲۱.

۴- ۴ الوسائل ۱۱: ۱۲۸ ح ۲۰.

۵- ۵ الوسائل ۱۱: ۱۰۲ ح ۲۹.

۶- ۶ جواهر الكلام، محمد حسن النجفى ۶: ۴۴۲.

۷- ۷ الوسائل ۱۱: ۲۵۱ ح ۱۸.

ص: ۱۰۲

أنّه، كان يقول: «أفرد الحج فإنّه أفضل» (۱).

۲- النية

من المعلوم فى شريعة الإسلام أنّ النيّة شرط فى كلّ عبادة، والحجّ من جملة العبادات التى لا تتمّ إلّابالنيّة، وهذا ممّا لا إشكال فيه، ولا شكّ يعتريه، إنّما وقع البحث بين الفقهاء فى الجهة التى تنعقد لها النيّة، هل هى نيّة الاحرام أم نيّة الخروج إلى مكّة أم نية النوع من تمتع أو إفراد أو قران، أم الجمع بين النية للنوع والنية لكلّ فعل من أفعاله؟

وجوه متعدّدة ذكرها الفقهاء، وأوردها صاحب الجواهر عنهم، ثمّ اختار منها القول بأنّ النية هى نية النوع (۲).

وفى موسوعة فقه على بن أبى طالب أورد نصّاً عن الإمام عليه السلام نقله عن مسند زيد استفاد منه فقهاء السنّة أنّ النية تكون للنوع، وهو قوله عليه السلام «من شاء ممّن لم يحجّ يتمتّع بالعمرة إلى الحجّ، ومن شاء قرنهما جميعاً، ومن شاء أفرد» (۳).

ولكن تخصيص الكلام بمن لم يحجّ يفيد أنّ الإمام عليه السلام بصدد أمر آخر غير النية، فإنّ النية ثابتة فى العبادة الواجبة والمستحبّة، فيمن حجّ سابقاً وأراد حجّة جديدة مستحبّة ومن لم يحجّ وأراد الصرورة.

۳- يجب الحجّ على المرأة ولو لم يكن معها محرم

نقل عبداللَّه بن جعفر فى قرب الاسناد، بإسناده عن الحسين بن علوان عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه نقل عن أبيه الباقر عليه السلام: «أنّ علياً كان يقول لا بأس أن تحجّ المرأة الصرورة مع قوم صالحين إذا لم يكن لها محرم ولا زوج» (۴). فيكفى فى الوجوب عليها غلبة ظنّها بالسلامة على نفسها لصدق الاستطاعة عليها إذا كانت مأمونة وكان معها فى الرفقة ثقات، كما قال فى الجواهر (۵)، ومفهوم كلام على عليه السلام وسائر الروايات فى المقام أنّ الوجوب يرتفع إذا غلب عليها الخوف من الطريق.

۱- ۱ موسوعة فقه على بن أبى طالب، د. رواية قلعه‌چى: ۲۰۵، نقلًا عن سنن البيهقى، وكنز العمّال، والمجموع للنووى.

۲- ۲ الجواهر ۶: ۴۴۲.

۳- ۳ الموسوعة: ۲۰۵.

۴- ۴ الوسائل ۱۱: ۱۵۵.

۵- ۵ الجواهر ۶: ۳۹۳.

ص: ۱۰۳

۴- حجّ الصبی والمملوک

المعروف من الفقه أنّ الحجّ لا یجب علی الصبی والمملوک، ولو حجّ أحدهما لم یجزه ذلک عن حجّهٔ الإسلام عند حصول البلوغ بالنسبهٔ إلی الصبی وتحقّق العتق بالنسبهٔ إلی المملوک، وفی ذلک روایات کثیرهٔ عن الأئمّهٔ علیهم السلام منها ما عن الإمام الصادق علیه السلام «الصبی إذا حُجّ به فقد قضی حجّهٔ الإسلام حتّی یکبر، والعبد إذا حُجّ به فقد قضی حجّهٔ الإسلام حتّی یعتق» (۱).

ولم یستدلّ فقهاء الإمامیهٔ فی هذا الباب بحدیث عن الإمام علی علیه السلام، غیر أنّ فقهاء السنّهٔ أوردوا عنه حدیثاً یقول فیه: «إذا حجّ الصبی أجزأه ما دام صبیاً، فإذا بلغ فعلیه حجّهٔ الإسلام، وإذا حجّ العبد أجزأه ما دام عبداً، فإذا عتق فعلیه حجّهٔ الإسلام» (۲).

۵- حجّ القران

ینقسم الحجّ إلی تمتّع وافراد وقران، الأوّل فرض البعید عن مکهٔ، والثانی والثالث فرض أهل مکهٔ، ولم یرد فی مصادر الحدیث والفقه الإمامی عن علی علیه السلام فی هذا الباب شیء، بینما ذکرت المصادر السنّیهٔ أنّ أبا نصر السلمی قال: «أهللت بالحجّ فأدرکت علیّاً فقلت: أهللت بالحجّ أفأستطیع أن أضمّ إلیه عمرهٔ؟ قال: لا لو کنت أهللت بالعمرهٔ ثمّ أردت أن تضمّ إلیها الحجّ ضممته، فإذا بدأت بالحجّ فلا تضمّ إلیه عمرهٔ، قال: فما أصنع إذا أردت؟ قال: صب علیک ادواهٔ من ماء ثمّ تحرم بهما جمیعاً فتطوف لهما طوافین» (۳).

ورووا أیضاً «أنّ المقداد دخل علی علیّ بن أبی طالب بالسقیا وهو یسقی بکرات له دقیقاً وخبطاً فقال: هذا عثمان بن عفان ینهی عن أن یقرن بین الحجّ والعمرهٔ، فخرج علی وعلی یدیه أثر الدقیق والخبط حتّی دخل علی عثمان فقال:

أنت تنهی عن أن یقرن بین الحجّ والعمرهٔ؟ فقال عثمان: ذلک رأیی. فخرج علی مغضباً وهو یقول: لبّیک اللّهم لبّیک بحجّ وعمرهٔ معاً» (۴).

۱- ۱ الوسائل، الباب ۱۶، من أبواب وجوب الحجّ، ح ۲.

۲- ۲ الموسوعهٔ: ۲۴، نقلًا عن الروض النضیر ۳: ۲۹۶.

۳- ۳ سنن البیهقی ۴: ۳۴۸، والمغنی ۳: ۴۸۴.

۴- ۴ الموطأ ۱: ۳۳۶ وکنز العمّال ح ۱۲۴۶۵.

ص: ۱۰۴

وروی ابن أبی شیبة عن مروان بن الحکم قال: «کنّا نسیر مع عثمان فسمع رجلًا یلبّی بهما جمیعاً فقال عثمان: من هذا؟ قالوا: علیّ، فأتاه عثمان فقال له: ألم تعلم أنّی نهیت عن هذا؟ فقال: بلی ولکن لم أکن لأدع فعل رسول اللّٰه بقولک» (۱).

واضطربت روایاتهم عنه فی کیفیته ففی روایة عنه علیه السلام أنّ القارن یطوف طوافاً واحداً وسعیاً واحداً، وفی أخری أنّه یطوف طوافین ویسعی سعیاً واحداً (۲).

والمعروف فی الفقه الإمامی أنّ القران یتمّ بسعی واحد وطوافین (۳). ونقلوا عنه علیه السلام أنّه قال: «من شاء أن یجمع بین الحجّ والعمرة فلیسق هدیه معه» (۴).

۶- النیابة وأحکامها

وفی باب النیابة فی الحجّ وردت عن الإمام علی علیه السلام روایات فی نقطتین:

أولاهما- فی استنابة الموسر فی الحج إذا منعه مرض أو کبر أو عدوّ. فقد ورد أنّه علیه السلام رآی شیخاً لم یحجّ قط ولم یطق الحج فی کبره، فأمره أن یجهز رجلًا فیحجّ عنه (۵).

وردّ صاحب الجواهر دلالة هذا الحدیث وأمثاله علی الوجوب، خلافاً لما فی الحدائق من دلالته علی ذلک.

ونقلت المصادر السنّیة هذا المضمون عن الإمام علیّ، حیث روی عنه قوله علیه السلام: «الشیخ الفانی الذی لا یستطیع أن یحجّ یجهّز رجلًا علی نفقته فیحجّ عنه» (۶)

. وروی عنه أیضاً أنّه لم یکن یری بأساً أن یحجّ الرجل عن الرجل ولم یحجّ قط (۷). وهو الموافق للفقه الإمامی فیما إذا کان النائب مستکملًا لشرائط الوجوب فی ذلک العام (۸).

وثانیتهما- فی وجوب أن یأتی النائب بما شرط علیه من تمتّع أو قران أو افراد فقد وردت فی ذلک روایة نقلها صاحب الوسائل عن التهذیب والاستبصار عن الحسن بن محبوب عن علیّ علیه السلام «فی رجل أعطی رجلًا دراهم یحجّ بها حجّة مفردة قال: لیس له أن یتمتّع بالعمرة إلی الحجّ لا یخالف صاحب الدراهم» (۹).

۱- ۱ الموسوعة: ۲۰۷.

۲- ۲ الموسوعة: ۲۰۷ نقلًا عن ابن أبی شیبة ۱: ۱۸۳، والمحلّی ۷: ۱۷۴، وسنن البیهقی ۵: ۱۰۸ وکنز العمّال: ح ۱۴۴۶۴.

۳- ۳ الجواهر ۶: ۴۶۲- ۴۶۳.

۴- ۴ الموسوعة: ۲۰۸ نقلًا عن المحلّی ۷: ۱۰ والمغنی ۳: ۴۶۸.

۵- ۵ الوسائل ۱۱: ۶۳، ح ۱، ومثله الحدیث الثالث والخامس والسادس من الباب نفسه.

۶- ۶ الموسوعة: ۲۰۴ نقلًا عن مصنف ابن أبی شیبة ۱: ۱۹۴، ۱۶۹ والمحلّی ۷: ۶۱ والمجموع ۷: ۸۰ والمغنی ۳: ۲۲۸.

۷- ۷ المصدر نفسه.

۸- ۸ الجواهر ۶: ۴۱۰.

۹- ۹ الوسائل ۱۱: ۱۸۲، ح ۲.

ص: ۱۰۵

ولم یعلم الإمام المسؤول فی هذه الروایة لوضوح أنّ الحسن بن محبوب لا یروی عن الإمام علیّ علیه السلام، ففیها إرسال فی أکثر من واسطة إذا کان المقصود بعلیّ هو أمیر المؤمنین علیه السلام وکانت الروایة منقولة عن الإمام الکاظم علیه السلام أو الإمام الرضا علیه السلام اللذین عاصرهما الحسن بن محبوب وروی عنهما، ویحتمل أن یکون الإمام المقصود هو علی بن موسی الرضا علیه السلام الذی عرف الحسن بروایته عنه، ولأجل تردّد الروایة بین هذین الاحتمالین، فقد اعتبرها الشیخ الطوسی فی التهذیب موقوفة غیر مسندة إلی أحدٍ من الأئمّة (۱). واعتبرها صاحب الجواهر مضمرة لم یُعرف الإمام المسؤول فیها (۲)، ولکن اشتهار التعبیر عن الإمام علی علیه السلام فی لسان الروایات بما هو وارد فی هذه الروایة، واشتهار التعبیر عن أسمیائه من الأئمّة بالکنی أو بالألقاب أو بالاسم الثنائی أو الثلاثی بنحو جعل التعبیر بالاسم المفرد وکأنّه من خواص الروایات عن الإمام علی علیه السلام یجعل احتمال کونها عنه قویاً، فتکون مرسلة حینئذٍ.

۷- مَنْ نذر الحجّ ماشیاً

المعروف فی مسألة من نذر الحج ماشیاً وجوب ذلک علیه، وادُّعی الإجماع علی ذلک، وکتفریع علی ذلک ظهرت مسألة حکم مواضع العبور التی یضطرّ الحاج إلی رکوب السفینة فیها، ونحوها، وقد روی عن الباقر علیه السلام عن آبائه: أنّ علیّاً سئل عن ذلک فقال: «فلیقم فی المعبر قائماً حتّی یجوز» (۳).

۸- المواقیت

لم تورد مصادر الحدیث والفقه الإمامی شیئاً مأثوراً عن الإمام علی علیه السلام فی باب المواقیت، بینما ذکرت بعض المصادر السنّیة خبراً عنه علیه السلام یقول فیه: «میقات من حجّ من المدینة أو اعتمر ذو الحلیفة، فمن شاء استمتع بثیابه وأهله حتّی یبلغ ذو الحلیفة، ومیقات من حجّ أو اعتمر من أهل العراق العقیق، فمن شاء استمتع بثیابه وأهله حتّی یبلغ العقیق، ومیقات من حجّ أو اعتمر من أهل الشام الجحفة، فمن

۱- ۱ الوسائل ۱۱: ۹۲.

۲- ۲ الجواهر ۶: ۴۱۰.

۳- ۳ الوسائل ۱۱: ۹۲.

ص: ۱۰۶

شاء استمتع بثيابه وأهله حتّى يبلغ الجحفة، وميقات من حجّ أو اعتمر من أهل اليمن يلملم فمن شاء استمتع بثيابه وأهله حتّى يبلغ يلملم. وميقات من حجّ من أهل نجد واعتمر قرن المنازل، وميقات من كان دون المواقيت من أهله» (۱). وهذه المواقيت مطابقة لما عليه الفقه الإمامى سوى تفاوت طفيف (۲).

۹- حكم الإحرام قبل الميقات

الميقات هو النقطة التى يجب عندها ارتداء ثوبى الإحرام، أمّا إذا كان الحاج قد أحرم قبل الميقات فما هو حكمه؟

المعروف فى الفقه السنى جواز ذلك وكونه من تمام الحج، ورووا فى ذلك روايات عن الإمام على عليه السلام أنّه يفسّر قوله تعالى: وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ بأنّ: «إتمامها أن تحرم بهما من دويرة أهلك»، وإنّ رجلًا أتى عمر فقال: إنّى ركبت السفن والخيل والإبل فمن أين أحرم؟ فقال: ائتِ علياً فاسأله، فسأل علياً فقال له: «من حيث بدأت أن تنشئها من بلادك»، وأنّه عليه السلام أحرم من المدينة المنوّرة (۳)..

غير أنّ الفقه الإمامى قائم على عكس ذلك تماماً، وهو أنّ الإحرام لا ينعقد قبل الميقات وأنّه غير جائز (۴)، وفى ذلك روايات عديدة عن أئمّة أهل البيت، منها رواية عن الإمام الباقر وروايتان عن الإمام الصادق عليه السلام فى نقض ما يرويه أهل السنّة عن الإمام على عليه السلام وفيها جميعاً الاستغراب من ذلك، وأنّ الأمر لو كان كما يقولون لما ترك الرسول صلى الله عليه و آله فضيلة ذلك ولأحرم من المدينة، مع أنّه قد أحرم من ذى‌الحليفة (۵).

ثانياً- محرمات الاحرام وجزاء مخالفاتها

أمّا فى باب محرّمات الاحرام فقد وردت عنه عليه السلام الآثار التالية من مصادر الفريقين:

۱- عدم جواز صيد البر على المحرم وحرمة أكله على المحرم والمحل

فقد ورد فى صحيحة محمد بن مسلم عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «مرّ

۱- ۱ الموسوعة: ۲۰۴ نقلًا عن الروض النضير ۳: ۱۳۸.

۲- ۲ الجواهر ۶: ۴۸۹- ۴۹۸.

۳- ۳ الموسوعة: ۲۰۸ نقلًا عن المغنى ۳: ۲۶۶، المحلّى ۷: ۷۵، وسنن البيهقى ۵: ۳۰، ۴: ۳۴۱، ومسند زيد ۳: ۱۴۴ والمجموع ۷: ۲۰۱ وآثار أبى‌يوسف: ۴۸۴، وابن أبى‌شيبة ۱: ۱۶۲- ۱۶۴، وتفسير ابن كثير ۲: ۱۰۳.

۴- ۴ الجواهر ۶: ۵۰۰.

۵- ۵ الوسائل ۱۱: ۳۲۱ ح ۵، ص ۳۲۳ ح ۲، ص ۳۲۴ ح ۴.

ص: ۱۰۷

على عليه السلام على قوم يأكلون جراداً فقال: سبحان اللّه وأنتم محرمون؟ فقالوا: إنّما هو من صيد البحر، فقال لهم: إرموه فى الماء إذن» (۱).

ومقتضى شبهتهم فى ذلك أنّه يكون حلالًا؛ لأنّ صيد البحر قد نصّ القرآن على حلّيته قال تعالى: أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ فقال الإمام عليه السلام لهم فى مقام دحض شبهتهم: ارموه فى الماء، أى لو كان بحرياً لعاش فى الماء.

ونقل فى الجواهر عن المنتهى والتذكرة للعلّامة أنّ كونه من صيد البر قول أكثر علمائنا وأكثر علماء العامّة أيضاً، وعن المسالك أنّه لا خلاف فيه عندنا، خلافاً لأبى سعيد الخدرى والشافعى وأحمد فى رواية (۲).

وجمع صاحب موسوعة فقه على بن أبى طالب آثاراً عنه فى هذا الباب وردت فى المصادر السنية فكتب يقول:

يحرم على المحرم قتل الصيد، والإشارة إليه، والدلالة عليه، واتباعه، وأكله.

قال على: «لا يقتل المحرم الصيد ولا يشير إليه ولا يدلّ عليه ولا يتبعه» (۳)

فإن فعل شيئاً من ذلك فقتله هو أو قتله الحلال فالمحرم ضامن لذلك (۴).

ولا يحل للمحرم أكل لحم الصيد سواء أصاده الحلال أو المحرم وسواء أصيد للمحرم أو لم يُصَدْ لَه (۵).

فقد كان الحارث بن نوفل خليفة عثمان على مكة، فلمّا قدم عثمان مكة استقبل بقديد، فاصطاد أهل الماء حجلًا، فطبخ وقدم إلى عثمان وأصحابه، فأمسكوا، فقال عثمان: صيد لم نصده ولم نأمر بصيده، اصطاده قوم حل، فأطعمونا، فما بأس به، فبعث إلى على فجاءه، فذكر له، فغضب على وقال: «أنشد اللّه رجلًا شهد رسول اللّه حين أُتى بقائمة حمار وحش، فقال رسول اللّه: إنّا قوم حُرُم فأطعموه أهل الحل، فشهد اثنا عشر رجلًا من أصحاب رسول اللّه، ثمّ قال علىّ: أنشد اللّه رجلًا شهد رسول اللّه حين أتى ببيض النعام، فقال رسول اللّه: إنّا قوم حرم فأطعموه أهل

۱- ۱ الوسائل ۱۲: ۴۲۸، ح ۱.

۲- ۲ الجواهر ۶: ۵۹۰.

۳- ۳ الروض النضير ۳: ۲۲۱.

۴- ۴ المغنى ۳: ۳۰۹ والمجموع ۷: ۳۳۷.

۵- ۵ المحلى ۷: ۲۵۰ والمغنى ۳: ۳۱۲ والمجموع ۷: ۳۳۱.

ص: ۱۰۸

الحل»، فشهد دونهم من العدّة- من الاثنى عشر- قال: فثنى عثمان وركه من الطعام، فدخل رحله وأكل الطعام أهل الماء (۱). وروى عبد الرزاق أنّ علياً كره الصيد وهو محرم وتلا هذه الآية أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً (۲)

.

ويعتبر قتل الضبع غير العادى صيداً يوجب الجزاء، أما إذا عدا على المحرم فقتله المحرم فلا شيء فيه، قال على: «إذا عدا الضبع على المحرم فليقتله، فإن قتله قبل أن يعدو عليه فعليه شاة مسنة» (۳)

.

ويحلّ للمحرم قتل الحية السوداء والأفعى، والعقرب، والكلب العقور، ويحلّ له أن يقتل من عدا عليه من الحيوان (۴)، ويحلّ له قتل الغراب (۵) ويحلّ له أن يقرد بعيره (۶) (۷).

وقال فى الجواهر: إنّ المحرم إذا ذبح صيده البرّى كان ميتة حراماً على المحل والمحرم، كما صرّح به الشيخ والحلّى والقاضى ويحيى بن سعيد والفاضلان وغيرهم على ما حكى عن بعضهم... بل فى النهاية والمبسوط والتهذيب والوسيلة والجواهر على ما حكى عن بعضها أنّه كالميتة، بل فى الأخير الإجماع عليه أيضاً ثمّ استدلّ على ذلك بخبرين عن الإمام على عليه السلام فى هذا المورد وهما: «خبر وهب بن وهب عن جعفر عن أبيه عن على عليه السلام: إذا ذبح المحرم الصيد لم يأكله الحرام والحلال، وهو كالميتة، وإذا ذبح الصيد فى الحرم فهو ميتة حلال ذبحه أم حرام، وخبر إسحاق عن جعفر عليه السلام أيضاً: إنّ علياً عليه السلام كان يقول: إذا ذبح المحرم الصيد فى غير الحرم فهو ميتة لا- يأكله محلّ ولا محرم، وإذا ذبح المحل الصيد فى جوف الحرم فهو ميتة لا يأكله محل ولا محرم» (۸).

۲- جواز الإدهان قبل الإحرام

المعروف فى فقه الحج حرمة الادهان على الحاج بعد الاحرام، وكذا يحرم عليه ذلك قبل الاحرام إذا كان للطيب ريح تبقى إلى بعد الإحرام (۹) ويجوز له ذلك

۱- ۱ سنن البيهقى ۵: ۱۸۲ وسنن أبى داود فى المناسك باب لحم الصيد للمحرم، والمغنى ۳: ۳۱۲ ورواه ابن‌أبى‌شيبة مختصراً ۱: ۱۸۵ والأمّ ۷: ۱۷۰.

۲- ۲ عبد الرزاق ۴: ۴۲۷ وتفسير الطبرى ۷: ۷۰ الطبعة الثالثة.

۳- ۳ ابن أبى شيبة ۱: ۲۰۳ و ۱: ۱۹۱ والأمّ ۷: ۱۷۱ والأوسط ۲: ۳۱۲ والإشراف ۲: ۳۱۹.

۴- ۴ الروض النضير ۳: ۲۶۹.

۵- ۵ ابن أبى شيبة ۱: ۲۰۴ ب والروض النضير ۳: ۲۶۹.

۶- ۶ ابن أبى شيبة ۱: ۱۹۸ والمحلى ۷: ۲۴۴.

۷- ۷ الموسوعة: ۲۰۸- ۲۰۹.

۸- ۸ الجواهر ۶: ۵۸۸ والخبران مذكوران فى الوسائل ۱۱: ۴۳۲، ح ۴ و ۵.

۹- ۹ الجواهر ۶: ۶۳۳.

ص: ۱۰۹

قبل الإحرام إذا لم یکن للطیب رائحة تبقی بعد الاحرام، وعلی ذلک یحمل الخبر الوارد عن محمد بن مسلم عن الإمام الصادق علیه السلام أنه: کان علیّ علیه السلام فی هذا الباب یقول: «لا یدهن المحرم ولا یتطیّب، فإن أصابه شقاق دهنه ممّا یأکل، وإن اشتکی عینه اکتحل بالصبر، ولیس بالزعفران» (۱).

۳- جواز الاحرام بثوب مصبوغ بالمشق

اشتهر بین الفقهاء القول بکراهة الاحرام بالثیاب المصبوغة سوی ما استثنی من ذلک بدلیل. وممّا ورد الدلیل باستثنائه الثیاب المصبوغة بالمشق، وهو طین أحمر کانوا یصبغون به الثیاب، فقد ورد عن أبی جعفر الباقر علیه السلام: «کان علی علیه السلام محرماً ومعه بعض صبیانه وعلیه ثوبان مصبوغان فمرّ به عمر بن الخطّاب فقال:

یا أبا الحسن ما هذان الثوبان المصبوغان؟

فقال علیه السلام: ما نرید أحداً یعلّمنا السنّة إنّما هما ثوبان صبغا بالمشق» (۲).

وأورد صاحب موسوعة فقه علی بن أبی‌طالب مضمون هذا الخبر وأخباراً أخری تحت عنوان «ما یحرم علی المحرم من اللباس» فکتب یقول:

ویباح للرجل لبس المورد من الثیاب إذا لم یکن تورده بزعفران أو ورس أو عصفر (۳)، فعن محمد بن علی بن الحسین قال: رأی عمر بن الخطّاب علی عبداللّه ابن جعفر ثوبین مضرّجین وهو محرم، فقال: ما هذا؟

فقال علی بن أبی طالب: «ما أخال أحداً یعلّمنا السنّة»، فسکت عمر (۴).

ولا یجوز للمحرم أن یغطّی رأسه، قال علیّ: «إحرام الرجل فی رأسه (۵)، أما المرأة فإنّها تلبس ما شاءت من الثیاب غیر ما صبغ بطیب، وتلبس الخفین والسراویل والجبة (۶) ولکنّها لا تنتقب- أی لا تتلثّم- فإن أرادت أن تستر وجهها فلتسدل الثوب علیه سدلًا. فقد روی ابن أبی شیبة بسنده عن علی أنّه کان ینهی النساء عن النقاب وهن حرم، ولکن یسدلن الثوب علی وجوههن سدلًا (۷)، کما نهاهن عن لبس القفازین (۸)، ویباح للمحرم لبس الخاتم، فعن إسماعیل بن

۱- ۱ الموسوعة: ۲۱۰ نقلًا عن الروض النضیر ۳: ۲۵۷، ۲۶۵.

۲- ۲ الوسائل ۱۲: ۴۸۲.

۳- ۳ المحلّی ۲: ۸۲.

۴- ۴ المحلّی ۷: ۲۶۰.

۵- ۵ الروض النضیر ۳: ۲۱۷.

۶- ۶ الروض النضیر ۳: ۲۱۶.

۷- ۷ ابن أبی شیبة ۱۲: ۱۸۳ و ۱۸۱ ب.

۸- ۸ المحلی ۷: ۸۲ و ر: المغنی ۳: ۳۲۹.

ص: ۱۱۰

عبدالملک قال: رأیت علی علی خاتماً وهو محرم» (۱) (۲).

کما أورد أخباراً عنه علیه السلام وردت فی المصادر السنیة فی أبواب حرمة النکاح علی المحرم، وحرمة فصل شیء من جسده، وإباحة الحجامة له فکتب یقول:

۴- النکاح ودواعیه: ولا یجوز للمحرم النکاح فإن فعل ردّ نکاحه، قال علی کرّم اللَّه وجهه: «المحرم لا ینکح ولا ینکح، فإن نکح فنکاحه باطل» ومن روایة أنّه قال: «من تزوّج وهو محرم نزعنا منه امرأته» (۳)

فإن وطئ زوجته فسد حجّه.

فقد سئل علیّ عن رجل أصاب أهله وهو محرم بالحج فقال: «ینفذان، یمضیان لوجههما حتّی یقضیا حجّهما، ثمّ علیهما حجّ قابل والهدی، وإذا أهلّا بالحج من عام قابل تفرّقا حتّی یقضیا حجّهما (۴).

وکما یحرم الجماع فی الحج یحرم دواعیه کالقبلة ونحوها، ولکنّها لا تفسد الحج قال علی: «إذا قبّل المحرم امرأته فعلیه دم» (۵).

۵- فصل شیء من أعضاء جسده: کالسن والظفر والشعر. قال علی: «لا ینزع المحرم سنه ولا ظفره إلّاأن یؤذیاه» (۶).

وخرج حسین بن علی مع عثمان فی سفره إلی مکّة فمرض فی الطریق، فمر به عبداللَّه بن جعفر وهو مریض بالسقیا، فأقام علیه عبداللَّه بن جعفر، حتّی إذا خاف فوات الحج خرج وبعث إلی علی بن أبی طالب وأسماء بنت عمیس وهما بالمدینة، فقدما علیه، ثمّ إنّ حسیناً أشار إلی رأسه، فأمر علی برأسه فحلق، ثمّ نسک عنه بالسقیا فنحر عنه بعیراً (۷).

ویباح للمحرم: غسل بدنه ورأسه (۸)، وتباح له الحجامة، قال علی کرّم اللَّه وجهه: «یحتجم المحرم إن شاء» (۹) (۱۰).

هذا ما ورد عنه علیه السلام فی باب محرّمات الإحرام، أمّا فی جزاء مخالفة هذه المحرّمات فقد وردت عنه جملة أخری من الآثار هی:

۱- حرمةوضمان صید طیر علی فرع شجرة أصلها فی الحرم وفرعها فی الحلّ.

۱- ۱ ابن أبی شیبة ۱: ۱۸۱ ب.

۲- ۲ الموسوعة: ۲۱۰.

۳- ۳ ابن أبی شیبة ۱: ۱۶۴ والمحلی ۷: ۱۹۹ وسنن البیهقی ۵: ۶۶ و ۷: ۲۱۳ وکنز العمّال ۱۲۸۴۵ والمجموع ۷: ۲۹۰.

۴- ۴ الموطأ ۱: ۳۸۱ والمحلی ۷: ۱۸۰ وابن أبی شیبة ۱: ۱۶۵ ب وسنن البیهقی ۵: ۱۶۷ والروض النضیر ۳: ۲۵۰ وکنز العمّال ۱۲۸۱۵ والمجموع ۷: ۳۸۰ والمغنی ۳: ۳۶۵ وکشف الغمة ۲: ۲۲۰.

۵- ۵ ابن أبی شیبة ۱: ۱۶۳ ب وسنن البیهقی ۵: ۱۶۸ وکنز العمّال ۱۲۷۹۸.

۶- ۶ الروض النضیر ۳: ۲۶۵.

۷- ۷ الموطأ ۱: ۳۸۸ وابن أبی شیبة ۱: ۱۶۷ ب والمحلّی ۷: ۲۱۳ و ۲۰۵ وسنن البیهقی ۵: ۲۱۸ والمغنی ۳: ۴۹۸ و ۵۴۵.

۸- ۸ المغنی ۳: ۲۹۹.

۹- ۹ الروض النضیر ۳: ۲۶۷.

۱۰- ۱۰ الموسوعة: ۲۱۱.

ص: ۱۱۱

فقد روى أنّه عليه السلام سُئل عن ذلک فأجاب عليه السلام: «عليه جزاؤه إذا كان أصلها فى الحرم» (۱).

۲- فى قتل الحمامة شاة

قال فى الجواهر: «فى قتلها شاة على المحرم فى الحل على المشهور بين الأصحاب بل فى التذكرة ومحكى الخلاف والمنتهى الإجماع عليه، بل فى الأوّل أيضاً، وبه قال على عليه السلام وعمر وعثمان وابن عمر..» (۲) ولم أجد له خبراً يدلّ عليه فى الوسائل، ولعلّ صاحب الجواهر نقله عن مصادر العامّة كما سيأتى.

۳- فى قتل القطاة حمل

ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «وجدنا فى كتاب على عليه السلام فى القطاة إذا أصابها المحرم حمل قد فطم من اللبن وأكل الشجر» ومثله خبر آخر عن الإمام الباقر عليه السلام (۳)، وعلى ذلک فتوى الفقهاء (۴).

۴- حكم المحرم والمحلّ إذا قتلا صيداً

ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه يقول: «كان على عليه السلام يقول فى محرم ومحلّ قتلا صيداً فقال: على المحرم الفداء كاملًا وعلى المحلّ نصف الفداء» (۵)

وفى المسألة خلاف بين الفقهاء (۶).

۵- فى كسر بيض النعام

وفى هذه المسألة صورتان، صورة ما إذا كان فى البيض فرخ يتحرّک، وفيها ورد عن الإمام الصادق عليه السلام «أنّ فى كتاب علىّ عليه السلام فى بيض القطا بكارة من الغنم إذا أصابه المحرم مثل ما فى بيض النعام بكارة من الابل» (۷)

لكلّ بيضه. وصورة ما إذا كُسرت البيضة قبل أن يتحرّک فيها الفرخ، أو مع عدم وجود فرخ فيها أصلًا، وفيها ورد أيضاً عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه: «قضى فيها أمير المؤمنين عليه السلام أن يرسل الفحل فى مثل عدد البيض من الإبل الاناث فما لقح وسلم كان النتاج هدياً بالغ الكعبة» (۸)

. وجرت على ذلک كلمة الفقهاء فى الصورتين (۹).

۱- ۱ الوسائل ۱۲: ۵۶۱.

۲- ۲ الجواهر ۷: ۳۶۱.

۳- ۳ الوسائل ۱۳: ۱۸، ح ۱ و ۲.

۴- ۴ الجواهر ۷: ۳۶۸.

۵- ۵ الوسائل ۱۳: ۵۰.

۶- ۶ الجواهر ۷: ۳۸۲- ۳۸۳.

۷- ۷ الوسائل ۱۳: ۵۵، ح ۲ و ۴.

۸- ۸ الوسائل ۱۳: ۵۲، ح ۲ ومثله: ۵۴، ح ۶ ومثله: ۵۳ ح ۴.

۹- ۹ الجواهر ۷: ۳۵۲- ۳۵۳.

ص: ۱۱۲

۶- لو جرح صيداً ولم يعلم حاله

لو جرح المحرم صيداً ومضى عنه ولم يعلم حاله بعد أن جرحه لزمه الفداء الكامل، وردت فى ذلك رواية عن الإمام الباقر عن آبائه عن على عليهم السلام «فى المحرم يصيب الصيد فيدميه ثمّ يرسله قال: عليه جزاؤه» (۱).

۷- لو اضطرّ المحرم إلى أكل صيد أو ميتة

ما حكم المحرم إذا اضطرّ إلى تناول الصيد أو ميتة كانت عنده؟ ورد عن الإمام على عليه السلام خبر فى ذلك يقول فيه: «إذا اضطرّ المحرم إلى الصيد والميتة فليأكل الميتة التى أحلّ اللّه له» (۲)

، وهذه الرواية مخالفة لما استقرّ عليه المذهب الإمامى من اختيار الصيد مع التمكّن من الفداء، فإن لم يمكنه الفداء اجتنب الصيد وأكل من الميتة، ونقل صاحب الجواهر ادّعاء السيّد المرتضى الإجماع عليه، كما احتمل صاحب الجواهر أن يكون مورد الرواية ما إذا لم يكن واجداً للصيد وإن اضطرّ إليه (۳).

أمّا ما أوردته المصادر السنّية من آثار فقهية عن الإمام على عليه السلام فى جزاء مخالفات الإحرام فقد جمع صاحب موسوعة فقه على بن أبى طالب عليه السلام ما نصّه:

«لقد قضى على فى النعامة ببدنة- جمل- (۴) وفى بيضها جنين ناقة، فعن ابن عبّاس قال: قضى على بن أبى طالب فى بيض النعامة يصيبها المحرم: ترسل الفحل على إبلك، فإذا تبيّن لقاحها سميت عدد ما أصبت من البيض فقلت: هذا هدى، ثمّ ليس عليك ضمان ما فسد، قال ابن عبّاس: فعجب معاوية من قضاء على، قال ابن عبّاس: لم يعجب معاوية من عجب، ما هو إلّاما يباع به البيض فى السوق فيتصدّق به (۵)».

وفى سنن البيهقى أنّ هذا القضاء كان ممّا قضى به علىّ فى حياة رسول اللّه، فانطلق الرجل إلى نبى اللّه فأخبره بما قال على، فقال النبى صلى الله عليه و آله: «قد قال على ما تسمع، ولكن هلم إلى الرخصة، عليك فى كلّ بيضة صيام يوم أو إطعام مسكين» (۶).

۱- ۱ الوسائل ۱۳: ۶۳.

۲- ۲ الوسائل ۱۳: ۸۷.

۳- ۳ الجواهر ۷: ۴۱۹- ۴۲۰.

۴- ۴ المجموع ۷: ۴۰۳ و ۴۲۱ والمغنى ۳: ۵۰۹ و ۵۱۷ والمحلى ۷: ۲۲۷ والروض النضير ۳: ۲۶۶.

۵- ۵ عبد الرزاق ۴: ۴۲۲ والمحلى ۷: ۲۳۴.

۶- ۶ سنن البيهقى ۵: ۲۰۸.

ص: ۱۱۳

وقضى فى الضبع يصيده المحرم دون أن يعدو عليه بكبش وإن عدا عليه فلا شىء فيه (۱).

وفى الظبى شاة (۲).

وفى حمام الحرم يحكم به ذوا عدل منكم، قال: شاة (۳).

وفى كلّ بيضتين من بيوض الحمام درهم (۴).

جزاء حلق الشعر: قال على فيمن يصيبه أذى من رأسه فحلق: «يصوم ثلاثة أيام، وإن شاء أطعم ستّة مساكين لكلّ مسكين نصف صاع، وإن شاء نسك ذبح شاة» (۵)

، ويفعل ذلك أين شاء، وفى الحرم أو فى غيره.

أما ذبحُ علىّ بدنة بالسقيا عندما حلق شعر ابنه حسين فهو تطوّع منه رضى اللّه عنه (۶).

جزاء الوطء: قال على فى الرجل يقع على امرأته- وهو محرم-: «على كلّ واحد منهما بدنة» (۷)

، وعليه الحج من قابل.

جزاء القبلة واللمس بشهوة: قال على: «إذا قبّل المحرم امرأته فعليه دم» (۸)

، أى شاة.

ولا يجوز لمن ذبح هدياً جزاءً أن يأكل شيئاً منه، قال على: «لا يأكل من النذر ولا من جزاء الصيد ولا ممّا جعل للمساكين» (۹) (۱۰).

ثالثاً- أفعال الحجّ

الواجب فى الحجّ من الأفعال اثنا عشر: الاحرام، والوقوف بعرفات، والوقوف بالمشعر، ونزول منى، والرمى، والذبح، والحلق بها أو التقصير، والطواف، وركعتاه، والسعى، وطواف النساء، وركعتاه.

وقد وردت آثار عن الإمام على عليه السلام فى أكثر هذه الأبواب. وعلى النحو التالى:

۱- من واجبات الاحرام التلبيات الأربع

ولا ينعقد إحرام عمرة التمتّع وحجّه إلّابها، والواجب منها مرّة واحدة،

۱- ۱ ابن أبى شيبة ۱: ۱۷۷ و ۱۹۱ و ۲۰۳ وعبد الرزاق ۴: ۴۰۳ والمحلى ۷: ۲۲۷ والروض النضير ۳: ۲۲۶ والمجموع ۷: ۴۰۱ والمغنى ۳: ۵۱۰.

۲- ۲ المغنى ۳: ۵۰۹ و ۵۱۱ والروض النضير ۳: ۲۲۶.

۳- ۳ عبد الرزاق ۴: ۴۱۸.

۴- ۴ عبد الرزاق ۴: ۴۲۰ و ۴۱۸ والمجموع ۷: ۳۳۹.

۵- ۵ الروض النضير ۳: ۲۴۸ وتفسير الطبرى ۲: ۲۳۵.

۶- ۶ تفسير الطبرى ۲: ۲۳۹.

۷- ۷ ابن أبى شيبة ۱: ۱۶۵ ب.

۸- ۸ ابن أبى شيبة ۱: ۱۶۳ ب وسنن البيهقى ۵: ۱۶۸ وكنز العمال ۱۲۷۹۸.

۹- ۹ ابن أبى شيبة ۱: ۱۶۶ ب.

۱۰- ۱۰ الموسوعة/ ص ۲۱۲- ۲۱۳.

ص: ۱۱۴

ویستحبّ الإکثار والتکرار للحاج حتّی زوال یوم عرفة (۱).

وقد ورد عن أمیر المؤمنین علیه السلام فی هذا المورد خبران، أحدهما یدلّ علی استحباب رفع الصوت بالتلبیة بالنسبة إلی الرجل. وهو قوله علیه السلام «جاء جبرئیل علیه السلام إلی النبی صلی الله علیه و آله فقال له: إنّ التلبیة شعار المحرم فارفع صوتک بالتلبیة» (۲)

، وعلی ذلک مشهور الفقهاء، وقد استدلّوا علیه بأخبار أخری ولم یوردوا هذا الخبر، ربّما لعلّة الإرسال فیه (۳)، وثانیهما قوله علیه السلام: «تلبیة الأخرس وتشهّده وقراءته القرآن فی الصلاة تحریک لسانه وإشارته بأصبعه» (۴).

أمّا المصادر السنیة فذکر صاحب موسوعة فقه علی بن أبی طالب: «روی کلّ من ابن أبی شیبة والبیهقی وابن حزم فی المحلّی بأسانیدهم أنّ علیّاً رضی اللّه عنه ما زال یهلّ حتّی انتهی إلی جمرة العقبة، فعن عکرمة قال: أفضت مع الحسین بن علی فما زال- أسمعه- یُلبّی حتی رمی جمرة العقبة، وأخبرنی أنّ رسول اللّه کان یفعل ذلک.

وذکر النووی فی المجموع أنّ علیّاً کان یقطع التلبیة قبل الوقوف بعرفات، ویعارض هذا ما رواه ابن أبی شیبة بسنده أنه ذکر لابن عباس أنّ معاویة نهی عن التلبیة یوم عرفة، فجاء حتّی أخذ بعمودی الفسطاط ثمّ لبّی، ثمّ قال:

«علم- معاویة- أنّ علیّاً کان یلبی فی هذا الیوم فأحبّ أن یخالفه»، وذکر ابن قدامة فی المغنی أنّ علیّاً کان یلبّی حتّی تزول الشمس یوم عرفة» (۵).

۲- الوقوف بعرفات

الوقوف بعرفات من أرکان الحج، فمن فاته الوقوف فیها عامداً من زوال یوم عرفة فقد فاته الحج؛ ولذا فقد ورد فی بعض الآثار أنّ یوم الحجّ الأکبر هو یوم عرفة، وفی ذلک ورد عن الإمام الصادق علیه السلام «أنّ فضیل بن عیاض سأله عن الحج الأکبر، فقال علیه السلام: أعندک فیه شیء؟ فقلت: نعم کان ابن عبّاس یقول: الحج الأکبر یوم عرفة، یعنی أنّه من أدرک یوم عرفة إلی طلوع الفجر من یوم النحر فقد أدرک

۱- ۱ تحریر الوسیلة ۱: ۴۱۶.

۲- ۲ الوسائل ۱۲: ۳۷۹.

۳- ۳ الجواهر ۶: ۵۷۹.

۴- ۴ الوسائل ۱۲: ۳۸۱.

۵- ۵ الموسوعة: ۲۱۳- ۲۱۴.

ص: ۱۱۵

الحج، ومن فاته ذلك فقد فاته الحج... فقال الإمام الصادق عليه السلام له: قال أمير المؤمنين عليه السلام الحجّ الأكبر يوم النحر، واحتج بقول اللّه عزّوجل: فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ فهى عشرون من ذى الحجّة والمحرم وصفر وشهر ربيع الأوّل وعشر من ربيع الآخر، ولو كان الحج الأكبر يوم عرفة لكان السيح أربعة أشهر ويوماً...» (۱)

وورد عنه عليه السلام فى مسند زيد أنّه قال: «من فاته الموقف بعرفة مع الناس أتاها ليلًا، ثمّ أدرك الناس فى جمع قبل انصراف الإمام فقد أدرك الحجّ» (۲).

۳- أعمال منى

تجب فى منى على الحاج ثلاثة أعمال هى: الرمى والهدى والحلق أو التقصير.

وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام آثار فقهية فى الثانى والثالث، ولم أعثر على أثر له فى الأوّل.

أمّا الهدى فوردت عنه فيه آثار عديدة نوردها ضمن المسائل التالية:

أقلّ ما يجرى فى الهدى

وردعنه أنّه عليه السلام يقول: «الثنية فى الإبل، والثنية فى البقرة، والثنية من المعز، والجذعةمن‌الضأن» (۳)

والثنى من الإبل ما كان له خمس سنوات و دخل فى السادسة، ومن المعز والبقر ما له سنة ودخل فى الثانية، على المشهور، أمّا الجذع ما أتمّ سنة ودخل فى الثانية. هذا هو أقلّ ما يجزى فى الهدى، وعلى ذلك رأى الفقهاء (۴).

ما يشترط فى الهدى

ذكر الفقهاء شروطاً فى الهدى، قال المحقّق فى الشرائع: «الثالث أن يكون تامّاً، فلا تجزى العوراء ولا العرجاء البين عرجها ولا التى انكسر قرنها الداخل، ولا المقطوعة الاذن، ولا الخصى من الفحول، ولا المهزومة وهى التى ليس على كليتيها شحم و.... والمستحب أن تكون سمينة تنظر فى سواد وتبرك فى سواد وتمشى فى مثله..» (۵).

۱- ۱ الوسائل ۱۴: ۴۴.

۲- ۲ الموسوعة: ۲۱۵ نقلًا عن مسند زيد ۳: ۱۸۳.

۳- ۳ الوسائل ۴: ۱۰۳، وتكرّر هذا المعنى منه عليه السلام فى روايتين أخريين فى ص ۱۰۵.

۴- ۴ الجواهر ۷: ۷۷.

۵- ۵ الجواهر ۷: ۷۹- ۸۴ انظر كلام المحقّق واستدلال صاحب الجواهر عليه.

ص: ۱۱۶

وقد وردت عن أمير المؤمنين عليه السلام فى ذلك أخبار صحيحة كانت مورد استدلال الفقهاء، وأخرى ضعيفة استأنسوا بها لأدلّتهم (۱). مثل قوله عليه السلام «من تمام الأضحية استشراف عينها واذنها، وإذا سلمت العين والاذن تمت الأضحية، وإن كانت عضباء القرن أو تجر رجلها إلى المنسك فلا تجزى» (۲).

وعنه عليه السلام: «إذا اشترى الرجل البدنة عجفاء فلا تجزى عنه، وإن اشتراها سمينة فوجدها عجفاء أجزأت عنه وفى هدى التمتّع مثل ذلك» (۳)

، وعنه عليه السلام أيضاً «كان على عليه السلام يكره التشريم فى الاذان والخرم، ولا يرى بأساً إن كان ثغب فى بعض المواسم..» (۴).

الهدى يجزى مع الضرورة عن خمسة وعن سبعة

الأصل أنّ الهدى الواحد لا يجزى عن أكثر من مكلّف واحد، ووردت أخبار تفيد أنّ الهدى الواحد يجزى عند الضرورات عن أكثر من واحد إذا كانوا أهل خوان واحد، ومن ذلك ما روى عن أمير المؤمنين عليه السلام انّه قال: «البقرة الجذعة تجزى عن ثلاثة من أهل بيت واحد، والمسنّة تجزى عن سبعة نفر متفرّقين، والجزور تجزى عن عشرة متفرقين».

وقد حمل صاحب الجواهر هذا الخبر وأمثاله عن سائر الأئمّة على الأضحية المندوبة، إذ لا تصريح فيها على الهدى الواجب (۵).

حكم نتاج الهدى والحمل عليه

وورد عنه عليه السلام ما يفيد جواز الانتفاع بحليب الهدى والحمل عليه، فقد روى عنه أنّه كان: «يحلب البدنة ويحمل عليها غير مضرّ» (۶)

و «كان إذا رأى ناساً يمشون قد جهدهم المشى حملهم على بدنة، وقال: إن ضلّت راحلة الرجل أو هلكت ومعه هدى فليركب على هديه» (۷)

، وعلى ذلك كلمة الفقهاء (۸).

أحكام الأضحية

من سنن الإسلام استحباب الأضحية حتّى قال على عليه السلام: «لو علم الناس ما

۱- ۱ انظر: المصدر السابق.

۲- ۲ الوسائل ۱۴: ۱۱۰- ۱۱۱.

۳- ۳ الوسائل ۱۴: ۱۱۵.

۴- ۴ الوسائل ۱۴: ۱۲۹.

۵- ۵ الجواهر ۷: ۷۰.

۶- ۶ الوسائل ۱۴: ۱۴۶.

۷- ۷ الوسائل ۱۴: ۱۴۷.

۸- ۸ الجواهر ۷: ۱۱۵.

ص: ۱۱۷

فى الأضحية لأستدانوا وضحوا، إنّه ليغفر لصاحب الأضحية عند أوّل قطرة تقطر من دمها» (۱)

، وكان عليه السـلام يضحى عن رسول اللَّه كلّ سنة بكبش، وعن نفسه بكبش آخر (۲). وكان يقول: «ضح بثنى فصاعداً وأشتره سليم الاذنين والعينين واستقبل القبلة...» (۳)

، ونقل عن الرسول صلى الله عليه و آله أنّه قال: «نهيتكم عن ثلاثة:...

ونهيتكم عن خروج لحوم الأضاحى من بعـد ثلاثـة أيّام فكلوا وادّخروا..» (۴)، وورد عنه أيضاً أنّه يقول: «الأضـحى ثلاثة أيّام وأفضلها أوّلها» (۵)

وقد استدلّ الفقهاء على هذه المطالب الفقهية بأدلّة منها كلمات أمير المؤمنين عليه السلام هذه (۶).

من لم يجد الهدى فصيام عشرة أيّام

إذا عجز الحاج عن الهدى ودفع ثمنه وجب عليه بدلًا عن ذلك صـيام عشـرة أيّام، ثلاثة منها فى الحجّ، وسبعة فى موطنه، وثلاثة الحج يجب أن تكون متوالية لا متفرّقة، وقال الإمام على عليه السلام فى آية فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِى الْحَجِّ: «قبل التروية، ويوم التروية، ويوم عرفة فمن فاتته هذه الأيّام فلينشئ يوم الحصبة وهى ليلة النفر» (۷)

هذه جملة الآثار الواردة عن الإمام على عليه السلام فى الهدى.

امّا الحلق وهو العمل الثالث فى منى فقد ورد فيه عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه يقول: «السنّة فى الحلق أن يبلغ العظمين» (۸)

وعلى ذلك فتوى الفقهاء (۹).

هـذا كلّه مـا ورد عن أمير المؤمنين فى أعمال منى من مصادر الإماميـة، أمّا ما ورد عنه فيها من مصادر أهل السـنّة فقـد جمعها صاحب موسوعة «فقه على بن أبى‌طالب» فكتب يقول:

«ومن مزدلفة يذهب الحجيج إلى منى وفى اليوم الأوّل من أيّام منى- وهو يوم النحر- يقوم الحجيج بعدّة أعمال مرتبة هى: رمى جمرة العقبة، فالذبح، فالحلق، فطواف الإفاضة. قال على: «أوّل المناسك يوم النحر رمى الجمرة ثمّ الذبح ثمّ الحلق ثمّ طواف الزيارة» (۱۰).

۱- ۱ الوسائل ۱۴: ۲۱۰.

۲- ۲ الوسائل ۱۴: ۲۰۶.

۳- ۳ الوسائل ۱۴: ۲۰۷.

۴- ۴ الوسائل ۱۴: ۱۷۰.

۵- ۵ الوسائل ۱۴: ۹۳.

۶- ۶ انظر: الجواهر ۷: ۱۲۱- ۱۲۴.

۷- ۷ الوسائل ۱۴: ۱۸۳ وبهذا المعنى أخبار أخرى وردت عنه عليه السلام فى ص ۱۸۴.

۸- ۸ الوسائل ۱۴: ۲۲۹.

۹- ۹ الجواهر ۷: ۱۳۴.

۱۰- ۱۰ مسند زيد ۳: ۲۴۴.

ص: ۱۱۸

رمی جمرهٔ العقبهٔ: قال علی: «فی الیوم العاشر- من ذی الحجهٔ- یرمی جمرهٔ العقبهٔ بعد طلوع الشمس، بسبع حصیات، ویکبّر مع کلّ حصاهٔ، ولا یرمی یومئذ من الجمار غیرها» (۱).

ذبح الهدی: إذا وجب علی الحاج دم لکونه قارناً أو متمتعاً، أو جزاءً علی مخالفهٔ ارتکبها، فإن هذا هو وقت الذبح وإذا ذبح تحلّل التحلّل الأوّل.

الحلق أو التقصیر: بعد الذبح یتحلّل بحلق شعره أو تقصیره ولا یجزئ التقصیر عمّن لبّد أو عقص أو ضفر شعره، ولکن لابدّ له من الحلق (۲). أمّا المرأهٔ فإنّها تقصر شعرها ولا تحلقه، فقد روی الترمذی والنسائی عن علی رضی الله عنه قال:

«نهی رسول اللّه أن تحلق المرأهٔ رأسها» (۳).

وکتب عن صیام بدل الهدی فی فقه الإمام علیه السلام یقول:

«وهذه الأیام الثلاثهٔ التی علیه أن یصومها فی الحج آخرها یوم عرفهٔ قال علی فی تفسیر قوله تعالی: فَصِیَامُ ثَلَاثَةِ أَیَّامٍ فِی الْحَجِّ: «آخرها یوم عرفهٔ»، وقال: «صم قبل یوم الترویهٔ بیوم، ویوم الترویهٔ، ویوم عرفهٔ» (۴).

فإن لم یصم الأیّام الثلاثهٔ حتّی یوم عرفهٔ، فهل یصومها بعد ذلک؟ یری علی أنه لا یجوز له أن یصومها أیّام منی؛ لأنّها أیّام تشریق، وأیّام التشریق أیّام أکل وشرب، وفی ذلک یقول علی: «یصوم بعد أیّام التشریق إن فاته الصوم» (۵)

ویقول: «یصوم بعد ذلک ثلاثهٔ أیّام فی الحرم، وسبعهٔ إذا رجع» (۶).

۴- الطواف

وبعد أعمال منی یجب علی الحاج خمسهٔ أعمال هی:

طواف الحجّ ورکعتاه، والسعی بین الصفا والمروهٔ، وطواف النساء ورکعتاه.

وقد وردت عن أمیر المؤمنین علیه السلام فی الطواف آثار فقهیهٔ نوردها ضمن النقاط التالیهٔ:

استحباب اختیار الطواف المندوب علی الصلاهٔ المندوبهٔ فی الکعبهٔ وذلک

۱- ۱ مسند زید بن علی ۳: ۱۹۴.

۲- ۲ کنز العمال ۱۲۷۳۳.

۳- ۳ الموسوعهٔ: ۲۱۶.

۴- ۴ ابن أبی شیبهٔ ۱: ۱۹۶ وتفسیر الطبری ۲: ۲۴۷.

۵- ۵ سنن البیهقی ۵: ۲۵ والمغنی ۹: ۴۷۹.

۶- ۶ الموسوعهٔ: ۲۰۶.

ص: ۱۱۹

فى قوله عليه السلام: «إنّ للّه‌مائة وعشرين رحمة عند بيته الحرام، منها ستّون للطائفين، وأربعون للمصلّين، وعشرون للناظرين» (۱).

استحباب استلام الحجر الأسود عند الطواف

وورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ عمر بن الخطّاب مرّ على الحجر الأسود فقال: واللّه يا حجر إنّا لنعلم أنّك حجر لا تضرّ ولا تنفع إلّاانّا رأينا رسول اللّه صلى الله عليه و آله يحبّك فنحن نحبّك، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «كيف يا ابن الخطّاب! فواللّه ليبعثنّه اللّه يوم القيامة وله لسان وشفتان فيشهد لمن وافاه، وهو يمين اللّه عزّوجلّ فى أرضه يبايع بها خلقه»، فقال عمر: لا أبقانا اللّه فى بلد لا يكون فيه على بن أبى‌طالب عليه السلام (۲).

وهذا من جملة ما يدلّ على استحباب الوقوف عند الحجر ورفع اليدين بالدعاء عنده، واستلامه وتقبيله وذلك أثناء الطواف، وقد أورده صاحب الجواهر لدى بحثه هذه المسألة (۳).

الأقطع يستلم الحجر من موضع القطع

روى الإمام الصادق عليه السلام: «أنّ علياً عليه السلام سئل كيف يستلم الأقطع الحجر؟ قال:

يستلم الحجر من حيث القطع، فإن كانت مقطوعة من المرفق استلم الحجر بشماله» (۴)

. وقد اعتمد الفقهاء على هذه الرواية فى الإفتاء بهذه المسألة (۵).

من زاد شوطاً أكمل اسبوعين

الواجب فى الطواف سبعة أشواط، والمستحبّ لا حدّ له، وإذا كان فى طواف واجب وزاد شوطاً وجب عليه الإتيان بستّة أشواط أخرى ليكمل بذلك اسبوعين من الطواف (۶).

وعمدة الدليل فى ذلك روايات عن أمير المؤمنين عليه السلام كصحيحة محمد بن مسلم عن أحدهما عليهما السلام قال: «إنّ فى كتاب علىّ عليه السلام إذا طاف الرجل بالبيت ثمانية أشواط الفريضة فاستيقن ثمانية أضاف إليها ستّاً..» (۷)

، وعن الصادق عليه السلام قال:

۱- ۱ الوسائل ۱۳: ۳۱۲.

۲- ۲ الوسائل ۱۳: ۳۲۰.

۳- ۳ الجواهر ۷: ۱۸۴.

۴- ۴ الوسائل ۱۳: ۳۴۳.

۵- ۵ الجواهر ۷: ۱۸۷.

۶- ۶ الجواهر ۷: ۱۹۷- ۱۹۹.

۷- ۷ الوسائل ۱۳: ۳۶۶.

ص: ۱۲۰

«إنّ عليّاً طاف ثمانية أشواط فزاد ستّة ثمّ ركع أربع ركعات» (۱)

.

هذا ما أوردته المصادر الإمامية عنه عليه السلام فى باب الطواف.

وذكرت المصادر السنّية عنه فى هذا الباب آثاراً أخرى مثل قوله عليه السلام: «يرجع من نسى الطواف ولو من خراسان» وقوله عليه السلام: «من حجّ فليكن آخر عهده بالبيت إلّا النساء فى الحيض فإنّ رسول اللّه رخّص لهن فى ذلك» وقوله عليه السلام: «الحائض تعرّف- أى تقف بعرفات- وتنسك المناسك كلّها وتأتى المشعر الحرام وترمى الجمار وتسعى بين الصفا والمروة ولا تطوف بالبيت حتّى تطهر» (۲).

وقوله عليه السلام: «إذا طفت فى البيت فلم تدر أتممت أو لم تتم، فأتم ما شككت، فإنّ اللّه لا يعذّب على الزيادة».

وقوله عليه السلام فى الرجل ينسى فيطوف ثمانية: «فليرد عليها ستّة حتّى تكون أربعة عشر، ويصلّى أربع ركعات».

ورووا عنه أنّه كان عليه السلام إذا استلم الحجر الأسود يقول: «اللهم إيماناً بك، وتصديقاً بكتابك، ووفاءً بعهدك، واتباعاً لسنّة نبيّك محمّد صلى الله عليه و آله» (۳).

الهوامش:

۱- ۱ الوسائل ۱۳: ۳۶۵.

۲- ۲ الموسوعة: ۲۱۷ نقلًا عن: مسند زيد ۳: ۲۰۸، ۲۰۹، ۲۷۵ وابن أبى شيبة ۱: ۱۶۵.

۳- ۳ الموسوعة: ۱۱۴ نقلًا عن: ابن أبى‌شيبة ۱: ۱۶۸ و ۲۰۵- ومسند زيد ۳: ۱۶۹ ومصنف عبد الرزاق ۵: ۵۰۱، والمجموع ۸: ۳۴ وكنز العمّال ح ۱۲۵۱۹.

الامام علی علیه السلام... والرای الآخر

ص: ۱۲۶

الإمام على عليه السلام... والرأى الآخر

حسن السعيد

حفلت الممارسة التاريخية الحضارية للإسلام فى مسألة العلاقة مع «الآخر» ..

بنماذج إنسانيّة رفيعة... وهناك شواهد كثيرة تزخر بها صفحات التاريخ، وكلّها تدعم الاتجاه المنفتح على «الآخر» والمتفهّم له والمعايش معه، رغم ما اعتور التجربة الإسلامية من انحرافات وخروقات.

فلئن كان الشيعة والخوارج هما العنوانان الأكثر ضجّة فى تاريخ المعارضات والثورات على امتداد التاريخ الإسلامى، إلّاأنّ الجذور التاريخية للمعارضة فى الإسلام يرجعها البعض إلى عهد الرسول صلى الله عليه و آله، عبر تصنيف اليهود والمنافقين كمعارضة دينية سياسية داخل دولة المدينة (۱).

والملاحظ أنّ التعامل العام مع هذه المعارضة، كان تعاملًا سلميّاً هادئاً، فلم يخسر اليهود مواطنتهم وحقوقهم فى الدولة إلّابعد أن تحرّكوا عسكرياً، كما أنّ المنافقين واصلوا نهجهم ولم يتمّ التعامل معهم بسلبهم حقوق المواطنة، ولكن قد يُسجّل على هذه المعارضة بأنّها كانت مختلفة فى الانتماء العقائدى أو ما يمكن تسميته مجازاً معارضة أقلّية دينية بالنسبة لليهود لا تلتقى مع

۱- ۱ إبراهيم العبادى؛ مقال «المعارضة فى الدولة الإسلامية»، مجلّة قضايا اسلامية معاصرة، العدد الثانى ۱۴۱۸ ه- ۱۹۹۸ م، ص: ۱۷۳.

ص: ۱۲۷

القاعدهٔ الفکریهٔ للدولهٔ، وإن شارکت مجتمع الدولهٔ فی حقوق المواطنهٔ (۱).

ویطول المقام لو سمحنا لأنفسنا استعراض الشواهد المؤکّدهٔ علی هذا المنحی، بید أننا سنقتصر، لأسباب منهجیهٔ، علی نموذج واحد، هو الإمام علی علیه السلام، لما یمثّله من موقع متقدّم فی الدعوهٔ؛ سابقهٔ، وریادهٔ، وأسوهٔ، وما یعزّز ذلک شهادات الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله بحقّ الإمام علی علیه السلام: «أنا وأنت یا علیّ أبوا هذه الامّهٔ»، «أنا مدینهٔ العلم وعلیٌّ بابها» (۲).

وقد أرسی الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله هذا النهج الرسالی، بکلّ ما یتّسم به من سعهٔ صدر، وامتداد افق، واستعداد للاستیعاب، وفیما یرویه الصحابی جابر ابن عبداللّه: «لما قسّم رسول اللّه صلی الله علیه و آله غنائم هوازن بین الناس بالجعرانهٔ، قام رجل من بنی تمیم فقال:

- اعدلْ یا محمّد!

- فقال صلی الله علیه و آله: «ویلک! ومنْ یعدلْ إذا لم اعدلْ؟! لقد خبت وخسرت إنْ لم أعدلْ!».

فقال عمر بن الخطّاب: یا رسول اللّه، ألا أقوم فأقتل هذا المنافق؟!

فقال صلی الله علیه و آله: معاذ اللّه أن تتسامع الامم أنّ محمّداً یقتل أصحابه» (۳).

وجاء الإمام علی علیه السلام لیکرّس هذا المنهج الربّانی والخصال النبویهٔ، فی حقبهٔ هبّت علیها أعاصیر الأهواء ولواقح الفتن، وهو ما سنستعرض بعض جوانبه:

الإمام علی علیه السلام النموذج المتألّق

ولئن کان بعض الصحابهٔ یعدّون مشایخ الإسلام «فإنّ علی بن أبی طالب هو ابن الإسلام البار، والوریث للشریعهٔ، وهو أقضی الصحابهٔ، وأقدرهم علی الحکم بما أنزل اللّه، نشأ علی فی بیت النبوّهٔ وتفتح فی صباه علی الإسلام، وقد أتاه اللّه عقلًا ذا ملکات فریدهٔ، فشرب الإسلام وتکوّن عقله علی فهمه ومعرفهٔ أحکامه وخبایاه.

وکان شأنه شأن نبی اللّه یحیی حیث أتاه اللّه الحکم صبیّاً. فکان رغم صغر سنّه بین الصحابهٔ أقدرهم علی معرفهٔ أحکام الإسلام. وقد قال ابن الخطّاب:

«لولا علی لهلک عمر»، حیث کان إذا استشکل علیه أمر من أمور الدین لجأ

۱- ۲ المرجع نفسه.

۲- ۳ لمزید الاطلاع علی الروایات الواردهٔ بحقّ الإمام علیه السلام تراجع موسوعهٔ «میزان الحکمهٔ» لمحمدی ری‌شهری ۱: ۲۰۱- ۲۲۶ مکتب الإعلام الإسلامی إیران، ۱۳۶۷ ه ش.

۳- ۴ رواه الإمام أحمد، نقلًا عن مقال الدکتور محمّد عمارهٔ آنف الذکر.

ص: ۱۲۸

إلى على فاستشاره فيه. وكان على أشبه بما نطلق عليه اليوم فيلسوف الدين الجديد، فقد كان حريصاً فى كلّ موقف أن يظهر حكم الإسلام، وافقه الناس على رأيه أم خالفوه. فالنتائج ليست مهمّة عنده، بل المهم هو أداء الواجب.

وكان يرى أنّ واجبه يحتّم عليه أن يظهر حكم الشريعة، فهى عنده السيد الذى يجب احترامه وطاعته.. (۱)

وظلّ الإمام على عليه السلام ملتصقاً بهذا المنهج لا يحيد عنه، سواء قبل استلامه الخلافة أو بعدها. داخل الصفّ المسلم أو خارجه «ما شككت فى الحقّ مُذ أريته» لذا كان سلام اللّه عليه النموذج الفذّ للشخصية الإسلامية، بعد رسول اللّه صلى الله عليه و آله، والتى يجب أن يحتذيها المسلمون اليوم، وهم يخوضون المعركة الضارية، لكى يستأنف الإسلام دوره من جديد.

وبالإمكان رصد موقف الإمام على عليه السلام من «الآخر» على ثلاثة أصعدة:

أوّلًا: موقفه معارضاً من السلطة.

ثانياً: موقفه حاكماً من المعارضة.

ثالثاً: موقفه من «الآخر» غير المسلم.

موقفه معارضاً

يقول عبّاس محمود العقّاد: «فى كلّ ناحية من نواحى النفوس الإنسانية ملتقى بسيرة على بن أبى طالب رضوان اللّه عليه..» (۲)، وليس ثمّة شكّ فى خصوصيته المتميّزة، إذ «اجتمع للإمام على بن أبى طالب من صفات الكمال، ومحمود الشمائل والخِلال، وسناء الحسب وباذخ الشرف؛ مع الفطرة النقية، والنفس المرضية، ما لم يتهيّأ لغيره من أفذاذ الرجال» (۳).

إنّ الحديث عن أبعاد شخصية الإمام على عليه السلام ليس بالأمر اليسير أبداً، إن لم يعجز عنه الفطاحل، أو يهابون الخوض فيه. ونحن إذ نسمح لأنفسنا أن نمسّ جانباً محدّداً من مواقفه، «لا نقصد انجاز مشروع صياغة وتحديد كامل فكر الإمام.. (فى هذه الإثارة)، وإنّما نهدف من هذا العمل المتواضع الإطلالة على بعض ملامح وصور هذا الفكر العملاق» (۴) ليس إلّا.

فعلى صعيد الحكم وتحمّل تبعاته، لم

---

۱ – ۵ سمير الهضيبى؛ مقال «نظام الحكم فى الإسلام: التجربة ومؤثّرات الثقافة والحضارة العربية»، مجلّة النور لندن، العدد ۳۵- شوال ۱۴۱۴ ه، ص ۲۷.

۲– ۶ عبّاس محمود العقاد؛ «عبقريّة الإمام على» المجموعة الكاملة ۲: ۱۱، بيروت، ۱۹۷۴ م.

۳– ۷ تراجع المقدّمة القيّمة التى كتبها الأستاذ محمّد أبوالفضل إبراهيم، محقق شرح نهج البلاغة لابن أبى‌الحديد،ط ۲، القاهرة، ۱۳۸۵ ه– ۱۹۶۵ م، ص ۳ وما بعدها.

۴– ۸ اقتبسنا هذه الفكرة، بشىء يسير جدّاً من التصرّف، عن المقال الافتتاحى لمجلة المنطلق، العدد المزدوج ۷۵/ ۷۶: شعبان– رمضان ۱۴۱۱ ه/ شباط– اذار ۱۹۹۱ م، ص ۵.

ص: ۱۲۹

یکن الإمام علی علیه السلام طارئاً أو هامشیاً، «فقد کان علیه السلام علی تمام الأهبة لولایة الحکم، کان قد خبر المجتمع الإسلامی فی أقطاره، وخالط کافّة طبقاته، وراقب حیاتها عن کثب، ونفذ إلی أعماقها، وتعرّف علی الوجدان الطبقی الذی یشدّها ویجمعها.

وقد مکّنه من ذلک کلّه المرکز الفرید الذی کان یتمتّع به من النبی صلی الله علیه و آله، فهو وزیره ونجیبه، وأمین سرّه، وقائد جیوشه، ومنفِّذ خططه، ومعلن بلاغاته.. هذه المنزلة الفریدة التی لم یکن أحد من الصحابة یتمتّع بها أعدّته إعداداً تامّاً لمهمّة الحکم.

وقد کان النبیّ یبتغی من وراء إناطة هذه المهام کلّها به إعداده للمنصب الإسلامی، لیصل إلیه وهو علی أتمّ ما یکون أهلیّة واستعداداً.

ولقد غدا من نافلة القول أن یُقال:

«إنّه علیه السلام هو الخلیفة الذی کان یجب أن یلی حکومة النبیّ فی المجتمع الإسلامی.

وإذا لم یُقدّر له أن یصل إلی الحکم بعد النبی فإنّه لم ینقطع عن الحیاة العامّة، بل ساهم فیها مساهمة خصبة» (۱)، وإنّ فسحة الربع قرن التی مرّت علی علی ابن أبی طالب، منذ رحیل الرسول حتّی تسلّمه الخلافة «لم تکن بالفسحة البسیطة، لا بطول مداها ولا بقیمة الأحداث التی مرّت علیها. وهی وإنْ تکن تعتبر فراغاً بالنسبة لعدم تحمّله فیها أیّة مسؤولیة إداریة، فإنّها بالحقیقة کانت فراغاً یمتلأ. ولیس یفهم من کلمة «فراغ» أن ابن أبی طالب غاب فی هذا الوقت الطویل عن الساحة، بل بالعکس، کان فیها ملء السمع والبصر، غیر أنّه کان یحتلّ فیها برج المراقبة» (۲)، فقد کان أبو بکر ثمّ عمر ومن بعدهما عثمان لا یسعهم الاستغناء عن آرائه فی السیاسة والقضاء والحرب، وخاصّیة فی خلافة عثمان فقد کان فیها علی أتمّ الصلة بالتیّارات التی تمخر المجتمع الإسلامی، لکن عثمان لم ینتفع کثیراً بالتوجیه الذی کان الإمام یقدّمه إلیه لأنّ بطانة متعفّنة کانت تحیط بهذا الخلیفة (۳).

ورغم ما لقیه من جحود وإقصاء وتهمیش، من لدن العقلیة الحاکمة فإنّه لم یقابل ذلک بالمثل، وإنّما کان ینطلق،

۱- ۹ محمّد مهدی شمس الدین؛ «دراسات فی نهج البلاغة»، ط ۲، بیروت، ۱۳۹۲ ه- ۱۹۷۲ م، ص ۲۰۴.

۲- ۱۰ سلیمان کتانی؛ «الإمام علی: نبراس ومتراس»، النجف، ۱۳۸۶ ه- ۱۹۶۷ م، ص ۱۱۵.

۳- ۱۱ محمّد مهدی شمس الدین؛ م. س: ۲۰۵.

ص: ۱۳۰

وفق الموقف الشرعى، من منطلق الحرص على وحدة الموقف وما تتطلّبه المصلحة العليا، ولهذا نجده- على طول الخط- «قد أعان أسلافه الثلاثة برأيه وعمله، وجاملهم مجاملة الكريم بمسلكه ومقاله. ولم يبدر منه قط ما ينم على كراهية وضغن مكتوم.. ولكنّه كان يأنف أن ينكر هذه الكراهية إذا رُمى بها كما يأنف العزيز الكريم. وفى ذلك يقول فى خطابه إلى معاوية: «ذكرت ابطائى عن الخلفاء وحسدى إيّاهم والبغى عليهم، فأمّا البغى فمعاذ اللَّه أن يكون، وأمّا الكراهية لهم فواللَّه ما أعتذر للناس من ذلك».

وأولى أن يقال: إنّ دلائل وفائه فى حياتهم، وبعد ذهابهم، كانت أظهر من دلائل جفائه. فإنّه احتضن ابن أبى بكر محمّداً وكفله بالرعاية ورشحه للولاية، حتّى حُسب عليه وانطلقت الألسنة بانتقاده من أجله...» (۱).

ورغم انفتاحه الإيجابى على مجمل الحياة الإسلامية، وبمختلف مشاربها، إلّا أنّ ذلك لا يلغى معارضة الإمام على عليه السلام للنهج القائم، مع حرص شديد على الطابع السلمى لمعارضته تلك.

وهكذا بدأت أوّل معارضة من داخل الصفّ الإسلامى نفسه تتبلور بعد وفاة الرسول صلى الله عليه و آله، حينما تخلّف العديد من الصحابة الكبار عن بيعة أبى بكر وآزروا الإمام على بن أبى طالب وزوجته فاطمة عليهما السلام فى معارضتهم لمنطق السقيفة عندما تولّى أبو بكر الخلافة بدون إجماع إسلامى (۲) وكانت خطبة فاطمة عليها السلام فى مسجد الرسول واحتجاجها العلنى الصريح على الخليفة الأوّل معارضة فكرية- سياسية امتدّت لفترة من الزمن، وانتهت بمبايعة الإمام على ومن تخلّف معه من الصحابة (۳).

ويبقى موقف الإمام على عليه السلام من مسألة «السقيفة» أوّل موقف معارض له، وظلّت القضية موضع إدانته، لأنّه أمر دُبِّر فى ليل. ومن المعروف تاريخياً أن نَفَس رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فاضت فى حجر على عليه السلام، وما إن انتقل صلى الله عليه و آله إلى ربّه الأعلى، حتى اشتغل على عليه السلام وأهل بيته بتجهيزه من أجل مواراة جسده الطاهر فى مثواه الأخير، حتّى عقدت الأنصار وبعض المهاجرين اجتماعاً فى سقيفة

۱- ۱۲ عباس محمود العقاد؛ م. س: ۱۳۰.

۲- ۱۳ إبراهيم العبادى؛ م. س: ۱۷۳.

۳- ۱۴ المرجع نفسه.

ص: ۱۳۱

بنی‌ساعدهٔ لتنصیب مَنْ یخلف النبی صلی الله علیه و آله فی قیادهٔ المسلمین.

وبعد مناقشات حادّهٔ وطویلهٔ سادها جوّ من التوتّر والقلق والعنف والخلاف بادر عمر بن الخطّاب إلی بیعهٔ أبی بکر بالخلافهٔ، وطلب من الحاضرین ذلک، ولم یکن علی علیه السلام علی علم بما حدث، ولکن النبأ قد انساب إلی مسامعه من خلال الضجیج الذی أحدثه خروج القوم من السقیفهٔ، وهم فی طریق توجّههم للمسجد النبوی.

وحتّی تلک الساعهٔ ما زال علی وأهل البیت علیهم السلام مشغولین بتجهیز فقید الأمّهٔ العظیم رسول اللّه صلی الله علیه و آله إذ ظلّ جثمانه الطاهر ثلاثهٔ أیّام دون دفن لیتسنّی للمسلمین تودیعه والصلاهٔ علیه.

ولعدم قناعهٔ الإمام علیه السلام بما جری ظلّ مؤمناً بحقّه فی الخلافهٔ واعتزل الناس وما هم ستّهٔ شهور، ولم یسمع له صوت فیما یسمّی بحروب الردّهٔ ولا سواها (۱).

ومن الواضح أنّ هذا الاعتزال لم یکن سوی احتجاج سیاسی علی ما حدث تحت خیمهٔ السقیفهٔ. وبعیداً عن الاستنتاجات السطحیهٔ التی حاولت إظهار هذا الموقف وکأنّه انتصار للذات، فإنّ قراءهٔ متأنّیهٔ للموقف وتداعیاته تقودنا إلی تحلیل آخر، وهو ما قام به باحث إسلامی معاصر، حین قال:

«نظنّ أنّ اعتراضه کان لثلاثهٔ امور:

الأوّل: لکی یثبت حقّ المعارضهٔ للمسلمین، حتّی لو کانوا أقلّیهٔ، وحتّی لو کانت المعارضهٔ لما استقرّ علیه رأی الأغلبیهٔ، وکذلک حتّی لو کانت المعارضهٔ لأکثر الامور حسّاسیهٔ وهی اختیار الحاکم.

الثانی: اعتراضه علی طریقهٔ اختیار الحاکم، لکی لا یثبت فی ذهن الناس أنّ ما تمّ هو النموذج الأوحد أو الأمثل الذی یجب أن یسیر علیه المسلمون، ولکی یفرّق الناس بین ما تمّ وما کان یجب أن یکون علیه الأمر. فالبیعهٔ التی تمّت فی سقیفهٔ بنی ساعدهٔ هی أمر قُضی بلیل ولا تصحّ أن تکون نموذجاً لاختیار المسلمین لحاکمهم.

الثالث: أنّه کان یری فی نفسه أقدر الناس علی الحکم، ولو حکم لحمل الناس علی الجادّهٔ، وأظهر النموذج

۱- ۱۵ لجنهٔ التألیف فی دار التوحید؛ «أمیر المؤمنین علی بن أبی‌طالب» ۱: ۵۵، الکویت، ۱۳۹۸ ه- ۱۹۷۸ م.

ص: ۱۳۲

الإسلامی الصحیح الذی کان یؤمن به هو، وهو یخالف منهج أبو بکر وعمر (۱).

وبذا یکون الإمام علی أوّل مؤسّس للمعارضهٔ المسؤولهٔ التی لم تخرق القاعدهٔ الفکریهٔ للدولهٔ، وحرصت علی وحدهٔ الجماعهٔ واستقرار التنظیم الاجتماعی السیاسی (الدولهٔ). فقد تحدّث بصراحهٔ فی خطبهٔ له عن السبب الذی حدا به إلی رفض کلّ عروض الانشقاق السیاسی مقدِّماً المصلحهٔ العامهٔ ووحدهٔ الأمّهٔ والدولهٔ (۲) مؤثراً أمور المسلمین علی ما سواها، بما فی ذلک شأنه الخاص وحقّه الشخصی:

«لأسلمنّ ما سلمت أمور المسلمین ولم یکن فیها جور إلّاعلیَّ خاصّهٔ» (۳).

وقد هدرت منه، ذات مرّهٔ، شقشقته المعروفهٔ، متعرّضاً إلی ما لحق به من جور وحیف: «أما واللَّه لقد تقمّصها ابن أبی قحافهٔ (۴) وإنّه لیعلم أنَّ محلّی منها محلّ القطب من الرحا؛ ینحدر عنّی السیل، ولا یرقی إلیَّ الطیر.

فسدلتُ دونها ثوباً، وطویتُ عنها کشحاً، وطفقت ارتئی بین أن أصول بیدٍ جذّاء، أو أصبر علی طخیّهٍ عمیاء، یهرم فیها الکبیر، ویشیب فیها الصغیر، ویکدح فیها مؤمن حتّی یلقی ربّه!

فرأیتُ أنّ الصبر علی هاتا أحجی، فصبرتُ وفی العین قذی، وفی الحلق شجاً، أری تُراثی نهباً، حتّی مضی الأوّلُ لسبیله، فأدلی بها إلی فلان بعده (ثمّ تمثّل بقول الأعشی:).

شتّان ما یومی علی کُورها ویومُ حیّانَ أخی جابرِ

فیاعجباً!! بینا هو یستقیلُها فی حیاته إذْ عقدها لآخر بعد وفاته! لَشدَّ ما تشطّرا ضرعَیْها! فصیّرها فی حوزهٔ خشناء یغلظ کلمها، ویخشن مَسُّها، ویکثر العِثار فیها، والاعتذار منها، فصاحبها کراکب الصعبهٔ إن أشنق لها خرمَ، وإنْ أسلسَ لها تقحّم، فمُنی الناسُ – لعمرُ اللَّه– بخبطٍ وشماس، وتلوّنٍ واعتراضٍ، فصبرتُ علی طول المدّهٔ، وشدّهٔ المحنهٔ، حتی إذا مضی لسبیله جعلها فی جماعهٔ زعم أنّی أحدُهم، فیاللَّه وللشوری! متی

۱– ۱۶ سمیر الهضیبی؛ مرجع سابق، ومن المأثور تأریخیاً، أنّ عبدالرحمن بن عوف قال للإمام علیه السلام أثناء تداول الشوری لاختیار خلیفهٔ لعمر بن الخطاب: «أبایعک علی کتاب اللَّه وسنّهٔ رسول اللَّه وسیرهٔ الشیخین؛ أبی‌بکر وعمر. فقال: بل علی کتاب اللَّه– وسنّهٔ رسوله واجتهاد رأیی، فعدل عنه إلی عثمان..»– شرح نهج البلاغهٔ لابن أبی‌الحدید، المرجع آنف الذکر، ۱: ۱۸۸.

۲– ۱۷ إبراهیم العبادی؛ مرجع سابق. هناک أکثر من محاولهٔ تحریضیّهٔ فی هذا المقام، ومن ذلک لما قبض رسول‌اللَّه صلی الله علیه و آله خاطبه العباس وأبوسفیان بن حرب فی أن یبایعا له بالخلافهٔ، بعد أن تمّت البیعهٔ لأبی‌بکر فی السقیفهٔ ولکنّه أبی الاستجابهٔ ابتغاء للمصلحهٔ العلیا، ونأیاً عن الفتنهٔ والفرقهٔ.

۳– ۱۸ نقلًا عن المرجع السابق.

۴– ۱۹ وفی بعض النسخ «فلان»، وأیّاً فالمقصود به هو أبوبکر.

ص: ۱۳۳

اعترضَ الریبُ فیَّ مع الأوّل منهم، حتّی صِرتُ اقرن إلی هـذه النظـائر! لکنّی أسـففتُ إذْ أسـفّوا، وطرتُ إذْ طـاروا، فصـغا رجـلٌ منهم لضـغنه، ومال الآخر لصـهره، مع هَنٍ وهَنٍ، إلی أن قام ثالثُ القوم نافجاً حضـنیه، بین نثیله ومعتلفه، وقام معه بنو أبیه یخضمون مال اللَّه خضمة الإبل نبتة الربیع، إلی أن انتکث علیه فتله، وأجهز علیه عمله، وکبتْ به بِطنته» (۱).

بهذه النبرة المشحونة بالأسی والمرارة.. اختزل الإمام علی محنته المریرة مع مَنْ سبقوه فی الخلافة..

ورغم کـلّ ذلک وما رافقه من محاولات الاقصاء الدائبـة والعمل علی إبقائه فی الظلّ، فإنّ هـذا لم ینعکس سـلباً علی موقفه العام، ولم تفلح تلک الممارسات فی تحقیق مآرب أصـحابها، إذ لم تجعله بمنأی عن هموم الأمّة، إنْ لم یندک فی عمق حرکتها، ولم تشغله عن وعی التحدّیات التی تواجهها، فلم یعزف طرفة عین عن رصد خیوطها وقراءة نتائجها.

فی عهد الخلافة الراشدة

فلم یمضِ إلّاوقت قصیر علی رحیل رسول اللَّه صـلی الله علیه و آله، حتّی استجدّت أمور وأحداث خطیرة تتهدّد الإسلام وأمّته بالفناء، فقـد قوی أمر المتنبئین بعد وفاة رسول اللَّه صـلی الله علیه و آله واشـتدّ خطرهم فی الجزیرة العربیة من أمثال: مسـیلمة الکذّاب، وطلحة بن خویلد الأفّاک، وسجاح بنت الحرث الدجّالة..

وغیرهم، وصار وجودهم یشکِّل خطراً حقیقیاً علی الدولة الإسلامیة.

واشـتد ساعد المنافقین وقویت شوکتهم فی داخل المدینة، وکان الروم والفرس للمسلمین بالمرصاد. هذا عدا ظهور التکتلات السیاسیة فی المجتمع الإسلامی علی أثر بیعة السقیفة.

ولقد تعامل الإمام علیه السـلام مع الخلافة حسب ما تحکم به المصـلحة الإسلامیة حفظاً للإسلام وحمایة للجامعة الإسلامیة من التمزّق والضیاع، وتحقیقاً للمصالح العلیا الإسلامیة التی جاهد من أجلها.

وللإمام علی علیه السلام کتاب جاء فیه- بهذا الصدد- ما نصّه: «... فأمسکت

۱- ۲۰ نهج البلاغة؛ الخطبة ۳.

ص: ۱۳۴

یدی حتی رأیت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام، یدعون إلی محق دین محمّد صلی الله علیه و آله، فخشیت إنْ لم أنصر الإسلام وأهله أن أری فیه ثلماً أو هدماً، تکون المصیبة به علیَّ أعظم من فوت ولایتکم التی إنّما هی متاع أیّام قلائل، یزول منها ما کان، کما یزول السراب أو کما ینقشع السحاب، فنهضت فی تلک الأحداث حتّی زاح الباطل وزهق، واطمأن الدین وتنهنه».

بید أنَّ صوت علی علیه السلام کان یعلو عندما یستشار ویجهر عندما یستفتی، وقد تصدّی- فی هذا المضمار- لتوجیه الحیاة الإسلامیة، وفقاً لما تقتضیه رسالة اللّه تعالی فی الحقول التشریعیة والتنفیذیة والقضائیة.

ومن أجل ذلک فإنّ الباحث التاریخی فی حیاة الإمام علی علیه السلام لا یلبث إلّا أن یلتقی مع مئات المواقف والأحداث- فی خلافة أبی بکر وعمر وعثمان- التی لا تجد غیر علی علیه السلام مدبّراً لها ومعالجاً وقاضیاً بأمر الشریعة فیها (۱).

وطیلة هذا العهد مارس الإمام مهمّة النصیحة والأمر بالمعروف والنهی عن المنکر وتقدیم المشورة- رغم اختلافه مع الحاکمین- حتّی فی ذروة الثورة علی الخلیفة الثالث عثمان بن عفان (۲).

والخلفاء الثلاثة لم یروا بداً من استشارته إذا التبست علیهم الأمور، وهکذا نجده- مرّةً- مرشداً إلی الحکم الإسلامی الصحیح فی أمرٍ ما، ومرّةً نجده قاضیاً فی شأن من شؤون الأمّة، وأخری موجِّهاً للحاکم الوجهة التی تحقّق المصلحة الإسلامیة العلیا.

وبمقدورنا أن نلمس دوره الرسالی ذلک إذا طرحنا بعض مفردات منهجه المتبنی أیّام الخلفاء الذین سبقوه:

فکّر أبو بکر بغزو الروم، فاستشار جماعة من الصحابة فقدّموا وأخّروا، ولم یقطعوا برأی، فاستشار علیّاً علیه السلام فی الأمر فقال علیه السلام: «إن فعلت ظفرت».

فقال أبو بکر: بشّرت بخیر. وأمر الناس بالخروج، بعد أن أمّر علیهم خالد بن سعید (۳).

أراد أبو بکر أن یقیم الحدّ علی شارب خمر... فقال الرجل: إنّی

۱- ۲۱ لجنة التألیف فی دار التوحید؛ مرجع سابق؛ ۱: ۵۷.

۲- ۲۲ إبراهیم العبادی؛ م. س: ۱۷۴.

۳- ۲۳ للمزید یُراجع؛ لجنة التألیف فی دار التوحید، مرجع سابق، ۱: ۵۸ وما بعدها.

ص: ۱۳۵

شربتها ولا علم لی بتحریمها، فأرسل إلی الإمام یسأله فی ذلک، فقال علیه السلام: «مر نقیبین من رجال المسلمین یطوفان به علی المهاجرین والأنصار وینشدانهم؛ هل فیهم أحد تلا علیه آیة التحریم أو أخبره بذلک عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله، فإن شهد بذلک رجلان منهم فأقم الحدّ علیه، وإنْ لم یشهد أحد بذلک، فاستتبه وخلِّ سبیله» (۱).

قدم جاثلیق النصاری یصحبه مائة من قومه، فسأل أبا بکر أسئلة، فدعا علیاً علیه السلام فأجابه عنها.. وأرسل ملک الروم رسولًا إلی أبی بکر یسأله أسئلة محیّرة.. لم یجد غیر علی حریّاً بالإجابة عنها.

وحین أراد عمر بن الخطّاب أن یغزو الروم راجع الإمام علیّاً علیه السلام فی الأمر، فنصحه الإمام بألّا یقود الجیش بنفسه مبیّناً علّة ذلک قائلًا: «.. فابعث إلیهم رجلًا مجرّباً واحفز معه أهل البلاء والنصیحة، فإن أظهره اللّه فذاک ما تحبّ، وإن تکن الأخری کنت ردءاً للناس، ومثابةً للمسلمین» (۲).

بعد أن فتح المسلمون الشام جمع أبو عبیدة بن الجرّاح المسلمین واستشارهم بالمسیر إلی بیت المقدس أو إلی قیساریة، فقال له معاذ بن جبل:

اکتب إلی أمیر المؤمنین عمر، فحیث أمرک فامتثله، فکتب ابن الجرّاح إلی عمر بالأمر، فلمّا قرأ الکتاب، استشار المسلمین بالأمر.

فقال علی علیه السلام: مر صاحبک ینزل بجیوش المسلمین إلی بیت المقدس، فإذا فتحاللّه بیت المقدس، صرف وجهه إلی قیساریة، فإنّها تفتح بعدها إن شاء اللّه تعالی، کذا أخبرنا رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم.

قال عمر: صدق المصطفی صلی الله علیه و آله و سلم، وصدقت أنت یا أبا الحسن.. ثمّ کتب إلی أبی عبیدة بالذی أشار به علی علیه السلام (۳).

ورد إلی بیت مال المسلمین مال کثیر من البحرین، فقسّمه عمر بین المسلمین، ففضل منه شیء، فجمع عمر المهاجرین والأنصار واستفتاهم بأمره قائلًا: ما ترون فی فضلٍ، فضلَ عندنا من هذا المال؟

قالوا: یا أمیر المؤمنین إنّا شغلناک

۱- ۲۴ نقلًا عن المرجع السابق، ۱: ۵۹.

۲- ۲۵ نهج البلاغة، تبویب د. صبحی الصالح، بیروت، ۱۳۸۷ ه، ص: ۱۹۲.

۳- ۲۶ نقلًا عن؛ «لجنة التألیف فی دار التوحید»، م. س: ۱: ۶۵.

ص: ۱۳۶

بولایة أمورنا من أهلک وتجارتک وضیعتک، فهو لک.

فالتفت عمر إلی علی قائلًا: ما تقول أنت؟

قال الإمام: قد أشاروا علیک.

قال الخلیفة: فقلْ أنت.

قال علیه السلام: لِمَ تجعل یقینک ظنّاً؟ ثمّ حدّثه بواقعة مشابهة فی عهد رسول اللَّه صلی الله علیه و آله.. وأخیراً أشار علیه الإمام علیه السلام بتوزیعه علی الفقراء، قائلًا:

«أُشیر علیک أن لا تأخذ من هذا الفضل وأن تفضّه علی فقراء المسلمین».

فقال عمر: صدقت واللَّه.

وقد ورد أنّ عمر بن الخطّاب رأی لیلة رجلًا وامرأة علی فاحشة، فلمّا أصبح قال للناس: أرأیتم أنّ إماماً رأی رجلًا وامرأة علی فاحشة، فأقام علیهما الحدّ ما کنتم فاعلین؟

قالوا: إنّما أنت إمام.

فقال علی بن أبی طالب: «لیس ذلک لک، اذن یُقام علیک الحدّ، إنّ اللَّه لم یأمن علی هذا الأمر أقلّ من أربعة شهداء».

ثمّ إنّ عمر ترک الناس ما شاء اللَّه، ثمّ سألهم؛ فقال القوم مثل مقالتهم الأولی..

وقال علی علیه السلام مثل مقالته. فأخذ عمر بقول الإمام علیه السلام.

شاور ابن الخطّاب أصحاب رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فی سواد الکوفة، فقال بعضهم: تقسمها بیننا، ثمّ شاور علیّاً علیه السلام فی الأمر، فقال: إنْ قسّمتها الیوم لم یکن لمن یجیء بعدنا شیء، ولکن تقرّها فی أیدیهم یعملونها، فتکون لنا ولمن بعدنا. فقال عمر لعلی: وفّقک اللَّه.. هذا الرأی.

عن الطبری فی تاریخه عن سعید ابن المسیب، قال: جمع عمر بن الخطّاب الناس فسألهم: من أی یوم نکتب التاریخ؟

فقال علی علیه السلام: من یوم هاجر رسول اللَّه صلی الله علیه و آله وترک أرض الشرک، ففعله عمر (۱)، وهکذا وجد التاریخ الهجری لیؤرّخ به المسلمون.

الفتنة الکبری

رغم ما مثلته مرحلة الخلافة من معاناة فادحة للإمام علی علیه السلام، بید أنّ حقبة عثمان بن عفّان کانت من نوع آخر؛ أشدّ وطأةً، وأنکی جراحاً، وأمضّ فجاجةً.

لقد أدرکت الخلافة عثمان وهو شیخ

۱- ۲۷ المرجع نفسه، ۱: ۶۵- ۶۶.

ص: ۱۳۷

کبیر، ومن ورائه مروان بن الحکم یصرّف الأمر بکثیر من الانحراف عن الإسلام، علی حدّ تعبیر سیّد قطب، کما أنّ طبیعة عثمان الرخیّة، وحدبه الشدید علی أهله، قد أسهم کلاهما فی صدور تصرّفات أنکرها الکثیرون من الصحابة من حوله، وکانت لها معقبات کثیرة، وآثار فی الفتنة التی عانی الإسلام منها کثیراً (۱).

ویبدو أنّ الفرع الأموی، بزعامة أبی سفیان، قد رأی فی تولّی عثمان الخلافة فرصة طالما انتظروها کی تعود لهم المکانة الأولی التی فقدوها منذ ظهور الإسلام علی ید محمّد بن عبداللّه.. لقد سنحت لهم الفرصة، ورأوا فی شخصیة عثمان المناخ المناسب کی یحقّقوا ما یریدون.. (۲).

کان القلق یستبدّ بالصحابة الذین لم یجرفهم تیّار الترف، وهم یرون عثمان قد أطلق العنان لبنی أمیة فی الاستئثار بالمواقع والامتیازات والخروج علی الشرع الحنیف. بل إنّ عثمان قد دشّن خلافته بمخالفة صریحة للحکم الشرعی، حینما عفا عن عبیداللّه بن عمر بن الخطّاب ولم یُقِمْ علیه الحدّ.

وقد کان عمر أمر بسجن ابنه عبیداللّه لیحکم فیه الخلیفة من بعده.

یقول ابن الأثیر: «.. جلس عثمان فی جانب المسجد بعد بیعته، ودعا عبیداللّه بن عمر بن الخطّاب، وکان قتل قاتل أبیه أبا لؤلؤة، وقتل جُفَیْنةَ رجلًا نصرانیاً من أهل الحیرة کان ظهیراً لسعد بن مالک، وقتل الهرمزان، فلمّا ضربه بالسیف قال: لا إله إلّااللّه! فلمّا قتل هؤلاء أخذه سعد بن أبی وقاص وحبسه فی داره وأخذ سیفه وأحضره عند عثمان، وکان عبیداللّه یقول: واللّه لأقتلن رجالًا ممّن شرک فی دم أبی، یعرّض بالمهاجرین والأنصار، وإنّما قتل هؤلاء النفر لأنّ عبد الرحمن بن أبی بکر قال غداة قتل عمر: رأیت عشیّة أمس الهرمزان وأبا لؤلؤة وجُفینة وهم یتناجون، فلمّا رأونی ثاروا وسقط منهم خنجر له رأسان نصابه فی وسطه، وهو الخنجر الذی ضُرب به عمر، فقتلهم عبیداللّه. فلمّا أحضره عثمان قال:

أشیروا علیَّ فی هذا الرجل الذی فتق فی الإسلام ما فتق! فقال علی: أری أن

۱- ۲۸ سیّد قطب؛ «العدالة الاجتماعیّة فی الإسلام»، ۱۳۹۷ ه- ۱۹۷۷ م، دون ذکر لمکان الطبع.

۲- ۲۹ د. محمّد عمارة؛ «مسلمون ثوار» ط ۳، القاهرة، ۱۴۰۸ ه- ۱۹۸۸ م، ص ۷۹.

ص: ۱۳۸

تقتله. فقال بعض المهاجرين: قُتل عمر أمس ويُقتل ابنه اليوم! فقال عمرو بن العاص: إنّ اللّه قد أعفاك أن يكون هذا الحدث ولك على المسلمين سلطان. فقال عثمان: أنا وليّه وقد جعلتها دية واحتملها في مالي.. (۱).

غير أنّ هذا الحلّ الترقيعي كان بمثابة الثغرة الأولى في حقبة عثمان، ولتتوالى الثغرات لاحقاً، ويتّسع الخرق على الراقع. دون أن يتمكّن عثمان من دفع الشبهات عن حكمه، فلقد «أكثر الناس في دم الهرمزان وإمساك عثمان عبيداللّه بن عمر، فصعد عثمان المنبر فخطب الناس، ثمّ قال: ألا أنّي وليّ دم الهرمزان، وقد وهبته للّهولعمر، وتركته لدم عمر.

فقام المقداد بن عمر فقال: إنّ الهرمزان مولى للّهولرسوله، وليس لك أن تهب ما كان للّهولرسوله. قال:

فننظر وتنظرون. ثمّ أخرج عثمان عبيداللّه بن عمر من المدينة إلى الكوفة، وأنزله داراً، فنُسب الموضع إليه، كُوَيْفَة ابن عمر (۲).

ما يجدر ذكره؛ أنّ الغماذيان بن الهرمزان كان هو ولي الدم ولم يتنازل عن حقّه، ولمّا ولي على عليه السلام الخلافة أراد إقامة الحدّ على عبيداللّه بن عمر بقتله فهرب منه إلى معاوية بالشام، ولو كان إطلاقه بأمر ولي الدم لم يتعرّض له على (۳).

وحول هذه النقطة يعلّق عبّاس محمود العقّاد على موقف الإمام عليه السلام منها قائلًا: «يُخطئ جدّاً منْ يتّخذ فتواه في مقتل الهرمزان دليلًا على كراهيته لعمر أو نقمة منه في أبنائه.. فقد أسرع عبيداللّه بن عمر إلى الهرمزان، فقتله انتقاماً لأبيه، ولم ينتظر حكم ولي الأمر فيه ولا أن تقوم البيّنة القاطعة عليه.

فلمّا أُستفتي في هذه القضية أفتي بالقصاص منه، ولم يغيّر رأيه حين تغيّر رأي عثمان، فأعفاه من جريرة عمله..

لأنّه هو الرأي الذي استمدّه من حكم الشريعة كما اعتقده وتحرّاه، وبهذا الرأي دان قاتله عبدالرحمن بن ملجم، فأوصى وكرّر الوصاية ألّا يقتلوا أحداً غيره لمظنّة المشاركة بينه وبين رفقائه في التآمر عليه» (۴).

۱- ۳۰ في صفوف بني‌أميّة، والتي طفحت على لسان أبي‌سفيان غداة تولّي عثمان الخلافة، إذ قال في اجتماع خاصّ ضمّ بني‌ميّة في دار عثمان: «أفيكم أحدٌ من غيركم؟ (وقد كان عَمِي)، فقالوا: لا، قال: يا بني‌أميّة، تلقّفوها تلقّف الكرة، فوالذي يحلف به أبوسفيان ما زلت أرجوها لكم ولتصيرنّ إلى صبيانكم وراثة..»- مروج الذهب للمسعودي، ۲: ۳۵۱- ۳۵۲، تحقيق محمّد محيي الدين عبدالحميد، ط ۴، مصر، ۱۳۸۴- ۱۹۶۴ م.

۲- ۳۱ إبن‌الأثير؛ «الكامل في التاريخ»، تحقيق على شيري، بيروت، ۱۴۰۸ ه- ۱۹۸۹ م. المجلّد الثاني: ۲۲۵- ۲۲۶.

۳- ۳۲ يُراجع: تاريخ اليعقوبي، المجلّد الثاني: ۱۶۳- ۱۶۴، بيروت د. ت.

۴- ۳۳ عباس محمود العقّاد؛ مرجع سابق: ۱۳۰.

ص: ۱۳۹

ولمّا قام عثمان بالخلافة طال عتب (الإمام) علىّ عليه؛ لأنّه أباح للعمّال والولاة ما ليس بمباح فى رأيه (۱)، ومن كلام له عليه السلام، حول تقييمه لسياسة عثمان: «... وأنا جامع لكم أمره، استأثر فأساء الأثرة» (۲).

ومن أسوإ أساليب الأثرة تلك اتخاذه أبناء عمومته من بنى أميّة بطانة سوء، إذ أوطأهم رقاب الناس، وولّاهم الولايات وأقطعهم القطائع، وافتُتحت افريقيا فى أيّامه، فأخذ الخمس كلّه فوهبه لمروان فقال عبدالرحمن بن حنبل الجمحى:

أحلف باللّه ربِّ الأنا م ما ترکَ اللّهُ شيئاً سُدى

ولكن خلقت لنا فتنةً لكى نبتلى بک أو تُبتلى

فإنّ الأمينين قد بيّنا منارَ الطريق عليه الهدى

فما أخذا درهماً غيلةً ولا جعلا درهماً فى هوى

وأعطيتَ مروان خُمْس البلاد فهيهاتَ سعيُک ممّن سعى

وطلب منه عبداللّه بن خالد بن أسيد صلة، فأعطاه أربعمائة ألف درهم.

وأعاد الحكم بن أبى العاص، بعد أن كان رسول اللّه صلى الله عليه و آله قد سيّره ثمّ لم يردّه أبو بكر ولا عمر، وأعطاه مائة ألف درهم.

وتصدّق رسول اللّه صلى الله عليه و آله بموضع سوق بالمدينة يُعرف بمهزور على المسلمين، فأقطعه عثمان الحارث بن الحكم أخا مروان بن الحكم.

وأقطع مروان فدكاً، وقد كانت فاطمة عليها السلام طلبتها بعد وفاة أبيها صلوات اللّه عليهما، تارةً بالميراث، وتارةً بالنحلة فدُفعت عنها.

وحمى المراعىَ حول المدينة كلّها من مواشى المسلمين كلّهم إلّاعن بنى أميّة.

وأعطى عبداللّه بن أبى سرح جميع ما أفاء اللّه عليه من فتح افريقيا بالمغرب- وهى من طرابلس الغرب إلى طنجة- من غير أن يشركه فيه أحد من المسلمين.

وأعطى أبا سفيان بن حرب مائتى ألف من بيت المال، فى اليوم الذى أمر

۱- ۳۴ عبّاس محمود العقّاد؛ مرجع سابق: ۵۱.

۲- ۳۵ نهج البلاغة؛ مرجع سابق: ۷۳.

ص: ۱۴۰

فیه لمروان بن الحکم بمائة ألف من بیت المال، وقد کان زوّجه ابنته أمّ أبان، فجاء زید بن أرقم صاحب بیت المال بالمفاتیح، فوضعها بین یدی عثمان وبکی، فقال عثمان: أتبکی أن وصلتُ رحمی؟! قال: لا، ولکن أبکی لأنّی أظنّک أنّک أخذت هذا المال عوضاً عمّا کنت أنفقته فی سبیل اللّه فی حیاة رسول اللّه صلی الله علیه و آله. واللّه لو اعطیتَ مروان مائة درهم لکان کثیراً، فقال: ألقِ المفاتیح یابن أرقم؛ فإنّا سنجد غیرک.

وأتاه أبو موسی بأموال من العراق جلیلة، فقسّمها کلّها فی بنی أمیة.

وأنکح الحارث بن الحکم ابنته عائشة، فأعطاه مائة ألف من بیت المال أیضاً بعد صرفه زید بن أرقم عن خزنه.

وانضمّ إلی هذه الأمور أمور أخری نقمها علیه المسلمون، کتسییر أبی ذرّ رحمه اللّه تعالی إلی الربذة؛ وضرب عبداللّه بن مسعود حتّی کسر أضلاعه (۱) ومن ذلک ما نال عمّار بن یاسر من الفتن والضر (۲) وما أظهر من الحجاب والعدول عن طریقة عمر فی إقامة الحدود وردّ المظالم، وکفّ الأیدی العادیة، والانتصاب لسیاسة الرعیة، وختم ذلک ما وجدوه من کتابه إلی معاویة یأمره فیه بقتل قوم من المسلمین (۳).

وهکذا کثر الطعن علی عثمان، وظهر علیه النکیر (۴) ولقد کان الصحابة یرون هذه التصرّفات الخطیرة العواقب، فیتداعون إلی المدینة لإنقاذ تقالید الإسلام، وإنقاذ الخلیفة من المحنة، والخلیفة فی کبرته لا یملک أمره من مروان (۵).

وفی هذا الاتجاه أفاضت کتب التاریخ بالأحداث المؤلمة. وقد أُتیح لشاهد عیان أن یصوّر لنا جانباً من ذلک المشهد المفجع، فعن أبی کعب الحارثی (المعروف بذی الأدواة) قال: «أتیتُ عثمان بن عفّان وهو الخلیفة یومئذٍ فسألته عن شیء من أمر دینی، وقلت: یا أمیر المؤمنین، إنّی رجل من أهل الیمن من بنی الحارث بن کعب، وإنّی ارید أن أسألک فأمرْ حاجبک ألّا یحجبنی، فقال: یا وثّاب، إذا جاءک هذا الحارثیّ فأذن له. قال: فکنت إذا جئت، فقرعت الباب، قال: مَنْ ذا؟

۱- ۳۶ للمزید یُراجع؛ «شرح نهج البلاغة لابن أبی‌الحدید»، مرجع سابق ۱: ۱۹۸- ۱۹۹.

۲- ۳۷ تاریخ المسعودی؛ مرجع سابق ۲: ۳۴۷.

۳- ۳۸ شرح نهج البلاغة لابن أبی‌الحدید، مرجع سابق ۱: ۱۹۹، وتذکر المصادر التاریخیّة أنّ کتاباً یحمل توقیع عثمان موجّه إلی عامله بمصر عبداللّه بن أبی‌سرح یأمره بقتل حاملی الکتاب!

۴- ۳۹ تاریخ المسعودی؛ مرجع سابق ۲: ۳۴۷، وقد أسهب بعض المؤرخین فی تبیان المطاعن التی طُعن بها علی عثمان، وللمزید من الاطلاع، یُراجع شرح نهج البلاغة لابن أبی‌الحدید ۳: ۱۱- ۷۰.

۵- ۴۰ سید قطب، مرجع سابق: ۲۷۹.

ص: ۱۴۱

فقلت: الحارثی، فیقول: ادخل، فدخلت یوماً فإذا عثمان جالس، وحوله نفر سکوت لا یتکلّمون، کأنّ علی رؤوسهم الطیر، فسلّمت ثمّ جلست، فلم أسأله عن شیء لِما رأیتُ من حالهم وحاله، فبینا أنا کذلک إذْ جاء نفر، فقالوا: انّه أبی أن یجیء. قال:

فغضب وقال: أبی أنْ یجیء؟! اذهبوا فجیئوا به؛ فإنْ أبی فجرّوه جرّاً.

قال: فمکثت قلیلًا، فجاءوا ومعهم رجل آدم طوال أصلع، فی مقدّم رأسه شعرات، وفی قفاه شعرات، فقلت: مَنْ هذا؟ قالوا: عمّار بن یاسر، فقال له عثمان: أنت الذی تأتیک رسلنا فتأبی أن تجیء؟! قال: فکلّمه بشیء لم أدرِ ما هو، ثمّ خرج. فمازالوا ینفضّون من عنده حتّی ما بقی غیری، فقام، فقلت:

واللَّه لا أسأل عن هذا الأمر أحداً أقول حدّثنی فلان حتّی أدری ما یصنع.

فتبعته حتّی دخل المسجد، فإذا عمّار جالس إلی ساریة، وحوله نفر من أصحاب رسول اللَّه صلی الله علیه و سلم یبکون، فقال عثمان: یا وثّاب علیّ بالشُّرَط، فجاءوا، فقال: فرّقوا بین هؤلاء، ففرّقوا بینهم.

ثمّ أُقیمت الصلاة، فتقدّم عثمان فصلّی بهم، فلمّا کبّر قالت امرأةٌ من حجرتها: یا أیّها الناس. ثمّ تکلّمت، وذکرت رسول اللَّه صلی الله علیه و سلم، وما بعثه اللَّه به، ثمّ قالت: ترکتم أمر اللَّه وخالفتم عهده... ونحو هذا، ثمّ صمتت وتکلّمت امرأة اخری بمثل ذلک، فإذا هما عائشة وحفصة.

قال: فسلّم عثمان، ثمّ أقبل علی الناس، وقال: إنّ هاتین لفتّانتان، یحلّ لی سبّهما، وأنا بأصلهما عالم.

فقال له سعد بن أبی وقّاص: أتقول هذا لحبائب رسول اللَّه صلی الله علیه و سلم؟! فقال: وفیمَ أنتَ؟! وما هاهنا؟ ثمّ أقبل نحو سعد عامداً لیضربه، فانسلّ سعد.

فخرج من المسجد، فاتبعه عثمان، فلقی علیّاً علیه السلام بباب المسجد، فقال له علیه السلام: أین ترید؟ قال: أرید هذا الذی کذا وکذا- یعنی سعداً یشتمه- فقال له علی علیه السلام: أیّها الرجل، دع عنک هذا، قال: فلم یزل بینهما کلام، حتّی غضبا، فقال عثمان: ألست الذی خلّفک رسول‌اللَّه صلی الله علیه و آله یوم تبوک؟! فقال علی:

ألست الفارّ عن رسول‌اللَّه صلی الله علیه و آله یوم أُحُد؟!

ص: ۱۴۲

قال: ثمّ حجز الناس بينهما. قال: ثم خرجتُ من المدينة حتّى انتهيتُ إلى الكوفة، فوجدت أهلها أيضاً وقع بينهم شرّ، ونشبوا فى الفتنة، وردّوا سعيد بن العاص فلم يدعوه يدخل إليهم، فلمّا رأيت ذلك رجعت حتّى أتيت بلاد قومى» (۱).

ووقفة متأمّلة ازاء هـذا المشـهد الكاريكتيرى تثير علامات الاسـتفهام حول طبيعـة الوضع الـذى كان يقوده عثمان، وهو يوزّع الشـتائم والإهانات إلى الصحابة وحتّى زوجات النبى صلى الله عليه و آله لم يسلمن منه، فأىّ حضيض آلت إليه الامور؟!

وفيمـا كـان عثمـان يتعامل بهـذا الاسـلوب الفظّ الـذى أبكى بعضاً من صـحابة رسول اللّه، وجرح كبرياء بعض آخر.. فإنّه- فى الوقت نفسه- كان يحيط نفسه بحفنةٍ من المنتفعين، ومعظم ولاته غلمان تثور حول تدينهم وحول أخلاقهم شبهات كثيرة، ولم يكن لهم شىء من الصـلاحيات ينفعهم غير صِـلاتهم بالخليفـة (۲)، وفى مقدّمـة هؤلاـء عمّـه الحكـم بن أبى العـاص- وهـو الـذى طرده الرسـول من المدينـة- وولداه مروان والحارث اللذان صاهرهما عثمان وجعل من الأوّل وزيره المتصـرّف (۳)، والوليـد بن عقبة بن أبى معيط، أخو عثمان من أمّه، والذى عيّنه والياً على الكوفة، وكان يشـرب الخمرة حتى صـلاة الفجر، فيصلّى بالناس أربعاً! وهو ممّن أخبر النبى صلى الله عليه و آله أنه من أهل النار.. وعبـداللّه بن أبى سـرح (أخوه من الرضاعـة) الـذى ولّاه مصـر، ومعاوية على الشام (ويلتقيان فى الجدّ الثانى أميّة) وعبداللّه بن عامر على البصرة (وهو ابن خاله).

ولقد لقى الإمام على عليه السـلام من عثمان وبطانته ما لقى من العنت، ونكتفى هنا بإيراد نموذج واحد لهذا الأمر؛ روى الزبير بن بكّار فى «الموفقيـات» عن رجـال أسـند بعضـهم عن بعض، عن على بن أبى طالب عليه السـلام، قال: أرسل إلىَّ عثمان فى الهاجرة (نصـف النهار فى القيظ)، فتقنعت بثوبى وأتيته، فدخلت عليه وهو على سريره، وفى يده قضيب، وبين يديه مال دثر (أى كثير): صُبرتان من ورق وذهب، فقال: دونك

۱- ۴۱ شرح نهج البلاغة لابن أبى‌الحديد، مرجع سابق ۹: ۴- ۵.

۲- ۴۲ د. محمّد رضا محرم؛ «أفكار الآخرين»، مجلّة المسلم المعاصر العدد ۲۹ صفر ۱۴۰۲ ه يناير ۱۹۸۲ م: ۲۸.

۳- ۴۳ سيّد قطب؛ مرجع سابق: ۲۷۹.

ص: ۱۴۳

خـذ من هـذا حتى تملأ بطنك فقد أحرقتنى. فقلت: وصـلتك رَحِم! إنْ كان هذا المال ورثتَه، أو أعطاكه معطٍ، أو اكتسبته من تجار؛ كنتُ أحد رجلين:

إمّا آخـذ وأشـكر، أو أوفّرَ وأُجْهَد، وإنْ كـان من مال اللّه وفيه حقّ المسـلمين واليتيم وابن السبيل، فواللّه مالك أن تعطينيه ولا لى أن آخـذه. فقال: أبيت واللّه إلّاما أبيت. ثمّ قام إلىّ بالقضـيب فضـربنى، واللّه ما أردّ يده، حتّى قضـى حاجته، فتقنّعتُ بثوبى، ورجعت إلى منزلى، وقلت: اللّه بينى وبينك إن كنتُ أمرتُك بمعروف أو نهيتُ عن منكر! (۱).

على خلفيّة هذه الممارسات غير المسؤولة من الطبيعى أن يتفشّـى الفساد فى جهاز السلطة ويضرب بأطنابه فى كلّ الاتجاهات. والسؤال هو: ما هو موقف الإمام عليه السلام من كلّ هذا الذى يجرى باسم الإسلام؟

هناك ثلاثة خيارات لا غير: إمّا أن يجارى الوضع على ما هو عليه، أو يلوذ بالصمت مكتفياً بالتفرّج، أو يتصدّى للانحراف.

ولمّا كان الإمام على عليه السـلام عارفاً وظيفته الشـرعية، فإنّه ليس بمقدوره إلّا الخيار الأخير، وهو التأشير على مواطن الخلل بالنصيحة تارةً، والعقاب أُخرى، والتحذير ثالثة، وقد كاشف الإمام على عليه السلام أهل الكوفة، فى كتاب منه إليهم، جاء فيه: «من عبد اللّه على أمير المؤمنين إلى أهل الكوفة، جبهة الأنصار وسـنام العرب، أمّا بعد، فإنّى أخبركم عن أمر عثمان حتّى يكون سمعُه كعيانه، إنّ الناس طعنوا عليه، فكنت رجلًا من المهاجرين أُكثر استعتابه (أى استرضاءه)، وأقلّ عتابَه...» (۲).

ولم يكف الإمـام على عليه السـلام عن نصـيحة عثمـان ولم يهتبـل فرصـة متاحـة إلّا وحاول إنقاذ عثمان ممّا هو فى مأزق، ولكن دون جـدوى، فرأينـا كيف كان عثمان يقابل ذلك بمزيـد من الانفعال الـذى لا يخلو من مظنّـة السوء. فقـد صوّرت له حاشـيته الفاسـدة انّ الإمـام علياً عليه السـلام فى طليعـة حسّاده على نعمته وإمرته!، ولطالمـا أشـار عثمـان إلى هـذه التهمـة، تصـريحاً أو تلميحـاً، سواء فى مجالسهالخاصّة أو فى خطبه يوم الجمعة.

۱- ۴۴ شرح نهج البلاغة لابن أبىالحديد؛ مرجع سابق ۹: ۱۶.

۲- ۴۵ نهج البلاغة مرجع سابق: ۳۶۳.

ص: ۱۴۴

وذات جمعة تطرّق إلى هذا الأمر، حتّى كاد أن يسمّى علياً، وبعد انتهاء الخطبة.. «همّ بالنزول فبصر بعلىّ بن أبى طالب عليه السلام ومعه عمّار بن ياسر رضى الله عنه، وناس من أهل هواه يتناجون؛ فقال:

إيهاً إيهاً! إسراراً لا جهاراً! أما والذى نفسى بيده ما احنق على جرّة، ولا أوتَى من ضعف مِرّة؛ ولولا النظر لى ولكم والرفق بى وبكم، لعاجلتكم؛ فقد اغتررتم، وأقلتم من أنفسكم.

ثمّ رفع يديه يدعو.. فتفرّق القوم عن على عليه السلام» (۱).

ولا يسع المراقب المحايد إلّاأن يستحضر القول المأثور: «يكاد المريب أن يقول خذونى»!

هذه الحادثة وغيرها كثير جعلت الإمام علياً عليه السلام يتجنّب الاحتكاك بعثمان، وهذا ما أوضحه فى كتاب له إلى معاوية:

«ولعمرى يا معاوية، لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدنى أبرأ الناس من دم عثمان، ولتعلمنّ أنّى كنتُ فى عزلة عنه إلّاأن تتجنّى؛ فتجنَّ ما بدا لك! والسلام» (۲).

غير أنّ الإمام عليّاً عليه السلام لا يستكين إذا ما رأى منكراً يجب ردعه، حتّى يتمكّن من تحقيق ذلك. ويطول المقام فى هذا الباب، بيد أننا نكتفى بموقفين له مع اثنين من رؤوس الفساد والإفساد فى عهد عثمان، هما: الوليد بن عقبة بن أبى معيط (أخو عثمان من أمّه)، وصهره المدلّل مروان بن الحكم.

سكران فى محراب الكوفة

يذكر المسعودى فى تاريخه: «أنّ الوليد بن عقبة كان يشرب مع ندمائه ومغنّيه من أوّل الليل إلى الصباح، فلمّا آذنه المؤذِّنون بالصلاة خرج متفضّلًا فى غلائله، فتقدّم إلى المحراب فى صلاة الصبح، فصلّى بهم أربعاً، وقال:

أتريدون أن أزيدكم؟ وقيل: إنّه قال فى سجوده وقد أطال: اشرب واسقنى، فقال له بعض من كان خلفه فى الصفّ الأوّل: ما تزيد لا زادك اللّه من الخير.

واللّه لا أعجب إلّاممّن بعثك إلينا والياً وعلينا أميراً.

وخطب الناس الوليد فحصبه الناس بحصباء المسجد، فدخل قصره يترنّح، ويتمثّل بأبيات لتأبّط شرّاً:

۱- ۴۶ شرح نهج البلاغة لابن أبى‌الحديد؛ مرجع سابق ۹: ۷.

۲- ۴۷ نهج البلاغة؛ م. س: ۳۶۷.

ص: ۱۴۵

ولستُ بعيداً عن مدام وقينة ولا بصفا صلد عن الخير معزل

ولكننى أروى من الخمر هامتى وأمشى الملا بالساحب المتسلسلِ

وفى ذلك يقول الحطيئة:

شهد الحطيئة يوم يلقى ربّه أنّ الوليد أحقُّ بالعذرِ

نادى وقد تمّت صلاتهم أأزيدكم؟! ثَمِلًا وما يدرى

ليزيدهم أخرى، ولو قبلوا لقرنت بين الشفع والوترِ

حبسوا عنانك فى الصلاة ولو خلّوا عنانك لم تزل تجرى

وأشاعوا فى الكوفة فعله، وظهر فسقه ومداومته على شرب الخمر، فهجم عليه جماعة من المسجد منهم أبو زينب بن عوف الأزدى وجندب بن زهير الأزدى وغيرهما، فوجدوه سكران مضطجعاً على سريره لا يعقل، فأيقظوه من رقدته، فلم يستيقظ، ثمّ تقيأ عليهم ما شرب من الخمر، فانتزعوا خاتمه من يده وخرجوا من فورهم إلى المدينة، فأتوا عثمان بن عفّان، فشهدوا عنده على الوليد أنّه شرب الخمر، فقال عثمان: وما يدريكما أنّه شرب خمراً؟ فقالا: هى الخمر التى كنّا نشربها فى الجاهلية وأخرجا خاتمه فدفعاه إليه، فزجرهما ودفع فى صدورهما، وقال: تنحّيا عنّى، فخرجا من عنده وأتيا عليّ بن أبى طالب رضى الله عنه وأخبراه بالقصّة، فأتى عثمان وهو يقول: دفعت الشهود، وأبطلت الحدود، فقال له عثمان: فما ترى؟ قال: أرى أن تبعث إلى صاحبك فتحضره فإنْ أقاما الشهادة عليه فى وجهه ولم يدرأ عن نفسه بحجّة أقمت عليه الحدّ، فلمّا حضر الوليد دعاهما عثمان: فأقاما الشهادة عليه ولم يُدْلِ بحجّة فألقى عثمان السوط إلى على، فقال على لابنه الحسن: قم يا بُنى فأقم عليه ما أوجب اللّه عليه، فقال: يكفينيه بعض مَنْ ترى، فلمّا نظر إلى امتناع الجماعة عن إقامة الحدّ عليه توقّياً لغضب عثمان لقرابته منه أخذ على السوط ودنا منه، فلمّا أقبل نحوه سبّه الوليد.. فقال عقيل بن أبى طالب وكان ممّن حضر: إنّك لتتكلّم يا ابن أبى مُعَيْط

ص: ۱۴۶

كأنّك لا تدرى من أنت، وأنت علج من أهل صفّوريّة- وهى قرية بين عكا واللجون من أعمال الأردن من بلاد طبرية، وكان ذكر أن أباه كان يهودياً منها- فأقبل الوليد يروغ من على، فاجتذبه على فضرب به الأرض، وعلاه بالسوط، فقال عثمان: ليس لك أن تفعل به هذا، قال: بل وشرّاً من هذا إذا فسق ومنع حقّ اللَّه تعالى أن يؤخذ منه (۱).

مروان بن الحكم: الصهر المدلّل

أمّا عن موقفه عليه السلام من مروان بن الحكم فهو معروف، إذ كانا على طرفى نقيض تماماً. وقد تفجّر الوضع بينهما إثر حادثة نفى عثمان لأبى‌ذر رضوان‌اللَّه عليه إلى الربذة، على خلفيّة مشادّة حصلت بينه وبين كعب الأحبار فى مجلس عثمان انتصر فيها هذا الأخير لجانب كعب الأحبار، «وأمر عثمان أن يتجافاه الناس، حتّى يسير إلى الربذة، فلمّا طلع عن المدينة ومروان يسير عنها طلع عليه على بن أبى‌طالب رضى الله عنه ومعه ابناه [الحسن والحسين] وعقيل أخوه وعبداللَّه بن جعفر وعمّار بن ياسر، فاعترض مروان فقال: يا على إنّ أمير المؤمنين قد نهى الناس أن يصحبوا أبا ذر فى مسيره ويشيّعوه، فإن كنت لم تدرِ بذلك فقد أعلمتك، فحمل عليه على بن أبى طالب بالسوط وضرب بين اذنى راحلته، وقال: تَنَحَّ نحّاك اللَّه إلى النار، ومضى مع أبى ذرّ فشيّعه ثمّ ودّعه وانصرف، فلمّا أراد على الانصراف بكى أبو ذر، وقال: رحمكم اللَّه أهل البيت، إذا رأيتك يا أبا الحسن وولدك ذكرت بكم رسول اللَّه صلى الله عليه و آله و سلم. فشكا مروان إلى عثمان ما فعل به على بن أبى طالب، فقال عثمان: يا معشر المسلمين مَنْ يعذرنى من على؟ ردّ رسولى عمّا وجّهته له، وفعل كذا، واللَّه لنعطيّنه حقّه، فلمّا رجع على استقبله الناس، فقالوا له: إنّ أمير المؤمنين عليك غضبان لتشييعك أبا ذر، فقال على:

غَضَبَ الخيل على اللُّجم.

فلمّا كان بالعشى جاء إلى عثمان، فقال له: ما حملك على ما صنعت بمروان ولِمَ اجترأتَ علىَّ ورددت رسولى وأمرى؟! قال: أمّا مروان فإنّه استقبلنى يردّنى فرددته عن ردّى، وأمّا

۱- ۴۸ تاريخ المسعودى؛ م. س ۲: ۳۴۴- ۳۴۵.

ص: ۱۴۷

أمرك فلم أردّه، قال عثمان: ألم يبلغك أنّى قد نهيتُ الناس عن أبى ذرّ وعن تشييعه؟ فقال على: أوكل ما أمرتنا به من شىء نرى طاعة اللّه والحقّ فى خلافه اتبعنا فيه أمرك؟ باللّه لا نفعل.

قال عثمان: أقِدْ مروان، قال: وممّ أُقيده؟ قال: ضربت بين أذنى راحلته، وشتمته فهو شاتمك وضارب بين أذنى راحلتك. قال على: أما راحلتى فهى تلك فإنْ أراد أن يضربها كما ضربت راحلته فليفعل. وأمّا أنا فواللّه لئن شتمنى لأشتمنّك أنت مثلها بما لا أكذب فيه ولا أقول إلّاحقّاً. قال عثمان: ولِمَ لا ـ يشتمك إذا شتمته، فواللّه ما أنت عندى بأفضل منه؟! فغضب على بن أبى طالب: ألى تقول هذا القول؟ وبمروان تعدلنى؟ فأنا واللّه أفضل منك، وأبى أفضل من أبيك، فغضب عثمان واحمرّ وجهه، فقام ودخل داره، وانصرف على، فاجتمع إليه أهل بيته، ورجال من المهاجرين والأنصار.

فلمّا كان من الغد واجتمع الناس إلى عثمان شكا إليهم عليّاً وقال: إنّه يعيبنى ويُظاهر مَنْ يعيبنى، يريد بذلك أبا ذر وعمّار بن ياسر وغيرهما، فدخل الناس بينهما حتّى اصطلحا وقال له على: واللّه ما أردت بتشييع أبى ذرّ إلّااللّه تعالى.» (۱)

وإضافة إلى ما تقدّم، تبدت مظاهر الثراء والبذخ على عدد كبير من الصحابة، فى عهد عثمان، ويطول الحديث فى هذا المقام، ونكتفى بالإشارة إلى أحد هؤلاء، وهو عبد الرحمن بن عوف، إذ أصبحت ثروته مضرب الأمثال كما يقول الدكتور محمد عمارة «فعلى مربطه مائة فرس، وله ألف بعير، وعشرة آلاف شاة من الغنم»، وعندما توفى قدّرت ثروته بأكثر من مليونين ونصف من الدراهم، ولقد بلغ حجم القدر الذى أُحضر منها إلى عثمان ابن عفّان فى «البِدَر» و «الأكياس» قدراً من العظم جعله يحجب رؤية عثمان عن الرجل الواقف أمامه! (۲)

أمّا فيما يتعلّق بالخليفة نفسه، والذى يفترض به أن يكون قدوة ويعيش كأضعف الناس «كيلا يتبيّغ بالفقير فقره» (۳) كما يقول الإمام على عليه السلام، فإنّ المصادر التاريخية تشير إلى أنّ عثمان

۱- ۴۹ المرجع نفسه ۲: ۳۵۰- ۳۵۱.

۲- ۵۰ د. محمّد عمارة؛ «مسلمون ثوّار»، م. س: ۸۱، وللمزيد يراجع تاريخ المسعودى ۲: ۳۴۲، وما بعدها.

۳- ۵۱ نهج البلاغة: ۴۰۰ الخطبة ۲۰۷.

ص: ۱۴۸

کان أوّل خلیفة یترک عند مماته ثروة طائلة، فیحصون له یوم مقتله «عند خازنه من المال خمسین ومائة ألف دینار، وألف ألف درهم» وذلک غیر قیمة ضیاعه بوادی القری وحنین، تلک التی قدّرت بمبلغ مائة ألف دینار، هذا عدا الخیل والإبل وغیرها من الممتلکات والمقتنیات (۱).

ویمضی عثمان بعیداً فی سیاسته هذه المصحوبة بإغداق المنح والأموال علی بنی عمومته الذین أطلق لهم العنان لیعیثوا فی الأرض فساداً وعتوّاً.. فیما یحرم الصحابة ویضرب بعضهم علی مشهد من الملإ ضرب إهانة وإیجاع (۲)، ولیوسّع دائرة تبرّمه من الأمّة نفسها، دونما مبرّر سوی ضیق الصدر. إذ روی عن عبید بن حارثة قوله: «سمعت عثمان وهو یخطب، فأکبّ الناس حوله، فقال:

اجلسوا یا أعداء اللّه! فصاح به طلحة:

انّهم لیسوا بأعداء اللّه؛ لکنّهم عباده، وقد قرأوا کتابه» (۳).

فهذا یعنی- فیما یعنی- أنّ هناک حاجزاً نفسیّاً خطیراً بین الراعی ورعیته. وتحوّل الحاجز النفسی هذا إلی عقدة مستحکمة من عدم الثقة المتبادلة بین الطرفین، حاول عثمان أن یردمها أو یعوّضها بالارتماء أکثر فأکثر فی أحضان الشلّة الفاسدة من بنی عمومته، کلّ ذلک انعکس بشکل سلبی علی مجمل الأوضاع، الأمر الذی أوجد مناخاً اجتماعیاً ونفسیّاً «ولّد وشهد العدید من التناقضات والصراعات» (۴).

ولقد کان صوت علی بن أبی طالب فی مقدّمة الأصوات التی ارتفعت بالنقد والمعارضة لهذه التغییرات الاقتصادیة والاجتماعیة التی طرأت علی المجتمع العربی الإسلامی علی عهد عثمان بن عفّان.. بل لا نغالی- یقول د. محمد عمارة- إذا قلنا: إنّ صوت معارضته ونقده کان أعلی هذه الأصوات (۵).

ولمّا لم تجد نصائح الإمام علی علیه السلام أذناً صاغیة من عثمان، رغم أنّه بذل ما فی الوسع لتقدیم النصیحة.. فقد اعتزل عثمان بعدما ألقی علیه الحجّة تلو الأخری. ووصل الأمر إلی امتناع الإمام علی علیه السلام عن الاستشفاع بالبعض إلی عثمان، إذ روی سفیان بن عیینة

۱- ۵۲ د. محمد عمارة؛ المرجع السابق: ۸۱ أمّا عن بقیّة الطبقة الاستقراطیّة فیراجع حول مظاهر ثرائها تاریخ المسعودی ۲: ۳۴۲، وما بعدها.

۲- ۵۳ عباس محمود العقاد؛ م. س: ۵۶.

۳- ۵۴ شرح نهج البلاغة لابن أبی‌الحدید؛ م. س ۹: ۱۷.

۴- ۵۵ د. محمّد عمارة؛ م. س: ۸۲.

۵- ۵۶ المرجع نفسه: ۱۰۷.

ص: ۱۴۹

قائلًا: جاء رجل إلی علی علیه السلام یستشفع به إلی عثمان، فقال: حمّال الخطایا! لا واللّه لا أعود إلیه أبداً. فآیسه منه (۱).

بید أنّ مقاطعهٔ الإمام علی علیه السلام لعثمان لم تخفّف من درجهٔ المعارضهٔ المستعرهٔ للسلطهٔ إن لم تساهم أکثر فی إذکائها «ومن ثمّ فإنّ حرکهٔ المعارضهٔ والنقد، ثمّ الثورهٔ، ضد الأوضاع الجدیدهٔ قد اتخذت من علیّ رمزاً لها وقیادهٔ تلتفّ من حولها، کی تمارس الضغط والنقد والتجریح لأصحاب المصلحهٔ الحقیقیهٔ فی هذه الأوضاع التی طرأت علی المجتمع فی ذلک الحین» (۲).

وحین تألّب الناس علی عثمان..

أرسل فی طلب علیّ لیصرفهم عنه، فلمّا قدم إلیه استأذنه فی إعطائهم بعض الرفد العاجل من بیت المال، فأذن له..

فانصرفوا عن زعماء الفتنهٔ، وهدأوا إلی حین.

ثمّ توافد المتذمِّرون من الولایات إلی المدینهٔ مجنّدین وغیر مجنّدین.. وتولّی زعامهٔ المتذمّرین فی بعض الأحیان جماعهٔ من أجلّاء الصحابهٔ، کتبوا صحیفهٔ وقّعوها وأشهدوا فیها المسلمین علی مآخذ الخلیفهٔ.. فلمّا حملها عمّار بن یاسر إلیه، غضب وزیره مروان بن الحکم، وقال له: «إنّ هذا العبد الأسود قد جرّأ علیک الناس.. وإنّک إنْ قتلته نکلت به منْ وراءه» فضربوه حتّی غُشی علیه.

وفی مرّات أخری، کان الخلیفهٔ یصغی إلی هذه الشکایات ویندم علی ما اجترحه أعوانه بعلمه أو بغیر علمه، ثمّ یعلن التوبهٔ إلی رعایاه، ویؤکّد لهم الوعد بإقصاء أولئک الأعوان واخلافهم فی أعمالهم بمن یرضی المسلمین، ویرضی اللّه.

ثمّ یغلبه أولئک الأعوان علی مشیئته، فیبقیهم حیث کانوا ویملی لهم فیما تعودوه من الترف والنکایهٔ، وعلی رأسهم مروان بن الحکم. أبغض أولئک الأعوان إلی المسلمین (۳).

وعندما زحفت جموع الثائرین علی ولاهٔ عثمان والتغییرات الاجتماعیهٔ التی أحدثها.. عندما زحفوا من الولایات:

مصر، والعراق، والیمن، والشام- علی العاصمهٔ المدینهٔ- یطلبون التغییر، ذهبت هذه الجموع إلی علیّ وکلّموه،

۱- ۵۷ شرح نهج البلاغهٔ لابن أبی‌الحدید؛ م. س ۹: ۱۷.

۲- ۵۸ د. محمّد عمارهٔ؛ مسلمون ثوار: ۱۰۷.

۳- ۵۹ عبّاس محمود العقاد: ۵۷.

ص: ۱۵۰

وطلبوا منه أن یحمل مطالبهم إلی عثمان، ثمّ یأتیهم بالجواب. ویحکی الإمام علی وقائع مقابلته لعثمان عندما دخل علیه فقال له: «إنّ الناس ورائی وقد استفسرونی (أی جعلونی سفیراً) بینک وبینهم، وواللّه ما أدری ما أقول لک! ما أعرف شیئاً تجهله، ولا ادلّک علی أمر لا تعرفه.. فاللّه اللّه فی نفسک!..

وإنّ الطرق لواضحهٔ، وإنّ أعلام الدین لقائمهٔ. فاعلم أنّ أفضل عباد اللّه عند اللّه إمام عادل.. وإنّ شرّ الناس عند اللّه إمام جائر ضَلّ وضُلّ به، فأمات سنّهٔ مأخوذهٔ، وأحیا بدعهٔ متروکهٔ، وإنّی سمعت رسول اللّه صلی الله علیه و آله یقول: «یؤتی یوم القیامهٔ بالإمام الجائر ولیس معه نصیر ولا عاذر، فیُلقی فی نار جهنّم، فیدور کما تدور الرحی، ثمّ یرتبط فی قعرها». وانّی أُنشدک اللّه ألّا تکون إمام هذه الأمّهٔ المقتول، فإنّه کان یُقال:

یُقتل فی هذه الأمّهٔ إمام یفتح علیها القتل والقتال إلی یوم القیامهٔ، ویُلبس أمورها علیها، ویبثّ الفتن فیها، فلا یبصرون الحقّ من الباطل، یموجون فیها موجاً، ویمرجون فیها مرجاً، فلا تکونن لمروان سَیِّقهً (أی ما استاقه العدوّ من الدواب) یسوقک حیث شاء بعدَ جلال السنّ وتقضّی العمر».

فقال له عثمان: «کلّم الناس فی أن یؤجلونی، حتّی أخرج إلیهم من مظالمهم» فقال علیه السلام: ما کان بالمدینهٔ فلا أجل فیه، وما غاب فأجله وصولُ أمرِک إلیه (۱).

من نافلهٔ القول التأکید بأنّ هذه لیست الأولی التی حذّر فیها الإمام علی علیه السلام عثمان من مغبّهٔ اعتماده المفرط علی سفهاء بنی أمیّهٔ، فقد سبق وأن طرق هذا الباب غیر مرّهٔ.

وقد روی الواقدی فی کتاب «الشوری» عن ابن عبّاس رحمه الله، أنّه شهد عتاب عثمان لعلیّ علیه السلام ذات مرّهٔ، ذکّره فیه بموقفه المساند للشیخین (ولست بدون واحد منهما، وأنا أمسّ بک رحماً، وأقرب إلیک صهراً.. ولم أقصّر عنهما فی دینی وحسبی وقرابتی، فکن لی کما کنت لهما).

وفی معرض ردّه أجاب الإمام علی علیه السلام عثمان علی تساؤلاته، وممّا قاله:

«.. وأمّا التسویهٔ بینک وبینهما، فلست

۱- ۶۰ نهج البلاغهٔ: ۲۳۴.

ص: ۱۵۱

كأحـدهما، انّهمـا وليا هـذا الأمر فظلفا (أى كفّا) أنفسـهما وأهلهما عنه، وعُمْتَ فيه وقومك عوم السابـح فى اللجّـة، فارجع إلى اللّه أبا عمرو، وانظر هـل بقى من عمرك إلّاكظم الحمار! فحتى متى وإلى متى؟! ألا تنهى سـفهاء بنى أميّـة عن أعراض المسـلمين وأبشارهم وأموالهم؟! واللّه لو ظلم عامل من عمّالك حيث تغرب الشمس لكان اثمه مشتركاً بينه وبينك.

قال ابن عبّاس: فقال عثمان: لك العتبى، وافعلْ واعزلْ من عمّالى كلّ مَنْ تكرهه ويكرهه المسلمون؛ ثمّ افترقا، فصدّه مروان بن الحكم عن ذلك، وقال: يجترئ عليك الناس، فلا تعزل أحداً منهم» (۱).

وهكذا يتّضح مدى الدور القذر الذى كان يلعبه بنو أمية عموماً، ومروان خاصة، فى الوقوف بوجه أيّة محاولة اصلاح لتدارك الامور، وإيقاف التداعى. ولمّا آيس الناس من إذعان عثمان واستـماعه إلى شـكاواهم، عمّ الاستياء، وإلى الحدّ الذى «لم يبق أحد فى المدينة إلّاحنق على عثمان» على ما يقول السيوطى (۲).

ثـار النـاس وتجمهروا حول قصـره «وكـانت مـدّة حصار عثمان فى داره أربعين يوماً أو أكثر قليلًا..» وطلبوا منه أحـد أمور ثلاثـة: إمّا أن يعزل نفسه أو يسلّم إليهم مروان بن الحكم أو يقتلوه. لكنّه رفض العروض الثلاثة..

وكانت الثورة (۳).

فى تلك الأثناء، كانت مشاعر الغضب على عثمان وبطانته تعتمل فى صـدور الصـحابة، وبلغ الأمر ببعضـهم مشاركـة الثوّار، فيما كانت عائشة تؤلّب على قتل عثمان «اقتلوا نعثلًا، قتل اللّه نعثلًا! تعنى عثمان، وكان هذا منها لما غاضبته وذهبت إلى مكّة» (۴).

أمّا على فقد كان موقفه أصعب موقف يتخيّله العقل فى تلك الأزمة المحفوفة بالمصاعب من كلّ جانب..

كان عليه أن يكبح الفَرس عن الجماح، وكان عليه أن يرفع العقبات والحواجز من طريق الفَرس.. كلّما حيل بينها وبين الانطلاق.

كان ناقداً لساسة عثمان وبطانته التى حجبته عن قلوب رعاياه.. ناصحاً

۱- ۶۱ شرح نهج البلاغة لابن أبى‌الحديد ۹: ۱۵.

۲- ۶۲ نقلًا عن كتاب «الطاغيـة» للدكتور إمام عبدالفتاح إمام، عالم المعرفة، الكويت ۱۴۱۴ ه- ۱۹۹۴ م، ص ۱۹۷ هامش ۴۸. وللمزيد يراجع شرح نهج البلاغة لابن أبى‌الحديد ۲: ۱۲۹- ۱۶۱.

۳- ۶۳ المرجع السابق: ۱۹۷. ويحسن بنا الاستشـهاد بمقولـة للكاتب الإسـلامى المعروف الـدكتور عمادالدين خليل إذ يقول، وهو فى معرض الحديث عن «المعارضة والسلطة»: «وها هنا يتوجّب ألّانقع فى الوهم الخادع الذى يصوّر السـلطة أو القيادة الإسـلامية التاريخية كما لو كانت أمراً مقدّساً أو تفويضاً إلهيّاً، فإنّ أيّة قيادة فى مدى عام الإسلام، ما أن تعزف بهذه الدرجة أو تلك، وما أن ترفض النقد والتقويم والرجوع إلى الطريق، حتّى يغدو على المسـلمين أن يثوروا لتحقيق ما عجزت الكلمة والحوار عن تحقيقه» ثمّ يضـيف: «.. لقد كـان الحـاكم المسـلم الحقّ هو الـذى يضع خـدّه على الأـرض لأهل العفاف وأهل الكفاف، وليس ذلك الـذى يعلن نفسه ظلّاً للّهِ فى الأرض، لا يسـتمع لنقـد، ولا يغنى لحقّ، ولا يكفكف طغيانه صوت مظلوم.. إنّ طاعة أولى الأمر تتحقّق يوم يكون أولو الأمر مسـلمين حقّاً، وإلّا فإنّ الرفض والمجابهة تغدو واجبة كوجوب الصلاة والزكاة والصيام».

يراجع مقاله القيّم: «حول المعارضة والسلطة»، مجلّة المسلم المعاصر، العدد ۴۱، محرّم، صفر، ربيع‌الأوّل ۱۴۰۵ ه، ص ۸- ۹.

۴- ۶۴ نقلًا عن كتاب الطاغية؛ مرجع سابق، ونعثلة هذا رجل يهودى من أهل مصـر كان طويل اللحية، قيل: إنّه كان يشبه عثمان، وكان يعمل اسكافياً، وشاتمو عثمان كانوا يسمونه نعثلًا يراجع لسان العرب، لابن منظور، المجلّد الحادى‌عشر، دار صادر، بيروت.

ص: ١٥٢

للخليفـة بإقصاء تلك البطانة، وتبديل السـياسة التى تزيّنها له وتغريه باتباعها وصم الأذان عن الناصـحين له بالإقلاع عنها. وكان مع هذا أوّل منْ يُطالب بالغوث، كلّما هجم الثوار على تلك البطانة، وهمّوا بإقصائها عنوة من جوار الخليفة.

كان الثوّار يحسـبونه أوّل مسؤول عن السـعى فى الإصلاح، وكان الخليفة يحسبه أوّل مسؤول عن تهدئة الحال وكفّ أيدى الثوّار. ولم يكن فى العالم الإسلامى كلّه رجل آخر يعانى مثل هذه المعضلة التى تلقاه من جانبيه كلّما حاول الخلاص منها، ولا خلاص!

وضاعف هـذا الحرج الشديد الذى كان يلقاه فى كلّ خطوة من خطواته، أنه لم يكن بموضع الحظوة والقبول عند الخليفة حيثما وجب الإصـغاء إلى الرأى والعمل بالمشورة. وإنّما كان مروان بن الحكم موضع الحظوة الأولى بين المقرّبين إليه.. لا ينجو من إحدى جناياته التى كان يجنيها على الحكومة والرعية حتى يعود إلى الخليفة فيوقع فى روعه أنّ عليّاً واخوانه من جلّة الصحابة هم الساعون بين الناس بالكيد له وتأليب الثائرين عليه، وأنّه لا أمان له إلّاأن يوقع بهم ويعرض عنهم..

ويلتمس الأمان عند عشيرته وأقربائه، ومن هم أحقّ الناس بسلطانه وأصدقهم رغبة فى دوامه.

ففى المؤتمر الـذى جمعه الخليفـة للتشاور فى إصـلاح الأمر وقمع الفتنـة، لم يكن علىّ مـدعوّاً ولا منظوراً إليه بعين الثقـة والمودّة.. بل كان المدعوون إلى المؤتمر من أعدائه والكارهين لنصحه..

وهم معاويـة وعمرو بن العاص وعبداللَّه ابن أبى سـرح وعبداللَّه بن عامر وسـعيد ابن العاص، وهم فى جملتهم من أولئك الولاة الذين شكاهم علىّ وجمهرة الصحابة وبرحت بهم صدور المهاجرين والأنصار.

كان هؤلاء هم الوزراء والنصـحاء وأهل الثقـة عنـد عثمان، ومن ورائهم مروان بن الحكم يلازمه ويكفل لهم أن يحجب النصـحاء عنه، وفى مقدّمتهم علىّ واخوانه.. ثمّ تفرّق المؤتمرون وقد ردّ عثمان كلّ عامل إلى عمله، وأمره بالتضييق على من قبله.

ص: ۱۵۳

فكانت حيلة عليّ في تلك المعضلة العصيبة جدّ قليلة، وكان الحول الذى فى يديه أقلّ من الحيلة.

إلّا أنّه مع هذا قد صنع غاية ما يصنعه رجل معلّق بالنقيضين، معصوب بالتبعتين، مسؤول عن الخليفة أمام الثوّار ومسؤول عن الثوّار أمام الخليفة (۱).

فحينما تناهى إلى سمعه، أنّ الثوّار يريدون قتل عثمان، بعث الإمام على عليه السلام بابنيه الحسن والحسين مع مواليه بالسلاح إلى بابه لنصرته، وأمرهم أن يمنعوه منهم (۲) وهكذا حذاه حذوه بعض الصحابة اقتداءً بالخطوة، فصدّوهم عن الدار.. واشتبك القوم، وجُرح الحسن، وشُجّ قنبر، وجرح محمد بن طلحة، فخشى القوم أن يتعصّب بنو هاشم وبنو أميّة، فتركوا القوم فى القتال على الباب، ومضى نفر منهم إلى دار قوم من الأنصار فتسوّروا عليها، وكان ممّن وصل إليه محمّد بن أبى بكر ورجلان آخران.. (۳).

وبينما كان البعض يشحذ سيفه استعداداً لخوض الجولة الأخيرة مع عثمان، والبعض الآخر يمنّى نفسه بالأمر.. جاء الثوّار إلى الإمام على عليه السلام يعرضون الخلافة عليه.. فلقيهم أسوأ لقاء، وأنذرهم لئن عادوا إليها ليكونن جزاؤهم عنده وعند الخليفة القائم، جزاء العصاة المفسدين فى الأرض (۴).

ووقع المحذور، ويهرع الإمام على عليه السلام إلى دار الخليفة المقتول، ولطم الحسن وضرب الحسين، وشتم محمّد ابن طلحة وعبداللّه بن الزبير وجعل يسأل ولديه: كيف قُتل الرجل وأنتما على الباب؟ فأجاب طلحة: لا تضرب يا أبا الحسن ولا تشتم ولا تلعن، لو دفع مروان ما قُتل (۵).

وبقيت المدينة خمسة أيّام بعد مقتل عثمان، وأميرها الغافقى بن حرب يلتمسون من يجيبهم إلى القيام بالأمر، والمصريون يلحوّن على عليّ وهو يهرب إلى الحيطان (البساتين).. وكلّهم يقول: لا يصلح لها إلّاعلى (۶).

وهنا، يصل المأزق إلى مرحلة الخيارات الصعبة، فأمّا أن يقبل أمير المؤمنين على عليه السلام بالتصدّى لُامور المسلمين ويتسنّم قيادتهم رسميّاً أو أن

۱- ۶۵ عباس محمود العقاد: ۶۰- ۶۱، ۶۲.

۲- ۶۶ تاريخ المسعودى ۲: ۳۵۳.

۳- ۶۷ المرجع نفسه، ۲: ۳۵۴.

۴- ۶۸ عباس محمود العقاد: ۶۲.

۵- ۶۹ تاريخ المسعودى ۲: ۳۵۴.

۶- ۷۰ عباس محمود العقاد: ۶۵.

ص: ۱۵۴

یلقی الحبـل علی غاربه، مع ما یترتّب علی الخطوة الأخیرة من نتائـج خطیرة ومهوّلـة لا تتوقّف آثارها علی حقبـة تاریخیـة معیّنـة وإنّما تتعـدّاها بجملـة تشویهاتهـا إلی کـلّ العصور؛ لأنّ المشـکلة کـانت تکمن فی المنهـج المعتمـد لا فی غیره. وأمام فداحـة تلک النتائج المتوقعة، قبل الإمام علی علیه السـلام بتسلّم السلطة، حاملًا معه اطروحته بکلّ دقائقها، محاولًا استئناف العمل بالمشروع الإسلامی البعید (۱)

ولکن؛ هل أُتیحت الفرصة المواتیة للإمام علی علیه السلام لإنجاز مشروعه هذا؟!

علی.. والمعارضة

إذا کان الإمام علیه السـلام قد أسّس المعارضة الشرعیة فی الإسـلام بعد الرسول صـلی الله علیه و آله، وهو یومئذ فی موقع الفرد إزاء السلطة الحاکمة، فإنّه یعتبر کذلک المنظِّر الأوّل لمنهج التعامل مع المعارضة یوم أصبح حاکماً علی المسلمین (۲).

ومنذ البدایة کان الشکّ یخامر البعض، لأسباب عدیدة، رغم أنّ الإمام علیّاً علیه السلام، وبشهادة حتّی أعدائه، الأقدر والأصلح، ولکن ثمّة غیوم کانت تتلبّد فی أجواء ملبّدة أساساً.

فحینما أجمع المسلمون علی بیعـة الإمام علی علیه السـلام بعـد مقتل عثمان، تخلّف عـدد من الصـحابة عنه، وثار علیه آخرون، وتمرّد علیه بعض، وانحرف فریق آخر، فکیف کان موقفه من هذه الفئات المختلفة (۳)؟

بـدءاً، کـان امتناع البعض عن تقـدیم البیعـة للإمام علیه السـلام أوّل اختبار لمنهجه فی التعاطی مع «الآخر» المختلف. وبالرغم ممّا کان یمثِّله الامتناع عن البیعة من خروج سافر علی مبدأ الطاعة لخلیفة المسلمین، لاسیما وأنّ بیعته کانت الوحیدة من بین مَنْ سبقوه تحقّقت بمشارکـة شـعبیة واسـعة وبإجمـاع شامـل، إلّا أنّ النفر الـذین تخلّفوا وهم؛ سـعد بن أبی وقّاص، وعبـداللَّه بن عمر، واسامـة ابن زیـد، وآخرون لا یتجاوزون بضـعة نفر.. لم یعاملوا المعاملة المتوقّعة بمقاییس المسـلمین فی ذلک العصر. لقد حصل مع علی بن أبی طالب والذین تخلّفوا عن بیعة أبی بکر، أنّهم هُدّدوا وحوصروا فی بیت علی، وتمّ کشف البیت بالقوّة فی الحادثة التی ندم علیها

۱- ۷۱ حسن جابر؛ «الحرکة التاریخیة للمشـروع الإسـلامی السیاسی وأفقه المستقبلی»، مجلّة المنطلق بیروت، العدد ۶۴- شعبان ۱۴۱۰ ه- آذار ۱۹۹۰ م، ص: ۲۳.

۲- ۷۲ إبراهیم العبادی، مرجع سابق: ۱۷۵.

۳- ۷۳ المرجع نفسه: ۱۷۴.

ص: ۱۵۵

أبو بكر فی لحظات احتضاره، إلّاأنّ الإمام عليّاً ترك من تخلّف عنه وشأنه ولم يرغمه فی شیء لم يكن مقتنعاً به، حتى ندم النادمون فی لحظة فوات الأوان، مع أنّ أحاديث البيعة والسمع والطاعة للأمير البرّ والفاجر كانت من السِمات المعروفة عن عبداللَّه بن عمر، ممّا يوحی بأنّ موقفه كان سياسياً وليس نابعاً من شبهات حالت بينه وبين أن يساوی بين علی فی سنة ۳۶ هجرية وبين يزيد بن معاوية فی سنة ۶۰ هجرية، واحتفظ المتخلّفون بكامل حقوقهم فی دولة علیّ، بينما لم يؤدّوا واجباتهم المفترضة، وعلى رأسها القبول بالرئيس الأعلى للدولة الإسلامية.

لقد كان مفهوماً أنّ عليّاً يمنح بذلك معارضيه فرصة التعبير عن مواقفهم، ويبيّن ما أشكل عليهم معرفته وفهمه، والدوافع التی كانت تقودهم إلى تبنّی تلك المواقف، ولم يحجر على أحد أو يقطع عطاء أحد من بيت المال.

ويتكرّر الموقف نفسه مع أهالی «صرنا» فی مصر حين امتنعوا عن بيعته، بكلّ ما يعنيه ذلك من تمرّد ورفض لسلطة زعيم الدولة الذی اختاره المسلمون ومن بينهم زعماء المصريين أنفسهم الذين شاركوا فی الثورة على عثمان (۱).

ومن الواضح أنّ خلافة الإمام علی عليه السلام جاءت فی ظروف بالغة الخطورة والتعقيد، فذووا النفوذ من الناس قد ألفوا الاستئثار واستراحوا إليه، وليس يسيراً أبداً أن يذعنوا لأيّة محاولة إصلاحية تضرّ بمصالحهم الذاتية.

ثمّ إنّ المطامع قد تنبّهت لدى الكثير من الرجال، بعد أن أصبحت الخلافة مغنماً لا مسؤولية لحماية الشريعة والأمّة. ولقد كان الإمام عليه السلام مدركاً لحقيقة الموقف بدقائقه وخفاياه بشكل جعله يعتذر عن قبول الخلافة حين أجمعت الأمّة على بيعته بعد مقتل الخليفة عثمان قائلًا: «دعونی والتمسوا غيری فإنّا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان، لا تقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول، وأنّ الآفاق قد أنماحت والمحجة تنكّرت..» (۲). ولكن جماهير

۱- ۷۴ المرجع نفسه.

۲- ۷۵ نهج البلاغة: ۱۳۶.

ص: ۱۵۶

المدينة المنورة، وجماهير الثوّار من العراق ومصر أصرّوا على استخلافه عليهم، فنزل الإمام عند رغبتهم، ولكن وفقاً لشروطه الخاصّة هو:

«واعلموا أنّى إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، ولم أُصغ إلى قول القائل وعبث العابث» (۱).

حتى إذا قام بالأمر وأراد إرجاع الحقّ إلى نصابه، تألّب عليه الكثيرون من الساعين وراء مصالحهم الشخصية، ومنهم الزبير وطلحة، مختلقين الأعذار الواهية. فحارب الناكثين من أصحاب الجمل فى البصرة، ثمّ حارب القاسطين من أصحاب معاوية فى صفّين، ثمّ حارب المارقين من الخوارج فى النهروان، يبغى تطهير المجتمع الإسلامى من الفتن.. والنفوس المريضة (۲).

وفى خطبته الشقشقية أشار إلى التحدّيات الكبرى التى واجهته، وحدّد بدقّه حقيقة منطلقاتها: «فلمّا نهضتُ بالأمر نكثت طائفة، ومرقت أُخرى، وقسط آخرون [يشير بذلك عليه السلام إلى أصحاب الجمل (وهم الناكثون) وإلى أصحاب النهروان الخوارج (وهم المارقون) وإلى أصحاب صفّين (وهم القاسطون)]. كأنّهم لم يسمعوا كلام اللّه سبحانه حيث يقول: تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ. بلى واللّه لقد سمعوها ووعوها، ولكنّهم حليت الدنيا فى أعينهم وراقهم زبرجها (أى زينتها)» (۳).

هنا وقفة مقتضبة أمام ثلاث جبهات تباينت فى شعاراتها ولكنّها اتّفقت على مناوأة الإمام عليه السلام، وفى كلّ مرّه، كان الموقف من قبل الإمام عليه السلام والتعاطى مع هؤلاء منسجماً واضحاً وصادراً من موقف شرعى محدّد.

مع الناكثين

على الرغم من أنّ طلحة والزبير كانا من أشدّ الناقمين على سياسة عثمان، ومع أنّهما سبقا الناس فى البيعة للإمام على عليه السلام بعد قتل عثمان، فإنّ الحركة الإصلاحية التى قادها الإمام عليه السلام فى الحياة الإسلامية لم تجد هوى فى نفسيهما (۴) فبدآ فى العمل للخروج على الإمام عليه السلام وإثارة المسلمين عليه (۵)

۱- ۷۶ نقلًا عن؛ «لجنة التأليف فى دار التوحيد»، م. س، ۳: ۶۱- ۶۲.

۲- ۷۷ لبيب بيضون: «تصنيف نهج البلاغة»، ط ۲، مكتب الاعلام الإسلامى ايران، ۱۴۰۸ ه ص: ۴۸۹.

۳- ۷۸ نهج البلاغة: ۴۹ خطبة ۳.

۴- ۷۹ لجنة التأليف فى دار التوحيد، م. س، ۲: ۴۳.

۵- ۸۰ المرجع نفسه، ۲: ۴۲.

ص: ۱۵۷

وقاما مع عائشة یوهمون الناس بأنّ علیّاً علیه السلام قتل عثمان، مع أنّه کان أوّل المدافعین عنه، ولکنّهم أرادوا أن یبعدوا تهمة قتله عنهم (۱) فکانت حصیلة ذلک فتنة کبّدت الأمّة خسارة فادحة.

وقد بذل الإمام علیه السلام جهداً کبیراً لتحاشی هذه الفتنة فلم یألُ جهداً فی بذل النصح لهم وتحمیلهم مغبّة ما سیکون إذا نشبت الحرب. وهذه نصیحته علیه السلام لهما:

«أمّا بعد یا طلحة، ویا زبیر، فقد علمتما أنّی لم أرد الناس حتی أرادونی، ولم أُبایعهم حتی أکرهونی، وأنتما أوّل من بادر إلی بیعتی، ولم تدخلا فی هذا الأمر بسلطان غالب ولا لعرض حاضر. وأنت یازبیر ففارس قریش، وأنت یا طلحة شیخ المهاجرین، ودفعکما هذا الأمر قبل أن تدخلا فیه کان أوسع لکما من خروجکما منه بعد إقرارکما، ألا وهؤلاء بنو عثمان هم أولیاؤه المطالبون بدمه، وأنتما رجلان من المهاجرین، وقد أخرجتما امّکما من بیتها الذی أمرها اللّه تعالی أن تقرّفیه، و اللّه حسبکما ..» (۲).

وناشدهم اللّه أن لا یقوموا بفتنة فی الإسلام یقتل فیها المسلمون بعضهم بعضاً، فلم یُجْدِ ذلک نفعاً. وطلب الإمام أن یجتمع بالزبیر بین الصفّین، وناجاه مذکِّراً إیّاه بقول النبیّ صلی الله علیه و آله له: «تقاتله یا زبیر وأنت له ظالم». فما کان من الزبیر إلّا أن اعتزل الجیشین وترکهما یقتتلان، فلمّا کان فی بعض الصحراء لحقه ابن جرموز فقتله (۳) وحینما جیء إلیه علیه السلام بسیف الزبیر وخاتمه قال علیه السلام: سیفٌ طالما جلا الکرب عن وجه رسول اللّه صلی الله علیه و سلم (۴).

ثمّنادی علیه السلام طلحة حین رجع الزبیر:

یا أبا محمّد، ما الذی أخرجک؟ قال:

الطلب بدم عثمان، قال علی: قتل اللّه أولانا بدم عثمان، أما سمعت رسول اللّه صلی الله علیه و آله یقول: «اللّهم والِ من والاه وعادِ من عاداه»؟ وأنت أوّل من بایعنی ثمّ نکثت، وقد قال اللّه عزّوجلّ: فَمَنْ نَکَثَ فَإِنَّمَا یَنْکُثُ عَلَی نَفْسِهِ؟ فقال:

استغفر اللّه، ثمّ رجع، فقال مروان بن الحکم: رجع الزبیر ویرجع طلحة، ما أُبالی رمیتُ هاهنا أم هاهنا، فرماه فی أکحله فقتله، فمرّ علیه بعد الوقعة..

۱- ۸۱ لبیب بیضون؛ م. س: ۵۲۹.

۲- ۸۲ نقلًا عن لجنة التألیف فی دار التوحید، ۲: ۴۳.

۳- ۸۳ لبیب بیضون: ۵۲۹.

۴- ۸۴ تاریخ المسعودی، ۲: ۳۷۳.

ص: ۱۵۸

فوقف علیه، فقال: إنّا للّهوإنّا إلیه راجعون واللّه لقد کنت کارهاً لهذا (۱).

وبعد أن ذهبت کلّ محاولاته علیه السلام لإصلاح الموقف سدًی.. تفجّر الموقف، غیر أنّ الإمام راح یخاطب جیشه- بعد اندلاع القتال- مطالباً أصحابه بالالتزام بما یریده اللّه: «أیّها الناس أنشدکم اللّه أن لا تقتلوا مدبراً، ولا تجهزوا علی جریح، ولا تستحلّوا سبیاً، ولا تأخذوا سلاحاً ولا متاعاً». طارحاً بذلک أحکام شریعة اللّه تعالی فی البغاة.

وبعد انتصار الإمام عفا عن المشترکین فی الحرب فقال بعض أصحابه: یا أمیر المؤمنین تحلّ لنا دماؤهم ولا تحلّ لنا نساؤهم؟ فقال علیه السلام:

کذلک السیرة فی أهل القبلة (۲).

وأحسن الإمام علیه السلام معاملة عائشة:

«یا حمیراء! رسول اللّه أمرک بهذا؟ ألم یأمرک أن تقرّی فی بیتک؟ واللّه ما أنصفک الذین أخرجوک إذ صانوا عقائلهم وأبرزوک»..
وأمر أخاها محمّداً فأنزلها فی دار صفیّة بنت الحارث.. وأتاها فی الیوم الثانی ودخل علیها ومعه الحسن والحسین وباقی أولاده وأولاد اخوته وفتیان أهله من بنی هاشم وغیرهم من شیعته من همدان، فلمّا بصرت به النسوان صحن فی وجهه وقلن: یا قاتل الأحبّة، فقال:

لو کنت قاتل الأحبّة لقتلت مَنْ فی هذا البیت، وأشار إلی بیت من تلک البیوت قد اختفی فیه مروان بن الحکم وعبداللّه بن الزبیر وعبداللّه بن عامر وغیرهم..

طلبت منه عائشة أن یؤمّن ابن اختها عبداللّه بن الزبیر، فأمنه، وتکلّم الحسن والحسین فی مروان فأمنه، وأمن الولید بن عقبة، وولد عثمان وغیرهم من بنی أمیّة، وأمّن الناس جمیعاً، وقد کان نادی یوم الواقعة: مَنْ ألقی سلاحه فهو آمن، ومن دخل داره فهو آمن (۳).

أرجع الإمام علی علیه السلام عائشة إلی بیتها فی المدینة، وقد بعث معها أخاها محمّد بن أبی بکر وثلاثین رجلًا وعشرین امرأة من ذوات الدین من عبد القیس وهمدان وغیرهما، ألبسهن العمائم وقلّدهن السیوف، وقال لهن: لا تُعلمن عائشة انّکن نسوة وتلثمن کأنکنّ رجال، وکُنّ اللاتی تلین خدمتها وحملها، فلمّا أتت المدینة قیل لها: کیف

۱- ۸۵ المرجع نفسه.

۲- ۸۶ نقلًا عن المرجع السابق: ۴۷.

۳- ۸۷ تاریخ المسعودی، ۲: ۳۷۸.

ص: ۱۵۹

رأيت مسيرك؟ قالت: كنت بخير واللَّه، لقد أعطى على بن أبى طالب فأكثر، ولكنّه بعث معى رجالًا أنكرتهم، فعرفها النسوة أمرهن، فقالت: ما ازددت واللَّه يا ابن أبى طالب إلّاكرماً، وودت أنّى لم أخرج.. وإنّما قيل لى:

تخرجين فتصلحين بين الناس، فكان ما كان.. (۱).

وهكذا أبدى الإمام عليه السلام أكثر من موقف إنسانى فريد يعكس مدى نبل المشاعر وقمّة الأريحية تجاه الخصم.

مع القاسطين

بعد اندحار الناكثين، توجّه الإمام عليه السلام إلى الكوفة، ومن هناك بعث كتاباً إلى معاوية يدعوه إلى البيعة.

فكان ردّ معاوية للإمام على عليه السلام: «إنّما أفسد علىّ بيعتك خطيئتك فى عثمان..» (۲)، وتبودلت الرسائل بين الفريقين، وفى إحداها طلب معاوية من الإمام على عليه السلام أن يجعل له الشام ومصر جباية (۳)، وبلغ علياً أنّ معاوية قد استعد للقتال (۴).

بدأ الإمام عليه السلام يبذل مساعيه لإصلاح الموقف بالوسائل السلمية، فأرسل وفداً ثلاثياً إلى معاوية، يدعوه إلى تقوى اللَّه والحفاظ على وحدة الصف والدخول فى إجماع الأمّة.. التقى الوفد بقائد المعارضة، وأبلغوه بنوايا الإمام عليه السلام ووضعوه أمام اللَّه تعالى وحذّروه مغبّة ما يقدم عليه، غير أنّ معاوية أبدى إصراراً، وقد ختم ردّه على الوفد: «انصرفوا عنّى فليس عندى إلّاالسيف».

وحينما عسكر الجيشان فى صفّين، عمل معاوية من جانبه على الحيلولة دون حصول جيش الإمام على عليه السلام على الماء لأنّه كان السبّاق فى التجحفل.

فأرسل الإمام عليه السلام رسولًا إلى معاوية ليبلغه «أنّ الذى جئنا له غير الماء، ولو سبقناك إليه لم نمنعك عنه» فردّ عليه معاوية بقوله: «لا واللَّه ولا قطرة حتّى تموت ظمأ»! الأمر الذى اضطرّ الإمام عليه السلام إلى استعمال العنف فى الحصول على الماء لجيشه، ومن ثمّ ليأذن للباغين بالتزوّد منه متى شاءوا: «خلّوا بينهم وبين الماء، واللَّه لا أفعل ما فعل الجاهلون».

وحيث إنّ همّ الإمام عليه السلام أن يحقن

۱- ۸۸ المرجع نفسه، ۲: ۳۷۹.

۲- ۸۹ ابن قتيبة الدينورى: «الإمامة والسياسة» ۱: ۱۰۲، القاهرة، ۱۳۸۸ ه- ۱۹۶۹ م.

۳- ۹۰ المرجع نفسه، ۱: ۹۵.

۴- ۹۱ تاريخ اليعقوبى، ۲: ۱۸۷.

ص: ۱۶۰

دماء المسلمین ویصونهم من التمزّق، ویدرأ التصدّع عن صفّهم، فقد طلب من معاویة أن ینازله إلی میدان القتال فیتقاتلا دون الناس لکی تکون إمامة الأمّة لمن یغلب: «یا معاویة علام یقتتل الناس؟ ابرز إلیَّ ودع الناس، فیکون الأمر لمن غلب».

إلّا أنّ معاویة رفض ذلک خوفاً من الإمام علیه السلام..

ولمّا لم تلقَ محاولات الإمام علیه السلام لرأب الصدع- الذی أوجده معاویة فی صفّ الأمّة- استجابة، تفجّر الموقف بحرب واسعة النطاق.. وحین لاحت تباشیر النصر لصالح معسکر الإمام علیه السلام وأوشکت القوی الباغیة علی الانهزام دبّروا «خدعة المصاحف» فرفعوا المصاحف علی رؤوس الرماح والسیوف.

کانت مناورة رفع المصاحف مُقدّمة لمسلسل التداعیات اللاحقة والمتلاحقة، فی صفوف جیش الإمام علی علیه السلام.. وتمثّل الفصل الثانی من المأساة باختیار الغوغاء أبا موسی الأشعری لتمثیل معسکر الإمام علیه السلام فی التحکیم، بینما اختار معاویة عمرو بن العاص.

ومنذ اللحظة الاولی، رفض الإمام علیه السلام فکرة تمثیل الأشعری، لأسباب عدیدة، دونها ضعفه ووهن رأیه إضافة إلی مرتکزاته الفکریة وموقفه من حکومة الإمام علیه السلام.. ورجّح الإمام عبداللَّه بن عبّاس، غیر أنّ الغوغاء أصرّوا علی اختیار أبی موسی الأشعری.. وهنا یخاطب الإمام علیه السلام المخدوعین بقوله: «قد عصیتمونی فی أوّل الأمر- یشیر إلی قبول التحکیم وإیقاف القتال- فلا تعصونی الآن، لا أری أن تولّوا أبا موسی الحکومة فإنّه ضعیف عن عمرو ومکائده..» (۱).

إلّا أنّهم أصرّوا علی اختیار الأشعری، فاستجاب الإمام علیه السلام کارهاً وعلی مضض، معبّراً بذلک أروع تعبیر بقوله: «لا رأی لمن لا یُطاع»!

وانتهت المأساة بهذه المهزلة أو انتهت بهذه المأساة، کما یقول عبّاس محمود العقّاد (۲)، لیبدأ فصل آخر من هذه المهزلة- المأساة.. إنّها فتنة الخوارج.

۱- ۹۲ تذکرة الخواص لسبط ابن الجوزی، ص: ۷۴، نقلًا عن لجنة التألیف فی دار التوحید، ۲: ۵۴.

۲- ۹۳ نقلًا عن موسوعة أعیان الشیعة للعلّامة محسن الأمین، طبعة دار التعارف، بیروت ۱: ۵۱۶ د. ت.

ص: ۱۶۱

مع المارقین

والخوارج هم الذین کانوا أصحاب الإمام علیه السلام وأنصاره فی الجمل وصفّین قبل التحکیم (۱) ثمّ أنکروا التحکیم الذی وقع یوم صفّین، وقالوا: «لاـ حکم إلّا للّه»، وتحت هذه اللافتة العریضة التی وصفها الإمام علیه السلام بأنّها کلمة حقّ یُراد بها باطل.. انبثقت ظاهرة خطیرة ولاـ سابقة لها فی المجتمع الإسلامی، تلک هی تکفیر کلّ من ارتضی التحکیم، رغم أن أقطابهم کانوا فی مقدّمة أولئک الذین فرضوا التحکیم!، ولعلّنا نتحسّس الیوم بصماتهم لدی بعض الجهات التی تبیح دماء المسلمین وتسیر علی خطی هذا النهج التکفیری.

فالخوارج الذین تحوّلوا إلی مذهب دینی- سیاسی لاحقاً، کانوا طائفة من جیش الإمام علیه السلام تمرّدت علیه بعد واقعة التحکیم. وبهذا فهم معارضة فکریة- سیاسیة، طالبوا بالتحکیم أوّلًا، ثمّ رفضوه لاحقاً، ثمّ جاؤوا یکفّرون الحاکم والمحکومین الذین قبلوا التحکیم بسبب ضغطهم وإلحاحهم. إنّهم بکلّ صراحة حَمَلة فکر دینی ذی مشروع سیاسی یعارض شرعیة الدولة (۲).

فالخوارج إذن یتّسمون بخصوصیة فکریة یفتقرها الآخرون، وإنْ کانت هذه الخصوصیة لا تحول دون القدح فی توجّهاتهم، بید أنّ هذه النقطة بالذات کانت موضع تقییم خاص من لدن الإمام علیه السلام إذ یقول: «لیس مَنْ طلب الحقّ فأخطأه کمن طلب الباطل فأدرکه»، وهو بصدد النهی عن مقاتلة الخوارج (۳).

وبظهور نتائج التحکیم نادت الخوارج معلنة مبرّرات خروجها تحت شعار: «لا حَکَم إلّااللّه، لا نرضی بأن تحکم الرجال فی دین اللّه، قد أمضی اللّه حکمه فی معاویة وأصحابه أن یقتلوا أو یدخلوا معنا فی حکمنا علیهم، وقد کانت منّا خطیئة وزلّة حین رضینا بالحکمین، وقد تبنا إلی ربّنا، ورجعنا عن ذلک، فارجع- یقصدون الإمام علیه السلام- کما رجعنا، وإلّا فنحن منک براء».

بید أنّ الإمام علیه السلام أوضح لهم حینئذٍ أنّ الخُلق الإسلامی یقتضی الوفاء بالعهد- الهدنة لمدّة عام- الذی أُبرم بین

۱- ۹۴ شرح نهج البلاغة لابن أبی الحدید، ۴: ۱۳۲.

۲- ۹۵ إبراهیم العبادی؛ مرجع سابق: ۱۷۵.

۳- ۹۶ نهج البلاغة: ۹۴.. «لا تقاتلوا الخوارج بعدی، فلیس من طلب الحقّ... الخ».

ص: ۱۶۲

المعسكرين قائلًا: «ويحكم! بعد الرضا والعهد والميثاق أرجع؟ أوليس اللّه يقول: وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (۱).

إلّا أنّهم لم يصغوا إلى توجيهات الإمام عليه السلام، ورغم هذا.. لم يوصد الإمام عليه السلام باب المحاججة فى وجوههم، ولم يعلن الحرب عليهم.. بل نجده يفسح المجال لحوار مفتوح بينه وبين خصومه السياسيين، وهذا «الخريت بن راشد الناجى» (وكان قدم مع ثلاثمائة من عمومته من البصرة، وكانوا قد خرجوا إلى الإمام عليه السلام يوم الجمل، وشهدوا معه صفّين).. أقبل الخريت إلى الإمام فى جمع من أصحابه، حتى قام بين يديه، فقال له: «واللّه يا على لا أطيع أمرك، ولا أصلّى خلفك، وإنّى غداً لمفارقك».

بهذا الكلام أعلن هذا الرجل انخلاعه عن البيعة رسمياً (۲) فلم يعتقله الإمام، ولم يأمر بإعدامه، ولم ينهه عن التحدّث بهذا الاسلوب، بل قال له:

«ثكلتك امّك إذن تنقض عهدك، وتعصى ربّك، ولا تضرّ إلّانفسك.. أخبرنى لِمَ تفعل ذلك؟!

قال: لأنّك حكّمتَ فى الكتاب، وضعفتَ عن الحقّ إذْ جدّ الجدّ، وركنتَ إلى القوم الذين ظلموا أنفسهم، فأنا عليك راد وعليهم ناقم ولكم جميعاً مباين.

فماذا كان جواب الإمام على عليه السلام لهذا «المعارض» العنيف ولكلامه الناقد الصريح؟ هل رفع عليه السلام العصا أو السيف فى وجهه؟ كلّا، بل قال له مرّة أُخرى بكلّ هدوء: «ويحك.. هلمّ إلىّ أدارسك وأُناظرك فى السنن وافاتحك أموراً من الحقّ أنا أعلم بها منك فلعلّك تعرف ما أنت له منكر، وتبصر ما أنت الآن عنه عمٍ وبه جاهل».

فقال الخريت: «فإنّى غاد عليك غداً».. فقال الإمام: «اغدُ ولا يستهوينّك الشيطان ولا يقتحمنّ بك رأى السوء، ولا يستخفنّك الجهلاء الذين لا يعلمون، فواللّه إن استرشدتنى واستنصحتنى وقبلت منى لأهدينّك سبيل الرشاد». بيد أنّ

۱– ۹۷ نصر بن مزاحم: «وقعة صفّين»، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط ۲، القاهرة، ۱۳۸۲ ه، ص ۵۱۷.

۲– ۹۸ يُراجع مقال «نصيحة أئمّة المسلمين: بحث فى مرتكزات المشروعية وآليّات التنفيذ»، لمحمد سروش محلاتى، ترجمة جواد على كسّار، مجلة قضايا إسلامية معاصرة، العدد الأوّل، ۱۴۱۸ ه– ۱۹۹۸ م، ص: ۷۱.

ص: ۱۶۳

الخريت غادر الكوفة من ليلته، ولم يعد إلى أمير المؤمنين (۱).

وذات مرّة قال لهم الإمام عليه السلام بكلّ وضوح: «لكم علينا ثلاث؛ لا نمنعكم مساجد اللَّه أن تذكروا فيها اسم اللَّه، ولا نبدؤكم بقتال، ولا نمنعكم الفي ما دامت أيدينا معكم».

ويعقّب باحث معاصر على ما تقدّم بقوله: «إنّ عدم منعهم المسجد يعنى تركهم أحراراً فى الدعوة لأفكارهم دون مطاردة، ودون حرمان من الحقوق المالية التى كانت لهم، وعدم البدء بقتالهم يعنى اللجوء إلى أساليب الحوار الفكرى والإقناع والمناظرة، وهو ما فعله الإمام معهم حينما أرسل إليهم عبداللَّه بن عبّاس محاوراً ومناظراً، بل تركهم يعلنون أفكارهم بصراحة فى حضوره مع المسلمين، داخل المسجد قاطعين كلامه، ولم يقاتلهم الإمام إلّابعد أن أعلنوا الحرب المسلّحة، وقاتلوا الوالى الذى عيّنه لهم (عبداللَّه بن خباب) فقتلوه وزوجته، وعندئذ طالبهم بتسليم قاتله، فرفضوا وادّعوا على أنفسهم أنّهم شاركوا جميعاً فى قتله (۲).

الهوامش:

۱- ۹۹ يُراجع المرجع السابق، وكذلك: زينب الدهوى؛ «حريّة المعارضة ضرورة اجتماعية أقرّها الإسلام.. كيف طبّقها الإمام على عليه السلام؟»، مجلة النور لندن- العدد ۳۴، رمضان ۱۴۱۴ ه- آذار ۱۹۹۴ م، ص: ۳۵.

۲- ۱۰۰ مجلة قضايا إسلامية معاصرة، مرجع سابق، ۱: ۷۲.

ص: ۱۶۴

ص: ۱۶۵

ص: ۱۶۶

ص: ۱۶۷

قراءهٔ فی کتاب علیّ ولید الکعبهٔ

ص: ۱۶۸

قراءة فی کتاب «علیّ ولید الکعبة»

للمحقّق الأدیب الشیخ محمد علی الأردوبادی

محمّد سلیمان

المؤلف:

المیرزا محمد علی بن المیرزا أبو القاسم بن محمد تقی بن محمد قاسم الأردوبادی التبریزی النجفی.

أردوباد المدینة التی استمدّ لقبه منها تقع علی الحدود بین أذربیجان والقَفْقَاز قرب نهر أرس.

ولادته کانت فی تبریز فی ۲۱ رجب سنة ۱۳۱۲ ه. بعد ثلاث سنوات من ولادته اصطحبه والده فی رحلته إلی النجف الأشرف حیث المرقد الطاهر للإمام علیٍّ علیه السلام وحیث الحوزة العلمیة المبارکة وکان ذاک سنة ۱۳۱۵ ه فراح یتعاهده تربیةً وتعلیماً... «کان والده عالماً فقیهاً تقیّاً ورعاً، خشناً فی ذات اللَّه، أحد مراجع التقلید فی آذربیجان وقَفْقَاسیا... وتوفّی رحمه الله سنة ۱۳۳۳» (۱).

درس عند جمع من العلماء الکبار فقد حضر فی الفقه والاصول علی والده وشیخ الشریعة الأصفهانی وأخذ عن الأخیر علمَی الحدیث والرجال کما درس عند المیرزا علی ابن الحجّة الشیرازی. ودرس الفلسفة عند الشیخ محمد حسین

۱- ۱ انظر أعیان الشیعة ۲: ۴۱۰.

ص: ۱۶۹

الأصفهانی وحظی بدراسة کلّ من علمی الکلام والتفسیر علی ید الشیخ محمد جواد البلاغی، ودامت دروسه هذه عند الأساتذة المذکورین لأکثر من عشرین سنة، کانت حصیلتها- وهو صاحب الذکاء الحاد والاستعداد والنبوغ- أن شهد له بالاجتهاد کلّ من استاذه الشیرازی والنائینی والشیخ عبد الکریم الحائری والشیخ محمد رضا- أبی المجد- الأصفهانی والسید حسن الصدر والشیخ محمد باقر البیرجندی وغیرهم. ونال بعد ذلک مکانة عظیمة فی الحوزات العلمیة وبین علمائها وأساتذتها، واستجازه فی روایة الحدیث أکثر من ستین عالماً من أجلّاء علماء العراق وایران وسوریا ولبنان وغیرها. وله إجازات متعدّدة ضمّنها طرقاً للحدیث وفوائد رجالیة وتراجم المشایخ...

له مؤلّفات وآثار قاربت العشرین مؤلّفاً فی تفسیر القرآن والاصول وله تقریرات معتبرة لمشایخه.. ومنها الدرة الغرویة والتحفة العلویة تناول فیها طرق حدیث الغدیر؛ ومنظومة فی واقعة الطف...

کانت وفاته فی النجف لیلة الأحد ۱۰ صفر سنة ۱۳۸۰ ودفن فی الصحن الشریف.

کتابه الذی بین أیدینا کتاب- کما وصفه الناشر- «فرید فی بابه، عزیز فی وجود نظائره، غزیر فی مادته، ضمّنه المؤلف بحثاً استدلالیاً معتمداً فی ذلک علی ما ساقته کتب الفریقین المعتبرة بالأسانید الصحیحة التی تضمّ بین مبتداها إلی منتهاها شیوخ المحدِّثین وثقات الرواة والنسابین الأثبات والمؤرِّخین الأعلام ومهرة الفن وصاغة القریض والمحقّقین الخبراء والشعراء المبدعین...»

کلّ هؤلاء راحوا یثبتون هذه الکرامة وهذا الشرف لتضاف بهذه الفضیلة منقبة أخری إلی مناقب سیدنا وإمامنا علی بن أبی طالب وهی أوّل منقبة رافقت ولادته المیمونة. فرح بها المحبّون لهذا البیت الهاشمی العریق فی قیمه وشیمه والتزامه والذی یشکِّل أرقی البیوت القرشیة والعربیة وأجلّها وأسماها فی وقت

ص: ۱۷۰

أثارت هذه المکرمة ضغائن الآخرین وأعداء الدین فراحوا یبذلون جهودهم لتقویض هذا الخبر وإماتة هذا الذکر بتضعیف رواته.

وقد بوّب الکتاب هذا تبویباً جمیلًا بعناوین هی الأخری دقیقة. فعدد صفحاته ۱۳۷ مع کلمة الناشر وترجمة حیاة المؤلف، أما فصوله فهی:

حدیث المولد الشریف وتواتره.

حدیث الولادة الشریفة مشهور بین الأمّة.

نبأ الولادة والمحدّثون.

حدیث الولادة والنسابون.

حدیث الولادة والمؤرِّخون.

حدیث الولادة والشعراء.

حدیث الولادة مجمع علیه.

ثمّ تأتی الفهارس العامة «الآیات القرآنیة، والاعلام، والأشعار والأرجاز ثمّ فهرس الموضوعات».

وکان جمیلًا اطراءُ الشیخ العلّامة الأمینی صاحب کتاب الغدیر: «شیخنا الأوردبادی ألّف فی الموضوع کتاباً فخماً، وقد أغرق نزعاً فی التحقیق ولم یبقِ فی القوس منزعاً» (۱).

المقدّمة

إنّ فضائل علی علیه السلام ومناقبه وصفاته التی تمیّز بها ولدت معه ورافقته حتی استشهاده، من ولادته فی جوف الکعبة وهی أعظم بیت من بیوت اللَّه سبحانه وتعالی، وکانت هذه الولادة «إیذاناً بعهد جدید للکعبة وللعبادة فیها» کما یقول عباس محمود العقاد (۲)، حتی استشهاده فی محراب صلاته فی بیت آخر من بیوت اللَّه فی مسجد الکوفة، وهی ولادة ثانیة له، ولکن هذه المرّة حیث جوار اللَّه سبحانه وتعالی وحیث‌الحیاة الأبدیة التی‌فیها الخلودوحیث الأنبیاء والصدیقون ...

۱- ۱ کتاب الغدیر ۶: ۳۷.

۲- ۲ المجموعة الکاملة ۲: ۳۵.

ص: ۱۷۱

الولادة فی هـذه البقعـة المبارکـة المقدّسـة تعـدّ أولی مناقبه علیه السـلام التی کرّمها اللّه فیها، والتی لم تنجو من کید أعدائه وحقدهم وحسـدهم، فراحت جهودهم تتضـافر وأقلاـمهم المـأجورة تنشط لتکیـد کیـدها لهـذه الفضـیلة، وبما أنّهم لا یسـتطیعون نکرانها بالمرّة لشـهرتها وتواترهـا.. اختلقوا ولاـدة أخری؛ ولاـدة حکیم بن حزام فی الکعبـة، لیصـلوا من خلال ذلک إلی أنّ ولادة علیّ لا تعـدّ منقبةً یفخر بها أحبّاؤه وأولیاؤه، وهی لیست کرامـة له، فقـد ولـد غیره داخل الکعبـة، فلماذا لا نعدّها کرامة أیضاً؟ وعلی فرض أنّها کرامة له فلم یتفرّد بها؛ لأنّ حکیماً ولد هو الآخر فی الکعبة، وبالتالی توهین هذه المنقبة.

وحکیم هـذا هو ابن حزام بن خویلـد بن أسـد بن عبـد العزّی بن قصـی بن کلاـب بن مُرّة (۱)، فهو ابن أخٍ لخدیجـة بنت خویلـد (أمّ المؤمنین رضوان اللّه علیها) ویلتقی بمصعب بن ثابت بن عبداللّه بن الزبیر المتوفی سنة ست وثلاثین ومئتین الذی کان من رواة ولادته فی الکعبـة إلّاأنّه تفرّد بإضافـة منه (ولم یولـد قبله ولا بعـده فی الکعبـة أحـد) لمآرب فی نفسه، یلتقی به فی جدّهم خویلد بن أسد بن عبد العزی بن قصی بن کلاب بن مرّة.

علماً بأنّ هـذه الإضافـة لم أجـدها عند غیره ممّن رووا ولادة حکیم فی الکعبة وکلّهم کانوا فی القرن الثالث للهجرة، فهی روایة ولدت متأخّرة جدّاً ومقطوعة الإسناد وتعانی من ضعف رواتها وشذوذها..

ولم تکن ولادة حکیم معروفـة قبل هـذه الروایـة بل لم تذکر أبداً فی المصادر التأریخیة ولا الروائیة، کما أنّ حکیماً نفسه لم یذکر أنّ ولادته کانت فی الکعبة، لا فی جاهلیته ولا فی إسـلامه، وهو شرف عظیم کانوا یفتخرون به فی الجاهلیة ویتمنّونه، فکیف سکت حزام عن ذکر ذلک ولم یشـر إلیه ولو إشارة بسـیطة؟ ولم یکن صاحب مناقب کثیرة حتّی یترک ذکرها کما لم یکن زاهداً فمنعه زهده عن ذکرها. کما لم یذکرها من حوله وهو من وجهاء قریش فی الجاهلیة والإسلام ومن

۱- ۱ تاریخ دمشق ۱۵: ۹۳.

ص: ۱۷۲

علمائها بالنسب، کما کان جواداً کریماً، وهو بالتالی لیس نکرة حتی یُنسی خبر ولادته فی بقعة مبارکة.. وکان إذا سئل عن ولادته فلم یزد فی إجابته عن: ولدتُ قبل قدوم أصحاب الفیل بثلاث عشرة سنة.. وذلک قبل مولد رسول اللَّه صلی الله علیه و آله و سلم بخمس سنین (۱).

وکان إسلامه یوم الفتح وقیل یوم أُحُد، وکان من المؤلفة، أعطاه النبی صلی الله علیه و آله و سلم من غنائم حنین مائة بعیر. عاش مئة وعشرین سنة؛ ستّین فی الجاهلیة وستّین فی الإسلام، وتوفی فی المدینة سنة أربع وخمسین وقیل سنة ثمان وخمسین (۲).

الروایات

روایة مصعب بن عثمان الذی لم أجد له ترجمة تذکر فی تاریخ دمشق ولا ـ فی غیره اللّهم إلّاما ذکره صاحب التبیین فی أنساب القرشیین مکتفیاً باسمه: مصعب ابن عثمان بن عروة بن الزبیر وبأنّه کان عالماً بأخبار قریش (۳).

فلا ـ أقلّ من أن حاله مجهول، إن لم یکن من أولئک الضعفاء الذین أکثر ابن بکار فی الروایة عنهم فی الجمهرة أشیاء منکرة کثیرة خاصّة أنه کان واسطةً بین عامر بن صالح وعامر هذا وابن بکار المعروف بالکذب وأنّه لیس ثقة کما أنّ عامّة حدیثه مسروق وبالتالی فقد یکون مصعب قد تأثّر بأُستاذه عامر، یروی الموضوعات (۴).

هذا وأن الزبیر بن بکار المتوفی سنة ۲۵۶ ه صاحب جمهرة نسب قریش متّهم هو الآخر بالضعف وبأنّه منکر الحدیث ویضعه وهو ما یذکره صاحب کتاب الضعفاء الحافظ أحمد بن علی السلیمانی (۵).

وقال فی میزان الاعتدال ۲: ۶۶: لا یلتفت إلی قوله. وإن ردّه ابن حجر فی التهذیب بقوله: هذا جرح مردود، فلعلّه استنکر إکثاره عن الضعفاء مثل محمد بن الحسن بن زبالة وعمر بن أبی بکر المؤملی وعامر بن صالح الزبیری وغیرهم، فإن فی کتاب «النسب» عن هؤلاء أشیاءً کثیرةً منکرةً (۶).

۱- ۱ تاریخ دمشق ۱۵: ۹۸.

۲- ۲ تاریخ دمشق ۱۵: ۹۵.

۳- ۳ التبیین فی أنساب القرشیین: ۲۶۶.

۴- ۴ تهذیب الکمال ۱۴: ۴۶، سیر أعلام النبلاء ۴: ۴۲۹.

۵- ۵ انظر سیر أعلام النبلاء ۱۲: ۳۱۴، تهذیب التهذیب ۳: ۳۱۳، ومیزان الاعتدال ۲: ۶۶.

۶- ۶ انظرها فی سیر أعلام النبلاء ۱۲: ۳۱۴.

ص: ۱۷۳

فسواء أكـان الزبير ضـعيفاً بنفسه أو ينقـل عن هؤلاء الضـعفاء فى كتابه. فهو بالتالى يفقـد الثقـة به وبكتابه ولا يعتمـد على ما فيه إلّابعد تمحيص دقيق وجهد كبير.

فإذا عرفنا حال مصعب بن عثمان وصاحب كتاب جمهرة نسب قريش فالرواية بعد ذلك لا يمكن أن تكون محل اعتماد.

أمّا روايته فكمـا نقلهـا أيضـاً صاحب تاريـخ دمشق هى: أخبرنا أبو غالب بن الحسن وأخوه أبو عبـداللّه يحيى، قالا: أنبأنا أبو جعفر بن المسـلمة، أنبأنا أبو طالب المخلّص، أنبأنا أحمـد بن سـليمان الطوسـى، أنبأنا الزبير بن بكّار، حدّثنى مصـعب بن عثمان، قال: دخلت أمّ حكيم بن حزام الكعبـة مع نسوة من قريش وهى حامـل متمّ بحكيم بن حزام، فضـربها المخـاض فى الكعبـة فـأُتيت بنطعٍ حيث أعجلها الولادة، فولدت حكيم بن حزام فى الكعبة على النطع (قطعة من الجلد) وكان حكيم بن حزام من سادات قريش ووجوهها فى الجاهلية (۱).

روايتا المستدرك

الروايـة الاولى:... سـمعت أبا الفضل الحسن بن يعقوب يقول: سـمعت أبا أحمـد محمـد بن عبـد الوهاب يقول: سـمعت على بن غنام العامرى يقول: ولد حكيم بن حزام فى جوف الكعبة، دخلت امّه الكعبة فمخضت فيها فولدت فى البيت (۲).

الروايـة الثانيـة: أخبرنا أبو بكر بن أحمد بن بالعرية، ثنا إبراهيم بن إسـحاق الحربى، ثنا مصـعب بن عبداللّه فذكر نسب حكيم بن حزام وزاد فيه وامّه فاختـة بنت زهير بن أسـد بن عبد العزى، وكانت ولدت حكيماً فى الكعبة وهى حامل فضربها المخاض وهى فى جوف الكعبة، فولدت فيها فحملت فى نطع وغسل ما كان تحتها من الثياب عند حوض زمزم ولم يولد قبله ولا بعده فى الكعبة أحد.

هـذه العبـارة الأخيرة لم ترد فى الروايتين السابقتين فهى إضافـة منه، وليس هـذا غريباً عليه ولم يكن هـذا منه بلا قصـد ولا هـدف فهو يعرف جيّداً ماذا يقصد

۱- ۱ تاريخ دمشق ۱۵: ۹۸.

۲- ۲ المستدرك ۳: ۵۴۹/ ۶۰۴۱/ ۱۶۳۹.

ص: ۱۷۴

بهـذا النفی «ولم یولـد قبله ولا بعـده فی الکعبـة أحد»، وکیف یعذر وهو یعرف جیّداً تواتر خبر ولادة علی علیه السـلام فی الکعبة ولم یکن جاهلًا به أو غافلًا عنه. وإنّما هی «شِنشـنة أعرفها من أخزم» حقّاً إنّه حقـد موروث وبغض مسـتحکم ضد علیّ علیه السـلام توارثته هذه العائلة من یوم الناکثین یقول الإمام علی علیه السلام: «وما زال الزبیر منّا حتّی ولد له عبداللّه ابنه». فأراد أن ینفی هذه الکرامة لعلیّ علیه السلام ولم یرضَ بأن تبقی الروایة «ولادة حکیم» کما رواها غیره وإن کانت أیضاً لا تخلو من الضعف والإرسال، فأضاف علیها ما سوّلت له نفسه.

وبعد ذکر الحاکم النیسابوری لها قال: وهَمَ مصعب فی الحرف الأخیر.

أقول: وقـد عرفت حال الروایة وما تعانیه من ضـعف وانقطاع.. وقد یفهم من قول الحاکم هذا وهم، أنّ مصـعباً أصاب فی کلامه الأوّل حول ولادة حکیم فی الکعبة، إلّاأنّ هذا نفاه الحاکم فی کلام آخر له فی کفایة الطالب للکنجی الشافعی.

ثمّ راح یعزّز بشـکل قاطع ردّه هـذا بقوله: فقـد تواترت الأخبار أنّ فاطمـة بنت أسـد ولـدت أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب کرّم اللّه وجهه فی جوف الکعبة (۱).

علماً بأنّ حکیم بن حزام- وکما قلنا- لم یکن شـخصاً مجهولًا فی الجاهلیـة وغیر معروف فی الإسـلام مع هـذا لم یـذکر هـذه الفضـیلة لنفسه یوماً ولم تُـذکر عنه بل ولم یذکرها أحدٌ له علی الإطلاق حتّی رواها کلّ من مصـعب بن عثمان بن عروة بن الزبیر ومصـعب بن عبداللّه.. بعد أکثر من ۲۰۰ سنة أی فی القرن الثالث الهجری.

إنّ أوّل کتاب ذکرت فیه ولادة حکیم هو (جمهرة النسب) لابن الکلبی، والکلبی وإن ورد فیه أنّه متروک الحـدیث، وأنّه غیر ثقة وأنّه یروی العجائب والأخبار التی لا أصول لها (۲).

إلّا أنّه ورد فیه مدح کثیر، وأن مبعث ما ذکر من مطاعن واتّهامات أنّ الرجل کان شیعیّاً لا غیر.

۱- ۱ المستدرک ۳: ۵۵۰/ ۶۰۴۴/ ۱۶۴۲.

۲- ۲ أنظر سیر أعلام النبلاء والأنساب وجمهرة النسب.

ص: ۱۷۵

وأمّا کتابه جمهرة النسب فقد تعرّض لإضافات کثیرة یعود سببها إلی أنّ أباسعید السکری راوی الکتاب لم ینجو من الاتّهام بأنّه کان وراءها. فالدکتور ناجی حسن الذی یذکر فی مقدّمة تحقیقه لجمهرة النسب: «لقد وصلتنا جمهرة النسب لابن الکلبی بروایة أبی سعید السکری عن محمّد بن حبیب عن ابن الکلبی، ومع ذلک ظهرت فیه إضافات واضحة وزیادات وتعلیقات بیّنة لم ترد فی أصل الجمهرة بل أضافها الرواة والنسّاخ. ولا یستبعد أن یکون أبو سعید السکری هو نفسه الذی قام بهذا العمل حین وجد لدیه فیضاً من الأخبار ذات الصلة بالأنساب» (۱).

أمّا الروایة الأخری التی یذکرها النیسابوری فهی عن علی بن عثام العامری کما هو اسمه فی سیر أعلام النبلاء ویبدو أنّه حرِّف من عثام إلی غنام عند النیسابوری. ولو کانت روایته هذه محل اعتماد لما تغاضی عنها الذهبی فی سیره وهو المعروف بموقفه المضاد لمن یذکر مناقباً لعلیّ علیه السلام. وهذا یکفی فی أنّها من الضعف والهزال ما جعل الذهبی یتجاهلها.

وهناک روایة شاذة ذکرها الأزرقی فی أخبار مکّة: حدّثنی محمد بن یحیی، حدّثنا عبد العزیز بن عمران، عن عبداللّه بن أبی سلیمان عن أبیه أنّ فاختة بنت زهیر بن الحارث بن أسد بن عبد العزی- وهی امّ حکیم بن حزام- دخلت الکعبة وهی حامل، فأدرکها المخاض فیها، فولدت حکیماً فی الکعبة، فحُملت فی نطعٍ وأُخذ ما تحت مثبرها (موضع الولادة) فغسل عند حوض زمزم، وأخذت ثیابُها التی ولدت فیها فجعلت لقیً (۲).

فأوّلًا أنّ محمد بن یحیی کما فی کتاب الجرح والتعدیل للرازی قال: سألت أبی عنه فقال: کان رجلًا صالحاً وکانت به غفلة، رأیت عنده حدیثاً موضوعاً. توفی سنة ۲۴۳ ه (۳).

أمّا عبد العزیز بن عمران فیقول عنه البخاری: إنّه لا یکتب حدیثه، منکر

۱- ۱ مقدّمة جمهرة النسب.

۲- ۲ أخبار مکة للأزرقی ۱: ۱۷۴.

۳- ۳ تذکرة الحفّاظ ۲: ۵۰۱. الجرح والتعدیل ۸/ ۱۲۴، سیر أعلام النبلاء ۱۲: ۹۶.

ص: ۱۷۶

الحدیث، وقال عنه النسائی: متروک الحدیث، وقال عنه الرازی: متروک الحدیث، ضعیف الحدیث، منکر الحدیث جدّاً، وقال محمد بن یحیی الذهلی النیسابوری: علیّ بدنة إن حدّثت عن عبد العزیز بن عمران حدیثاً (۱).

هذا مضافاً إلی أن الازرقی فی نفسه محل کلام حیث لم أعثر علی شیء یدلّ علی توثیقه وأمامک حیاته فی کتابه أخبار مکّة.

والمتحصّل من هذا المختصر ومن غیره أنّ روایة ولادة حکیم إن لم نقل بسقوطها فهی غیر معتبرة عند کثیر من المحدّثین والمؤرِّخین، بل نفاها جمع منهم بنفیهم ولادة غیر أمیر المؤمنین علیه السلام کما سنری فی مضامین هذا الکتاب (۲).

فصول الکتاب

حدیث المولد الشریف وتواتره

یفتتح المؤلف حدیثه فی هذا الباب بمقدّمة قصیرة جمیلة تنمّ علی قدرة عجیبة فی اختیار الألفاظ ودقّتها علی المراد.

یقول فیها: «إنّ المنقب فی التاریخ والحدیث جدّ علیم بأنّ هذه الفضیلة من الحقائق التی تطابق علی إثباتها الرواة، وتطامنت النفوس علی اختلاف نزعاتها علی الإخبات بها حیث لا یجد الباحث قطّ غَمِیزَة فی إسنادها، ولا طعناً فی أصلها، ولا مُنتدحاً للکلام علی اعتبارها، وتضافر النقل لها وتواترت الأسانید إلیها، وإن وجدَ حولها صَخَباً من شذّاذ الناس وطأه بأخمص حجاه، وأهواه إلی هوة البطلان السحیقة».

بعد هذه المقدّمة راح ینقل الروایة التی تحکی ولادةً أخری غیر ولادة علی علیه السلام داخل الکعبة. ولادة حکیم بن حزام، التی یرویها مصعب بن عبداللّه..

والتی ما إن یصل النیسابوری إلی الفقرة الثانیة فیها «.. ولم یولد قبله ولا بعده فی الکعبة أحد» وهی من زیادة هذا الراوی حتّی قال: «وهَم مصعب فی الحرف

۱- ۱ التاریخ الکبیر ۶: ۲۹؛ التاریخ الصغیر ۲: ۲۳۴؛ الجرح والتعدیل ۵: ۳۹۰؛ تاریخ بغداد ۱۰: ۴۴۱؛ تهذیب التهذیب ۶: ۳۵۱؛ میزان الاعتدال ۲: ۶۳۲.

۲- ۲ من ضمن المصادر التی اعتمدتها فی هذه المقدمة المختصرة مقالة قیّمة ونافعة للأستاذ شاکر شبع الولادة فی الکعبة المعظّمة نشرت فی مجلّة تراثنا العدد ۲۶.

ص: ۱۷۷

الأخير وقد تواترت الأخبار أنّ فاطمة بنت أسد ولدت أمير المؤمنين على بن أبى طالب- كرّم اللّه وجهه- فى جوف الكعبة» (۱).

من هـذا يتضح أنّ الحاكم وإن لم يناقش الفقرة الأولى من الرواية (ولادة حكيم فى الكعبة) بل سـكت عنها مكتفياً بأنّه وصف مصـعباً بالتوهّم إلّاأنّه نفاها فى كلام آت له أثبته الحاكم الكنجى.

أقول: إنّه لم يكن متوهّماً بل يقول ما يعنى ويعنى ما يقول، إنّه كان قاصداً لمآرب فى نفسه كما ذكرنا ذلك فى المقدّمة.

ومع هـذا فـإنّ الشيـخ الأردوبـادى راح ينقـل الإـطراء على الحـاكم: والحـاكم من أذعن الكـلّ بثقته وحفظه وضـبطه وتقـدّمه فى العلم والحـديث والرجال والمعاجم طافحـة بإطرائه والثناء عليه، والكتب مفعمـة بالاحتجاج به والركون إليه، وتآليفه شاهدة بنبوغه وتضـلّعه، فناهيك به حاكماً بتواتر الحديث، أى حديث ولادة أمير المؤمنين عليه السلام فى جوف الكعبة.

ثمّ نقل نصوصاً أخرى توافق ما ذكره الحاكم فى مستدركه، ومن هذه النصوص:

نصّ لشاه ولى اللّه أحمـد بن عبد الرحيم المحدِّث الدهلوى وهو والد عبد العزيز الدهلوى مصـنّف (التحفة الاثنا عشـرية) فى الردّ على الشيـعة. «قـد تواترت الأخبار أنّ فاطمـة بنت أسد ولدت أمير المؤمنين عليّاً فى جوف الكعبة، فإنّه ولد فى يوم الجمعة الثالث عشـر من شهر رجب بعد عام الفيل بثلاثين سنة فى الكعبة ولم يولد فيها أحد سواه قبله ولا بعده».

هذا النصّ ورد فى كتابه (إزالة الخفاء ۲: ۲۵۱ ط الهند) ويتضمّن أمرين مهمّين:

تواتر الأخبار بالولادة.

نفيه لأىولادة أخرى غير ولادة أمير المؤمنين عليه السلام.

۱- ۱ المستدرك ۳: ۴۸۳.

ص: ۱۷۸

وأمّا الحافظ الکنجی الشافعی (ت ۶۵۸) فقـد حمل إلینا فی کتابه (کفایة الطالب). الذی ذکره الجلبی فی کشف الظنون ونقل عنه ابن الصباغ المالکی فی فصوله المهمّة واحتجّ به ابن حجر قال:

«أخبرنا الحافظ أبو عبـداللَّه محمـد بن محمود النجار بقراءتی علیه ببغداد، قلت له: قرأت علی الصـفار بنیسابور: أخبرتنی عمّتی عائشة، أخبرنا ابن الشیرازی، أخبرنا الحاکم أبو عبداللَّه محمد بن عبداللَّه الحافظ النیشابوری قال:

ولـد أمیر المؤمنین علیّ بن أبی طالب بمکّهٔ فی بیت اللَّه الحرام، لیلـهٔ الجمعـهٔ، لثلاث عشـرهٔ لیلهٔ خلت من رجب، سـنهٔ ثلاثین من عام الفیل، ولم یولد قبله ولا بعده مولود فی بیت اللَّه الحرام سواه، إکراماً له بذلک، وإجلالًا لمحلّه فی التعظیم» (۱).

وهو أیضاً نصّ من الحاکم لا ریب فیه علی أنّ الولادهٔ تمّت فی الکعبهٔ وفیه نفی لأی ولادهٔ أخری مزعومهٔ کولادهٔ حکیم.

لشهاب الدین أبو الثناء السیّد محمود الآلوسی المفسِّر ورد فی شرحه لعینیهٔ العمری حینما قرأ:

أنت العلیّ الذی فوق العُلی رُفعا ببطن مکّهٔ عند البیت إذ وضعا

قال: «وفی کون الأمیر- کرّم اللَّه وجهه- ولد فی البیت، أمر مشـهور فی الدنیا، وذکر فی کتب الفریقین السـنّهٔ والشیعهٔ... إلی قوله: ولم یشـتهر وضع غیره- کرّم اللَّه وجهه- کما اشـتهر وضـعه، بل لم تتفق الکلمـهٔ علیه. وما أحری بإمام الأئمّهٔ أن یکون وضـعه فیما هو قبلهٔ للمؤمنین، وسبحان من یضع الأشیاء فی مواضعها وهو أحکم الحاکمین» (۲).

أقول: وحینما وصل إلی بیت آخر من قصیدهٔ العمری نفسها:

وأنت أنت الذی حطّت له قدم فی موضع یده الرحمن قد وضعا

وقیل: أحب علیه الصلاهٔ والسلام (یعنی علیّاً) أن یکافئ الکعبهٔ حیث ولد فی

۱- ۱ کفایهٔ الطالب: ۴۰۷، وانظر الغدیر للشیخ الأمینی ۶: ۲۲.

۲- ۲ الغدیر للشیخ الأمینی ۶: ۲۲.

ص: ۱۷۹

بطنها بوضع الصنم عن ظهرها، فإنّها کما ورد فی بعض الآثار کانت تشتکی إلی اللّه تعالی عبادة الأصنام حولها وتقول: أی ربّ حتّی متی تعبد هذه الأصنام حولی؟

واللّه تعالی یعدها بتطهیرها من ذلک، وإلی هذا المعنی أشار العلّامة السیّد رضا الهندی بقوله:

لمّا دعاک اللّه قِدماً لأن تولد فی البیت فلبّیته

شکرته بنی قریش بأن طهّرت من أصنامهم بیته (۱)

وبعد ذلک راح المؤلِّف ینقل أقوالًا أخری لعلماء من الشیعة منهم العلّامة السیّد الحسینی الآملی صاحب کتاب (الکشکول فیما جری علی آل الرسول): «أنّه ولد فی الکعبة بالحرم الشریف فلم یسبقه أحد، ولا یلحقه أحد بهذه الکرامة...» (۲).

ومنهم العلّامة السیّد هاشم البحرانی فی (غایة المرام):

«إنّ روایة أمیر المؤمنین علیه السلام ولد فی الکعبة بلغت حدّ التواتر، معلومة فی کتب العامّة والخاصّة» (۳).

ومنهم السیّد محمد الهادی الحسینی فی کتابه (أُصول العقائد وجامع الفوائد) حیث قال: «کان مولده علیه السلام فیجوف الکعبةعلی ما روته الشیعة وأهل السنّة ..» (۴).

فهو یرید- والکلام للمؤلّف- أنّ الحدیث ممّا تصافقت الأیدی علی نقله، وتطامنت النفوس علی روایته، وأصفقت الجماهیر من الفریقین علی إثباته، وذلک الذی نرید إثباته، وبه یثبت التواتر.

خبر الولادة عند من لا یعمل إلّابالخبر المتواتر:

وبعد کلّ ذلک انتقل المؤلف إلی أنّ هناک بعضاً من العلماء لا یأبه فی عمله إلّا بالخبر المتواتر فی وقت یعمل فیه جمعٌ منهم بالآحاد. ومن أولئک: الشیخ الطبرسی صاحب تفسیر مجمع البیان (ت ۵۴۸) حیث

۱- ۱ انظر الغدیر ۶: ۲۲- ۲۳.

۲- ۲ الکشکول: ۱۸۹.

۳- ۳ غایة المرام: ۱۳.

۴- ۴ أُصول العقائد: ۱۶۵ مترجماً من الفارسیة وملخصاً.

ص: ۱۸۰

قال فی کتابه (إعلام الوری):

«لم یولد قط فی بیت اللّه تعالی مولود سواه لا قبله ولا بعده، وهذه فضیلة خصّه اللّه تعالی بها إجلالًا لمحلّه ومنزلته وإعلاءً لقدرته» (۱).

ومن أولئک: الشریف المرتضی (ت ۴۳۶) وهو یشرح القصیدة المذهبة للسیّد الحمیری، قال:

«وروی أنّها- یعنی فاطمة بنت أسد- ولدته فی الکعبة، ولا نظیر له فی هذه الفضیلة» (۲).

وهنا یقول المؤلف:

ولیس قصده فی إیرادها بلفظ «روی» إسنادها إلی روایة مجهولة، وإنّما جری فیها علی دیدنه فی هذا الکتاب من سرد الحقائق الراهنة مقطوعة عن الأسانید لشهرتها وتضافر النقل لها وتداولها فی الکتب لفتاً للأنظار إلیها وإشادة بذکرها علی نحو الاختصار، وعلی ذمّة الباحث إخراجها من مظانّها، ولذلک تراه یقول بعد الروایة غیر متلکئ ولا متلعثم: «ولا نظیر له..» کجازم بحقیقتها، مؤمن بصحّتها وتواترها، وإلّا للفظها کما هو دأبه فی غیر واحد من الأحادیث.

والشریف الرضی (ت ۴۰۶) فی کتابه (خصائص الأئمّة) حیث قال: «ولد علیه السلام بمکة فی البیت الحرام لثلاث عشرة لیلة خلت من رجب بعد عام الفیل بثلاثین سنة، وامّه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف، وهو أوّل هاشمی فی الإسلام ولد من هاشم مرّتین، ولا نعلم مولوداً فی الکعبة غیره» (۳).

کما حذا حذوهما شیخ الطائفة الطوسی (ت ۴۶۰) فی (التهذیب) ثالث الکتب الأربعة المعوّل علیها عند الشیعة حیث قال: «ولد بمکّة فی البیت الحرام یوم الجمعة ...» (۴).

وروی فی (مصباح المتهجد) تاریخ شهر الولادة ومحلّها... (۵) ومنهم أیضاً الشیخ المفید (۴۱۳) قال فی الإرشاد:

۱- ۱ اعلام الوری: ۱۵۳.

۲- ۲ شرح القصیدة المذهبة: ۵۱.

۳- ۳ خصائص الأئمّة: ۳۹.

۴- ۴ التهذیب ۶: ۱۹ کتاب المزار.

۵- ۵ مصباح المتهجد: ۷۴۱ و ۷۵۴.

ص: ۱۸۱

«ولـد بمكـة فی البیت الحرام یوم الجمعـة.. ولم یولـد قبله ولاـ بعـده مولود فی بیت اللّه سواه، إكراماً له من اللّه جلّ اسـمه له بـذلك، وإجلالًا لمحلّه فی التعظیم» (۱) كما روی فی مزاره وشاركه فی هذا كلّ من الشـهید فی مزاره وابن طاووس فی مصـباح الزائر ما علّمه الإمام الصادق علیه السلام لمحمّد بن مسلم حین زیارته أمیر المؤمنین علیه السلام:

السلام علیك یا من ولد فی الكعبة أو السلام علی المولود فی الكعبة (۲).

والشیـخ المفیـد– والقول للمؤلّف– من عرفته الأمّهٔ بالنقـد والتمحیص وأنه كیف كان یردّ الأخبار لأدنی علّهٔ فی أسانیدها أو متونها أو یتردّد فی مفادهـا، یعرف ذلـك كلّه من سبر كتبه ورسـائله ومسـائله، أو هل تراه مع ذلك یعـدل عن خطته القویمـهٔ فیرمی القول علی عواهنه بـذكر الواهیات علی سبیل الجزم بها، لا سـیما فی كتاب (الإرشاد) الـذی قصد فیه إعلاء ذكر آل محمّد صـلی الله علیه و آله و سلم والتنویه بفضـلهم وإمـامتهم وتقـدّمهم فیها، فهل یـذكر فیه إلّاما هو مسـلّم بین الفریقین أو الملأ الشـیعی علی الأقلّ؟! وتبع الشـیخ المفید معاصره النسّابهٔ ابن الصوفی (۳).

مع السیّد الحمیری

وقـد أوشـك هـذا الفصل علی نهایته، ارتأی الشـیخ أن یقتطع شـیئاً ممّا نظمه السـیّد الحمیری (ت ۱۷۹) فیمـا یخصّ ولادهٔ الإمام علیه السلام فی الكعبهٔ:

ولدته فی حرم الإله وأمنه والبیت حیث فناؤه والمسجدُ

بیضاء طاهرهٔ الثیاب كریمهٔ طابت وطاب ولیدها والمولدُ

وله أبیات أخری منها:

طِبت كهلًا وغلاماً ورضیعاً وجنینا

وببطن البیت مولو داً وفی الرمل دفینا (۴)

وقد أعدّ المؤلّف نظم السیّد الحمیری هذا أثبت لمفاده من أسانید متساندهٔ.

والسبب فی هذا– كما یقول المؤلّف–: هو أنّ السیّد الحمیری الذی كان یسیر بشعره

۱– ۱ الإرشاد: ۹۰ والمقنعهٔ: ۷۲ ومسار الشیعهٔ: ۳۵.

۲– ۲ انظر الإقبال: ۶۰۸، ومصباح الزائر: ۱۰۶، والمزار الكبیر: ۲۶۷، والبحار ۱۰۰: ۳۷۴.

۳– ۳ انظر المجدی: ۱۱.

۴– ۴ انظر مناقب ابن شهرآشوب ۲: ۱۷۵، ۱۷۶، روضهٔ الواعظین: ۸۱، أعیان الشیعهٔ ۱: ۳۲۴.

ص: ۱۸۲

الرکبان فی القرن الثانی، والـذی راح ینافـح الآخرین من أعداء أهل بیت الوحی علیهم السـلام وحتّی تکون حجّته قویّة لابدّ له من أن یحاججهم لا بالواهیات ولا بما لا یعرفه الناس أو لا یعترفون به.

وممّا نظمه کلّ من السرخسی:

ولدته منجبة وکان ولادها فی جوف الکعبة أفضل الأکنان

والشفهینی:

أم هل تری فی العالمین بأسرهم بشراً سواه ببیت مکّة یولدُ؟

ویختم هذا الفصل بقول ثقة الإسـلام النوری: إنّ هذه الفضیلة الباهرة جاءت فی أخبار غیر محصورة، ومنصوص بها فی کلمات العلماء وفی ضمن الخطب والأشعار...».

وهنا یقول المؤلّف: ومهما حملنا قوله إنّها: «جاءت فی أخبار غیر محصورة» علی المبالغة، فإن أقل مراتبه أن تکون متواترة..

حدیث الولادة الشریفة مشهور بین الأمّة

تحت هذا العنوان کتب سماحته:

إنّ أیسر ما یسع الباحث إثباته هو شـهرة هـذا النبأ العظیم بنصوص أئمّة الحدیث بذلک من ناحیة، وبتداول ذکره فی الکتب من ناحیة اخری، وبالتسالم علی روایته واطراد أسانیده من جهة ثالثة. ولها شواهد أخری لعلّک تقف علیها فی غضون هذه الرسالة إن شاء اللّه.

ثمّ راح یـذکر أقوال کبـار علمـاء الحـدیث، نکتفی بأسـمائهم وکتبهم وبعض أقوالهم، لننتقـل بعـد ذلک إلی روایات الولادة المبارکة للإمام علی علیه السلام.

العلّامة المجلسی فی جلاء العیون: «إنّ ولادته علیه السلام فی البیت، یوم الجمعة

ص: ١٨٣

الثالث عشر من رجب، سنة ثلاثين من عام الفيل، مشهورة بين المحدّثين والمؤرِّخين من الخاصة والعامة» (١).

المولى محمود بن محمد باقر فی تحفة السلاطين: «إنّ حديث ولادته عليه السلام فی البيت يوم انشقّ جداره لفاطمة بنت أسد فدخلته، مشهور كالشمس فی رائعة النهار» (٢).

السلطان محمد بن تاج الدين فی تحفة المجالس: «إنّ الأقرب إلی الصواب أنّه عليه السلام ولد فی الكعبة» وذكر بعض أخبارها. ثمّ قال: «وفی الأخبار أنّه لم يكن شرف الولادة فی البيت لأیأحد قبله ولا بعده» (٣).

الشيخ العاملی الاصبهانی (ت ١١٠٠) فی ضياء العالمين: «إنّ الولادة فی البيت كانت مشهورة فی الصدر الأوّل، بحيث لم يمكن إنكارها مع أنّهم- يعنی أهل الخلاف- أنكروها أيضاً أخيراً» (۴).

هذا وأن هذه الشهرة فی الأخبار لا يبارحها التواتر فی الأسانيد.

وانظر العلّامة الحلّی (ت ٧٢۶) فی كشف الحق وكشف اليقين (۵).

والإربلی (ت ۶٩٢) فی كشف الغمّه حيث قال: «ولم يولد فی البيت أحد سواه قبله ولا بعده، وهی فضيلة خصّه اللّه بها إجلالًا له وإعلاءً لرتبته وإظهاراً لتكرمته» (۶).

ومثله الشيخ ابن الفتال النيسابوری فی روضة الواعظين.

والحافظ ابن شهرآشوب المازندرانی (ت ۵٨٨) فی مناقبه وبعد أن روی أحاديث الولادة (٧).

العلّامة العاملی فی الصراط المستقيم ذاكراً ارجوزة السيّد الحسينی:

ومولد الوصیّ أيضاً فی الحرم بكعبة اللّه العلیّ ذی الكرم (٨)

العلّامة الطبرسی الآملی فی تحفة الأبرار (٩).

١- ١ جلاء العيون ١: ٢٣٢ فارسی.

٢- ٢ تحفة السلاطين ٢، فارسی.

٣- ٣ تحفة المجالس: ۶۴ فارسی.

۴- ۴ ضياء العالمين ٢.

۵- ۵ نهج الحق وكشف الصدق: ٢٣٢، كشف اليقين: ۵.

۶- ۶ كشف الغمّة ١: ۵٩.

٧- ٧ مناقب ابن شهر آشوب ٢: ١٧۵.

٨- ٨ الصراط المستقيم ٢: ٢١۵.

٩- ٩ تحفة الأبرار، ب ۴، ف ٢.

ص: ۱۸۴

القاضـی السـعید الشهید سنة ۱۰۱۹ التسـتری حین طفق ینـازل ویناضـل القاضـی روزبهـان من علمـاء المعقول والمنقول، حنفی الفروع أشـعری الأـصول، فی إحقـاق الحق حیث قال: «إنّ الفضـیلة والکرامـة فی أنّ باب الکعبـة کان مقفلًا، ولما ظهر آثار وضع الحمل علی فاطمة بنت أسد- رضی اللّه عنها- عند الطواف خارج الکعبة انفتح لها الباب بإذن اللّه تعالی، وهتف بها هاتف بالدخول.

کما عقّب التستری علی مسألة ولادة حکیم قائلًا:

وعلی تقدیر صـحّة تولّد حکیم بن حزام قبل الإسـلام فی وسط بیت اللّه الحرام، فإنّما کان بحسب الاتفاق کما یتّفق بسقوط الطفل من المرأة، والعجل من البقرة فی الطریق وغیره، علی أنّ الکلام فی تشرّف الکعبة بولادته فیها، لا فی تشرّفه بولادته فی الکعبة» (۱).

أبو الحسن المالکی فی (الفصول المهمّة فی معرفة أحوال الأئمّة) یذهب المذهب نفسه فی ولادة حکیم: فبعد أن یذکر ولادة علیّ فی جوف الکعبـة قال: وأمّا حکیم بن حزام فولـدته أمّه فی الکعبـة اتفاقاً لا قصـداً» وقـد أصـفق فی هـذا الکلام معه البحّاثـة عبـد الرحمن الصفوری الشافعی فی نزهة المجالس (۲).

بعـد هـذا فإنّ کتباً کهذه «المتینة المبنیة علی الحجاج والنضال لاسـیما کتب العلّامة والقاضـی التستری وابن بطریق لم یتوخّ مؤرخوها- والکلام ما زال للشیـخ المؤلف- سـرد الوقائع التاریخیة من أینما حصلت، وإنّما قصدوا فیها إلزام الخصوم بالحجج النیّرة، فهل یمکنهم إذن أن یسترسـلوا بإیراد ما توسع بنقله القالـة من دون تثبت؟ لا، ولکن شـریعة الحـجّ والـدین تلزمهم بإثبات الشائع الذائع المتلقّی عند الفریقین بالقبول المشهور نقله، الثابت إسناده بحیث لا یدع للمتعنت ولیجة إلی إنکاره، وإلا لعاد ما یذکره ثلماً فی بیانه، وفتّاً فی عضد برهانه، فمن الواجب إذن أن یکون هذا الجواب ممّا یخضع له الخصم ولا یتقاعس عن الإخبات به الأولیاء لمکان شهرة النقل له.

۱- ۱ انظر إحقاق الحقّ.

۲- ۲ الفصول المهمّة: ۳۰ وأیضاً نزهة المجالس ۲: ۲۰۴.

ص: ۱۸۵

روایات الولادة المبارکة

وهنا راح الشیخ المؤلِّف یذکر بعض روایات الباب، نذکر بعضها ونکتفی بمصادر الأخری.

روی الوزیر السعید الإربلیّ فی (کشف الغمّة) عن کتاب (بشارة المصطفی) مرفوعاً إلی یزید بن قَعْنَب، قال:

کنت جالساً مع العبّاس بن عبد المطلب- رضی الله عنه- وفریق من بنی عبد العزی بإزاء بیت اللّه الحرام، إذ أقبلت فاطمة بنت أسد اُمّ أمیر المؤمنین علیه السلام، وکانت حاملًا به لتسعة أشهر، وقد أخذها الطَلقُ فقالت: یاربّ، إنّی مؤمنة بک وبما جاء من عندک من رسل وکتب، وإنّی مصدّقة بکلام جدّی إبراهیم الخلیل، وأنّه بنی البیت العتیق، فبحقّ الذی بنی هذا البیت، وبحقّ المولود الذی فی بطنی إلّاما یسّرت علیَّ ولادتی.

قال یزید بن قَعْنَب: فرأیت البیت قد انشقّ عن ظهره، ودخلت فاطمة فیه وغابت عن أبصارنا، وعاد إلی حاله، والتزق الحائط، فرُمْنَا أن ینفتح لنا قفل الباب فلم ینفتح، فعلمنا أنّ ذلک من أمر اللّه عزّوجلّ، ثمّ خرجت فی الیوم الرابع وعلی یدها أمیر المؤمنین علیّ بن أبی طالب علیه السلام... (۱).

ورواه ابن الفتّال فی (روضة الواعظین) وفی (کشف الیقین) للعلّامة الحلّی، و (کشف الحقّ) عن (بشارة المصطفی) وفی (الإرشاد) لأبی محمّد الحسن الدیلمیّ عن البشارة أیضاً مثله (۲). وروی مختصراً منه محمّد صالح الترمذی فی مناقبه (۳).

ورواه مع بعض التغییر الشیخ الصدوق (ت ۳۸۱) فی (الأمالی) و (علل الشرائع) و (معانی الأخبار) (۴).

ورواه الشیخ الطوسیّ فی (أمالیه) عن أبی الحسن محمد بن أحمد بن الحسن ابن شاذان، عن أحمد بن محمد بن أیّوب، عن عمر بن الحسن القاضی، عن عبداللّه ابن محمد، عن أبی حبیبة، عن سفیان بن عُیینة، عن الزُّهریّ، عن عائشة؛

۱- ۱ کشف الغمّة ۱: ۶۰، بشارة المصطفی: ۷.

۲- ۲ إرشاد القلوب: ۲۱۱.

۳- ۳ مناقب مرتضوی: ۸۷ ط بومبای ۱۳۲۱ ه.

۴- ۴ الأمالی ۱۱۴: ۹، علل الشرائع ۱: ۱۳۵، ۳، معانی الأخبار ۶۲: ۱۰.

ص: ۱۸۶

وعن محمّد بن أحمد بن شاذان، عن سهل بن أحمد، عن أحمد بن عمر الربيعی، عن زكريا بن يحيی، عن أبی داود، عن شُعْبة، عن قَتَادة، عن أنس بن مالك، عن العبّاس بن عبد المطلب؛

قال الشيخ: وحدّثنی إبراهيم بن علیّ، بإسناده عن أبی عبداللّه جعفر بن محمّد عليهما السلام، عن آبائه عليهم السلام قال:

كان العبّاس بن عبد المطلب ويزيد بن قَعْنَب جالسين ما بين فريق بنی هاشم إلی فريق عبد العزی بإزاء بيت اللّه الحرام، إذ أتت فاطمة بنت أسد بن هاشم أُمّ أمير المؤمنين عليه السلام، وكانت حاملة بأمير المؤمنين عليه السلام لتسعة أشهر، وكان يوم التمام.

قال: فوقفت بإزاء البيت الحرام وقد أخذها الطلق، فرمت بطرفها نحو السماء...

رأينا البيت قد انفتح من ظهره، ودخلت فاطمة فيه وغابت عن أبصارنا.

وبقيت فاطمة فی البيت ثلاثة أيّام.

قال: وأهل مكّة يتحدّثون بذلك فی أفواه السكك، وتتحدّث المخدّرات فی خدورهنّ.

قال: فلمّا كان بعد ثلاثة أيّام انفتح البيت من الموضع الذی كانت دخلت فيه، فخرجت فاطمة وعلیّ علی يديها...

وفی (المناقب) لابن شهر آشوب روايتان:

رواية شُعبة، عن قَتادة، عن أنس، عن العبّاس بن عبدالمطلب؛ وفی رواية الحسن بن محبوب، عن الصادق عليه السلام، والحديث مختصر، أنّه انفتح البيت من ظهره، ودخلت فاطمة فيه، ثمّ عادت الفتحة والتصقت، وبقيت فيه ثلاثة أيّام...

عن يزيد بن قَعْنَب؛ وجابر الأنصاری: وهو المعروف بحديث الراهب المثرم بن دعيب.

فلمّا قربت ولادته أتت فاطمة إلی بيت اللّه وقالت: ربِّ إنّی مؤمنة بك...

ص: ۱۸۷

فانفتح البيت ودخلت فيه فإذا هى بحوّاء، ومريم، وآسيه، وأُمّ موسى وغيرهنّ، فصنعن مثل ما صنعن برسول اللّه صلى الله عليه و آله وقت ولادته.

وحديث الراهب رواه ابن الفتّال فى (روضة الواعظين) على وجه هو أبسط من هاتين الروايتين المفصلتين (۱) كما ذكره غيره (۲).

وفى هذه المصادر وفى غيرها روايات مفصّلة أيضاً حول الولادة المباركة (۳).

وقد نظّم مضامينها صاحب الوسائل الحرّ العاملى (ت ۱۱۰۴) ارجوزةً نذكر بيتين منها:

مولده بمكّة قد عُرفا فى داخل الكعبة زيدت شرفا

على رُخامة هناك حمرا معروفة زادت بذاك قدرا (۴)

والمشهور بين الخاصة والعامّة أنّه ولد بين العمودين على البلاطة الحمراء.

وذكر العالم الشكوئى (ت ۱۳۳۰) فى كتابه (مصباح الحرمين) فى وداع الكعبة اموراً، منها «الصلاة بين الاسطوانتين على الرُّخامة الحمراء، وهى على رواية بعض العلماء محل ولادة أمير المؤمنين عليه السلام كما مرّ فى فصل المستجار...» (۵).

وقال الشيخ أحمد بن الحسن الحرّ فى (الدرّ المسلوك فى أحوال الأنبياء والأوصياء والملوك) فى الفصل الرابع، فى ذكر أمير المؤمنين على عليه السلام... ولادته فى الكعبة فى البيت على الحجر.

إذن فحديث ولادته عليه السلام أمر مشهور وروايته متواترة عند الفريقين.

نبأ الولادة والمحدِّثون

حتّى يصل سماحة الشيخ إلى المراد من المحدّثين راح يميّز بين المحدّثين الذين يصفهم بأنّهم سذج، لم يجيدوا إلّانقل الأساطير أو قول بسيط مثل حدّثنى فلان فيحشد أساطير وأقوالًا بعيداً عن التفقّه فى مغزى الحديث والتبصّر فى مؤداه...

۱- ۱ روضة الواعظين: ۷۷- ۸۱.

۲- ۲ الفضائل لشاذان بن جبرئيل: ۵۴، جامع الأخبار: ۱۵.

۳- ۳ علل الشرائع ۳: ۱۳۵. معانى الأخبار ۱۰: ۶۲، أمالى الصدوق ۹: ۱۱۴. أمالى الطوسى ۲: ۳۱۷، مناقب ابن شهرآشوب ۲: ۱۷۲، روضة الواعظين: ۷۷.

۴- ۴ منظومة فى تواريخ المعصومين عليهم السلام، مخطوطة.

۵- ۵ مصباح الحرمين: ۱۹۴.

ص: ۱۸۸

يميّز بين هـذا النوع من الذين يطلق عليهم أنّهم المحدِّثون وبين نوع آخر أولئك هم أئمّة الحديث ومهرة فنّه النياقد، الذين- كما يعبِّر الشيـخ عنهم- لا يروقهم رمى القول على عواهنه، فلا يؤمنون بالمنقول إلّابعد التفرّغ من أمر إسناده والتثبّت فيه والتروى فى متنه، حذار مخـالفته لمعقول أو مصادمته لشـيء من الأصول، وبالتالى فإنّ هـذا المحـدث هو الحبر الناقـد الضـليع فى العلم الـذى ضـرب فراغاً فى أوقاته للتبصّر فى هذا الفن، والإحاطة به من أطرافه.. فهو محدِّث وهو فقيه وهو مفسِّر حين يتحرّى مغازى آىالكتاب الكريم واكتشاف مخبآتها وهو فنىّ إذا عطف النظر على أىّ من العلوم. وهـذا هو المحـدِّث الـذى يقصـده سـماحته ويريده وذكر لهذا مصاديق كالسـيّد المرتضـى والسيّد الرضى والشيخ الطوسى وقبلهم الصدوق وبعدهم ابن شهرآشوب وابن الفتال والعلّامة الحلّى وابن بطريق... ومن أهل السنّة كالحاكم وغيره..

وقفة قصيرة مع ابن أبى الحديد

يقول ابن أبى الحديد فى شرح النهج: واختلف فى مولد على عليه السلام أين كان؟

فكثير من الشيعة يزعمون أنّه ولد فى الكعبة، والمحدّثون لا يعترفون بذلك، ويزعمون أنّ المولود فى الكعبة حكيم بن حزام... (۱).

كيف يصـحّ هذا والحاكم النيسابورى من أئمّة الحديث يقول:... وقد تواترت الأخبار أنّ فاطمة بنت أسد ولدت أمير المؤمنين على بن أبى طالب- كرّم اللّه وجهه- فى جوف الكعبـة، وما قاله المحـدّث الدهلوى بتواتره وقول الآلوسـى: إنّه أمر مشـهور فى الدنيا» وغيرهم من المحدّثين كما أسلفنا وكما هو آتٍ؟! اللّهم إلّاأن يقصد ابن أبىالحديد بالمحدِّثين أولئك الذين وصفهم الشيخ بالسذج... لا مهرة الحديث وأئمّته.

وهـذا العلّامة المحدّث أبو الفتح الكراجكى قال فى (كنز الفوائد) بعد أن ذكر أحاديث فى مقدّمة الولادة من خبر الكاهن ورؤيا فاطمة بنت أسد وتعبير الكاهن

۱- ۱ شرح نهج البلاغة ۱: ۱۴.

ص: ۱۸۹

لها ما لفظه: وفی الحدیث أنّها- یعنی فاطمة بنت أسد- دخلت الکعبة علی ما جرت به عادتها، فصادف دخولها وقت ولادتها فولدت أمیر المؤمنین علیه السلام داخلها» (۱).

وممّن یذکر خبر الولادة المبارکة کلّ من الشیخ أبو الفوارس فی کتاب (الأربعین) والروایة التی یذکرها بسندها الطویل المضطرب إلی میثم التمّار وفیها عدّة مناقب للإمام منها الولادة فی الحرم (۲).

والفقیه ابن المغازلی المالکی فی مناقبه الذی یذکر حدیث الولادة مرفوعاً إلی علی بن الحسین علیهما السلام.

وأبو عبداللَّه الشافعی الکنجی الحافظ (ت ۶۵۸) فی کفایة الطالب الذی ذکر روایة الولادة لعلیّ علیه السلام بسندها عن جابر بن عبداللَّه... (۳) حدیث الولادة والنسّابون

نظراً للأهمّیة الکبیرة التی یمتاز بها النسّابون فی معرفة فنّهم «النسب وأخباره» نری شیخنا قد أفرد لهم باباً خاصّاً فی هذه المسألة مبیّناً مدی أهمّیة خبرتهم ووظیفتهم فی هذا الموضوع، متعرّضاً لبعض أقوالهم فی خصوص ولادة الإمام علیّ علیه السلام. فنصوصهم فیها من الحجج القویمة علی إثباتها، ولهم قضاء فصل فیها وحکم عدل.

ومن هؤلاء النسّابة:

العمری فی (المجدی): وولدت- یعنی فاطمة بنت أسد- علیّاً علیه السلام فی الکعبة، وما ولد قبله أحد فیها (۴).

جمال الدین الداودی الحسنی (ت ۸۲۸) فی (عمدة الطالب): ذکر أنّ الولادة کانت فی الکعبة... ونفی أن یکون أحد ولد فی البیت سواه قبله وبعده، إکراماً له من اللَّه عزّوجلّ (۵).

العلّامة السیّد محمد الحسینی النجفی فی (المشجّر الکشاف لأصول السادة الأشراف)، ولد علی بمکّة ثمّ قال: «ولم یولد قبله ولا بعده مولود فی بیت اللَّه

۱- ۱ کنز الفوائد ۱: ۲۵۵.

۲- ۲ الأربعون حدیثاً، مخطوط، نوادر المعجزات: ۱۰، الیقین: ۷۳، فضائل ابن شاذان: ۲.

۳- ۳ کفایة الطالب: ۴۰۵.

۴- ۴ المجدی: ۱۱.

۵- ۵ عمدة الطالب: ۵۸.

ص: ۱۹۰

الحرام سواه».

ومثلهم النسّابـة أبو عبداللَّه الراضـی صاحب (مناهل الضـرب فی أنساب العرب). وهناک ارجوزة للنسّابة أبیصالح النباطیّ النجفی (ت ۱۱۸۳):

مولده الجمعة یوم السابع فی شهر شعبان ببیت الصانع

حدیث الولادة والمؤرِّخون

إنّ السابر زُبُر التأریـخ وحوادثه یجـد هـذا الحـدیث- والکلام للشـیخ- من أثبت ما تعرّض له مؤلّفوها، وقـد أثبتوه مخبتین به، مذعنین بحقیقته، ومنهم من نصّ بصحّته عندهم جمیعاً.

وقـد اختـار الشـیخ من هؤلاء المؤرِّخین جمعاً وصـفهم بالبراعـة فی فنّهم وقـدرتهم علی الوقوف علی المختلف فیه والمتّفق علیه. وإن تعرّضت بحوث هذا الکتاب لمثل أقوال هؤلاء المؤرِّخین أو بما یربو علیها أو یقاربها، ومع هذا نقرأ لبعضهم:

المؤرخ محمـد خاونـدشاه فی (روضـة الصـفا)، قال: «کانت ولادته علیه السـلام فی روایـة یوم الجمعة فی الثالث عشـر من رجب سـنة ثلاـثین من عام الفیل... وکان میلاده علیه السـلام فی جوف الکعبـة، فإنّ امّه کانت تطوف بالبیت، أو أنّ المشـیئة الإلهیـة أجاءتها إلی فنائه، وکانت فی أوّل الطلق، فکانت ولادته فیها، ولم تتح هذه السـعادة لأیّ أحد منذ بدء الخلیقة إلی الغایة. وإن لصحّة هذا الخبر بین المؤرِّخین المتحفّظین علی الفضائل صیتاً لا تشوبه شبهة، وتجاوز عن أن یصحبه الشکّ والتردید» (۱).

والرجل مع ذلک- کما یقول الشیخ- یصافق مَن تقدّمه علی أنّها ممّا اختصّ بها أمیر المؤمنین علیه السلام ولا یشارکه فیها أیّ أحد.

ولا ریب فی ذلک غیر أنّ أعداء آل البیت النبوی افتعلوا حدیث حکیم بن

۱- ۱ روضة الصفا، مترجماً من الفارسیة وملخّصاً.

ص: ۱۹۱

حِزام فتّیاً فی عَضُد هذه الفضیلة، لکن المنقّبین من الفریقین لم یأبهوا به، وبذلک تعرف قیمة ما هملج به القاضی روزبهان من أنّ ذلک مشهور بین الشیعة ولم یصحّحه علماء التاریخ، بل عند أهل التواریخ أنّ حکیم بن حِزام ولد فی الکعبة ولم یولد فیه غیره... إلی آخره.

وستجد نصوص التاریخ بذلک، وعرفت ردّ الحاکم النیسابوریّ علی مَن حصر ولادة البیت بحکیم، وذکر تواتر النقل بولادة أمیر المؤمنین علیه السلام فیه.

ومرّ أیضاً روایة أساطین أهل السنّة، ولذلک ما یتلوه:

المسعودی وهو الحجّة عند الفریقین یقول فی (مروج الذهب) عند ذکر خلافة أمیر المؤمنین علیه السلام مثبتاً هذه الحقیقة، جازماً بها من غیر تردید، قال: «وکان مولده فی الکعبة» (۱).

وقد احتجَّ بکتابه هذا الموافق والمخالف وهو من المصادر الموثوقة وقد راعی فیه- والقول للمؤلّف- جانب التقیّة بما یسعه، بتألیفه علی نسق کتب أهل السنّة وما یرتضونه من روایاتهم، حتّی حسبه بعض من لم یرَ من کتبه غیره أنّه منهم.

فهل من السائغ إذن أن یذکر فی کتاب هذا شأنه غیر الثابت المتسالم علیه عند الأمّة جمعاء، لا سیّما فی مثل المقام الذی یکثر فیه بطبع الحال وَرَطات القالة؟

وذکر فی کتابه الآخر (الوصیة):

«وروی أنّ فاطمة بنت أسد کانت تطوف بالبیت، فجاءها المخاض وهی فی الطواف، فلمّا اشتدّ بها دخلت الکعبة، فولدته فی جوف البیت... وما ولد فی الکعبة قبله ولا بعده غیره» (۲).

و (إثبات الوصیّة) من أنفس کتب الإمامیة، ولیس من الجائز أن یحتجّ ویتبجّح فیه بما لا یقرّ به الخصم، ولا تذعن به امّته، ثمّ یقول بکلّ صراحة: «وما ولد...» وبمشهد منه ومسمع ما تحذلقوا به من أمر حکیم بن حِزام، غیر أنّ المؤرّخ لا یُقیم له وزناً.

۱- ۱ مروج الذهب ۲: ۳۴۹.

۲- ۲ إثبات الوصیة: ۱۱۱.

ص: ۱۹۲

وذکر حمد اللّه المستوفی (ت ۷۵۰ ه) فی (تاریخ گُزیده): «أنّ مولده علیه السلام کان سنة ثلاثین من عام الفیل، وکان فی الکعبة حیث کانت أُمّه فی الطواف فبان علیها أثر الطَلَق، فأشارت إلی البیت ووضعته فی جوفه» (۱).

محمد بن طلحة الشافعی فی (مطالب السؤول) وقیل: ولد فی الکعبة، البیت الحرام» (۲).

ولا نکترث بإسناد ولادة البیت إلی القیل، بعد قول الحاکم بتواترها، وقول الآلوسی باشتهارها فی‌الدنیا.

المؤرخ نشانجیّ فی (مرآة الکائنات): «أنّه علیه السلام ولد ولرسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم ثلاثون سنة، کانت أُمّه فاطمة زائرة البیت فولدته فیه لحکمة للّه‌سبحانه فیه، ولم یرزق هذا غیره وغیر حکیم بن حزام» (۳). حیث عدّ ولادته علیه السلام من حکم اللّه سبحانه.

عبد الحمید خان الدهلوی فی (سیر الخلفاء) نقل عن غیر واحد من المؤرّخین، أنّه «ولد فی مکّة المکرّمة...، ولم یتولّد أحد قبله فی حِصَار البیت»... (۴).

المؤرِّخ والمحدِّث القمی فی (تاریخ قم) سنة ۳۷۸: «إنّ ولادة أمیر المؤمنین فی الکعبة...» (۵).

وقال السیّد علیّ الحسینیّ المؤرّخ المصریّ فی کتابه (الحسین علیه السلام): «أنّه [الإمام علی علیه السلام] ولد بمکّة فی البیت الحرام، یوم الجمعة الثالث عشر من رجب، سنة ثلاثین من عام الفیل... (۶).

أحمد الغفاری القزوینی من مؤرِّخی القرن العاشر ذکر فی (تاریخ نگارستان) أنّه علیه السلام ولد فی جوف الکعبة (۷).

المؤرخ الشروانیّ أنّه علیه السلام ولد فی جوف الکعبة وأنّ غیره لم یولد هناک (۸).

الکاشفی ذکر حدیث بن قعنب فی (روضة الشهداء) عن (بشارة المصطفی).

۱- ۱ تاریخ گُزیده فارسی: ۱۹۲ مترجماً وملخصاً.

۲- ۲ مطالب السؤول: ۱۱.

۳- ۳ مرآة الکائنات ۱: ۳۸۳.

۴- ۴ سیر الخلفاء: ۲۰۸ مترجماً من الهندیة وملخّصاً.

۵- ۵ تاریخ قم: ۱۹۱.

۶- ۶ کتاب الحسین علیه السلام ۱: ۱۶.

۷- ۷ تاریخ نگارستان: ۱۰، وانظر بشأنه کشف الظنون ۲: ۱۹۷۶، الذریعة ۲۴: ۳۰۸.

۸- ۸ روضة الصفا الجزء العاشر مترجماً من الفارسیة وملخّصاً کتاب خاماسب: ۵۱.

ص: ۱۹۳

الإمام البناکتی أنّه «لم یولد أحد قبله ولا بعده فی البیت» (۱).

عبـد المسـیح الأنطاکی صاحب مجلّة (العمران) المصـریة، ونحن نقتبس طاقة من خمسة آلاف بیت نظمها فی حیاة أمیر المؤمنین علیه السلام:

فی رحبة الکعبة الزهرا قد انبثقت أنوار طفل وضاءت فی مغانیها

واستبشر الناس فی زاهی ولادتِهِ قالوا: السُّعود له لابدَّ لاقیها

قالوا: ابن مَنْ؟ فأُجیبوا أنّه ولدٌ من نسل هاشم من أسمی ذراریها

هنّوا أبا طالب الجواد والده والأُمّ فاطمة هُبُّوا نُهَنّیها

إنّ الرضیع الذی شام (۲) الضیاء ببی –ت اللَّه عزّته لا عزّ یحکیها

أمّا الولید فلاقی الأرض مبتسماًفما رغا رهباً ما کان خاشیها

وعام مولده العام الذی بدأتبشائر الوحی تأتی من أعالیها

فیه الحجارة والأشجار قد هتفتللمصطفی وهو رائیها وصاغیها

وإذ دری المصطفی فیه ولادة مولانا العلیّ غدا بالبشر یطریها

وبات مستبشراً بالطفل قال بهلنا من النعم الزهراء ضافیها

ثمّ راح الأنطاکی یقول:

«کـانت ولادة سیّدنا ومولانـا أمیر المؤمنین فی العـام الثلاثین لولادة المصـطفی- علیهما وعلی آلهما الصـلاة والسـلام- علی ما حقّق المحقّقون، فتکون ولادته الشـریفة حول سـنة ستّة مائة وواحد مسیحیة، ومن بشائر سعده- علیه صلوات اللَّه- أنّه ولد فی الکعبة کرّمها اللَّه، ولدته أُمّه فیها فاستبشر بذلک أبوه وعمومته.

وعند ولادته الشریفة- والکلام ما زال للناظم الأنطاکی- دعته أُمّه:

حیدرة، ومعنی هذه الکلمة: الأسد، فکأنّها أرادت أن تسـمّیه باسم أبیها، فلمّا وقع نظر أبیه أبی طالب علیه توسَّم بملامحه العَلاء، ودعاه علیّاً. وقد صدقت الأیّام

۱- ۱ روضة الشهداء: ۱۴۶.

۲- ۲ شام: تطلع، انظر «لسان العرب- شیم- ۱۲: ۳۲۹».

ص: ۱۹۴

فراسته، فكان عليه صلوات اللّه عليّاً فى الدنيا والآخرة.

وعام مولد سيّدنا أمير المؤمنين- عليه صلوات اللَّه- هو العام المبارك الذى بُدئ فيه برسول اللَّه صلى الله عليه و آله و سلم فأخذ يسمع الهُتاف من الأحجار والأشجار ومن السماء، وكشف عن بصره فشاهد أنواراً وأشخاصاً. وفى هذا العام ابتدأ بالتبتّل والانقطاع والعزلة فى جبل حِراء، وكان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يتيمن بذلك العام وبولادة سيّدنا علىّ- عليهما وعلى آلهما الصلاة والسلام- وكان يسمّيه: سنة الخير، وسنة البركة.

وقال المصطفى صلى الله عليه و آله لأهله عندما بلغته بشرى ولادة المرتضى: «لقد ولد لنا الليلة مولود، يفتح اللَّه علينا به أبواباً كثيرة من النعمة والرحمة». وكان قوله هذا أوّل نبوءته، فإنّ المرتضى- عليه صلوات اللَّه- كان ناصره، والحامى عنه، وكاشف الغماء عن وجهه، وبسيفه ثبت الإسلام، ورسخت دعائمه وتمهّدت قواعده» (۱).

وقد ضمّن قصيدته كلّ ذلك وغيره من حياة الإمام عليه السلام.

العلّامة السيّد محمّد الطباطبائى فى الرسالة الموضوعة لتأريخ مواليد أئمّة الدين عليهم السلام ووفياتهم: أنّه عليه السلام «ولد بمكّة فى جوف الكعبة، ولم يولد قبله ولا بعده أحد فيه سواه، إكراماً له من اللَّه جلّ اسمه بذلك...».

السيّد أبو جعفر الحسينىّ فى شرح قصيدة أبى فراس الحمدانى، تعيين يوم ولادته بالجمعة... ومحلّها بالكعبة (۲).

قال الكفعمىّ فى (المصباح): «... ولد علىّ بن أبىطالب عليه السلام فى الكعبة،...» (۳).

شيخ الإسلام الزنوزىّ فى (بحر العلوم): «أنّ محلّ ولادته عليه السلام الكعبة».

النخجوانىّ فى (تجارب السلف فى تواريخ الخلفاء ووزرائهم)، فرغ منه سنة ۷۲۴: «أنّ عليّاً عليه السلام ولد فى الكعبة... وسمّاه النبىّ صلى الله عليه و آله عليّاً، وكنّاه بأبى تراب» (۴).

قال الحلبىّ فى سيرته (إنسان العيون): «إنّه عليه السلام ولد فى الكعبة...».

۱- ۱ القصيدة العلوية: ۶۱، وهذه القصيدة تشتمل على ۵۵۹۵ بيتاً، انظر الذريعة ۱۷: ۱۲۰، والأعلام للزركلى ۴: ۲۹۷.

۲- ۲ شرح الشافية: ۱۵.

۳- ۳ مصباح الكفعمى: ۵۱۲.

۴- ۴ تجارب السلف: ۳۷، ط طهران سنة ۱۳۱۳ ه. ش، مترجماً من الفارسية.

ص: ۱۹۵

ثمّ قال: «وقيل: الذى ولد فى الكعبة حكيم بن حِزام، قال بعضهم: لا مانع من ولادة كليهما فى الكعبة، لكن فى (النور) حكيم بن حِزام ولد فى الكعبة، ولا يعرف ذلك لغيره، وأمّا ما روى أنّ علياً عليه السلام ولد فيها، فضعيف عند العلماء» (۱).

وأنت تجد من سياق العبارة- وهذا القول للشيخ- أنّ المعتمد عند الرجل هو ولادة الإمام عليه السلام فى الكعبة، ولذلك ذكرها أوّلًا مُرسِلًا إيّاها إرسال المسلّم، ثمّ عزا ولادة حكيم بن حزام فيها إلى القيل إيعازاً إلى وهنه، ولذلك أردفه بجواب البعض عنه، لكنّه وجد لصاحب (النور) كلمة لم يرقه الإغضاء عنها بما هو مؤرّخ، أخذ على عاتقه إثبات المقول فى كلّ باب، وإذ لم يجد جواباً عنها لغيره لم يشفعها به، واكتفى هو بما ذكرناه من اعتماده على حديث الولادة عن أن يردّ كلمة الرجل، لأنّه مؤرّخ لا مُنقِّب.

وقفة مع صاحب كتاب النور:

ويكفينا تفنيداً لقول صاحب النور نصوص علماء أهل السنّة فى ذلك، ورواياتهم، كنصّ الحاكم والمحدِّث الدهلوىّ بتواتر حديثه، وقول الآلوسىّ: «إنّه أمر مشهور فى الدنيا».

ثمّ واصل شيخنا كلامه: وأىّ عالم يردّ المتواتر، أو يعدوه أمر مشهور ثبوته فى الدنيا فيضعّفه حتّى يقول الرجل بملء فيه: «إنّه ضعيف عند العلماء»؟! وإن تعجب فعجب إثباته ولادة حكيم التى لم يستقم إسنادها، ولا اعترف بها مخالفوه وأُمم من موافقيه، وعلى فرض وقوعها فقد ذكرنا فى غير مورد من هذه الرسالة وذكر الصفورىّ الشافعىّ: «أنّها من الصدف التى لا تُثبت فضيلة ولا تخرق عادة».

ثمّ تضعيفه ولادة أمير المؤمنين التى أخبت بها أئمّة الحديث، وأثبتها نَقَلَة التاريخ، وطفحت بها كتب الأنساب، ونظّمتها الشعراء، وقال بها العلماء، وفيهم من ينفى أن يكون لغيره- صلوات اللّه عليه- مولد فى البيت، وهو ما ورد عن الحاكم: «ولم يولد قبله ولا بعده مولود فى بيت اللّه الحرام سواه». وما عن البدخشىّ

۱- ۱ إنسان العيون ۱: ۱۶۵.

ص: ۱۹۶

قوله: «ولم یولد فی البیت أحد سواه، قبله ولا بعده، وهی فضیلة خصّه اللّه بها».

وقد مرّ ما عن أبی داود البناکتی. وکلمة ابن الصبّاغ المالکیّ السابقة: «ولم یولد فی البیت الحرام قبله أحد سواه، وهی فضیلة خصّه اللّه تعالی بها إجلالًا له، وإعلاءً لمرتبته، وإظهاراً لِتِکْرُمَتِهِ». وقول الدهلوی فی (سِیَرِ الخلفاء): أنّه «لم یتولّد أحد قبله فی حصار البیت».

والآلوسیّ فی أولیات هـذه الرسالة: «ولم یشتهر وضع غیره کرّم اللّه وجهه، کما اشتهر وضعه» یوعز إلی وهن حدیث حکیم، وانحیاز الشهرة عنه. وقول الدهلویّ فی (ازالة الخفاء): «ولم یولد فیها أحد سواه قبله ولا بعده».

هـذه کلمات بعض مهرة الفن وأئمّة النقل، وهنا یقول الشیخ: فلو کان یُقام لولادة حکیم فی البیت وزن عند هؤلاء لما أطلقوا القول بملء الأفواه أنّ تلک خاصّیة لأمیر المؤمنین علیه السلام لا یشارکه فیها أحد، مع وقوفهم علی أمر حکیم، وفیهم مَن أورد خبر ولادة حکیم فی کتابه لکنّه غیر آبه به.

وقفة مع الدیاربکری:

ویقرب من هذه الهملجة ما جاء به الدیار بکری فی (تاریخ الخمیس) قال:

«ولد بمکّة بعد عام الفیل بسبع سنین، ویقال: کانت ولادته فی داخل الکعبة ولم یثبت» (۱) ولم یترک الشیخ المؤلّف هذا الزعم دون جواب فیقول:

ولیت شعری بماذا تثبت الحقائق التاریخیة؟ أبالوحی، أم بأخبار الأنبیاء، وهتاف الکتب السماویة، أم أنّ المرجع فیها الرجل والرجلان من النَقَلَة والرواة؟

وهل التزم الدیاربکری فی کتابه بأکثر مِن هذا؟ فما بال هذه الحقیقة التی هَتَفَتْ بها المئات والألوف، وأثبتتها طبقات الناس جیلًا بعد جیل لم تثبت عنده، وثبتت لدیه هَفَوات التاریخ، التی لو أحصیتها لخرجت عن وضع الرسالة؟

ثمّ ما بال الدیاربکری یعتمد علی (شواهد النبوّة) کلّما نقل عنه، ولا یرتضیه فی خصوص المقام؟

۱- ۱ تاریخ الخمیس ۲: ۳۰۷.

ص: ۱۹۷

ثمّ ما باله يغضّ الطرف عن غلطه الشائن من أنّ ولادته عليه السلام كانت بعد عام الفيل بسبع سنين، لكنّه يردّ حديث ولادة البيت بعدم الثبوت؟

أنا أدرى لماذا، وأنت تدرى، وقبلنا الدياربكرى يدرى.

حديث الولاة والشعراء

وللشعر والشعراء قصب السبق فى إثبات هذه الفضيلة للإمام عليه السلام وقد بلغت من الشهرة حتى لم تدع مجالًا لإنكارها أو التشكيك فيها.. وهنا يبدأ المؤلّف هذا الفصل وقبل أن يذكر القصيدة وقائلها، بمقدّمة جميلة جدّاً لا يسعنا تجاوزها أو اختصارها فهو يقول:

عرفت أن الحديث بلغ من الشهرة والثبوت بحيث لا يسع أىّ مُعْنِت إنكاره؛ ولذلك احتجّ به فريق كبير من المحقّقين فى كتب الإمامة، وأرسله إرسال المسلّمات جموع من نياقد فن الحديث فى باب الفضائل، وتبجّح به زُرافات من حَملة العلم ونقّاده فى مؤلّفاتهم، وهنالك لفيف لا يُستهان بعدّتهم، ولا يُغمز فى شىء من تثبّتهم وضبطهم من صيارفة القول، وصاغة القريض، وزبناء الشعر، بين عالم ضليع، وأديب بارع، وشاعر مبدع، تصدّوا لإثبات هذه الفضيلة فيما أفرغوه فى بوتقة النظم، أو حاكوه على نول الحقيقة، فسار ذكرها مع الركبان وانتشر نشرها مع مهب الريح، كما مرّ عن الحميرى والسرخسى والشفهينى والحرّ العاملى والأفتونى وغيرهم. ثمّ أخذ يذكر آخرين إتماماً لما ذكره سابقاً، أنظر الكتاب نفسه.

حديث الولادة مجمع عليه

بهذا العنوان صدّر الباحث الفصل الأخير من كتابه القيم هذا، بعد أن أثبت فى فصوله السابقة حديث الولادة عند الفريقين وأنه حديث مشهور عندهم حيث أعاد قول الآلوسى «إنّه أمر مشهور فى الدنيا»، وأنه «فى المناقب المتسالم عليها التى لا يفتقر ناقلها إلى كتاب» كما ذكر ذلك السيّد حيدر الآملى، وأنّ روايته مسندة عند الفريقين مصفقين على نقله وهو ما عرفناه عن ابن اللوحىّ. وأنّ العلّامة النورى

ص: ۱۹۸

ترقّى أكثر مصرّحاً بأنّ تلك الفضيلة لا يبعد كونها من ضروريات مذهب الإمامية، وأنها جاءت فى أخبار غير محصورة وفى كلمات العلماء وفى ضمن الخطب والأشعار فى جميع الأعصار، وهو إجماع الشيعة عليه كما نقل ذلك صاحب «مدينة المعاجز» عمّا ذكره ابن شهرآشوب فى مناقبه، وفى مناقب المعصومين أنه إجماع أهل البيت عليهم السلام ثمّ ذكر أقوال بعض علماء الشيعة حيث أرسلوا ولادته عليه السلام فى الكعبة إرسال المسلّمات نافين عنه أى شبهة وارتجاف، ومنهم العلّامة قطب الدين اللاهجى فى كتابه (محبوب القلوب) فبعد أن نصّ على أنّ ولادته عليه السلام تمّت داخل الكعبة يوم الجمعة فى الثالث عشر من رجب قبل الهجرة بثلاثة وعشرين عاماً قال: «ولم يولد فى البيت الحرام قبله أحد سواه» مبيّناً أنّها «فضيلة خصّه اللّٰه تعالى بها إجلالًا له وإعلاءً لمرتبته وإظهاراً لكرامته».

ويقرب من هذا أقوال كلّ من السيّد عباس الموسوى المكّى فى رحلته (نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس) والسيّد نعمة اللّٰه الموسوى الجزائرى (ت ۱۱۱۲) فى (الأنوار النعمانيّة)، ونظام الدين الساوجى فى تكملة الجامع العباسى لبهاء الدين العاملى ناصّاً أنّ «ولادته فى جوف الكعبة».

وفى مزار «أبواب الجنان وبشائر الرضوان» أرسله إرسال المسلم الشيخ خضر العفكاوى النجفى (ت ۱۲۵۵).

ومن ذلك ما ذهب إليه العلّامة الشريف الشيروانى فى كتابه «الشهاب الثاقب» قائلًا: «إنّه ولد فى مكّة ببيت اللّٰه الحرام» معقباً ذلك بقوله: «ولم يولد فيه قطّ سواه لا قبله ولا بعده» مخالفاً بذلك غيره من أنّ ولادته يوم ۱۳ رجب ناسباً ولادته يوم الجمعة إلى القيل.

وفى «تقويم المحسنين» أثبت الفيض الكاشانى (ت ۱۰۹۱) فى حوادث رجب: ولد على بن أبى طالب عليه السلام فى الكعبة قبل النبوّة باثنتى عشرة سنة وللنبى صلى الله عليه و آله يومئذ ثمان وعشرون سنة. وقد ماثله فى ذلك الشيخ أبو محمد الديلمى

ص: ۱۹۹

فی (إرشاده) ذاکراً أنّها من فضائله علیه السلام الجمّة المخصوصة به.

وقد ماثلهم فی ذلک أیضاً صاحب (منهاج البراعة) فی شرح نهج البلاغة السیّد حبیب اللّه الموسوی الخوئی بقوله «وقد خصّه اللّه بهذه الفضیلة علی سائر الأنام، ولم یولد فی البیت أحد قبله ولا بعده...».

ونهج منهجهم أیضاً العلّامة السید حیدر الکاظمی (ت ۱۲۶۵) فی کتابه (عمدة الزائر).. ناقلًا روایة ذکرها الشیخ فی الصحیح عن الإمام الصادق علیه السلام:

کانت ولادته یوم الأحد لسبع خلون من شعبان، وکان بین مولده ومولد رسول اللّه صلی الله علیه و آله ثلاثون سنة، ولم یولد قبله ولا بعده فی بیت اللّه الحرام سواه إکراماً له وتعظیماً له من اللّه تعالی بذلک وإجلالًا لمحلّه».

ویقول السید مهدی القزوینی (ت ۱۳۰۰) فی (فلک النجاة): ولد یوم الجمعة ثالث عشر رجب، وروی سابع شعبان، والأوّل أشهر بعد مولد رسول اللّه صلی الله علیه و آله بثلاثین سنة، فی الکعبة البیت الحرام،...».

وأمّا السید محسن الأعرجی فقد نسب ولادته فی شعبان إلی القیل ذاکراً حدیث یزید بن قَعنَب الذی ذکره الصدوق.

وهنا یقول شیخنا عن السید الأعرجی: «وهذا العالم البحّاثة النیقد وجد خلافاً فی شهر الولادة فأوعز إلیه، لکنّه لم یجد فی حدیث البیت أی تردید، فلم ینبس عنه ببنت شفّة، ولو کان مثله یجد شیئاً لما آثر ترکه؛ وهو ذلک الصریح الشدید فی البحث.

وهکذا کلّ من الشیخین عبد النبیّ الجزائری فی (حاوی الأقوال) والشیخ أبو علی الرجالی فی (منتهی المقال) وهما من أعلام الدین وقد أخبتا بها ولصحتها.

وفی الحدائق الندیة فی شرح الفوائد الصمدیة للسید علی خان المدنی الشیرازی (ت ۱۲۱۰)، قد أذعن بحقیقة وحقیّة ما نقله عن (الفصول المهمّة) لنور الدین علی الصباغ المکی المالکی (ت ۸۵۵) «ولد علیّ علیه السلام بمکة المشرّفة بداخل

ص: ۲۰۰

البیت الحرام... ولم یولد فی البیت الحرام قبله أحد سواه وهی فضیلة خصّه اللّه تعالی بها إجلالًا له وإعلاءً لمرتبته وإظهاراً لتکرمته».

وفی عقائد الشیعة لعلی أصغر البروجردی الذی ذکر فیه بأنّ مولده علیه السلام فی وسط البیت ضحی الجمعة بعد ثلاثین عاماً من ولادة النبی الأعظم.

بعد هذا کلّه یعلن المؤلف عن اکتفائه بهذه النماذج قائلًا: ولعلّها جمعاء کقطر من بحر بالنسبة إلی ما یجده السابر لکتب علمائنا.

علماء أهل السنّة:

ثمّ راح یعلن إصفاق علماء أهل السنّة ومحدّثیهم وعرفائهم معنا فی إثبات هذه المأثرة الفاضلة، وعدّ هذا من أجلی الحقائق وأثبتها. فکلام الحاکم فی مستدرکه وحکمه بتواتر النقل به، وما نقله الحافظ الکنجی الشافعی عنه ذلک وما حکم بتواتره المحدّث الدهلوی وقد وافقهم الآلوسی بما نصّه ب «أنّ ذلک مشهور فی الدنیا» ومثله ما ورد عن الصفوری الشافعی وفی «تاریخ گُزیده» لحمد اللّه المستوفی، و (مطالب السؤول) لابن طلحة الشافعی و (مرآة الکائنات) لنشانجی‌زاده و (سیر الخلفاء) للدهلوی المعاصر وکتاب (الحسین) للسید علی جلال الدین الحسینی، وعبد الباقی أفندی العمری والمولی الرومی، ومعین الدین الجشتی وعبد الرحمن الجامی فی شعرهم والأمیر محمد صالح الترمذی فی مناقبه.

ثمّ بعد کلّ هذا أخذ شیخنا أیضاً ینقل بعض أسماء العامّة ممّن لم یمتاروا فی صحّة خبر الولادة بل فسّروه خاضعین لأمره کما یصفهم بذلک شیخنا، فنور الدین الصبّاغ المکی المالکی (ت ۸۵۵) فی (الفصول المهمّة) قال صریحاً: ولد علی علیه السلام بمکّة المشرّفة بداخل البیت الحرام، یوم الجمعة الثالث عشر من شهر اللّه الأصمّ رجب الفرد، سنة ثلاثین من عام الفیل قبل الهجرة بثلاث وعشرین سنة،... ولم یولد فی البیت الحرام قبله أحد سواه، وهی فضیلة خصّه اللّه تعالی بها إجلالًا له

ص: ۲۰۱

وإعلاءً لمرتبته وإظهاراً لتکرمته» (۱)

وقد نقل هذه العبارة کلّ من الصفوری الشافعی فی (نزهة الحلبی) (۲) والسید علی خان المدنی فی (الحدائق الندیة) (۳) والشبلنجی الشافعی فی (نور الأبصار) والسمهودی فی (جواهر العقدین) وبرهان الدین الحلبی فی (انات العیون)، وما ذکره السبط ابن الجوزی فی (تذکرة خواص الأمّة) هو: «روی أنّ فاطمة بنت أسد کانت تطوف بالبیت وهی حامل بعلیّ علیه السلام فضربها الطلق، ففتح لها باب الکعبة، فدخلت فوضعته فیها، وکذا حکیم بن حزام ولدته أمّه فیها».

وهنا راح یفرّق بین الولادة المزعومة لحکیم بن حزام داخل الکعبة وبین ولادة علیّ علیه السلام داخل الکعبة فیقول:

إنّ ولادة حکیم فیها، علی تقدیر صحّتها- والکلام للمؤلّف- من جملة الصدف والاتفاقات غیر القصدیة، فلیس فیها فضل ما غیر تلویث البیت بالمخاض، ویجب تطهیره. وأین هذه من ولادة أمیر المؤمنین علیه السلام الذی فُتح لأُمّه الباب، کما فی عبارة السبط نفسه (ففتح لها باب الکعبة فدخلت فیها)، ولم یُفتح لغیرها بالرغم من جهدهم فی ذلک کما سبق فی أحادیث کثیرة، أو انشقّ لها جدار البیت فدخلته کما فی أحادیث الشیعة، ولا یعدو ذلک أن یکون الأمر إلهیاً قصد به التنویه بشریف المولود المبارک الذی تشرّف البیت بولادته فیه؟!

وهناک حدیث طویل أخرجه أبو نعیم الحافظ یبدو أنّه فی فضل فاطمة بنت أسد أو فی فضل ولادة علی داخل الکعبة إلّاأنّهم قالوا: «فی إسناده رَوح بن صلاح ضعّفه ابن عدیّ فلذلک لم نذکره».

وروح هذا فی الوقت الذی ضعّفه ابن عدی فإنّ ابن حبّان ذکره فی الثقات کما أنّ الحاکم قال عنه: ثقة مأمون (۴).

کما أن نقل ابن الجوزی حدیث الولادة المبارکة لعلیّ علیه السلام داخل الکعبة بصیغة المجهول «روی» لم یکن فیه- والکلام للشیخ- أی إیعاز إلی الوهن فیه بعدما عرفنا

۱- ۱ انظر الفصول المهمّة: ۳۰.

۲- ۲ نزهة الحلبی ۲: ۲۰۴.

۳- ۳ الحدائق الندیة: ۱۰.

۴- ۴ انظر العسقلانی فی لسان المیزان ۲: ۴۶۵.

ص: ۲۰۲

أنّ المعهود من ابن الجوزى فى غير مورد من هـذا الكتاب من إرداف الحـديث بنقـده أو تعميمه أو حـذفه رأساً لضـعفه، وإنّما جاء به كـذلك لتكـثر طرقه المـوجب للإطنـاب إذا تصـدّى لسـردها، ولشـهرته المغنى عن ذكر الأسانيـد، وإنّمـا الغرض الإشـارة إلى إحـدى المسلّمات بأوجز بيان.

ومثـل السـبط ابن الجوزى مثل السـيد ابن طاووس (ت ۶۶۴) فى كتـابه «الإقبال» حيث كان يـذكر روايـة ولادة الإمام عليه السـلام فى الكعبة بصـيغة المبنى للمجهول فكان يقول: روى أن يوم ثالث عشـر رجب كان مولد مولانا على بن أبى طالب عليه السـلام فى الكعبة قبل النبوّة باثنتى عشرة سنة» (۱).

والمتحصل من ذلك كلّه أنّ الولادة محل إجماعهم وتأريخها محل خلافهم.

وقفة المؤلف مع الكازرونى

قال أحمد بن منصور الكازرونى فى (مفتاح الفتوح):

ولدت فاطمة عليّاً عليه السـلام فى الكعبة، ونقل عنها أنّها كانت إذا أرادت أن تسـجد لصنم وعلىّ فى بطنها لم يمكّنها؛ ولذا يقال عند ذكر اسمه: «كرّم اللّه وجهه، أى كرّم اللّه وجهه عن أن يسجد لصنم».

وهنا يقول الشـيخ: أنا لا أحاول تصديق الرجل فى كلّ ما يقول غير ما أتيت به من كلامه شاهداً لموضوع الرسالة، فإنى لا أصافقه على أنّ فاطمة كانت تسـجد للصـنم، وإن كان ابنها أكبر وازع عن عبادة الأوثان، ولو كنت أجوّز لها تلكم الاسـطورة، لما عدانى اليقين بما ذكره من أمر جنينها. لكنّى أعتقد أنّ كون الإمام سلام اللّه عليه فى بطنها حملًا، وتقدير كونها حاملًا له عليه السلام من اللّه سبحانه منذ الأزل، كان عاصـماً لها عن عبادة الأصـنام كبرهان الربّ (العصمة) المانع يوسف عن الزنا، وهذا هو الذى نعتقده فى آباء النبىّ والأئمّة عليهم وعليه السلام وأُمّهاتهم، فهم مبرّؤون عمّا يصمهم فى دين أو دنيا.

۱- ۱ الإقبال: ۶۵۵.

ص: ۲۰۳

... ثمّ قال: إنا لا نقیم لهاتیك الروایة الساقطة وزناً، وإن وافق راویها فی إخراجها ابن حجر فی (الصواعق) ولقد أُسرَّ ناقلها حَسواً فی ارتغاء یزید وقیعة فی امّ الإمام كما تحامل علی أبیه المقدّس فحكم بكفره لأمر دبّر بلیل، فصبّها فی قالب الفضیلة له وتلقّاها الغیر فی غیر ما رویّة، انتهی.

أما عبد الرحمن الجامی فی (شواهد النبوّة) (۱) فقد أسند حدیث ولادة الإمام علی علیه السلام إلی بعضهم. وإن خلط الحابل بالنابل- كما یقول عنه المؤلّف- وجاء بعثرات لا تقال حول تاریخ الولادة مخالفة للضرورة والإجماع، إلّاأنّ المهمّ فی كلامه هو إسناد حدیث الولادة.

وما قاله الشیخ عبد الحق بن سیف الدین المحدّث الدهلوی فی (مدارج النبوّة)... وقالوا: إنّ ولادته كانت فی جوف الكعبة» (۲).

وأمّا حدیث الولادة الذی رواه یزید بن قعنب فقد ذكره الأمیر محمد صالح الكشفی الترمذی الأكبر آبادی فی كتابه (المناقب) بأسانید متكرّرة، وقد أرسله إرسال المسلّم فی كتابه المذكور، ونقل أیضاً فی كتابه هذا قول أبی داود البناكتی: «لم یحظ أحد قبل الإمام علیه السلام ولا بعده بشرف الولادة فی البیت» (۳).

وصدر الدین أحمد البردوانی وهو من متأخّری علماء السنّة فی (روائح المصطفی) قال: كانت ولادته علیه السلام فی جوف الكعبة...» (۴).

وشاه محمد حسن الجشنی فی كتاب (آئینه تصوف) قال: إنّه علیه السلام ولد فی الكعبة... ومیرزا محمد بن رستم البدخشی قال فی (مفتاح النجا فی مناقب آل العبا):... ولم یولد فی البیت الحرام أحد سواه، قبله ولا بعده، وهی فضیلة خصّه اللَّه بها».

وأمّا العلّامة الشیخ الشنقیطی المدرس بالأزهر فی (كفایة الطالب لمناقب علی ابن أبی‌طالب) وهو شدید التحرّز من أحادیث الروافض المكذوبة كما یزعم؛

۱- ۱ شواهد النبوّة: ۱۹۸.

۲- ۲ مدارج النبوّة ۲: ۵۳۱ مترجماً من الفارسیة.

۳- ۳ مناقب مرتضوی: ۸۷ ط بومبای سنة ۱۳۲۱ ه. مترجماً من الفارسیة.

۴- ۴ روائح المصطفی: ۱۰ ط كابنور سنة ۱۳۰۲ مترجماً من الفارسیة.

ص: ۲۰۴

لأن الإمام علیه السلام فی غنی عنها کما یری الشنقیطی لکثرة ما ثبت فی السنّة من أحادیث فضائله، أرسله إرسال المسلّم أن من مناقبه- کرّم اللَّه وجهه- أنّه ولد فی داخل الکعبة، ولم یعرف ذلک لأحد غیره إلّاحکیم بن حزام رضی اللَّه عنه.

وقد أوضحنا القول فی هذه الولادة الأخیرة المزعومة فی المقدّمة وفی متون هذا الکتاب فلا نعید.

وقفة أخیرة:

ویفرد المؤلف ختام فصله الأخیر من کتابه القیم هذا بمناقشة مختصرة لما قاله الشیخ علی القاری فی (شرح الشفا) بعد أن قال فی حکیم بن حزام: «ولا یعرف أحد ولد فی الکعبة غیره علی الأشهر» ما نصّه: «وفی "مستدرک الحاکم "أن علیّ بن أبی طالب- کرّم اللَّه وجهه- أیضاً ولد فی داخل الکعبة» (۱).

فیقول الشیخ المؤلف بعد ذکره لما قاله القاری:

لیت القاری لم یسحب ذیل أمانته علی کلمة الحاکم الموجودة فی (المستدرک)... ولیته ذکر قوله: تواترت الأخبار أنّ فاطمة بنت أسد ولدت أمیر المؤمنین فی جوف الکعبة. ثمّ واصل الشیخ ردّه بقوله: لیت! وهل ینفع شیئاً لیتُ؟

عذرته، فهو حین رمی القول علی عواهنه فی ولادة حکیم بن حزام بإسناده إلی الأشهر المستخرج من عُلبة مخیّلته لم یکن یسعه المصارحة بأنّ خلافه ممّا تواترت به الأخبار، فلا أقلّ من التکافؤ بأن یکون کلّ منهما مشهوراً. فکان الأحفظ لسمعته والأستر لَمینه، أی (لکذبه) أن یمسخ کلمة الإمام الحاکم إلی رأیت، وکان من المحتمل القریب أن لا یناقشه أحد الحساب، لکن الحقیقة لابدّ وأن تبرز نفسها.

۱- ۱ کفایة الطالب: ۲۵ و ۳۷، وشرح الشفا ۱: ۱۵۱، المستدرک ۳: ۴۸۳.

ص: ۲۰۵

الهوامش:

الامام على عليه السلام فى مرآة الشعر

ص: ۲۰۹

الإمام علی علیه السلام فی مرآة الشعر

لم یکن لغیره من الصحابة علی کثرتهم وعظیم فضائل بعضهم ما کان له علیه السلام فی دیوان الشعر قدیماً وحدیثاً منذ صدر الإسلام وإلی عصرنا هذا... (۱) فقد راح الشعراء المبدعون والأدباء البارعون من المسلمین وغیرهم یحلّون دواوینهم وقصائدهم بمناقب وفضائل علیٍّ حتّی سارت بها الرکبان وانتشر عبیرها..، وقد تعرّض بعض الشعراء الکبار والمکثرین من الشعر إلی اللوم والعتب مرّةً وإلی التقریع أخری إذا خلا دیوانهم من قصیدة تتضمّن فضیلة لعلیّ أو شیئاً من صفاته وخصاله، وهذا الشاعر الکبیر المتنبی عوتب مراراً علی عدم ذکره لعلی علیه السلام، فسما جوابه وتألّق حیث قال:

وترکتُ مدحی للوصی تعمّداً إذ کان نوراً مستطیلًا شاملا

وإذا استطال الشیء قام بنفسه وصفات ضوء الشمس تذهب باطلا

وها نحن أمام لفیف منهم ومقتطفات من قصائدهم التی سجّلوا فیها مواقف عظیمة ومشاهد جلیلة کانت من نصیبه، ومناقب وخصالًا فریدة تحلّی بها بفضلٍ

۱- ۱ أنظر کتاب الغدیر للشیخ الأمینی، ونهایة الجزء الأوّل من کتاب فی رحاب أئمّة أهل البیت علیهم السلام وبدایة المجلّدالتاسع من موسوعة الإمام علی علیه السلام وغیرها.

ص: ۲۱۰

من اللّه تعالی ورسوله صلی الله علیه و آله فزهت قصائدهم ولو بشیء یسیر من ذلک الطود الشامخ؛ من المناقب والصفات والمشاهد لسیّد المتّقین ومولی الموحدین کما خلدوا بها.

ومن هولاء:

الشیخ محمد بن عبد المطلب المصری (ت ۱۳۵۰) نقتبس شیئاً من قصیدته الطویلة جداً:

أبا السبطین کیف تفی المعانی نثاراً فی مدیحک أو نظاما

مقام دونه نُجب القوافی وإن کانت مسوّمة کراما

فحسبک یا أخا الشعراء عذراً رمیت بها مکاناً لن یراما

وما أدراک ویحک ما علیّ فتکشف عن مناقبه اللثاما

تبصر هل تری إلّاعلیّاً إذا ذکر الهدی ذاک الغلاما

غلام یبتغی الإسلام دیناً ولما یعد أن بلغ الفطاما

وصلّی حیدر فشأی قریشا إلی الحسنی فسمّوه الإماما

کأنّی بالثلاثة فی المصلّی جمیعاً عند ربّهم قیاما

تحییهم ملائکة کرام وتقرئهم عن اللّه السلاما

یمد إلی النبی ید ابن عم بحبل اللّه یعتصم اعتصاما

وإذ یدعو العشیرة یوم جمع لینذر فی رسالته الأناما

فکهل فیجهالته تولی وشیخ فی ضلالته تعامی

وأیده علی التقوی أخوه إذا ما خاف کل أخ وخاما

صغیر السن یخطر فی اباء فلا ضیماً یخاف ولا ملاما

وقد جمع الحجی والدین فیه خلائق تجمع الخیر اقتساما

فما أوفی علی العشرین حتی شهدنا من عظائمه عظاما

فلن ینسی النبیّ له صنیعاً عشیة ودع البیت الحراما

فأرخصها فدًی لأخیه لما تسجی فی حظیرته وناما

ص: ۲۱۱

وأقبلت الصوارم والمنايا لحرب اللّه تنتحم انتحاما

فلم يأبه لها أنفاً عليّ ولم تقلق بجفنيه مناما

وأغشى اللّه أعينهم فراحت ولم ترَ ذلك البدر التماما

وفى أمّ القرى خلى أخاه على وجد به يشكو الأواما

أقام بها ليقضيها حقوقاً على الهادى بها كانت لزاما

كأنى بابن عتبة يوم بدر يعانى تحت مجثمه جثاما

ولو علم الوليد بمن سيلقى لألقى قبل مصرعه السلاما

ومن غدت البتول إليه تهدى بنى فى النجم بيتاً لا يسامى

بأمر اللّه قد زفّت إليه عشية راح يخطبها وساما

كأنّى بالملائک إذ تدلت بذاک البيت تزدحم ازدحاما

فلو كشف الحجاب رأيت فيه جنود اللّه تنتظم انتظاما

أطافوا بالحظيرة فى جلال صفوفاً حول فاطمة قياما

تفيض على منصتها وقاراً وتكسو حسن طلعتها وساما

فلا يحزن خديجة أن تولّت ولم تبلغ بجلوتها مراما

تولاها الذى ولى أباها رسالته وزوّجها الإماما

قران زاده الإسلام يمناً وشملٌ زاده الحبّ التئاما

فإن تک خير من عقدت ازاراً وأكرم كلّ من ارخت لثاما

فإن تسأل فسائل عنه احداً غداة هناک طير الموت حاما

وحطم غمد صارمه عليّ وذبّ عن النبيّ بها وحامى

هنالک بادر الكرّار لمّا غدوا والرعب قد منع الكلاما

إذا ما همّ أقعده أخوه وزاد إلى اللقاء جوًى فقاما

مكانک يا على فذاک عمرو له الأبطال يوم وغى تحامى

فقال وإن يكن عمراً فإنّى على سوف ألجمه الحساما

ص: ۲۱۲

فلم يک غير أن أودى ابن ودٍّ وخاض السيف فى دمه وعاما

وسائل يوم خيبر عن‌على تجدفيهاماآثره جساما

ولم‌تغن‌الحصون ولا الصياصى وإن قام الحديد لها دعاما

وأقبل مرحب فى البأس يحبو وكان البأس صاحبه لزاما

وما علم الفتى انّ المنايا خططن بذى الفقار له مناما

وان له من الكرّار يوماً عبوساً مدنياً منه الحماما

علاه بضربهٔ لو انّ رضوى تلقاها لعاد بها هياما (۱)

وسل اهل السلام تجد علياًإمام الناس يبتدر السلاما

حوى علم النبوّهٔ فى فؤادطما بالعلم زخاراً فطاما (۲) ونفساً لم تذق طعم الدناياولا لذت من الدنيا طعاما

طوى عنها على الضراء كشحاوعن فانى زخارفها تسامى

غذاها الدين مذ كانت فشبّت‌على التقوى رضاعاً وانقطاما

الشيخ عبد المهدى مطر:

ارصف بباب على أيّها الذهب واخطف بأبصار من سروا ومن غضبوا

وقل لمن كان قد أقصاک عن يده عفواً إذا جئت منک اليوم اقترب

لعلّ بادرهٔ تبدو لحيدرهٔ أن ترتضيک لها الأبواب والعتب

فقد عهدناه والصفراء منكرهٔ لعينه وسناها عنده لهب

ما قيمهٔ الذهب الوهّاج عند يدٍ على السواء لديها التبر والترب

ما سره أن يرى الدنيا له ذهباً وفى البلاد قلوب شفها السغب

ولا تضجر أكباد مفتتهٔ حتى يذوب عليها قلبه الحدب

أو يسقط الدمع من عينى مولههٔ أجابها الدمع من عينيه ينسكب

تهفو حشاه لأنات اليتيم بلا أمّ تناغى ولا يحنو عليه أب

۱- ۱ الهيام: الرمل المهيل.

۲- ۲ طام: حسن عمله.

ص: ۲۱۳

هذی هی السیرة المثلی تموج بها روح الوصی وهذا نهجه اللحب

فاحذر دخول ضریح أن تطوف به إلا بإذن علیّ أیّها الذهب

باب به ریشة الفنّان قد لعبت فأودعته جمالًا کلّه عجب

تکاد لا تدرک الأبصار دقّته ممّا تماوج فی شرطانه اللهب

کأن لجّة أنواع تموج به خلالها صور الرائین تضطرب

سبائک صبها الإبداع فارتسمت روائع الفن فیها الحسن منسکب

یدنو الخیال لها یوماً لینعتها وصفاً فیرع منکوساً وینقلب

أدلت بها ید فنان منقمة تعنو لروعتها الأجیال والحقب

ملء الجوانح ملء العین رهبتها ومربض اللیث غاب ملؤه رهب

العالم الجلیل السیّد محمّد جمال الهاشمی:

أأبا الحسین

خشعتْ یُهلِّلُ حبّها ویکبّرُ روحٌ تموتُ علی وِلاکَ وتحشرُ

أنّی نظرتُ أراکَ ترقب نظرتی فکأنَّ عینی فی وجودک تنظر

هذا جمالُکَ وهو یغمر عالمی حبّاً تذوب به الحیاةُ وتصهر

فی کلِّ آونةٍ أراک بصورة تخفی ملامحها عَلیَّ وتظهر

کالروح تظهرها الحیاة وإنّما ناموسها بظهورها یتستَّر

قسماً بحبّکَ وهو أقدس ما به أزهو علی کلِّ الوجود وأفخر

ما حاولتْ نجوی ولاک قریحتی إلّا وغَصَّ شعوری المتفجِّر

فإذا نطقتُ فإن وحیک ناطقٌ بفمی، وإن أمسکتُ فیکَ أفکر

روحی فداکَ، وسر روحی کامنٌ بکَ، فالفدا لکَ منکَ فضل یؤثر

زدنی هوًی تزدد بذاک ذخیرتی فی النشأتین، ومثل حبّکَ یذخر

***

ص: ۲۱۴

أ أبا الحسین، وفی حسینکَ صورهٔ فیها ملامحک الکریمهٔ تسفر

عفواً إذا زلَّ الشعور، فموقفی یعفی به زلل الشعور ویغفر

ناجیتُ حقَّک وهو نهبُ مطامع محمومهٍ فیها الکرامهٔ تهدر

ونظرتُ روحک وهی من لاهوتها تستعرض المتکالبین فتسخر

وقفوا وسرتَ مع الخلود، وهکذا تبقی الحقیقهٔ، والسفاسف تقبر

ولأنتَ أقدرُ لو أردت إمارهً منهم، وأثبتُ فی الجهاد وأخبر

ولکَ المواقف لا یغیب شعاعها أبداً، ولا أطیابها تتغور

یزهو بها بدرٌ، ویفخر خندق ویشیعها أحدٌ، ویهتف خیبر

وشواهد نبویّهٔ ما کررّتْ فی محضرٍ، إلّا وفاح المحضر

ولتلکَ أوسمهٌ إذا ما قوبلت بالشمس راح جلاها یتکور

السیّد مصطفی جمال الدین:

سیّدی أیّها الضمیر المصفی والصراط الذی علیه نسیرُ

لکَ مهوی قلوبنا وعلی زا دِک نُربی عقولنا ونمیر

نحن عشّاقک الملحون فی العش - ق وإن هام فی هواک الکثیرُ

نحن نهواک لا لشیء سوی أنّک من أحمد أخٌ ووزیرُ

ومفاتیح من علوم حباها لک إذ أنت کنزها المذخورُ

ضرب اللَّه بین وهجیکما حدّاً فأنت المنار وهو المنیرُ

وإذا الشمس آذنت بمغیب غطّت الکون من سناها البدورُ

بولس سلامهٔ، من ملحمته التأریخیّهٔ الکبری (عید الغدیر):

سمع اللیل فی الظلام المدید همسهٔ مثل أنّهِ المفؤودِ (۱)

من خفیّ الآلام والکبت فیها ومن البشر والرجاء السعیدِ

حرّهٔ لزّها المخاض فلاذتبستار البیت العتیق الوطیدِ

۱- ۱ فی الغدیر: المفقود.

ص: ۲۱۵

کعبهٔ اللَّه فی الشدائد تُرجیفهی جسر العبید للمعبودِ

لا نساء ولا قوابل حفَّتبابنهٔ المجد والعُلا والجودِ

یذر الفقر أشرف الناس فرداًوالغنیّ الخلیع غیر فریدِ

أینما سار واکَبتْهُ جباهٌوظهورٌ مخلوقهٌ للسجودِ

صبرت فاطم علی الضیم حتّیلهث اللیل لهثهٔ المکدودِ

وإذا نجمهٌ من الافق خفّتتطعن اللیل بالشعاع الحدیدِ

وتدانت من الحطیم وقرّتوتدلّت تدلّی العُنقُودِ

تسکب الضوء فی الأثیر دفیقاًفعلی الأرض وابلٌ من سعود

واستفاق الحمام یسجع سجعاًفتهشُّ الأرکان للتغریدِ

بَسَمَ المسجد الحرام حبوراًوتنادت حجاره للنشیدِ

کان فجران ذلک الیوم فجرٌلنهار وآخرٌ للولیدِ

هالت الامّ صرخهٌ جال فیهابعض شیء من همهمات الأُسودِ

دعت الشبل حیدراً وتمنَّتوأکبّت علی الرجاء المدیدِ

أسداً سمّت ابنها کأبیهالِبْدَهٔ الجَدّ أُهدیت للحفیدِ

بل علیاً ندعوه قال أبوهفاستفزَّ السماء للتأکیدِ

ذلک اسم تناقلته الفیافیورواه الجُلمود للجُلمودِ

یهرم الدهر وهو کالصبح باقٍکلّ یوم یأتی بفجرٍ جدید (۱) لبیب بیضون، وقصیدته فی فضائل الإمام علیه السلام نذکر بعضاً منها:

هو الأمیر وساقی الحوض منفرداً هو الإمام بلا شک ولا ریب

أعداؤه شهدوا بالحقّ إذ عجزوا أن ینکروا فضله فی کلّ منقلب

۱- ۱ وردت هذه الأبیات فی الغدیر ۶: ۳۷ و ۳۸.

ص: ۲۱۶

قد حاولوا کتمها دوماً وما علموا أنّ الروائح ما إن تخفها تطب

وکیف یمکنهم طمساً لشمس ضحی تختال مشرقهً مشبوبهٔ اللهب

نارٌ علی علم فی کلّ موقعهٔ حسامه مشرق الحدَّین لم یغب

ویوم موقعهٔ الأحزاب ضربته دکت صروح العدا رأساً علی عقب

وفی العبادهٔ ما أحلی تعبده علی الجبین تری سیماه والرکب

إن شئته بطلًا فی الحرب منتصباً أو ساجداً تلقه والدمع فی سلب

وفی السیاسهٔ حکم اللَّه دیدنه دون الدهاء قرین الکفر والکذب

الهوامش:

ص: ۲۱۷

حدیث الغدیر فی ضوء الکتاب واللغة

نوری حاتم

مصادر حدیث الغدیر:

قبل البحث فی دلالات حدیث الغدیر أجد من الضروری إلقاء نظرة علی صیغة الحدیث فی مصادره عند الشیعة والسنّة، لیحصل الاطمئنان بأنه من الأحادیث المتواترة الثابتة فی کتب الفریقین، وللتأکید بأنّ اللفظ وهو (المولی) الذی نستدل به علی جعل الإمامة لعلیّ علیه السلام من قبل النبی صلی الله علیه و آله، موجود فی جمیع الصیغ الواردة فی کتب علماء الفریقین.

حدیث الغدیر فی مصادر أهل السنة:

۱- قال النبی صلی الله علیه و آله یوم غدیر خم:

«ألست أولی بالمؤمنین من أنفسهم وأزواجی أمهاتهم؟ فقلنا بلی یارسول اللَّه. قال: فمن کنت مولاه فعلیّ مولاه اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه» (۱).

۲- وعن زاذان أبی عمر قال:

سمعت علیّاً فی الرحبة، وهو ینشد الناس: من شهد رسول اللَّه صلی الله علیه و آله یوم غدیر خم وهو یقول ما قال.

فقام ثلاثة عشر رجلًا فشهدوا أنهم سمعوا رسول اللَّه صلی الله علیه و آله وهو یقول: من کنت مولاه فعلی مولاه» (۲).

۳- «إنّ النبی صلی الله علیه و آله قال یوم غدیر خم: «من کنتُ مولاه» فعلی مولاه قال

۱- ۱ مسند أحمد، رقم الحدیث ۹۱۵.

۲- ۲ مسند أحمد، رقم الحدیث ۹۰۶.

ص: ۲۱۸

(ربما الراوى وهو أبو مريم أو غيره) فزاد الناس بعد: والِ من والاه وعادِ من عاداه» (۱).

وفيه: أنّ هـذه الزيادة ليست من الناس، بل هى رواية عن النبى صـلى الله عليه و آله عن زيد عن رسول اللَّه فى حديث رقم ۱۸۵۲۲ فى مسند أحمد.

ثم إن هذه الإضافة موجودة فى مصادر الحديث الأخرى عند الطائفتين، فلا إشكال فى ثبوت صدورها عن النبى صـلى الله عليه و آله، ثم إن مورد الاستشـهاد إنما بصـدر الحـديث أى قوله صـلى الله عليه و آله: «من كنتُ مولاه فعلى مولاه». وليس بذيله، أى: (اللهم والِ من والاه...).

۴- وعن أبى سرحة أو زيد بن على عن النبى صلى الله عليه و آله: «من كنت مولاه فعلى مولاه» (۲).

۵- وقال سـعد بن أبى وقاص لمعاوية بن أبى سفيان بعد أن نال الأخير من علىّ عليه السلام: «تقول هذا لرجل سمعت رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يقول: من كنت مولاه فعلى مولاه» (۳).

۶- «وعن عامر بن سـعد عن سـعد، أنّ رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله خطب فقال: أما بعـد، أيّها الناس فإنى وليكم قالوا: صـدقت، ثم أخذ بيد علىّ فرفعها ثم قال: هذا وليىّ والمؤدى عنى، والِ اللهم من والاه، وعادِ اللهم من عاداه.

۷- وعن عائشة بنت سعد عن سعد قال: أخذ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بيد على فخطب فحمد اللَّه وأثنى عليه ثم قال:

ألم تعلموا أنى أولى بكم من أنفسكم؟

قـالوا: نعم، صـدقت يـارسول اللَّه. ثم أخـذ بيـد على فرفعها: فقال: من كنت وليه فهـذا وليه، وإن اللَّه ليوال من والاه ويعادى من عاداه» (۴).

۸- «وعن عائشة بنت سعد عن سعد أنه قال: كنا مع رسول اللَّه بطريق مكّة، وهو متوجه إليها، فلما بلغ غدير خم الذى بخم وقف الناس ثم ردّ من مضى ولحقه من تخلف فلما اجتمع الناس قال: أيّها الناس هل بلغت؟

قالوا: نعم. قال: اللهم اشهد. ثم قال:

أيها الناس هل بلغت؟ قالوا: نعم. قال:

اللهم اشهد ثلاثاً (ثم قال) أيها الناس من وليكم؟

قالوا: اللَّه ورسوله- ثلاثاً- ثم أخذ

۱- ۳ مسند أحمد، رقم الحديث ۱۲۴۲.

۲- ۴ مسند الترمذى، كتاب المناقب- رقم الحديث ۳۶۴۶.

۳- ۵ سنن بن ماجة، رقم الحديث ۱۱۸.

۴- ۶ خصائص الإمام أمير المؤمنين على بن أبى‌طالب: ۱۷۶ حديث رقم ۹۴ و ۹۵.

ص: ۲۱۹

بید علی بن أبی طالب فأقامه فقال: من کان اللَّه ورسوله ولیه فإن هذا ولیه، اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه» (۱).

۹- «روی عثمان بن سعید عن شریک بن عبد اللَّه، قال: لما بلغ علیّاً علیه السلام أنّ الناس یتهمونه فیما یذکره من تقدیم النبی صلی الله علیه و آله وتفضیله إیاه علی الناس، قال علیه السلام: أنشد اللَّه من بقی ممّن لقی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله وسمع مقاله فی یوم غدیر خم إلّا قام فشهد بما سمع؟

فقام ستة ممن عن یمینه من أصحاب رسول اللَّه صلی الله علیه و آله وستة ممن علی شماله من الصحابة أیضاً فشهدوا أنهم سمعوا رسول اللَّه صلی الله علیه و آله یقول ذلک الیوم وهو رافع بیدی علی: من کنتُ مولاه فهذا علی مولاه، اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه وانصر من نصره وأخذل من خذله، وأحبَّ من أحبَّه وأبغض من أبغضه» (۲).

«وفی مکان آخر من کتاب النهج ینقل ابن أبی‌الحدید هذه القطعة الإضافیة «وأنس بن مالک فی القوم لم یقم: فقال له یا أنس! ما یمنعک أن تقوم فتشهد ولقد حضرتها؟

فقال: یاأمیر المؤمنین کبرت ونسیت. فقال: اللهم إن کان کاذباً فارمه بها بیضاء لا تواریها العمامة.

قال طلحة بن عمیر: فواللَّه لقد رأیت الوضح به بعد ذلک أبیض من عینیه» (۳).

۱۰- «قال صلی الله علیه و آله یوم غدیر خم: من کنت مولاه فعلی مولاه، اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه» (۴).

۱۱- «وقام النبیّ صلی الله علیه و آله خطیباً وأخذ بید علی بن أبی طالب فقال: ألست أولی بالمؤمنین من أنفسهم؟

قالوا: بلی یا رسول اللَّه صلی الله علیه و آله.

قال: فمن کنت مولاه فعلی مولاه، اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه» (۵).

۱۲- وقال النبی صلی الله علیه و آله للمسلمین فی عودته من حجّة الوداع: «من کنت مولاه فعلی مولاه، اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه» (۶).

حدیث الغدیر فی کتب الشیعة:

ومن الواضح أن جمیع کتب الشیعة التی تعرضت لسیرة النبی صلی الله علیه و آله، أو

۱- ۷ ترجمة الإمام علی من تاریخ دمشق ۲: ۵۳.

۲- ۸ شرح ابن أبی الحدید ۲: ۲۸۷.

۳- ۹ شرح نهج البلاغة ۴: ۴.

۴- ۱۰ الصواعق المحرقة: ۱۲۲.

۵- ۱۱ تاریخ الیعقوبی ۲: ۱۱۲.

۶- ۱۲ المجموعة الکاملة لمؤلفات الدکتور طه حسین، المجلد الرابع: الخلفاء الراشدون: ۴۴۳.

ص: ۲۲۰

لفضائل علی علیه السلام ومناقبه، أو التی تعرضت لمسائل الإمامة ذکرت حدیث الغدیر، ونحن هنا نشیر إلی بعض ماسجله علماء الشیعة فی نقل حدیث الغدیر کنموذج لذلک:

۱- فلما رجع رسول اللَّه صلی الله علیه و آله من حجة الوداع نزل علیه جبرئیل علیه السلام فقال: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْکَ مِنْ رَبِّکَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُکَ مِنْ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَايَهْدِی الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (۱).

فنادی الناس فاجتمعوا، ثم قال علیه الصلاة والسلام: (یاأیها الناس مَن ولیکم وأولی بکم من أنفسکم؟

فقالوا: اللَّه ورسوله.

فقال: من کنت مولاه فعلی مولاه، اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه- ثلاث مرات-» (۲).

۲- قال النبی صلی الله علیه و آله: «إنی قد دعیت ویوشک أن أجیب، وقد حان منی خفوق من بین أظهرکم وإنی مخلف فیکم ما أن تمسکتم به لن تضلوا:

کتاب اللَّه وعترتی أهل بیتی، فإنهما لن یفترقا حتی یردا علیَّ الحوض.

ثم نادی بأعلی صوته: ألست أولی بکم منکم بأنفسکم؟

قالوا: اللهم بلی.

فقال: فمن کنت مولاه فهذا علیّ مولاه، اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله» (۳).

۳- وقال النبی (صلی اللَّه علیه وآله وسلم): ألا وإنی أشهدکم أنی أشهد أنّ اللَّه مولای وأنا مولی کلّ مسلم وأنا أولی بالمؤمنین من أنفسهم، فهل تقرّون لی بذلک وتشهدون لی به؟

فقالوا: نعم، نشهد لک بذلک.

فقال: ألا من کنت مولاه فإنّ علیاً مولاه، اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه وانصر من نصره وأخذل من خذله» (۴).

۴- قال النبی صلی الله علیه و آله: من کنتُ مولاه فهذا علی مولاه» (۵).

۵- قال النبی صلی الله علیه و آله: «من کنت مولاه فعلی مولاه» (۶).

۶- قال النبی صلی الله علیه و آله: فمن کنت مولاه فعلی مولاه، اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه وانصر من نصره

۱- ۱۳ سورة المائدة: ۶۷.

۲- ۱۴ الأصول من الکافی ۱: ۲۹۵.

۳- ۱۵ الارشاد، للمفید: ۹۴.

۴- ۱۶ الخصال: ۱۶۶ حدیث رقم ۹۸.

۵- ۱۷ کمال الدین وتمام النعمة: ۱۰۳.

۶- ۱۸ التوحید: ۲۱۲- باب أسماء اللَّه تعالی.

ص: ۲۲۱

واخذل من خذله» (۱).

وأثبت المحدث هاشم البحرانی ۸۸ حدیثاً فی الغدیر من طرق العامة و ۳۶ روایة من طرق الشیعة (۲).

ولقد أحصی السیّد المحقّق الطباطبائی فی کتابه (الغدیر فی التراث الإسلامی) ۱۶۴ کتاباً صنف حول واقعة الغدیر.

معانی حدیث الغدیر:

وبعد أن ألقینا ضوءاً کافیاً علی أصل الحدیث، واهتمام رواة الحدیث وأرباب السنن بنقله، نتناول دلالة حدیث الغدیر علی ثبوت امامة علی بن أبی طالب علیه السلام بعد وفاة النبی صلی الله علیه و آله، ونستعرض أهم الشبهات التی اثیرت علی ذلک، وحاولت- بعد التسلیم بصدور الحدیث عن النبی صلی الله علیه و آله- تفسیره بمعانٍ لا تساعد علیها اللغة والاستعمال والقرائن العامة التی حفّت بالحدیث.

استعمال لفظ المولی:

استعملت لفظة المولی فی القرآن الکریم فی اللغة فی معانٍ عدیدة:

۱- فقد وردت بمعنی (الأولی) فی تفسیر قوله تعالی: فَالْیَوْمَ لَایُؤْخَذُ مِنْکُمْ فِدْیَةٌ وَلَا مِنْ الَّذِینَ کَفَرُوا مَأْوَاکُمْ النَّارُ هِیَ مَوْلَاکُمْ وَبِئْسَ الْمَصِیرُ (۳).

واختاره أبو عبیدة معمر بن المثنی فی کتابه فی القرآن (المجاز)، فی تفسیره الآیة المتقدمة، واستشهد ببیت لبید:

فغدت کلا الفرجین تحسب أنه مولی المخافة خلفها وأمامها (۴)

وقال به الزجاج والفراء أیضاً.

۲- ووردت بمعنی المتصرف بالأمر فی تفسیر قوله تعالی: وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاکُمْ (۵).

قال الفخر الرازی فی تفسیره ناقلًا عن القفال:

هو مولاکم: سیدکم والمتصرف فیکم (۶).

۳- وردت بمعنی المتولی فی الأمر فی تفسیر قوله تعالی:

ذَلِکَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَی الَّذِینَ آمَنُوا (۷) کما اختاره أبو العباس (۸).

۴- وردت بمعنی الناصر فی تفسیر قوله تعالی: ذَلِکَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَی الَّذِینَ آمَنُوا وَأَنَّ الْکَافِرِینَ لَامَوْلَی لَهُمْ

۱- ۱۹ معانی الاخبار: ۶۳ حدیث رقم ۱.

۲- ۲۰ راجع کتاب کشف المهم فی طریق خبر غدیر خم.

۳- ۲۱ سورة الحدید: ۱۶.

۴- ۲۲ الشافی ۲: ۱۷۷.

۵- ۲۳ سورة الحج: ۷۸.

۶- ۲۴ تفسیر الرازی ۶: ۲۱۰.

۷- ۲۵ سورة محمد: ۱۱.

۸- ۲۶ الغدیر ۱: ۳۶۷.

ص: ۲۲۲

(۱) كما ذكر ذلك الشيخ المفيد قدس سره (۲) وفسر لفظ المولى بمعنى الولى أيضاً كما عن الحاكم الحسكانى (۳).

۵- ووردت بمعنى الوارث كما فى تفسير قوله تعالى: وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ... (۴) «وقال السدى: إنّ الموالى بمعنى الورثة وهو أقواها» (۵).

۶- ووردت بمعنى الصاحب فى تفسير قوله تعالى: يَوْمَ لَايُغْنِي مَوْلىً عَنْ مَوْلىً شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (۶) كما اختاره الطبرسى فى تفسيره (۷).

۷- ووردت بمعنى المالك كما فى تفسير قوله تعالى:

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَايَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ (۸).

كما أشار إليه ابن الجوزى فى تذكرته (۹).

۸- وجاءت بمعنى العبد، وقيل: ابن العم (۱۰) فى تفسير قوله تعالى:

ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ (۱۱).

۹- ووردت بمعنى ابن العم، قال الفضل بن العباس فى ذلك:

مهلًا بنى عمنا مهلًا موالينا لا تظهرون لنا ماكان مدفونا (۱۲)

۱۰- ووردت بمعنى الحليف، حيث قال الشاعر:

موالى حلف لاموالى قرابة ولكن قطينا يسألون الاتاويا (۱۳)

۱۱- ووردت بمعنى الربّ ومنه قول القائل:

«وقد وكلكم إلى المولى الكافى» أى الرب (۱۴).

۱۲- ووردت بمعنى السيد، فقد ورد فى مجمع البحرين: «وتنكيل المولى بعبده بأن يجذع أنفه» (۱۵).

وقال الخليل الفراهيدى:

والموالى بنو العم، والموالى من أهل بيت النبى صلى الله عليه و آله من يحرم عليه الصدقة.

والمولى: المعتق والحليف والولى (۱۶).

والولى والمولى يستعملان فى ذلك كل واحد منهما، يُقال فى معنى الفاعل أى الموالى وفى معنى المفعول أى الموالى

۱- ۲۷ سورة محمد: ۱۱.

۲- ۲۸ عدة رسائل: ۱۸۶ للشيخ المفيد.

۳- ۲۹ شواهد التنزيل لقواعد التفضيل ۲: ۱۷۴.

۴- ۳۰ النساء: ۳۳؛ راجع تفسير الميزان ۴: ۳۶۳.

۵- ۳۱ التبيان فى تفسير القرآن ۳: ۱۸۶.

۶- ۳۲ سورة الدخان: ۴۲.

۷- ۳۳ مجمع البيان ۹: ۱۰۱.

۸- ۳۴ سورة النحل: ۷۶.

۹- ۳۵ تذكرة الخواص: ۳۷.

۱۰- ۳۶ مجمع البيان ۷: ۵۲۸.

۱۱- ۳۷ سورة الاحزاب: ۵.

۱۲- ۳۸ التبيان فى تفسير القرآن ۳: ۱۸۷.

۱۳- ۳۹ تذكرة الخواص: ۳۸.

۱۴- ۴۰ البداية والنهاية ۶: ۳۳۴.

۱۵- ۴۱ مجمع البحرين ۴: ۳۷۳.

۱۶- ۴۲ كتاب العين ۸: ۳۶۵، للخليل الفراهيدى.

ص: ۲۲۳

يُقال للمؤمن هو ولى اللّه ولم يرد مولاه (۱).

وقد يُقال: بأنه إذا كان النبى صلى الله عليه و آله أراد أن ينصب علياً إماماً للمسلمين من بعده، فلماذا لم يذكر ذلك بلفظ يكون نصّياً فى المعنى، فلا يقع النزاع بعد ذلك؟

والجواب:

إنّ حديث الغدير وماتقدمه من كلام وما تأخر عنه يدل دلالة واضحة على مراد النبى صلى الله عليه و آله فى تعيين علياً إماماً بعده، فإذا أمكن النقاش فى دلالة حديث الغدير؛ ودعوى عدم وضوحه فى إفادة المعنى، فإنه يمكن النقاش فى كل نص يرد لا يحتمل معنى آخر غير معنى الإمامة على تقدير صدوره من النبى صلى الله عليه و آله كما ردّ طلب النبى- وهو على فراش الموت- فى أن يكتب لهم كتاباً لن يضلوا من بعده أبداً، حيث رفض عمر بن الخطاب ذلك الطلب وقال: إنّ الرجل ليهجر (۲) أو غلب عليه الوجع كما روى ذلك البخارى بسنده عن عبيداللّه بن عبد اللّه عن ابن عباس قال:

لما اشتد بالنبى صلى الله عليه و آله وجعه قال: أئتونى بكتاب اكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده قال عمر: إنّ النبى صلى الله عليه و آله غلب عليه الوجع وعندنا كتاب اللّه حسبنا فاختلفوا وكثر اللغط قال صلى الله عليه و آله: قوموا عنى ولا ينبغى عندنا النزاع، فخرج ابن عباس يقول: الرزيئة كل الرزيئة ماحال بين رسول اللّه صلى الله عليه و آله وبين كتابه (۳).

وفى رواية أخرى روى البخارى بسنده عن ابن عباس قال: لما حضر رسول اللّه صلى الله عليه و آله وفى البيت رجال فقال النبى صلى الله عليه و آله: هلموا أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده، فقال بعضهم: إنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله قد غلبه الوجع وعندكم القرآن حسبنا كتاب اللّه (۴).

هذه أهم موارد استعمال لفظة (المولى) التى جاءت فى القرآن الكريم وفى كلمات العرب وشعرهم، ولكن علماء الحديث والعقائد ذكروا للفظ المولى معانٍ أُخر غير التى ذكرناها، فقد ذكر ابن الجوزى: أن علماء العربية قالوا: إن لفظة المولى ترد على عشرة وجوه وهى:

الأول: المالك، ومنه قوله تعالى:

۱- ۴۳ مفردات غريب القرآن: ۵۲۳.

۲- ۴۴ على مأخرجه أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهرى فى كتاب السقيفة كما روى ذلك ابن أبى الحديد ۲: ۲۰، طبعة مصر راجع كتاب الفصول المهمة فى تأليف الأمة، للسيد شرف الدين: ۱۰۵.

۳- ۴۵ صحيح البخارى ۱: ۳۷.

۴- ۴۶ صحيح البخارى ۵: ۱۳۷.

ص: ۲۲۴

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَايَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ.

أی علی مالک رقه.

والثانی: بمعنی المولی المعتق بکسر التاء.

والثالث: بمعنی المعتق بفتح التاء.

والرابع: بمعنی الناصر ومنه قوله تعالی:

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَامَوْلَى لَهُمْ.

أی لا ناصر لهم.

والخامس: بمعنی ابن العم قال الشاعر:

مهلًا بنی عمنا مهلًا موالینا لا تنبشوا بیننا ما کان مدفونا

وقال آخر:

هم الموالی حتفوا علینا وإنا من لقائهم لزور

وحکی صاحب الصحاح عن أبی عبیدة أن قائل هذا البیت عنی بالموالی بنی العم، قال: وهو کقوله تعالی:

ثم یخرجکم طفلًا.

والسادس: الحلیف قال الشاعر:

موالی حلف لا موالی قرابة ولکن قطینا یسألون الاتاویا

یقول هم حلفاء لا أبناء عم قال فی الصحاح وأما قول الفرزدق:

ولو کان عبد اللَّه مولی هجوته ولکن عبد اللَّه مولی موالینا

فلأنّ عبد اللَّه بن أبی إسحاق مولی الحضرمیین، وهم حلفاء بنی عبدشمس ابن عبدمناف، والحلیف عند العرب مولی، وإنما نصب الموالیا لأنه رده إلی أصله للضرورة، وإنما لم ینون مولی لأنه جعله بمنزلة غیر المعتل الذی لا ینصرف.

والسابع: المتولی لضمان الجریرة وحیازة المیراث، وکان ذلک فی الجاهلیة ثم نسخ بآیة المواریث.

والثامن: الجار وإنما سمی به لماله من الحقوق بالمجاورة.

والتاسع: السید المطاع وهو المولی المطلق قال فی الصحاح: کل من ولی

ص: ۲۲۵

أمر أحد فهو ولیه.

والعاشر: بمعنی الأولی، قال اللّه تعالی: فَالْیَوْمَ لَایُؤْخَذُ مِنْکُمْ فِدْیَةٌ وَلَا مِنْ الَّذِینَ کَفَرُوا مَأْوَاکُمْ النَّارُ هِیَ مَوْلَاکُمْ أی أولی بکم (۱).

وقال أبو بکر محمد بن القاسم الانباری فی کتابه فی القرآن المعروف ب (المشکل):

«والمولی فی اللغة ینقسم إلی ثمانیة أقسام:

المنعم، المعتق، والمعتق بالفتح-، والاولی بالشیء والجار، وابن العم، والصهر والحلیف، وقد استشهد علی کل قسم من أقسام المولی بشیء من الشعر» (۲) وجعلها شیخنا الامین قدس سره فی غدیره سبعة وعشرین معنی (۳).

معنی لفظ المولی فی لغة العرب:

وهکذا یتضح أنّ لفظ المولی فی اللغة استعمل فی عدة معانٍ، ولکن نسأل هل اللفظ موضوع- لغةً- لمعنی الأولی، واستعمل فی سائر المعانی علی نحو المجاز کما فی استعمال لفظ الأسد فی الرجل الشجاع بمناسبة شجاعته، فیکون الاستعمال فیها مجازاً وفی الأولی علی نحو الحقیقة، أو أن تلک المعانی أیضاً معانٍ حقیقیة للفظ المولی، فالاشتراک معنوی، أو أن الاشتراک فی اللفظ بنحو الاشتراک اللفظی؟

هل لفظ المولی مشترک لفظی؟

عُرف المشترک اللفظی ب:

«أن یکون اللفظ موضوعاً لمعنیین، أو لمعانٍ بأوضاع متعددة کلفظ العین للباصرة والجاریة والذهب» (۴).

وقد عرفه أهل الاصول بعبارة أوضح: «اللفظ الواحد الدال علی معنیین مختلفین فأکثر دلالة علی السواء عند أهل اللغة» (۵).

ومن الواضح أنّ لفظ المولی لیس کذلک، إذ معانیه لیست متباینة، إنما فیها معنی مشترک، وإن کان یوجد تفاوت فی نسبة صدق المعنی الواحد علیها بنحو سواء، کما أنه من تتبع معانی لفظ المولی یستشعر أنّ اللفظ لم یوضع لتلک المعانی بنحو الوضع المستقل لکل معنی عن وضعه للآخر.

هل لفظ المولی حقیقة فی الأولی مجاز فی غیره؟

عرف المعنی الحقیقی بأنه: «استعمال

۱- ۴۷ تذکرة الخواص: ۳۷- ۳۸.

۲- ۴۸ الشافی ۲: ۱۸۱.

۳- ۴۹ راجع الغدیر ۱: ۳۶۲.

۴- ۵۰ جامع العلوم فی اصطلاحات الفنون ۱: ۱۱۸.

۵- ۵۱ هامش کتاب مبادئ الوصول إلی علم الأصول عن کتاب المزهر ۱: ۳۶۹.

ص: ۲۲۶

اللفظ فيما وضع له فى الاصطلاح الذى وقع به التخاطب».

وعرف المعنى المجازى بأنه: استعمال اللفظ فى غير ماوضع له فى أصل تلك المواضعة للعلاقة (۱).

وعرف أيضاً بأنّ المعنى الحقيقى هو:

«استعمال الكلمة فيما وضعت له فى اصطلاح التخاطب».

أما المجاز فهو: «استعمال الكلمة فى غيرما وضعت له فى اصطلاح التخاطب» (۲)والتعريفان متطابقان فى المضمون.

و هـذا التعريف لا ينطبق على لفظ المولى فى معانيه المتعددة، و ذلك لأنه كما استعمل فى معنى (الاولى) بلاقرينة، كذلك أستعمل فى سائر المعانى بلا قرينة أيضاً، مع أن الاستعمال المجازى للفظ لا يصح بلا قرينة، وهذا يدل على أن بقية المعانى هى أيضاً معانى حقيقة للفظ المولى.

هل لفظ المولى مشترك معنوى؟

المشترك المعنوى:

«هو أن يكون اللفظ موضوعاً لمعنى كلى كالانسان للحيوان الناطق» (۳).

وحيث إنّ هـذا التعريف ينطبق على لفظ المولى للأدلة التى سنذكرها لاحقاً، يكون لفظ المولى موضوعاً- فى اللغة- لمعنى الأولى، غاية الأمر أن الأولوية تختلف فى كل مورد عن المورد الآخر فمثلًا النبى صلى الله عليه و آله مولى المؤمنين يعنى: هو أولى بهم من أنفسهم فى أمورهم، وله الأمر والنهى، وله عليهم حقّ الطاعة، والمولى بمعنى الوارث، يعنى أن الابن أو غيره من الورثة أولى من أى شخص آخر بمال مورثه المتوفى، والمولى بمعنى الناصر، كأن يُقال العباس بن على مولى الحسين عليه السلام يعنى: أن العباس عليه السلام أولى الناس بنصرة الحسين عليه السلام من غيره لمعرفته به، وهكذا يكون معنى الأولوية موجوداً فى جميع معانى لفظ المولى مع اختلاف فى مصداق الأولوية كما يطلق لفظ إنسان على زيد وعمرو وبكر فإنهم جميعاً يصدق عليهم لفظ إنسان مع اختلاف كل مصداق عن المصداق الآخر ببعض الأمور.

والصحيح هو: أنّ لفظ المولى مشترك معنوى بدلالة تبادر معنى الأولوية منه رغم تعدد كيفيات الأولوية، وبدليل صحة استعمال لفظ

۱- ۵۲ مبادئ الوصول إلى علم الأصول: ۷۶.

۲- ۵۳ تلخيص المفتاح فى المعانى والبيان والبديع: ۲۶۲.

۳- ۵۴ جامع العلوم فى اصطلاحات الفنون ۱: ۱۱۸.

ص: ۲۲۷

الأولى مكان المولى، فيصح القول:

«النبى صلى الله عليه و آله أولى بالمؤمنين» بدل قولنا «النبى صلى الله عليه و آله مولى المؤمنين» ويصح القول: (الاب أولى بالولد) بدل قولنا:

(الاب مولى ولده) وهكذا، وهذا يدل على أن لفظ المولى يعنى الأولى.

برهان المعانى الباقية:

ويمكن الاستدلال على أن النبى صلى الله عليه و آله أراد معنى الأولى من لفظ المولى بالقول:

إن النبى صلى الله عليه و آله لا يريد بالمولى المعتق أى مالك الرق الذى يملك المولى عبده وله أن يبيعه ويهبه، إذ ليس كل من ملكه النبى صلى الله عليه و آله ملكه على. ولا يريد به العبد.

ولا يقصد النبى صلى الله عليه و آله من لفظ المولى (ابن العم)، لأن من كان ابن عم النبى صلى الله عليه و آله فهو ابن عم على عليه السلام بلا حاجة إلى تجشم عناء بيان ذلك تحت أشعة الشمس الحارقة وإبلاغ المسلمين بذلك.

وكذلك لا يقصد النبى صلى الله عليه و آله بلفظ المولى (العاقبة) إذ لا معنى له فى جملة (فمن كنت مولاه فهذا على مولاه).

ولا يمكن أن يريد به معنى الناصر؛ لأن المسلمين كلهم أنصار لمن نصره النبى صلى الله عليه و آله فلا معنى لتخصيص على عليه السلام بالنصرة عن جماعة المسلمين.

ولا يقصد به صلى الله عليه و آله معنى الحليف، لأن علياً حليف لجميع حلفاء النبى صلى الله عليه و آله.

وكذلك لا يريد النبى صلى الله عليه و آله من لفظ المولى أن علياً وارث لكل من يرثه النبى صلى الله عليه و آله.

أما معنى المتولى بالأمر والمتصرف فيه، فإنه لو قصد هذا المعنى فإنه يقصد الأولى؛ لأن المتولى للأمور والمتصرف فيه إنما يكون للأولى بالتصرف فى الأمور، أى من له حق الأمر والنهى والطاعة... وكذلك لا يريد النبى صلى الله عليه و آله سائر معانى المولى نظير الصاحب والشريك والرب والجار ويظهر ذلك بأدنى تأمل فى سياق الرواية، وفى القرائن العامة، فيبقى المعنى الوحيد المحتمل وهو الأولى بالمسلمين من أنفسهم فيجب حمله عليه.

ويدل على أولويّة على عليه السلام بالخلافة من جميع الأنصار والمهاجرين اعتراف هؤلاء بأولوية على عليه السلام منهم فى ذلك، إلّا أنهم طعنوا ذلك ببعض الأمور.

ففى شرح النهج لابن الحديد

ص: ۲۲۸

المعتزلی ورد:

«أن عمر قال: یا ابن عباس أما واللَّه إن صاحبک هـذا لأولی الناس بالأمر بعد رسول اللَّه صـلی الله علیه و آله، إلّاأنّا خفناه علی اثنین...

فقلت:- أی ابن عباس- قال: وماهما یا أمیر المؤمنین؟

قال: خفناه علی حداثهٔ سنّه، وحبّه بنی عبد المطلب» (۱).

وفیما یلی بعض الشواهد علی أن المراد بلفظ المولی فی حدیث الغدیر معنی الأولویهٔ دون غیرها من المعانی:

الشاهد الأول: شعر حسان بن ثابت:

مانظمه حسان بن ثابت شاعر الرسول صـلی الله علیه و آله بعد فراغ النبی صلی الله علیه و آله من واقعهٔ الغدیر، حیث فهم منه حسان أن النبی صـلی الله علیه و آله قد نصب علیاً علیه السـلام ولیاً للمؤمنین، وأولی بهم من أنفسهم کما أن النبی صلی الله علیه و آله کذلک- أی ولی بالمسـلمین من انفسـهم- حیث إنّ حسان بن ثابت اسـتأذن النبی صـلی الله علیه و آله أن یقول شـعراً فی الواقعهٔ، فأذن له النبی صلی الله علیه و آله فأنشد أبیاتاً منها:

فقال له قم یاعلی فإننی رضیتک من بعدی إماماً وهادیاً

«ویروی أن النبی صـلی الله علیه و آله قال لحسان بعد أن فرغ من شـعره: لا تزال مؤیداً بروح القدس مانصـرتنا أو نافحت عنا بلسانک» (۲).

وکذلک ما قاله الصحابی الجلیل قیس بن سعد بن عبادهٔ الانصاری:

وعلی إمامنا وإمام لسوانا أتی به التنزیل

یوم قال النبی من کنت مولاه فهذا علی خطب جلیل (۳)

الشاهد الثانی: کلام ابن منظور الدیلمی

قال: أبو زکریا یحیی بن زیاد بن عبـداللَّه بنمنظور الـدیلمی (إمام الکوفیین فی النحو واللغهٔ والادب) فی کتاب (معانی القرآن): الولی والمولی فی کلام العرب واحد و فی قراءهٔ عبداللَّه بن مسعود:

«إنمـا مولاـکم اللَّه ورسوله مکان ولیکم» (۴) وإنمـا یکون الولی ولیـاً، إذا کـان أولی من کـل أحـد فی الأمر والنهی والطاعـهٔ من قبل الآخرین.

۱- ۵۵ شرح نهج البلاغهٔ لابن أبی الحدید ۱۰: ۲۰.

۲- ۵۶ تذکرهٔ الخواص: ۳۹.

۳- ۵۷ الغدیر ۱: ۳۴۰. وراجع کتاب خصائص الأئمهٔ للشریف الرضی: ۴۳.

۴- ۵۸ تلخیص الشافی ۲: ۱۸۰.

ص: ۲۲۹

الشاهد الثالث: كلام ابن الجوزی

مانقله ابن الجوزی:

«قال أحمد فی الفضائل: حدثنا یحیی بن آدم، حدثنا حبیش بن الحرث بن لقیط النخعی عن ریاح بن الحرث قال:

جاء رهط إلی أمیر المؤمنین علیه السلام فقالوا:

السلام علیک یامولانا وکان بالرحبهٔ فقال: کیف أکون مولاکم وأنتم قوم عرب؟

قالوا: سمعنا رسول اللَّه صلی الله علیه و آله یقول یوم غدیر خم: من کنت مولاه فعلی مولاه. قال رباح: فقلت: من هؤلاء؟

فقیل: نفر من الانصار فیهم أبو أیوب الانصاری صاحب رسول‌اللَّه صلی الله علیه و آله (۱).

الشاهد الرابع: تهنئهٔ عمر بن الخطاب لعلیّ علیه السلام

ما ورد عن الخلیفهٔ الثانی أنه قال لعلی بعد حدیث الغدیر: «هنیئاً یا ابن أبی‌طالب أصبحت وأمسیت مولی کل مؤمن ومؤمنهٔ» (۲).

ومن الواضح أنّ عمر لا یرید أن علیّاً أمسی ناصراً أو محبّاً لکل مؤمن ومؤمنهٔ، إذ هذا المعنی صادق علی الصحابهٔ الأخیار (رض) بل یرید ثبوت الولایهٔ له من قبل النبی صلی الله علیه و آله، لأن هذا المعنی هو الذی یستحق التهنئهٔ علیه إذ مجرد الحب والنصرهٔ لا یوجب تهنئهٔ الشخص علیها، فلابد أن یکون المراد بالمولی هو المعنی العظیم لها وهو الأولویهٔ والامامهٔ علی المسلمین، وهو المعنی الذی یستوجب التهنئهٔ علیه، وإن کان فی الحقیقهٔ مسؤولیهٔ عظیمهٔ.

الشاهد الخامس: احتجاج علی علیه السلام بحدیث الغدیر:

احتجاج علی علیه السلام علی جماعهٔ الشوری بعد وفاهٔ عمر بن الخطاب، حین رأهم قد عزموا علی مبایعهٔ عثمان، حیث قال لهم علیه السلام:

«نشدتکم باللَّه هل منکم أحد نصبه رسول اللَّه صلی الله علیه و آله یوم غدیر خم بأمر اللَّه تعالی فقال: «من کنت مولاه فعلی مولاه اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه غیری؟

قالوا لا.» (۳).

فقد استشهد علی علیه السلام بهذا الحدیث علی أنه أولی من غیره (عثمان وغیره) بمقام الولایهٔ، ولیس هذا إلّاأنّ حدیث

۱- ۵۹ تذکرهٔ الخواص: ۳۶، وراجع شرح ابن أبی الحدید ۳: ۲۰۸.

۲- ۶۰ مسند أحمد، حدیث رقم ۱۷۷۴۹.

۳- ۶۱ الاحتجاج ۱: ۱۳۶.

ص: ۲۳۰

الغدير يدل على ذلك، وأنّ النبى صلى الله عليه و آله نصبه إماماً للمسلمين فى يوم الغدير.

المخاض الأخير:

وهكذا يتضح أن لفظ المولى من المشترك المعنوى، وأن معناه (الأولى) محفوظ فى جميع مصاديقه المتعددة.

ولكن حتى لو قلنا- مع القائلين- بأن لفظ المولى من المشترك اللفظى، وأنه يحتمل أن يراد به معنى الناصر، أو المحب، أو أحد المعانى الأُخر غير معنى (الأولى)، فإنّنا يمكن أن نبرهن على أن لفظ المولى فى كلام النبى صلى الله عليه و آله فى حديث الغدير استعمل فى خصوص المعنى الاول وهو: (الأولى) دون سائر المعانى، وذلك بقرائن كثيرة نذكرها فيما يلى:

القرينة الاولى: دلالة المقدمة على المعنى

لا شك فى أن حديث الغدير قد بدأه النبى صلى الله عليه و آله بمقدمة استفهامية هى:

«ألست أولى بكم من أنفسكم» (۱) ثم قال صلى الله عليه و آله بعدها: «فمن كنت مولاه فعلى مولاه» وفى ضوء ذلك نقول: لا شك فى أن الأولى فى المقدمة يراد به الأولى فى الطاعة، وحق الأمر والنهى للنبى صلى الله عليه و آله على الأمة بالدليل النقلى والعقلى، فلابد أن يريد النبى صلى الله عليه و آله من لفظ المولى فى قوله: من كنت مولاه فعلى مولاه، المعنى الثابت فى المقدمة أى الأولى، دون سائر المعانى للمولى، حيث جرت عادة اللغة على تفسير اللفظ الذى يحتمل معانى متعددة، والمعطوف على نفس اللفظ السابق عليه، والذى هو ظاهر فى معنى محدد من المعانى الكثيرة بالمعنى السابق، والذى عطف عليه اللفظ الذى يحتمل معانى متعددة، فمثلًا لو قال المتكلم:

(بعت كتابى إلى عمى زيد) ثم قال بعد ذلك متصلًا: (وعمى موجود الآن فى بيتى)، فإن العم فى الجملة الثانية يحتمل أنه أراد به العم الذى اشترى الكتاب ويحتمل أن يريد عمّاً آخر، وحيث إن المتكلم عطف الجملة الثانية على الأولى حيث قال:

(بعت كتابى إلى عمى زيد وعمى موجود فى بيتى) فإن العرف يفهم أن العم الموجود فى البيت هو نفس العم الذى اشترى الكتاب أى هو زيد، وإن كان يحتمل أن يريد بالعم فى الجملة

۱- ۶۲ وقد روى هذه المقدمة ۱- أحمد بن حنبل. ۲- ابن ماجة. ۳- النسائى. ۴- الترمذى. ۵- الطبرى. ۶- الذهبى.

۷- الدارقطنى وخلق كثير من المحدثين العلماء.

ص: ۲۳۱

الثانية عمّاً آخر غير زيد الذى اشترى الكتاب، وكذلك لو قال: مطرت السماء البارحة مطراً عظيماً؛ وأنا احتفظت بشيء من ماء المطر، فإن العرف يفهم أن ما احتفظ به من ماء المطر هو من مطر البارحة، وإن كان يحتمل أنه احتفظ بماء مطر اليوم الماضى أو الشهر الماضى، والحقّ أنّ مثل هذا الاحتمال بعيد جدّاً.

القرينة الثانية: آية التبليغ

حدّث الحافظ الكبير الحسكانى الحنفى النيسابورى بسنده المتصل إلى ابن عباس فى قوله عز وجل:

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ (۱) إنها نزلت فى على.

أمر رسول اللّه أن يبلغ فيه فأخذ رسول اللّه بيد على فقال: من كنتُ مولاه فعلى مولاه اللهم وال من والاه وعادِ من عاداه» (۲).

وحدث الحافظ الحسكانى بسنده إلى أبى صالح «عن ابن عباس وجابر ابن عبد اللّه قالا: أمر اللّه محمداً أن ينصب علياً للناس ليخبرهم بولايته فتخوف رسول اللّه أن يقولوا حاباً ابن عمه يطعنوا فى ذلك عليه، فأوحى اللّه إليه: «يا أيها الرسول بلغ ما أُنزل إليك من ربك... فقام رسول اللّه صلى الله عليه و آله بولايته يوم غدير خم» (۳).

وقال على بن إبراهيم: «إن هذه الآية يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ... نزلت فى على عليه السلام (۴).

وقد ذكر غير واحد أن هذه الآية نزلت فى حق على عليه السلام فى غدير خم، فقد نقل المالكى فى الفصول المهمة عن الإمام أبو الحسن الواحدى فى أسباب النزول رفعه إلى أبى سعيد الخدرى أن هذه الآية نزلت يوم غدير خم فى على ابن أبى طالب، ورواه صاحب فتح القدير عن ابن أبى حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن ابى سعيد الخدرى، وكذلك فى تفسير الدر المنثور للسيوطى (۵)ومع هذا فإن السيوطى فى لباب المنقول فى أسباب النزول قال:

أخرج الحاكم والترمذى عن عائشة قالت: كان النبى صلى الله عليه و آله يُحرس حتى نزلت

۱- ۶۳ سورة المائدة: ۶۷.

۲- ۶۴ شواهد التنزيل لقواعد التفضيل ۱: ۱۸۹.

۳- ۶۵ شواهد التنزيل لقواعد التفضيل ۱: ۱۹۲. وراجع الاحتجاج: ۵۷.

۴- ۶۶ تفسير القمى ۱: ۱۷۱.

۵- ۶۷ تفسير الميزان ۱: ۶۰.

ص: ۲۳۲

هـذه الآیـة واللَّه یعصـمک من الناس فأخرج رأسه من القبة فقال: یا أیها الناس انصـرفوا فقد عصـمنی اللَّه. فی هذا الحدیث دلیل علی أنها... أی الآیة لیلیة فراشیة!! أی والرسول فی فراشه» (۱).

ولم تذکر عائشة (رض) شیئاً عن الشطر الأول من الآیة، ولا عن الشیء المهم الذی إذا لم یبلغه النبی صلی الله علیه و آله فکأنه لم یبلغ شیئاً!! وکأن الآیة الواحدة نزلت شطرین!.

القرینة الثالثة: آیة إکمال الدین

روی الخطیب البغـدادی بسـنده عن أبی هریرة، قال: «لما أخذ رسولاللَّه صـلی الله علیه و آله بید علی بن أبی طالب فقال: ألست أولی بالمؤمنین؟

قالوا: نعم یارسول اللَّه.

قال: فأخذ بید علی بن أبی طالب فقال: من کنت مولاه فعلی مولاه.

فقال عمر بن الخطاب: بخ بخ لک یاابن أبی طالب أصبحت مولای ومولی کل مسلم.

قال: فأنزل اللَّه عز وجل الیوم أکملت لکم دینکم.

قال أبو هریرة: وهو یوم غدیر خم، من صام کتب اللَّه له صیام ستین شهراً» (۲).

القرینة الرابعة:

قـال رسول اللَّه صـلی الله علیه و آله قبـل فقرة إثبات المولویـة لعلی علیه السـلام: کأنی دعیت فأجبت، أو أنه یوشک أن ادعی فأجیب (۳) ثم قـال صـلی الله علیه و آله: «من کنت مولاه فعلی مولاه» فإن تلک المقدمـة تلقی ضوءاً علی غرض الرسول صـلی الله علیه و آله من لفظ المولی، وتعّین أن المراد به معنی یرتبط فیما بعـد وفاته صـلی الله علیه و آله ومن الواضـح أن هـذا المعنی هو إمامـة علی علیه السلام وولایته علی أمته من بعده.

المولی ترادف الولی:

وقد تثار شبهة وهی: حتی لو اتفقنا علی أن معنی المولی هو الأولی، لکن الأولی لا تعنی الولی. فلو کان النبی صـلی الله علیه و آله قد قال: «فمن کنت ولیه فعلی ولیه» لکان هذا اللفظ یدل علی أن النبی صلی الله علیه و آله جعل علیاً إماماً للمسلمین بعده.

والجواب:

أولًا: إذا کان إطلاق لفظ الولی علی علی علیه السلام یرفع الشبهة، فإن القرآن الکریم أنزل فی حق علیّ مدحاً ووصفه

۱- ۶۸ تفسیر الجلالین: ۲۱۶.

۲- ۶۹ تاریخ دمشق فقرة رقم ۵۶۹ من ترجمة علی بن أبی طالب علیه السلام وراجع شواهد التنزیل ۱: ۱۵۸.

۳- ۷۰ الغدیر ۱: ۳۷۵.

ص: ۲۳۳

بأنه ولی المسلمین، وذلک فی قوله تعالی: إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (۱).

فقد روی الحافظ الکبیر النیسابوری بسنده إلی ابن عباس: إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا قال: نزلت فی علی بن أبی طالب» (۲)

وبسنده عن عطاء بن السائب: «إنما ولیکم اللّه ورسوله قال: فی علی مرّ به سائل وهو راکع فناوله خاتمه» (۳).

وإن قیل: إنّ لفظ الذین آمنوا عام فکیف خصصت فی علی؟ قیل: «ان الروایات متکاثرة من طرق الشیعة وأهل السنة علی أن الآیتین نازلتان فی أمیرالمؤمنین بما تصدق بخاتمه وهو فی الصلاة، فالایتان خاصتان غیر عامتین» (۴).

وثانیاً: أن لفظ المولی والولی معناهما واحد «فقد قال الفراء فی کتاب معانی القرآن: الولی والمولی فی کلام العرب واحد فی قراءة عبد اللّه بن مسعود: (إنما مولاکم اللّه ورسوله) مکان ولیکم (۵).

ومع کل ذلک فقد کتب عباس محمود العقاد- وهو یتحدث عن علاقة النبی صلی الله علیه و آله بعلی-:

إنّ النبی صلی الله علیه و آله کان «یحبه ویمهد له وینظر إلی غده، ویسره أن یحبه الناس کما أحبه، وأن یحین الحین الذی یکلون فیه أمورهم إلیه....

وکل ماعدا ذلک، فلیس بالممکن ولیس بالمعقول... لیس بالممکن أن یکره له التقدیم والکرامة... ولیس بالممکن أن یحبهما له، وینسی فی سبیل هذا الحب حکمته الصالحة للدین والخلافة.

وإذا کان قد رأی الحکمة فی استخلافه، فلیس بالممکن أن یری ذلک، ثم لا یجهر به فی مرض الوفاة أو بعد حجة الوداع...

وإذا کان قد جهر به، فلیس بالممکن أن یتألب أصحابه علی کتمان وصیته وعصیان أمره. أنهم لا یریدون ذلک مخلصین، وأنهم إن أرادوه لا یستطیعون بین جماعة المسلمین، وإنهم إن استطاعوا لا یخفی شأنه ببرهان مبین، ولو بعد حین...

۱- ۷۱ سورة المائدة: ۵۵.

۲- ۷۲ شواهد التنزیل ۱: ۱۶۱.

۳- ۷۳ شواهد التنزیل ۱: ۱۶۸.

۴- ۷۴ المیزان فی تفسیر القرآن ۶: ۵.

۵- ۷۵ المیزان فی تفسیر القرآن ۶: ۵.

ص: ۲۳۴

فكل أولئك ليس بالممكن، وليس بالمعقول (۱) ولا أدرى هل جعل الولاية لعلى (۲) بنص النبى صلى الله عليه و آله من قبيل إجتماع النقيضين، أو الضدين حتى يكون ذلك غير ممكن وغير معقول!

وإذا كان جعل الإمامة لعلى ليس فيه استحالة عقلية، فلماذا لا يمكن أن يجعله النبى صلى الله عليه و آله لعلى، وهو المعروف بسابقته وقربه وجهاده وإخلاصه وعلمه وشجاعته؟ فلماذا لا يمكن أن يجعله النبى صلى الله عليه و آله ولياً للمسلمين بعده، وهل القرب من النبى صلى الله عليه و آله يوجب حرمانه من مقام يستحقه دون سائر الأصحاب، أو القرب من النبى موجب للفضيلة كما استدل أبو بكر على الأنصار بأن الخلافة فى قريش، لأنهم أقرب للنبى صلى الله عليه و آله من الأنصار؟

*** بعد الذى عرفت من وضوح أن لفظ المولى معناه (الأولى) أو على أقل تقادير أن النبى صلى الله عليه و آله استعمله فى هذا المعنى للقرائن اللفظية والمقامية التى حفت بالحديث بعد ذلك. نذكر عدة تفسيرات أخرى لحديث الغدير تستهدف تجريده عن دلالته الثابتة له بموجب اللغة:

التفسير الأول: شكاية أهل اليمن على على عليه السلام

إنّ المراد من لفظ (المولى) هو الناصر أو المحب، وذلك الحديث صدر عن النبى صلى الله عليه و آله بعد شكاية أهل اليمن علياً إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «ويرشد بذلك أنه أشاد فى خطابه بعلى خاصة فقال: من كنت وليه فعلى وليه وبأهل البيت عامة فقال صلى الله عليه و آله: إنى تارك فيكم الثقلين كتاب اللّه وعترتى أهل بيتى فكان كالوصية لهم بحفظه فى على بخصوصه وفى أهل بيته عموماً وقالوا: ليس فيها- أى بالوصية وفى حديث الغدير- عهد بخلافة ولا دلالة على إمامة» (۳).

نقل الواقعة:

ومن المفيد أن ننقل أولًا الواقعة من سيرة ابن هشام ثم نعلّق عليها:

«قال ابن إسحاق: وحدّثنى يحيى بن عبد اللّه بن عبد الرحمن بن أبى عمرة، عن يزيد بن طلحة بن يزيد بن ركانة قال: لما أقبل علىّ رضى اللّه عنه من اليمن ليلقى رسول اللّه صلى الله عليه و آله بمكة تعجّل إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله واستخلف على جنده

۱- ۷۶ مجموعة العقاد ۲: ۱۲۸.

۲- ۷۷ المراجعات: ۲۰۲، كما ورد على لسان شيخ الازهر الشيخ سليم البشرى وهو يحاور السيد عبد الحسين شرف الدين.

۳- ۷۸ السيرة النبوية لابن هشام ۴: ۶۰۳.

ص: ۲۳۵

الـذين معه رجلًا من أصـحابه، فعمـد ذلـك الرجل فكسا كلّ رجل من القوم حُلّةً من البزّ الـذى كان مع علىّ رضـى اللّه عنه. فلما دنا جيشه خرج ليلقـاهم، فإذا عليهم الحُلل قال: ويلك اما هـذا؟ قال: كسوت القوم ليتجملّوا به إذا قـدموا فى الناس، قال: ويلك! انزع قبل أن تنتهى به إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله.

قال: فانتزع الحُلل من الناس، فردّها فى البزّ، قال: وأظهر الجيش شكواه لما صُنع بهم» (۱).

والغريب أن صاحب كتاب المغازى محمد بن عمر بن واقد، نقل القصة بتمامها، ثم كتب: «أن النبى صلى الله عليه و آله دعا علياً فقال: ما لأصحابك يشكونك؟ فقال:

ما أشكيتُهم؟ قسمتُ عليهم ماغنموا وحبست الخمس حتى يقدم عليك، وترى رأيك فيه، وقد كانت الأمراء يفعلون أموراً: يُنفلون من أرادوا الخمس، فرأيت أن أحمله إليك لترى فيه رأيك فسكت النبى صلى الله عليه و آله» (۲).

ولم يـذكر الواقـدى ما قاله النبى صـلى الله عليه و آله تعليقاً على شـكاية أهل اليمن، والـذى ذكره ابن هشام فى سـيرته من مدح علىّ، وأنه يغضب للّه، وأنّه قوى من ذات اللّه تعالى، ولا أدرى لماذا لم ينقل كلام النبى صلى الله عليه و آله فى حق على فى تلك القصة؟!

ردّ التفسير الأول:

إن قصة أهل اليمن لا يمكن جعلها قرينة على حمل لفظ (المولى) على الناصر، أو المحب وماشاكل وذلك:

أولًا: أن أهل الشـكاية إنما شـكوا علياً إلى رسول اللّه صـلى الله عليه و آله قبل التاسع من ذى‌الحجـة، وواقعـة غـدير خم فى يوم الثامن عشـر منه، فالـذى ينبغى لو كان الـدافع إلى حـديث الغـدير هو تلك الواقعة أى يأتى مدح على بذلك الحديث فى وقت وقوعها، كما قال النبى صلى الله عليه و آله عقيب الشكاية فى رواية ابن هشام:

«ياأيها الناس لا تشكوا علياً فواللّه إنه لأخشن فى ذات اللّه» أو فى سبيل اللّه من أن يشكى».

ولم يتكلم صلى الله عليه و آله بكلام آخر غير هذا.

وثانياً: أن مدح النبى صـلى الله عليه و آله لعلىّ إذا كان على أثر هذه الواقعة ينبغى أن يكون مناسباً مع المقام، كما قال صلى الله عليه و آله:

۱- ۷۹ سيرة ابن هشام ۴: ۶۰۳.

۲- ۸۰ المغازى ۳: ۱۰۸۱.

ص: ۲۳۶

(إنه لأخشن فی ذات اللّه) وما شاکل ذلک، ومن الواضح أن حدیث الغدیر وما حفّ به من قرائن وعلائم قرن فیه النبی صلی الله علیه و آله بین العترة والکتاب، وجعل علیاً مولًی للمسلمین کما أنه صلی الله علیه و آله مولی لهم، وهذا یناسب جعل علی علیه السلام اماماً علی الأمة، ولا یرید صلی الله علیه و آله أن یدفع عن علی علیه السلام اتهامات أهل الیمن إنما یرید إثبات مقام عظیم له، وهو مقام الإمامة بعده صلی الله علیه و آله.

وثالثاً: وقع خلط فی تاریخ الشکایة علی علیّ علیه السلام، إذ إن النبی صلی الله علیه و آله بعث علیاً إلی الیمن مرتین: الأولی فی السنة الثامنة، والأخری فی السنة العاشرة من الهجرة، والذی نقل فی کتب التاریخ أن الشکایة علی علیّ إنما کانت فی البعث الأول أی السنة الثامنة الهجریة ولیس فی البعث الثانی أی: السنة العاشرة الهجریة، فقد روی أنه بعث رسول اللّه بعثین إلی الیمن، علی أحدهما علی بن أبی طالب، وعلی الآخر خالد بن الولید، فقال: إذا التقیتم فعلی علی الناس، وإن افترقتم فکل واحد منکما علی جنده، قال: فلقینا بنی زید من أهل الیمن، فاقتتلنا فظهر المسلمون علی المشرکین، فقتلناالمقاتلة، وسبینا الذریة، فاصطفی علی امرأة من السبی لنفسه، وقال بریدة: فکتب معی خالد إلی رسول اللّه صلی الله علیه و آله، یخبره بذلک، فلما أتیت النبی صلی الله علیه و آله دفعت الکتاب، فقرئ علیه، فرأیت الغضب فی وجهه، فقلت: یا رسول اللّه هذا مکان العائذ، بعثتنی مع رجل وأمرتنی أن أطیعه، ففعلت ما أرسلت به، فقال رسول اللّه صلی الله علیه و آله: لا تقع فی علی فإنه منی، وأنا منه، وهو ولیکم بعدی وأنه منی وأنا منه، وهو ولیکم بعدی» (۱).

التفسیر الثانی: الحدیث جواب لأسامة بن زید:

ونقل بعض أن حدیث الغدیر إنما قاله النبی صلی الله علیه و آله علی أثر نزاع شخصی بین أسامة بن زید وبین علی علیه السلام حیث قال إسامةلعلی علیه السلام: لست مولای إنما مولای رسول اللّه صلی الله علیه و آله فقال صلی الله علیه و آله بعد أن سمع بالنزاع: «من کنت مولاه فعلی مولاه» (۲).

والجواب:

أولًا: إن أراد اسامة أن علیاً لیس

۱- ۸۱ المراجعات، للإمام السید عبد الحسین شرف الدین الموسوی: ۱۵۳.

۲- ۸۲ الغدیر ۱: ۳۸۳.

ص: ۲۳۷

مولاه، بمعنی لیس أولی به من نفسه، وأنه لیس کالنبی صلی الله علیه و آله، وقبل أن یثبت النبی صلی الله علیه و آله إمامهٔ علی علی المسلمین. فإن هذا المعنی صحیح؛ لأن النبی صلی الله علیه و آله بعد لم یجعل الولایهٔ (الظاهرهٔ) حسب الفرض إذ إن النبی صلی الله علیه و آله بعد لم ینطق بذلک الکلام. وإن أراد به أن النبی صلی الله علیه و آله فقط سیده وأسامهٔ عبد للنبی صلی الله علیه و آله وأن علیاً لیس سیده فمن الواضح أن أُسامهٔ لیس عبداً رقاً للنبی صلی الله علیه و آله أو لعلی. وإن أراد أنه یطیع النبی صلی الله علیه و آله فقط ولا یطیع علیاً علیه السلام أو غیره، فمن الواضح أن علیاً علیه السلام لم یتأمر علی اسامهٔ ولم یتأمر علی أحد إذا لم یؤمّره رسول اللّه صلی الله علیه و آله.

وثانیاً: حتی لو فرضنا أن منشأ کلام النبی صلی الله علیه و آله فی حدیث الغدیر المرتبط بعلی علیه السلام هو النزاع الذی وقع بینه وبین أُسامهٔ، فإن ذلک لا یوجب صرف معنی (المولی) عن معناه الظاهر فیه وهو الأولی إلی غیره، بل لعل هذا النزاع وکلام النبی صلی الله علیه و آله عقیبه؛ یؤکد مولویهٔ علی علیه السلام علی اسامهٔ وغیره قبل یوم الغدیر وبعده!! إذ معناه أن أولویهٔ علی ثابتهٔ علی اسامهٔ حین النزاع وأن اسامهٔ تجاوز حده فی رعایهٔ حق علی علیه السلام.

التفسیر الثالث: حدیث الغدیر کان جواباً لبریدهٔ:

أخرج أحمد بن حنبل فی مسنده عن بریدهٔ قال: غزوت مع علی الیمن فرأیت منه جفوهٔ (۱) فلما قدمت علی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله ذکرت علیاً فتنقصته فرأیت وجه رسول اللَّه صلی الله علیه و آله یتغیر فقال صلی الله علیه و آله: یا بریدهٔ! ألستُ أولی بالمؤمنین من أنفسهم؟ قلت: بلی یا رسول اللَّه. قال: من کنتُ مولاه فعلی مولاه» (۲).

والجواب:

أولًا: ماتقدم سابقاً من أنه لم ترد شکوی علی علیّ فی بعثه الثانی إلی الیمن، إنما الشکایهٔ کانت فی البعث الأول أی السنهٔ الثامنهٔ، وحدیث الغدیر فی السنهٔ العاشرهٔ من الهجرهٔ، فلاـ یمکن أن یکون حدیث الغدیر جواباً لشکایهٔ بریدهٔ علی علی علیه السلام التی تقدمت قبل عامین.

وثانیاً: حتی لو سلمنا: أن قوماً، أو بریدهٔ شکی علیاً إلی النبی صلی الله علیه و آله عند العود من بعثه إلی الیمن، فإن ذلک لا

۱- ۸۳ ولعل الجفوهٔ ما تقدم فی حدیث خمس الیمن من حلل غنمه علی علیه السلام فی غزوته حیث إن جیش علی علیه السلام لبس الحلل فی ذهابه إلی لقاء النبی صلی الله علیه و آله ثم یری فیها رسول اللَّه صلی الله علیه و آله رأیه، أو تکون الجفوهٔ منه لأنه لا تأخذه فی طاعهٔ اللَّه ورسوله لومهٔ لائم.

۲- ۸۴ راجع الغدیر ۱: ۳۸۴.

ص: ۲۳۸

یوجب صرف معنی المولی إلی غیر معناه الثابت أی: أولویة علی علیه السلام بالمؤمنین من أنفسهم کما هی ثابتة للنبی صلی الله علیه و آله، نعم لو کان النزاع والشکایة قرینةلفظیة تصحیحصرف لفظ (المولی) عن معناه وهو الأولی إلی معنی آخر من معانیه المتعددة لأمکن رفع الید عن معنی الأولی المدلول للفظ المولی، ولکن من الواضح أن مجرد النزاع والشکایة علی علی علیه السلام لیست قرینة لفظیة توجب صرف اللفظ عن معناه.

التفسیر الرابع: علی الأولی بالتفضیل

وقیل: حتی لو اتفقنا مع الشیعة بأن لفظ مولی یعنی الأولی، لکن إنما یصح الاستدلال بالحدیث علی إمامة علی علیه السلام علی تقدیر القول بأن الأولی هنا لا یراد به الأولی بالتفضیل والتعظیم والاحترام، وإنما یراد به الأولی من أنفسهم فی أمرهم ونهیهم وتدبیر أمورهم وشؤون حیاتهم، ولکن إذا قلنا بأن المراد بالأولی هنا هو الأولی بالتعظیم والاحترام، فإن ثبوت هذه الأولویة لعلی علیه السلام لا یساوق ثبوت الإمامة له.

ویرد علیه:

أولًا: أن الظاهر من الأولی عند استعمالها مطلقاً- أی من غیر قرینة لفظیة أو مقامیة- أن المتکلم یرید الأولی بأن یأمر وینهی فإن أضیفت الأولی إلی الغیر؛ وقیل مثلًا: الحاکم أولی من رعیته، فإن المراد به أن الحاکم أولی من الرعیة فی الأمر والنهی وإدارة أمورهم، وهذا المعنی یساوق معنی الإمامة.

وثانیاً: أن النبی صلی الله علیه و آله صدّر کلامه بقوله صلی الله علیه و آله: «ألستُ بأولی من المؤمنین بأنفسهم؟» ثم قال صلی الله علیه و آله بعد ذلک: «فمن کنت مولاه فعلی مولاه اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه».

وهذا الصدر فی کلام النبی فیه دلالة علی أن المراد بالأولویة الثابتة لعلی فی قوله صلی الله علیه و آله: «فمن کنت مولاه فعلی مولاه». إنما هی الأولویة التی تناظر الأولویة الثابتة له صلی الله علیه و آله وصرح بها فی صدر کلامه، إذ المفروض ان جملة «فمن کنت مولاه فعلی مولاه» معطوفة علی صدر کلامه صلی الله علیه و آله الذی ثبتت فیه أولویته

ص: ۲۳۹

علی المؤمنین من أنفسهم، فیکون صدر الکلام دالًا علی الأولویة الثابتة، وأنها کأولویة النبی صلی الله علیه و آله.

التفسیر الخامس: علی علیه السلام إمام بعد البیعة:

یری ابن حجر فی الصواعق أن علیاً علیه السلام أولی بالمؤمنین من أنفسهم، وله علیهم حق الأمر والنهی والطاعة، إنما ذلک بعد البیعة له- أی بعد الخلیفة الثالث- وإلّا لکان أولی بالطاعة والأمر والنهی فی حیاة النبی صلی الله علیه و آله، وهذا مما لا یمکن الالتزام به (۱).

والجواب:

أولًا: أن هذا المعنی للحدیث- أی أن علیاً سیکون إماماً أولی بالمسلمین من أنفسهم بعد عقد البیعة- یعنی أن علیاً لیس مولًی للذین ماتوا قبل البیعة له فی خمسة وثلاثین من الهجرة، وهذا ینافی عموم مولویة علی علیه السلام لجمیع المسلمین، سواء الذین ماتوا قبل البیعة لعلی والذین عاشوا بعدها.

ثانیاً: أما ما قیل: بأنه لو حملنا الحدیث علی فعلیة الإمامة لا الصلاحیة أو الشأنیة، فهذا مما یتنافی مع فعلیة أولویة النبی صلی الله علیه و آله بالأمر والنهی والطاعة، فإن ذلک صحیح لو قلنا بأن المراد بإمامة علی إمامة مستقلة فی عرض وجود النبی صلی الله علیه و آله؛ ونحن لا نقول ذلک بل إنما نری أن ولایة علی علیه السلام فی طول ولایة النبی علی الأمة وفی امتدادها، ولیس فی عرضها.

وثالثاً: لو کان مفاد حدیث الغدیر هو: أن علیاً له حق الأمر والنهی والطاعة علی الأمة وأنه أولی بالمسلمین من أنفسهم ولکن بعد البیعة، فإن هذا المعنی یشترک فیه کل من یظفر بالبیعة علی وفق النظریة السیاسیة للمذاهب الأربعة السنیة، فإن کل شخص تبایعه الأمة یکون أولی بالمسلمین من أنفسهم بعد البیعة، فلا یتمیز علی علیه السلام بشیء، ولا معنی أیضاً لکلام النبی صلی الله علیه و آله فی حدیث الغدیر، وحاشاه عن ذلک، لأنه یرید فقط أن یقول: إذا بایعت الأمة علیاً فهو صالح للإمامة، فیکون معنی کلام النبی صلی الله علیه و آله وحاشاه: لو صار علیاً إماماً فهو صالح للإمامة!!!

وهذا المعنی صادق علی کل شخص تبایعه الأمة للإمامة- بل هذا علی وفق

۱- ۸۵ المراجعات: ۲۰۶.

ص: ۲۴۰

المذهب السياسی لأهل السنة- يكون عبثاً فی الكلام، والنبی صلی الله عليه و آله يتنزه عن ذلك، فما هی ميزة علی عليه السلام عن الآخرين حتی يخصه النبی بذلك الخطاب تحت الشمس الحارقة، ولماذا هذه الآيات التی نزلت بلزوم التبليغ، ولماذا نزلت آية إكمال الدين بعد حديث الغدير؟!!

التفسير السادس: تقديم المفضول علی الفاضل:

وهذا التفسير ما يستظهر من كلمات المعتزلة الظاهرة فی التسليم بأن عليّاً أفضل الصحابة، وبالتالی هو أولی بمقام الإمامة لو لم تقم مصلحة تستوجب تقديم غيره عليه.

والجواب:

أولًا: لو كانت ثمة مصلحة من هذا القبيل لكان النبی صلی الله عليه و آله أولی من غيره بدرك تلك المصلحة، ولاقتضت تلك المصلحة تسمية الخليفة الأول لإمامة الأمة بعد النبی صلی الله عليه و آله من أجل استيفاء تلك المصلحة... وتكون تسمية علی بأنه مولی المسلمين بمعنی أنه إمام المسلمين فعلًا قبيحاً يتنزه النبی صلی الله عليه و آله عن فعله.

وثانياً: إنا نعتقد بأن تنحية علی عليه السلام عن مقامه فتح علی الأمة ألوان المحن والبلوی، حيث افترق المسلمون إلی طوائف وفرق تتناصر علی السلطان والمال كالجاهلية الأولی. وأية محنة وبلوی أكبر من هذه التی وقع فيها المسلمون نتيجة تنحية علی عليه السلام عن مقامه.

الهوامش:

ص: ۲۴۱

ص: ۲۴۲

ص: ۲۴۳

المصلحة الاسلامية ووحدة المسلمين فى منهج الامام على عليه السلام

ص: ۲۴۴

المصلحة الإسلامية ووحدة المسلمين فى منهج الإمام على عليه السلام

على خير اللَّه

المصلحة الإسلامية هى الوضع الأفضل للإسلام باعتباره دعوة ومبدأ وقاعدة للدولة، والوضع الأفضل للمسلمين بوصفهم أُمّة لها جانبها الرسالى وجانبها المدنى، فكلّ ما كان يساهم فى إيجاد الوضع الأفضل للإسلام والمسلمين على هذا النحو فهو مصلحة إسلامية، وعلى هذا الأساس تكون الوحدة الإسلامية أهمّ مقوّمات الحفاظ على هذه المصلحة وإدامتها فى الواقع، وهى ضرورة عقلية وشرعية قد أثبت التاريخ ضرورتها فى تتبعه لسير الحضارات التى نمت وترعرعت وازدهرت بالوحدة، وتدهورت واضمحلت حينما بدأ التمزّق يدبّ فى سيرها.

والوحدة الإسلامية ممكنة التحقيق ما دامت الأمّة الإسلامية تجتمع حول عقيدة واحدة، ومصالح واحدة، ومصير واحد، وتواجه عدوّاً واحداً وحّد صفوفه وإمكاناته من أجل إيقاف المسيرة الإسلامية، وعرقلة حركتها التاريخية لتصفيتها عقيدةً وقيادةً وكياناً، وقد جسّد الإمام على عليه السلام مفاهيم الوحدة فى منهجه وسيرته وترجمها إلى أعمال وممارسات وعلاقات متجسّدة فى الواقع، فقد جعل المصلحة الإسلامية العليا قاعدة الانطلاق فى سكناته وحركاته، وحافظ على وحدة الدولة

ص: ٢٤٥

والأمّة متوجهاً نحو الآفاق العليا المشتركة ونحو الهدف الكبير؛ وهو تقرير مبادئ الإسلام فى واقع الحياة، وخير مصداق لتجسيد مفاهيم الوحدة والمصلحة الإسلامية يتمثّل بموقفه من الخلفاء؛ حيث التعاون والتآزر ضمن الأهداف المشتركة، وفيما يلى نستعرض أهم المواقف والممارسات الواقعة فى طريق الوحدة والنابعة من مراعاة المصلحة الإسلامية العليا.

الاعتراض السلمى

بعد أن تمخّض اجتماع السقيفة عن إعلان بيعة أبى بكر اعترض الإمام على عليه السلام على هذا الاعلان اعتراضاً سلمياً بحدود تبيان وجهة نظره طبقاً للأُسس والموازين المساعدة لهذا الاعتراض، وكان يقول: «أنا أحقّ بهذا الأمر منكم لا أُبايعكم وأنتم أولى بالبيعة لى» (١).

وكان يوجّه أنظار المهاجرين إلى خصائص من هو أهلًا للخلافة طبقاً للثوابت الشرعية والعقلية، حيث يقول: «واللَّه يا معشر المهاجرين، لنحن أحقّ الناس به، لأنّا أهل البيت، ونحن أحقّ بهذا الأمر منكم ما كان فينا إلّاالقارئ لكتاب اللَّه، الفقيه فى دين اللَّه، العالم بسنن رسول اللَّه، المضطلع بأمر الرعية، المدافع عنهم الأمور السيّئة، القاسم بينهم بالسوية، واللَّه إنّه لفينا...» (٢).

وكان اعتراضه حقّاً طبيعياً طبقاً للظروف الموضوعية واستناداً للمبرّرات التى تمنحه الحقّ فى الاعتراض والدعوة إلى نفسه، وإذا غضضنا النظر عن نقاط الاختلاف فى هذه المبررات من حيث التفسير والتأويل، وتمسّكنا بالنقاط المشتركة التى لا يختلف فيها بين الصحابة نجد أنّ اعتراضه على الشورى أو نتائجها لا يخرج عن المألوف من أُسس وموازين ثابتة لدى الجميع وأهمّها: غياب بنى هاشم وأغلب الصحابة عن اجتماع السقيفة، وبروز القبلية فى الحوار الساخن مع المغالبة والتهديد، واعتراف المشاركين بفقدان أسس الشورى، وعدم اختيار الأعلم والأفقه، والاحتجاج بالقرابة من رسول اللَّه صلى الله عليه و آله على الرغم من قرب بنى

١- ١ الإمامة والسياسة ١: ١١- ابن قتيبة الدينورى- مطبعة البابى- مصر- ١٣٨٨ ه.

٢- ٢ المصدر السابق ١: ١٢.

ص: ۲۴۶

هاشم والإمام علی علیه السلام له صلی الله علیه و آله.

وفی جمیع موارد ومواقع الاعتراض کان الإمام علی علیه السلام محافظاً علی القواعد الشرعیة فی أدب الحوار والنقاش والاعتراض، وکان موقفه سلمیاً لا یتعدّی تبیان حقّه بالخلافة، وممّا جاء فی ذلک قوله لأبی بکر: «کنّا نری أنّ لنا فی هذا الأمر حقّاً، فاستبدتم به علینا» (۱).

البیعة والوحدة الإسلامیة

مهما اختلف الرواة والمؤرخون فی وقت بیعة الإمام علیه السلام لأبی بکر وأسلوبها، فإنّ النتیجة کانت حفاظاً علی وحدة الدولة الإسلامیة ووحدة الامّة الإسلامیة، وحاجة الدولة الفتیة إلی دور الإمام علی علیه السلام فی إنجاح المسیرة، وفی المرحلة التی سبقت البیعة أو التی تلتها بقلیل رفض الإمام علیه السلام جمیع المواقف والممارسات التی تدعو إلی التباغض والعداء والتشتّت، ومنها: موقفه من عتبة بن أبی لهب حینما قال:

ما کنت أحسب أنّ الأمر منصرف عن هاشم ثمّ منها عن أبی حسن

ألیس أوّل من صلّی لقبلتکم وأعلم الناس بالقرآن والسنن

فبعث إلیه الإمام علیه السلام فنهاه وأمره أن لا یعود وقال: «سلامة الدین أحبُّ إلینا من غیره» (۲).

وحینما قدم أبو سفیان المدینة قال: «... واللَّه، إنّی لأری عجاجة لا یطفئها إلّا دم... أین المستضعفان أین الأذلّان علیّ والعبّاس».

وقال: «أبا حسن ابسط یدک حتّی أُبایعک» فزجره الإمام وقال له: «إنّک واللَّه ما أردت بهذا إلّاالفتنة، وانّک واللَّه طالما بغیت الإسلام شرّاً، لا حاجة لنا فی نصیحتک» (۳).

واستمر أبو سفیان فی تحریضه فقال: «... فواللَّه إن شئت لأملأنّها علی أبی

۱- ۳ تاریخ الطبری ۲: ۲۳۶- دار الکتب العلمیة- بیروت- ۱۴۰۸ ه- ط ۲.

۲- ۴ شرح نهج البلاغة ۶: ۲۱- ابن أبی الحدید- دار إحیاء الکتب العربیة- القاهرة- ۱۳۷۸ ه- ط ۱.

۳- ۵ تاریخ الطبری ۲: ۲۳۷.

ص: ۲۴۷

فصیل خیلًا ورجالًا» (۱).

فزجره الإمام علیه السلام لأنّ موقف أبی سفیان مخالف لأهداف الإمام علیه السلام الکبری فی الحفاظ علی الکیان والوجود الإسلامی؛ لأنّ الهدف من الخلافة هو تقریر مبادئ الإسلام فی واقع الحیاة وجعلها حاکمة علی الأفکار والعواطف والممارسات، ولا یتحقّق هذا الهدف بتصدیع الجبهة الداخلیة وإشغالها بالمعارک الجانبیة، إذ لا قیمة للخلافة أمام تلک الأهداف السامیة.

وقد تعدّدت الروایات فی الأسباب والعوامل التی دفعته للبیعة بین السلبیة والإیجابیة، ونحن نختار الایجابی منها لأنّه الأقرب للواقع ولحرص الإمام علیه السلام علی المصلحة الإسلامیة والوحدة الإسلامیة، ومن هذه الروایات: «انّ عثمان قال له: یا ابن العمّ! إنّه لا یخرج أحد إلی قتال هذا العدوّ وأنت لم تبایع، ولم یزل به حتّی مشی إلی أبی بکر، فسرَّ المسلمون بذلک وجدّ الناس فی القتال» (۲).

وإذا تبنینا روایة تهدیده بالقتل فالأمر لا یختلف؛ لأنّ قتله علیه السلام سیؤدی إلی الفرقة والتشتّت، وهذا ما یخالف أهدافه الکبری فی الحفاظ علی وحدة المسلمین.

وقد عبّر الإمام علیه السلام عن موقفه الوحدوی قائلًا: «إنّ اللَّه لمّا قبض نبیّه، استأثرت علینا قریش بالأمر، ودفعتنا عن حقّ نحن أحقّ به من الناس کافّة، فرأیت أنّ الصبر علی ذلک أفضل من تفریق کلمة المسلمین، وسفک دمائهم، والناس حدیثو عهد بالإسلام، والدین یمخض مخض الوطب، یفسده أدنی وهن، ویعکسه أقلّ خلف» (۳).

فکان توحید الصف أهم من حقّه بالخلافة، وقد راعی المصلحة الإسلامیة الکبری فی هذا الموقف.

وقال علیه السلام فی موقف آخر: «... فما راعنی إلّاانثیال الناس علی أبی بکر، وإجفالهم إلیه لیبایعوه، فأمسکت یدی، ورأیت أنّی أحقّ بمقام محمّد صلی الله علیه و آله فی النّاس ممّن تولّی الأمر من بعده، فلبثت بذاک ما شاء اللَّه حتّی رأیت راجعة من الناس

۱- ۶ الکامل فی التاریخ ۲: ۲۲۱- ابن الأثیر- دار صادر- بیروت- ۱۳۸۵ ه.

۲- ۷ بحار الأنوار ۲۸: ۳۱۰- محمد باقر المجلسی- مؤسسة الوفاء- بیروت- ۱۴۰۳ ه- ط ۲.

۳- ۸ شرح نهج البلاغة ۱: ۳۰۸.

ص: ۲۴۸

رجعت عن الإسلام، يدعو إلى محق دين اللَّه وملّة محمّد صلى الله عليه و آله، فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً وهدماً يكون المصاب بهما عليّ أعظم من فوات ولاية أُموركم... فمشيت عند ذلك إلى أبى بكر فبايعته، ونهضت فى تلك الأحداث، حتى زاغ الباطل وزهق، وكانت كلمة اللَّه هى العليا» (۱).

دوره فى إخماد الفتنة

لم ينعزل الإمام عليّ عليه السلام عن الأحداث فى عهد أبى بكر، فهو وإن لم ينصّب والياً أو قائداً عسكرياً إلّاأنّه كان يتفاعل مع الأحداث ليؤدّى دوره فى الإصلاح والتغيير وفى ترشيد وتسديد الأعمال والممارسات، فكان له دور ملموس فى حركة الدولة والأمّة، ففى أوائل خلافة أبى بكر اعتزل بعض الأنصار عنه، فغضب بعض المهاجرين من هذا الموقف وتطوّر الأمر وهجا عمرو بن العاص وأبو سفيان الأنصار وحرّضوا على قتالهم، فلمّا سمع الإمام عليه السلام بالأمر خرج مغضباً حتّى دخل المسجد فذكر الأنصار بخير، وردّ على عمرو بن العاص قوله، فلمّا علمت الأنصار ذلك سرّها وقالت: «ما نبالى بقول من قال مع حسن قول عليّ» (۲).

وكان لموقفه فى الدفاع عن الأنصار الدور الأكبر فى إخماد الفتنة؛ لأنّه أحد رؤوس المهاجرين فى نظر الأنصار، ولم يتطوّر الموقف أكثر من ذلك، فقد كانت لحكمته الدور الأكبر فى تجاوز الأزمة وسكون الفتنة.

الدفاع عن الدولة وإسنادها

على الرغم من وجود فواصل فكرية وسياسية بين الإمام على عليه السلام وقادة الدولة الإسلامية إلّاأنّه تعامل معها كفواصل جزئية لا تعزله عنهم، بل تتحرّك فيها الخطى والممارسات والمواقف نحو الأهداف المشتركة الكبرى، وكان يتعامل مع الأحداث انطلاقاً من المصلحة الإسلامية العليا، فى ظروف تكالبت فيها قوى الكفر والشرك للقضاء على هذه الدولة، وكان أعداء الدولة والأمّة الإسلامية لا يفرّقون فى عدائهم بين الإمام على عليه السلام وغيره، وكانوا يتصيّدون كلّ حجّة وكلّ

۱- ۹ شرح نهج البلاغة ۶: ۹۵.

۲- ۱۰ تاريخ اليعقوبى ۲: ۱۲۸- دار صادر- بيروت.

ص: ۲۴۹

فرصـة وكلّ ثغرة لينفـذوا منها إلى الطعن فى صـحّة الرسالة، وإلى بلبلة الأفكار وإشاعة الاضـطرار فى العقول والقلوب وخلق الفتن فى صفوف الكيان الإسلامى.

وفى هـذه الظروف والأـجواء دافع الإمام عليه السـلام عن الدولـة وسانـدها كما لو كان هو الخليفـة، فحينما جاءت وفود أسـد وغطفان وهوازن إلى أبى بكر وطـالبوه بإعفـائهم من الزكـاة، وحينما رجعوا أخبروا عشائرهم بقلّـة أهل المدينـة وأطمعوهم فيها، فطلب أبو بكر من الإمـام عليه السـلام أن ينصب كميناً على أطراف المدينـة، فاستجاب عليه السـلام للطلب، فلم يسـتطيعوا الهجـوم وتراجعوا لأـنّهم وجدوا أنّ المدينة محروسة (۱).

وردّ الإمام عليه السلام هجوم قبيلتى عبس وذبيان وبعض القبائل التى اغتنمت فرصة انشغال الجيش بإطفاء نار الارتداد (۲).

وكـان عليه السـلام حريصـاً على سـلامة القيـادة السياسـية والعسـكرية المتمثّلـة بأبى‌بكر؛ لأنّ مقتله سيشـجّع الطامعين على الإسـراع فى مخطّطاتهم الرامية لتقويض الكيان الإسـلامى، فحينما أراد أبو بكر الخروج بنفسه لقتال المرتدين منعه الإمام على عليه السـلام وقال:... لا تفجعنا بنفسك..» (۳).

وحينما أراد أبو بكر غزو الروم «استشار جماعة فقدّموا وأخّروا، ولم يقطعوا برأى، فاستشار عليّاً فى الأمر، فقال: إن فعلت ظفرت، فقال: بشّرت بخير» (۴).

فالإمـام على عليه السـلام لمكـانته ومقـامه بين المسـلمين إضافـةً إلى خبرته العسـكرية كان رأيه بشارة وانطلاقاً للتوجّه إلى غزو الروم، وكان الفتح حليف المسلمين.

حل المسائل المستعصية

كان أبو بكر يحترم مكانـة الإمام عليه السـلام العلميـة، وكان يشـيد به ويعترف بحقّه وفضـله، وكان يمدحه فى كثير من المواقف ومن أقواله فى حقّه: «من سرّه أن ينظر إلى أعظم الناس منزلة من رسول اللّه صلى الله عليه و آله وأقربه قرابة، وأفضله دالّة، وأعظمه غناءً عن نبيّه فلينظر إلى هذا» (۵).

۱- ۱۱ المنتظم ۴: ۷۵- عبد الرحمن بن الجوزى- دار الكتب العلمية- بيروت- ۱۴۱۲ ه- ط ۱.

۲- ۱۲ لا سنّة ولا شيعة: ۲۱- د. محمد على الزعبى- دار التراث الإسلامى- ۱۳۹۴ ه.

۳- ۱۳ تاريخ الخلفاء: ۵۷- عبد الرحمن السيوطى- دار الكتب العلمية- بيروت- ۱۴۰۸ ه.

۴- ۱۴ تاريخ اليعقوبى ۲: ۱۲۳.

۵- ۱۵ مختصر تاريخ دمشق ۱۷: ۳۲۰- ابن عساكر- دار الفكر- دمشق- ۱۹۸۸ م.

ص: ۲۵۰

وکان یلتجأ إلیه فی المسائل المستعصیة، سأله الیهود فأجابهم، ثمّ سألوه عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله فقال: «ولکنّ الحدیث عنه شدید وهذا علیّ بن أبی طالب» فأرسلهم إلی الإمام علی علیه السلام فأجابهم (۱).

وسأله ملک الروم عن مسائل فأخبر بذلک علیّاً فأجابه، وأراد أن یقیم الحدّ علی شارب خمرٍ، فقال الرجل: إنّی شربتها ولا علم لی بتحریمها، فأرسل أبو بکر إلی الإمام یسأله، فقال: مرّ نقیبین من رجال المسلمین یطوفان به علی المهاجرین والأنصار وینشدانهم: هل فیهم أحد تلا علیه آیة التحریم؟ ففعل، ثمّ خلّی سبیله ولم یحدّه (۲).

عدم التدخّل فی الأمور الجزئیة

کان الإمام علی علیه السلام لا یتدخّل فی الامور الجزئیة التی لا ضرر فیها علی المصلحة الإسلامیة العلیا، أو لیست من الامور المهمّة للمسلمین، فلم یحدّثنا التاریخ أنّه اعترض علی تعیین بعض الولاة أو بعض قادة الجیش، وخصوصاً الذین لا یراهم أهلًا للمسؤولیة، ولم یتدخّل فی تبدیلهم أو عزلهم، أو یقترح تعیین البعض دون البعض الآخر، ولم یعترض علی بعض الأخطاء التی ارتکبت؛ لأنّه وجد أنّ غیره قد اعترض علیها کبعض الأخطاء التی حدثت فی حروب الردّة أو حروب مانعی الزکاة.

استخلافه علی المدینة فی خلافة عمر بن الخطّاب

أصبح عمر بن الخطّاب خلیفة بعهد من أبی بکر، فلم یعترض الإمام علی هذا الاستخلاف، ولم یتخلّف عن مختلف الأعمال والنشاطات والممارسات المیدانیة التی تحتاج إلی رأیه وجهده، وکان ینفذ ما یطلب منه ما دام منسجماً مع قواعد وأُسس الشریعة الإسلامیة.

وعلی الرغم من اختلاف وجهات النظر فی کثیر من القضایا إلّاأنّ ذلک لم یمنع من التعاون والتآزر تحت ظلّ الآفاق العلیا للمنهج الإسلامی.

۱- ۱۶ ذخائر العقبی: ۸۰- محمد بن جریر الطبری- مؤسسة الوفاء- بیروت- ۱۴۰۱ ه.

۲- ۱۷ مناقب آل أبی طالب ۲: ۳۹۷- ابن شهرآشوب- دار الأضواء- بیروت- ۱۴۱۲ ه.

ص: ۲۵۱

وإذا تتبعّنا سیرة عمر نجـده لم یعهـد إلی الإمام علیه السـلام منصـباً فی ولایـة أو إمرة جیش أو فی أی مجال آخر، وکان هذا شأنه مع الکثیر من المهاجرین، ومع ذلک کان یستخلفه علی المدینة، وخصوصاً فی الوقائع التی یشترک فیها الخلیفة أو المتوقّفة علی اشتراکه، فقد استخلفه علی المدینة فی سنة ۱۴ ه، وفی سنة ۱۵ ه، وفی سنة ۱۸ ه (۱).

واسـتخلافه علی المدینة یعبّر عن ثقة عمر به، وشـهادة له بالإخلاص للإسلام وللدولة الإسلامیة، وإیماناً منه بتقدیر المصلحة الإسلامیة العلیا، والعمل الدؤوب من أجل تحقیق وحدة الدولة والأمّة.

الاستعانة بالإمام علیه السلام فی المجال العسکری

کـان عمر بن الخطّاب یستعین بأصـحاب رسول اللَّه صـلی الله علیه و آله حینما یریـد اتخاذ موقف معیّن، وکان اختصاصه بالإمام علی علیه السـلام أکثر من غیره، وکان الإمام علیه السـلام لا یبخل بإبداء توجیهاته وملاحظاته وکان مخلصاً فی النصـیحة ما دامت مصـلحة الإسلام هی العلیا.

فحینما شاوره فی الخروج إلی غزو الروم، نصـحه بعدم الخروج بنفسه، وقال له: «إنّک متی تسر إلی هذا العدوّ بنفسک؛ فتلقهم فتنکب لا ـ یکن للمسـلمین کهـف دون أقصـی بلادهم، لیس بعـدک مرجع یرجعون إلیه، فـابعث إلیهم رجلًا محربـاً، واحفز معه أهـل البلاء والنصیحة، فإن أظهر اللَّه فذاک ما تحبّ، وإن تکن الاخری، کنت ردءاً للناس ومثابة للمسلمین» (۲).

وفی غزوة نهاوند نصـحه بالبقاء فی المدینة وإبقاء أهل الشام وأهل الیمن فی بلدانهم خوفاً من هجوم الروم والحبشة علیهم من الخلف أو فراغ بلـدانهم من الرجـال، وکـان الرأی الأمثـل هو الاسـتعانة بثلث أهـل البصـرة وثلث أهـل الکوفـة، وممّا جاء فی نصـیحته: «... إنّ الأعاجم إن ینظروا إلیک غداً قالوا: هذا أمیر العرب وأصل العرب، فکان ذلک أشدّ لکلبهم وألبتهم علی نفسک» (۳).

۱- ۱۸ الکامل فی التاریخ ۲: ۴۵۰، ۵۰۰ وتاریخ الطبری ۲: ۳۸۱، ۴۴۹.

۲- ۱۹ شرح نهج البلاغة ۸: ۲۹۶.

۳- ۲۰ المنتظم ۴: ۲۷۳ وتاریخ الطبری ۲: ۵۲۴.

ص: ۲۵۲

وحينما تحصّن المشركون ببيت المقدس أجابوا إلى الصلح بشرط قدوم الخليفة عليهم، فاستشار الإمام بذلك فأشار عليه (بالمسير إليهم ليكون أخفّ وطأة على المسلمين فى حصارهم بينهم) (۱).

وقال له: «إنّ القوم قد سألوك المنزلة التى لهم فيها الذلّ والصّغار ونزولهم على حكمك عزّ لك وفتح للمسلمين... حتّى تقدم على أصحابك وجنودك، فإذا قدمت عليهم كان الأمر والعافية والصلح والفتح إن شاء اللّه» فأخذ عمر بمشورته (۲).

ولم يتخلّف أنصار الإمام على عليه السلام- وهم الذين يرون أحقّيته بالخلافة- عن الغزوات والفتوحات التى قادها الخليفة أو من نصّبه قائداً عسكرياً، تبعاً لإمامهم الذى ربّاهم على تحكيم المصلحة الإسلامية العليا على جميع المصالح، فاشترك أبناء عمّه العبّاس فيها، واشترك أبناء اخوانه فيها، ومنهم محمد بن جعفر الذى استشهد فى تستر، واشترك عمّار بن ياسر وسلمان الفارسى وحذيفة بن اليمان وجابر بن عبداللّه بأغلب الغزوات والفتوحات (۳).

وقد أطاعوا الخليفة وقادة الجيش كما لو كان الإمام هو الخليفة، وقد أخلصوا لهذه الدولة متعالين على جميع الفواصل الجزئية ما دام المنهج الإسلامى هو المحور المشترك للجميع.

الاستعانة بالإمام عليه السلام فى القضاء

كان عمر بن الخطّاب يستعين برأى الصحابة وخصوصاً رأى الإمام عليه السلام وكان الإمام عليه السلام يسانده ويؤازره فى اختيار الموقف الأصوب، وكان يتدخّل ابتداءً لتغيير حكم أو تنفيذه، وكان عمر يمتدحه بعد نجاح الموقف ويرى أنّه السبب فى إنقاذه من المواقف الحرجة فى القضاء والحكم بين الناس.

استشاره فى عقوبة شارب الخمر فقال: «أرى أن تجلده ثمانين، فإنّه إذا سكر هذى، وإذا هذى افترى» فجلد عمر فى الخمر ثمانين (۴).

وبلغه عن امرأة من قريش أمر مريب فبعث إليها يدعوها، فارتاعت وسقط

۱- ۲۱ البداية والنهاية ۷: ۵۵- ابن كثير- دار الفكر- بيروت.

۲- ۲۲ الفتوح ۱: ۲۲۵.

۳- ۲۳ الكامل فى التاريخ ۲: ۵۱۲ و ۳: ۹.

۴- ۲۴ تاريخ المدينة المنوّرة ۲: ۷۳۲- ابن شبّة النميرى- مكّة المكرّمة- ۱۳۹۹ ه.

ص: ۲۵۳

جنینها، فاستشار جماعة من الصحابة، فقالوا: ما نری علیک شیئاً، فقال الإمام علی علیه السلام: «أری أنّک قد ضمنت دیته»، فقال عمر: صدّقتنی (۱).

وذکر الطبری بعض الروایات فی الاستعانة بالإمام فی القضاء؛ وکان یتدخّل أحیاناً دون استشارة لیغیّر الحکم، فیمضی عمر حکمه علیه السلام ومن ذلک:

أمر عمر برجم امرأة حامل اعترفت بالفجور، فتلقاها علیّ فردّها وقال: «فما سلطانک علی ما فی بطنها» فخلّی سبیلها.

وجیء بامرأة أصابها العطش فأجبرها رجل علی الفاحشة، ففعلت، فشاور عمر علیّاً فقال: «هی مضطرّة إلی ذلک» فخلّی عمر سبیلها.

وأراد عمر رجم امرأة ولدت لستّة أشهر خلافاً للمتعارف، فأثبت علیّ له صحّة الحمل لستّة أشهر، فرجع عن قراره.

واشتکی رجل عنده علی علیّ لأنّه لطمه، فسأله عمر فقال: «لأنی رأیته یتأمّل حرم المؤمنین فی الطواف»، فقال عمر: أحسنت یا أبا الحسن (۲) فلم یجد بأساً فی أن یقوم علیّ علیه السلام بتأدیب الرعیة دون علمه ودون أمره.

وأراد عمر رجم امرأة محصنة فجر بها غلام فقال الإمام علیه السلام: «لا یجب الرجم لأنّ الذی فجر بها لیس بمدرک».

وسأل رجل عمر حول حلیّة زوجته التی طلّقها مرّة وهو مشرک ومرّتین وهو مسلم، فقال عمر: کما أنت حتّی یجیء علیّ، فأتی علیّ فقال: «هدم الإسلام ما کان قبله» واعتبرها تطلیقتین (۳).

الاستعانة برأی الإمام فی تداول الثروة

الثروة واسلوب تداولها من الامور الحسّاسة بعد القضاء، ولها تأثیرها الواضح علی سیر الأعمال والنشاطات والممارسات؛ ولهذا فإنّ الإمام علیه السلام بذل ما یمکن بذله من إبداء النصح والتوجیه لیکون أسلوب تداول الثروة منسجماً مع أساسیات الشریعة الإسلامیة ومع المصلحة العامّة للدولة وللاُمّة وللإسلام.

۱- ۲۵ انساب الأشراف ۲: ۱۷۸- البلاذری- مؤسسة الأعلمی- بیروت- ۱۳۹۴ ه.

۲- ۲۶ ذخائر العقبی: ۸۱، ۸۲.

۳- ۲۷ مناقب آل أبی طالب ۲: ۴۰۲، ۴۰۵.

ص: ۲۵۴

وأوّل بادرة للاستشارة حينما أراد عمر بن الخطّاب التفرّغ لتسيير حركة الدولة وحركة المسلمين استشار الصحابة فى حقّه فى بيت المال، فاختلفت أقوالهم، فقال: ما تقول يا علىّ؟ فقال: «ما أصلحك وأصلح عيالك بالمعروف، ليس لك من هذا المال غيره» فقال الصحابة: القول قول ابن أبى طالب (۱).

وقدم على عمر مال فيه مجوهرات وذهب وفضّة، فاستشار الصحابة فقال الإمام عليه السلام: «لم يجعل اللّه علمك جهلًا ويقينك شكّاً، إنّه ليس لك من الدُّنيا إلّاما أعطيت فأمضيت أو لبست فأبليت أو أكلت فأفنيت، وإنّك إن تبعته على هذا اليوم لم تعدم فى غدٍ من يستحقّ به ما ليس له» فقال عمر: صدقتنى ونصحتنى (۲).

وشاور عمر الصحابة فى سواد الكوفة، فقالوا له: تقسمها بيننا، فشاور الإمام عليه السلام فقال: «إن قسّمتها اليوم لم يكن لمن يجىء بعدنا شىء، ولكن تقرّها فى أيديهم يعملونها، فتكون لنا ولمن بعدنا».

فقال عمر: «وفّقك اللّه هذا الرأى» (۳).

وكان عمر متردّداً فى خزائن بيت اللّه وما فيها من أموال وسلاح، أيتركها أم يوزّعها فقال له الإمام عليه السلام: «... لست بصاحبه، إنّما صاحبه منّا شاب من قريش يقسمه فى سبيل اللّه فى آخر الزمان» (۴).

وحينما وضع عمر الدواوين وفرّق بين المسلمين بالعطاء على أساس السبق فى الايمان والهجرة، فقدّم المهاجرين على الأنصار، والأنصار على مسلمى الفتح، ومسلمى الفتح على المتأخّرين إسلاماً، لم يعترض الإمام عليه السلام على طريقة التوزيع، وإن كان قد ساوى فى العطاء فى وقت خلافته كما يذكر جميع المؤرّخين، فقد يكون مراعياً للظروف الموضوعية فى ذلك، أو عدم رغبته فى مخالفة الخليفة أو الصحابة، أو انّ اسلوب التداول والعطاء من صلاحيات الخليفة فى حدود المصلحة العامّة ولا محذور شرعى فيه، وعلى العموم فإنّ الإمام عليه السلام لم يعترض على طريقة التوزيع، ولم يخالف رأى عمر فى حينه.

۱- ۲۸ تاريخ الطبرى ۲: ۴۵۳ والمنتظم ۴: ۱۹۷.

۲- ۲۹ الكامل فى التاريخ ۲: ۵۱۸.

۳- ۳۰ تاريخ اليعقوبى ۲: ۱۵۱، ۱۵۲.

۴- ۳۱ كنز العمّال ۱۴: ۵۹۱- حسام الدين الهندى- مؤسسة الرسالة- بيروت- ۱۴۰۵ ه.

ص: ۲۵۵

بذل الإخلاص فی المشورة فی جمیع الجوانب

کان عمر یستعین برأی الإمام علیه السلام فی جمیع جوانب الحیاة وفی جمیع المرافق التی تحتاج إلی مشورة وإلی تسدید وتوجیه، وکان الإمام علیه السلام یبدی توجیهاته ونصائحه المنسجمة مع المصلحة الإسلامیة العلیا.

حینما أراد عمر کتابة التاریخ ارتأی أن یکتبه من مبعث رسول اللَّه صلی الله علیه و آله، وارتأی بعض الصحابة أن یکتبه من تاریخ وفاته صلی الله علیه و آله، فکان رأی الإمام علیه السلام أن یکتب من یوم الهجرة إلی المدینة، واستقرّ الأمر علی ذلک (۱).

وأراد عمر بیع أهل السواد فقال الإمام علیه السلام: «دعهم شوکة للمسلمین» فترکهم علی أنّهم عبید (۲).

وبلغ عمر أنّ أحد عمّاله باع ما یحرم بیعه وجعل الثمن فی بیت المال، فاستشار الإمام بذلک، فقال: «امّا أن تعزله وإمّا أن تکتب إلیه أن لا یعود» (۳).

وکان یستقی من آراء الإمام علیه السلام ویتقبّلها، ففی أحد أیّام الحجّ قبّل الحجر الأسود، ثمّ قال: (إنّی لأعلم أنّک حجر لا تضرّ ولا تنفع، ولولا انّی رأیت رسول اللَّه صلی الله علیه و آله یقبّلک ما قبّلتک).

فقال الإمام علیه السلام: «... بل هو یضرّ وینفع، فهو یشهد للمؤمن بالوفاء ویشهد علی الکافر بالجحود» (۴).

واستعان بأنصار الإمام علیه السلام فی أعماله- إیماناً منه بإخلاص الإمام علیه السلام وإخلاص أنصاره- فعیّن سلمان والیاً علی المدائن، وعمّاراً علی الکوفة، وأسند بعض المناصب الحسّاسة لأنصاره الآخرین، فکان بعضهم حلقة الوصل بین الخلیفة وقادة الجند (۵).

وقد أخلصوا فی أعمالهم کما أخلص الإمام علیه السلام فی مشورته، فکانوا ینظرون إلی المصلحة الإسلامیة العلیا وإلی وحدة الدولة والأمّة.

وقد عبّر عمر بن الخطّاب عن تلک السیرة وذلک الحرص من قبل الإمام علیه السلام

۱- ۳۲ الکامل فی التاریخ ۲: ۵۲۶ وتاریخ المدینة المنوّرة ۲: ۷۵۸.

۲- ۳۳ مناقب آل أبی طالب ۲: ۴۰۷.

۳- ۳۴ أنساب الأشراف ۲: ۷۸.

۴- ۳۵ إحیاء علوم الدین ۱: ۲۴۲- أبو حامد الغزالی- دار الندوة الجدیدة.

۵- ۳۶ الکامل فی التاریخ ۲: ۵۱۲، ۵۴۸ و ۳: ۹، ۱۸.

ص: ۲۵۶

على المصلحة الإسلامية، وعلى حفظ وحدة الكيان الإسلامى ووحدة المسلمين؛ بأقواله بحقّه، تقديراً منه للجهود التى بذلها فى تسيير الأحداث والوقائع المختلفة، ومن أقواله بحقّ الإمام عليه السلام قوله: «لا أبقانى اللَّه بعدك يا أبا الحسن» و «أعوذ باللَّه أن أعيش فى يوم لست فيه يا أبا الحسن» و «لولا على لهلك عمر» (۱).

وقال لعبد اللَّه بن عبّاس: «إنّ عليّاً ابن عمّك لأحقّ الناس بها، ولكنّ قريشاً لا تحتمله، ولئن وليهم ليأخذنّهم بمرّ الحقّ لا يجدون عنده رخصة» (۲).

الموقف من الشورى

حينما طعن عمر جعل أمر الخلافة بيد ستّة من الصحابة يختارون أحدهم، وأمر بقتل كلّ من خالف الاختيار، وكان الإمام عليه السلام يتوقّع النتائج، وكان يقول:

«فسعد لا يخالف ابن عمّه عبد الرحمن، وعبد الرحمن صهر عثمان لا يختلفون» (۳).

ومع علمه بالنتائج إلّاأنّه قبل بالاجتماع واشترك فيه، فحينما قال له عمّه العبّاس لا تدخل معهم كان جوابه: «إنّى أكره الخلاف» (۴).

وحينما تمخّضت النتائج بترشيح عثمان خليفة من قبل عبدالرحمن بن عوف اكتفى الإمام عليه السلام بالقول: «ليس هذا أوّل يوم تظاهرتم فيه علينا، فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (۵)...» (۶).

فقد عبّر عن رأيه بلا موقف سلبى، وقال لعبد اللَّه بن عبّاس: «إنّى رأيت الجميع راضين به فلم أحبّ مخالفة المسلمين حتّى لا تكون فتنة بين الأمّة» (۷).

ووضع عليه السلام ميزاناً ثابتاً فى التعامل مع السلطة والخلافة، فقدّم مصلحة الإسلام العليا على جميع المصالح، وقدّم الوحدة الإسلامية على جميع المغانم والمكاسب الآنية والذاتية، فخاطب أهل الشورى قائلًا: «لقد علمتم أنّى أحقّ بها من غيرى، وواللَّه لأُسلمنَّ ما سلمت أُمور المسلمين؛ ولم يكن فيها جور إلّاعلىَّ خاصّة، التماساً لأجر ذلك وفضله، وزهداً فيما تنافستموه من زخرفه وزبرجه» (۸).

وكان يقول: «فنظرت فى أمرى، فإذا طاعتى قد سبقت بيعتى، وإذا ميثاقى قد

۱- ۳۷ ذخائر العقبى: ۸۲ وتاريخ الخلفاء: ۱۷۱ والطبقات الكبرى ۳: ۳۳۹.

۲- ۳۸ تاريخ اليعقوبى ۲: ۱۵۹.

۳- ۳۹ تاريخ الطبرى ۴: ۲۳۰.

۴- ۴۰ الكامل فى التاريخ ۳: ۶۶.

۵- ۴۱ سورة يوسف الآية: ۱۸.

۶- ۴۲ الكامل فى التاريخ ۳: ۷۱.

۷- ۴۳ الفتوح ۱: ۲۳۵.

۸- ۴۴ شرح نهج البلاغة ۶: ۱۶۶.

ص: ۲۵۷

أخذ لغيرى، فبايعت عثمان فأديت له حقّه» (۱).

فقد تعالى عليه السلام على كثير من الامور حفاظاً على المصلحة الإسلامية العليا، وعلى وحدة الدولة والأمّة، ووقف بجانب الخليفة الجديد لتحقيق الهدف الأكبر وهو تقرير مبادئ الإسلام فى واقع الحياة، وممّا نسب إليه فى هذا الأمر قوله: «لو سيّرنى عثمان عنه إلى صرار لسمعته وأطعت الأمر» (۲). وصرار موقع على بعد عدّة أميال من المدينة.

مشاركة أتباعه فى الغزوات

لم يحدّثنا التاريخ عن اشتراك الإمام عليه السلام فى الغزوات، وإنّما حدّثنا عن مشاركة أتباعه وأنصاره وأبنائه فيها، فقد اشترك أبو أيّوب الأنصارى وأبو ذر الغفارى فى بعض الغزوات، واشترك عبداللّه بن عبّاس فى فتح افريقية، واشترك الحسن والحسين وابن عبّاس وآخرون فى غزو طبرستان بإمرة سعيد بن العاص (۳).

وهذه المشاركة تدلّ دلالة واضحة على تأييد وإسناد الإمام عليه السلام للغزوات والفتوحات؛ لأنّها بالنتيجة تقع فى طريق المصلحة الإسلامية العليا متمثّلة بالدعوة إلى الإسلام وإلى توسيع رقعة الدولة الإسلامية و فرض سلطانها على أرجاء الأرض.

الاستعانة برأى الإمام عليه السلام

إيماناً من عثمان بن عفّان بإخلاص الإمام علىّ عليه السلام للمنهج الإلهى وجهاده من أجل المصلحة العليا ووحدة المسلمين كان يستعين برأيه لترشيد وتسديد المسيرة، وكان الإمام عليه السلام يتدخّل أحياناً لتغيير بعض قرارات الحكم وإن لم يستشار بها.

فقد تدخّل لمنع إجراء الحدّ بامرأة، بعد أن أثبت براءتها بالأدلّة الحسيّة (۴) وهنالك وقائع عديدة تدخّل فيها الإمام عليه السلام لتكون الأحكام منسجمة مع قواعد الشريعة.

وقد وردت روايات عديدة تنصّ على أنّ عثمان إذا جاءه الخصمان (قال لأحدهما اذهب ادع عليّاً...) (۵).

۱- ۴۵ تاريخ الخلفاء: ۱۴۱.

۲- ۴۶ تاريخ المدينة المنوّرة ۴: ۱۲۰۱.

۳- ۴۷ الكامل فى التاريخ ۳: ۷۷، ۸۹، ۱۰۹.

۴- ۴۸ مناقب آل أبى طالب ۲: ۴۱۳.

۵- ۴۹ السنن الكبرى ۱۰: ۱۱۲.

ص: ۲۵۸

وكان يستشيره فى اختيار الموقف المناسب من المعارضين لسياسته، فيشير عليه بإصلاح الأوضاع وتغيير بعض الولاة (۱).

واتفق رأى عثمان مع رأى الإمام على عليه السلام فى جمع المصاحف على قراءة واحدة (۲).

سيرة الإمام عليه السلام بعد الفتنة

بعد ستّة أعوام من خلافة عثمان بدأت بوادر المعارضة له ولسيرته من قبل بعض الصحابة، ومن قبل بقيّة المسلمين فى بعض الأمصار كالكوفة والبصرة ومصر، وقد خلقت هذه المعارضة جوّاً من الاضطراب والتخلخل فى تماسك ووحدة الكيان الإسلامى، وفى ظلّ هذه الأجواء لم يقف الإمام على عليه السلام موقف الحياد أو الانعزال عن الأحداث وعن الميدان، وإنّما قام بواجبه فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حفاظاً على تماسك الكيان الإسلامى وحفاظاً على سلامة تطبيق المنهج الإسلامى من قبل الخليفة والولاة والأمّة، وكان يحاول تهدئة الأوضاع والعلاقات المتشنجة؛ لكى لا تحدث الفتنة وتتوسّع ولكى لا يتمزّق الكيان الإسلامى.

وكان أوّل موقف له عليه السلام أن حذّره من بعض الولاة الذين سبّبوا إثارة المعارضين؛ لأنّهم يدّعون أنّ مواقفهم وأعمالهم كانت بأمر من عثمان (۳).

وكان ينصحه كثيراً كلّما خلى به، وكان يقول له: «أمّا الفرقة فمعاذ اللّه أن أفتح لها باباً، واسهّل إليها سبيلًا، ولكنّى أنهاك عمّاينهاك اللّه ورسوله عنه، وأهديك إلى رشدك. ألا تنهى سفهاء بنى أمية عن أعراض المسلمين وأبشارهم وأموالهم، واللّه لوظلم عامل من عمّالك حيث تغرب الشمس لكان إثمه مشتركاً بينه وبينك» (۴).

وكان يحذّره من مروان بن الحكم ومن الأخذ برأيه فيقول: «فلا تكوننّ لمروان سيقة يسوقك حيث شاء» (۵).

وكان الوسيط بينه وبين المعارضين، وكان عثمان يدعوه أحياناً للتدخّل من

۱- ۵۰ البداية والنهاية: ۷: ۱۷۱.

۲- ۵۱ الكامل فى التاريخ ۳: ۱۱۲.

۳- ۵۲ تاريخ الطبرى- حوادث سنة ۳۴ ه.

۴- ۵۳ شرح نهج البلاغة ۹: ۱۵.

۵- ۵۴ شرح نهج البلاغة ۹: ۲۶۲.

ص: ۲۵۹

أجل تهدئة الأوضاع، قال له فى أحد المواقف: «... اردده‍م عنّى فانّى أعطيهم ما يريدون من الحقّ من نفسى ومن غيرى».

فقال له الإمام عليه السلام: «إنّ الناس إلى عدلك أحوج منهم إلى قتلك وانّهم لا يرضون إلّابالرضا، وقد كنت أعطيتهم من قبل عهداً فلم تفِ به، فلا تغرر فى هذه المرّة، فإنّى معطيهم عنك الحقّ».

قال: اعطهم فواللّه لأفينَّ لهم.

فخرج الإمام عليه السلام إلى المعارضين فقال: «إنّكم إنّما تطلبون الحقّ وقد أعطيتموه وإنّه منصفكم من نفسه».

وكتب عثمان بينه وبين المعارضين كتاباً على ردّ كلّ مظلمة، وعزل كلّ عامل كرهوه، فكفّوا عنه (۱).

إلّا أنّ مروان بن الحكم اعتبر ذلك ضعفاً وأنّه سيجرئهم عليه فخطب فى المعارضين وقبّحهم دون علم عثمان، فتأزّمت الأوضاع، وتدخّل الإمام مرّة أخرى فأرجع المعارضين وحذّره من مروان قائلًا: «واللّه ما مروان بذى رأى فى دينه ولا نفسه، وأيم اللّه إنّى لأراه سيوردك ثمّ لا يصدرك».

وبعد رجوعهم إلى بلدانهم أمسكوا بغلام عثمان، وبيده كتاب يختمه يأمر والى مصر بقتلهم، فاقتنعوا أنّه مكتوب من قبل مروان، فطالبوا عثمان بتسليمه إليهم فأبى فحدث الحصار (۲).

موقف الإمام عليه السلام بعد الحصار

فشلت جميع محاولات المصالحة بين عثمان والمعارضين؛ لأنّهم أصرّوا على تسليم مروان وأصرّ هو على عدم تسليمه، وبدأ الحصار ليستمرّ أربعين يوماً، وفى مدّة الحصار حاول الإمام عليه السلام تهدئة الأوضاع إلّاأنّ الظروف لم تساعده، و استمرّ عليه السلام على نهجه فى تهدئة الأوضاع وإخماد الفتنة.

فقد وردت الأخبار أنّ عثمان اشتكى من موقف طلحة، فتوجّه الإمام عليه السلام إلى

۱- ۵۵ شرح نهج البلاغة ۳: ۱۵۱.

۲- ۵۶ تاريخ الطبرى- حوادث سنة ۳۵ ه‍.

ص: ۲۶۰

طلحة وقال له: «يا طلحة ما هذا الأمر الذی وقعت فيه؟». فقال: «يا أبا الحسن بعدما مسّ الحزام الطبّيين».

فانصرف الإمام عليه السلام حتّى أتى بيت المال، فقال: افتحوه، فلم يجدوا المفاتيح، فكسر الباب وأعطى الناس، فانصرفوا من عند طلحة حتّى بقى وحده، وسرّ بذلک عثمان (۱).

وحينما اشتدّ الحصار نصح الإمام عليه السلام المعارضين بعدم قطع الماء عنه، فلم يستجيبوا له، فبعث إليه ثلاث قرب مملوءة بالماء (۲).

وبعث إليه عثمان فأتاه، فتعلّق به المعارضون ومنعوه، فحلّ عمامة سوداء على رأسه ورماها داخل بيت عثمان ليعلمه وقال: «اللّهم لا أرضى قتله... واللّه لا أرضى قتله» (۳).

وحينما أصبح الحصار أشدّ وطأة خرج الإمام عليه السلام ومعه الحسن والحسين عليهما السلام فحملوا على المعارضين وفرّقوهم ثمّ دخلوا على عثمان، فأعفاهم عثمان من الدفاع عنه، فخرج الإمام عليه السلام وهو يقول: «اللّهم إنّک تعلم أنّا قد بذلنا المجهود» (۴).

وأرسل الإمام عليه السلام ولديه فی الدفاع عنه، فمنعوا المعارضين من الدخول إلى منزله، وقد أصابت الحسن عليه السلام عدّة جراحات فی الدفاع عنه (۵).

وكان الإمام عليه السلام من أشدّ المدافعين عن عثمان كما اعترف مروان بقوله للإمام زين العابدين عليه السلام: «ما كان فی القوم أدفع عن صاحبنا من صاحبكم».

قال له الإمام عليه السلام: «فما بالكم تسبّونه على المنابر؟».

قال: «إنّه لا يستقيم لنا الأمر إلّابذلک!!» (۶).

موقف وحدوی صريح

فی فترة الحصار توجّه عدد كبير من المسلمين إلى الإمام عليه السلام ليصلّی بهم جماعة، ولكنّه رفض هذا الطلب وأجابهم «لا اصلّی بكم والإمام محصور ولكن اصلّی وحدی» (۷).

۱- ۵۷ الكامل فی التاريخ ۳: ۱۶۷.

۲- ۵۸ تاريخ الخميس ۲: ۲۶۲- حسين الدياربكری- مؤسسة شعبان- بيروت- بدون تاريخ.

۳- ۵۹ الطبقات الكبری ۳: ۶۸- ابن سعد- دار صادر- بيروت- ۱۴۰۵ ه.

۴- ۶۰ تاريخ الخميس ۲: ۲۶۳.

۵- ۶۱ البداية والنهاية ۷: ۱۸۱ وتاريخ المدينة المنوّرة ۳: ۱۱۳۱.

۶- ۶۲ أنساب الأشراف ۲: ۱۸۴، وشرح نهج البلاغة ۱۳: ۲۲۰.

۷- ۶۳ تاريخ الخميس ۲: ۲۶۳.

ص: ۲۶۱

فقد رفض الإمام عليه السلام الصلاة بالمسلمين- وإن وجد المبرّر لها- ليحافظ على وحدة الصفّ الإسلامى ووحدة الخلافة، وليحافظ على حرمة وقدسية منصب الخلافة، وللحيلولة دون حدوث تصدّع فى الجبهة الداخلية، ودون حدوث خلل واضطراب فى العلاقات بين الصحابة وبين المسلمين عموماً.

وهكذا كانت سيرته عليه السلام فى تعامله مع الأشخاص ومع المواقف ومع الأحداث، حيث كان منقاداً للمصلحة الإسلامية العليا، ولوحدة الكيان الإسلامى؛ ولهذا تعاون وتآزر مع معاصريه من أجل تحقيق الأهداف الإسلامية الكبرى، ولم يثنه عن ذلك أىّ عارض أو عائق، فقد جعل الفواصل بينه وبين الخلفاء فى حدودها الضيّقة، وتعامل معها كفواصل جزئية من أجل أن يتوجّه الجميع نحو الأفق الأوسع الذى يجمعهم تحت راية واحدة ومصلحة واحدة.

الهوامش:

ص: ۲۶۲

ص: ۲۶۳

البعد المعنوى للحجّ فى رؤى الامام علىّ عليه السلام

ص: ۲۶۴

البعد المعنوى للحجّ فى رؤى الإمام علىّ عليه السلام

محمد على المقدادى

حينما نقف عند كلمات الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حول الحجّ، ونلاحظ أحاديثه العطرة، نجد أبعاداً فكرية ومعنوية للشخص وللمجتمع، والحقّ أنّ تلك الأبعاد هى الأسوة التى لابدّ لنا منها طيلة حياتنا، فهى صالحة لكلّ إنسان، ولكلّ العصور.

فى هذه المقالة الموجزة بعد أن نتعرّف على مواضع تحصيل المعنوية، ننتخب من آثاره عليه السلام ما له صلة بالبحث:

ما هى المعنوية؟

إنّ استفتاح رحمة اللّه الواسعة، واستنزال بركاته الثمينة، يحتاج إلى مقدّمات ومبادئ، كلّما حصل منها شىء، حصل القرب إليه سبحانه وتعالى بمقدار ذلك، فالتقرّب إلى الحقّ المبين يساوق المعنوية، فلا معنوية إلّا بالتقرّب.

يقول بعض العلماء المهذّبين:

«اعلم أيّها الطالب للوصول إلى بيت اللّه الحرام؛ أنّ للحضرة الأحديّة- جلّ شأنه العظيم- بيوتات مختلفة:

منها: الكعبة الظاهرية.

ومنها: البيت المقدّس.

ومنها: البيت المعمور.

ومنها: العرش.

ومنها: القلب.

ص: ۲۶۵

ومنها: الکعبهٔ الحقیقیهٔ.

ولا شکّ ولا ریب فی أنّه لکلّ بیت من البیوت لطالبه رسوم وآداب... ثمّ اعلم أنّه لعلّ الغرض من تشریع الحجّ أنّ المقصود الأصلی من خلق الإنسان هو معرفهٔ اللَّه، والوصول إلی درجهٔ حبّه والأنس به، ولا یمکن حصول هذین الأمرین إلّابتصفیهٔ القلب، ولا یمکن ذلک إلّابکفّ النفس عن الشهوات، والانقطاع من الدنیا الدنیّهٔ، وإیقاعها علی المشاق من العبادات، ظاهریهٔ وباطنیهٔ» (۱).

إنّ الإمام علیاً علیه السلام کتب إلی الحارث الهمدانی کتاباً یکون بمثابهٔ فصل الخطاب حول تحصیل مواضع العبودیهٔ، والوصول إلی المراتب المعنویهٔ، والآن نذکر فقرات من ذلک الکتاب تتمیماً للفائدهٔ:

«وتمسّک بحبل القرآن واستنصحه، وأحلّ حلاله، وحرِّم حرامه،... واحذر منازل الغفلهٔ والجفاء وقلّهٔ الأعوان علی طاعهٔ اللَّه،... وأطع اللَّه فی جُمَلِ أمورک، فإنّ طاعهٔ اللَّه فاضلهٌ علی ما سواها، وخادع نفسک فی العبادهٔ، وارفق بها ولا تقهرها،...

وإیّاک أن ینزل بک الموت وأنت آبِقٌ من ربّک فی طلب الدنیا، وإیّاک ومصاحبهٔ الفُسّاق، فإنّ الشرّ بالشرّ ملحقٌ، ووقّر اللَّه وأحبب أحبّاءه، واحذر الغضب، فإنّه جُندٌ عظیم من جنود إبلیس، والسّلام» (۲)

.

فتبیّن من هذا أنّ تحصیل الکمالات یحتاج إلی العمل الصالح، والزجر والابتعاد من حرمات اللَّه، وبهذا وبغیره یصیر الإنسان وعاءً صالحاً للمعنویات، ویصیر أیضاً حقیقاً لاستفتاح الرحمهٔ واستنزال البرکهٔ، وجدیراً لأن یکون عالَماً ربّانیاً.

وفّقنااللَّه لإدراک هذه المراتب والدرجات.

البُعد المعنوی للحجّ

جرت السیرهٔ العقلائیهٔ علی الرجوع إلی الخبراء الأخصّائیین، للتحقیق والبحث حول أمر ما، أو لرفع مشکل عند بروزه، وهذا أمر بدیهی لا ینکره أحد، مثلًا، المریض إذا أراد أن یبرأ من المرض؛ لا یراجع غیر المستشفی، لیفحص الطبیب مرضه ثمّ یداویه

۱- ۱ تذکرهٔ المتّقین، لآیهٔ اللَّه الشیخ محمد البهاری الهمدانی رحمه الله.

۲- ۲ نهج البلاغهٔ، فیض الإسلام، الکتاب رقم: ۶۹.

ص: ۲۶۶

حتّی يبرأ.

وإذا مـا أردنـا نحن البحث عن البعـد المعنوی للحـج فعلينـا المراجعـة إلی أخصـائی خبير فی هـذا الموضوع، ألاـ وهو الإمام علی عليه السـلام، فهو الإنسان الكامل الـذی بذل كلّ جهوده لصالح الأمّة المسـلمة، وهو الخبير الذی يكون كالبحر الواسع، ولا تزال تجری من وجوده العلوم بكلّ فروعها، ويترشّح من زلال معنوياته كلّ الخير.

والعجيب أنّه لم يحـدّث حتی بروايـة واحـدة طيلـة حيـاة الرسول صـلی الله عليه و آله، ولم ينقـل منه عليه السـلام خبر قطّ خلال تلك الفترة، إنّ هذا يحكی عن توقيره وشدّة احترامه لرسول اللّه صلی الله عليه و آله، بل الإمام عليه السلام قد بادر بأخذ العلم والحكمة من الرسول الأعظم صلی الله عليه و آله، وأخذ ما أخذ، حتّی صار أفضل صحابته علماً وعملًا...

قال رسول اللّه صلی الله عليه و آله: «أنا مدينة العلم وعلیّ بابها» (۱)

. ولأجل هذا قرّرنا أن نستفيد من كلماته الحكيمة (سلام اللّه وصلواته عليه) فی هذه الوجيزة.

المناسك

إنّ المناسك التی أوجبها اللّه تعالی للحاج والمعتمر؛ مملوءة من الـدروس والعبر، بعـد أن كانت أحكاماً تبدأ من الميقات وتنتهی إلی الحلق أو التقصـير، وإلی طواف النساء وصـلاته، وتتجلّی أهمّيـة هـذه المناسك عنـدما نری أحكامها المتعـدّدة التی نحتاج لأدائها إلی ساعات بل أيّام كالإحرام وتروكه، والطواف وصلاته، والسعی، والحلق أو التقصير، والوقوف بعرفات، والوقوف بالمشعر الحرام، والنفر إلی منی، والرمی، والذبح، والبيتوتة فی منی أيّام التشريق، وغيرها.

ولا يخفی أنّ ما يتحمّله الحاجّ من المعاناة والتعب والمشاق، يتيح له الفرصة لأن يفكّر لماذا أمر اللّه سبحانه وتعالی عباده الأغنياء- ولا الفقراء- أن يأتوا من كلّ فـجٍّ عميقٍ إلی أداء المناسك؟ وقال عزّ من قائل: وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْ الْعَالَمِينَ (۲)

. وإثر هذه الأهمية فقد كتب الإمام عليه السلام رسالة إلی قثم بن العبّاس، وهو عامله علی مكّة:

«أمّا بعد، فأقم للناس الحجّ،

۱- ۱ تاريـخ دمشق ۲: ۴۶۴، تحـت الرقم ۹۹۱ من ترجمـة الإمـام أمير المؤمنين عليه السـلام. ومناقب الإمام أمير المؤمنين، لمحمـد بن سليمان الكوفی القاضی، من أعلام القرن الثالث ۲: ۵۵۸.

۲- ۲ سورة آل عمران ۳: ۹۷.

ص: ۲۶۷

وذکِّرهم بأیّام اللَّه، واجلس لهم العصرین (۱)، فأفتِ المُستفتی، وعلِّم الجاهل، وذاکر العالِم، ولا یکن لک إلی الناس سفیرٌ إلّالسانک، ولا حاجبٌ إلّا وجهک. ولا تحجبنَّ ذا حاجة عن لقائک بها، فإنّها إن ذیدت (۲) عن أبوابک فی أوّل وِردها (۳)، لم تحمد فیما بعد علی قضائها...» (۴)

.

أفاد الإمام علیه السلام خلال هذه الجمل الحکیمة، أنّ زائر بیت اللَّه الحرام یحتاج إلی تعلّم الأحکام والمناسک، وإذا نسی أو جهل فلابدّ وأن یسأل العلماء عن کلّ ما یجهله. ونستفید أیضاً لزوم مرافقة عالم دینی فی هذه الأزمنة؛ للحاج أو المعتمر؛ لئلا یبقی جاهلًا، بل یبادر بتدارک أعماله العبادیة طبقاً لوظیفته.

ولذلک نری کلّ قوافل الحجّ تستفید من عالم دینی عارف بالأحکام والمناسک، وهو یرافقهم فی هذا السفر الإلهی المبارک، لأنّ آثار بطلان الحجّ والعمرة ربّما تثیر إلی فشل علاقات اجتماعیة، کحرمة الزواج، وحرمة المواقعة، وإلی وجوب أداء الکفّارة وأمثالها.

وفی ضوء ذلک یقول الإمام علی علیه السلام فی کتابه إلی عامله علی البصرة؛ عثمان ابن حنیف الأنصاری: «... ألا وإنّ لکلّ مأموم إماماً یقتدی به ویستضیءُ بنور علمه...، ألا وإنّ إمامکم قد اکتفی من دنیاه بطمریه ومن طعمه بقُرصیه، ألا وإنّکم لا تقدرون علی ذلک، ولکن أعینونی بورعٍ واجتهادٍ وعفّةٍ وسدادٍ...» (۵)

.

النظر إلی بیت اللَّه

ومن وصایاه علیه السلام: «... إذا حججتم فأکثروا النظر إلی بیت اللَّه فإنّ للَّهمائة وعشرین رحمة عند بیته الحرام، منها ستّون للطائفین، وأربعون للمصلّین، وعشرون للناظرین...» (۶)

.

إنّ السیاحة والزیارة من الأسباب التی یمکن تحصیل المعنویة بها؛ لأنّ البصیرة تحصل بالبصر. ولکن هل یکون لکلّ سیاحة ولأیّ زیارة هذا الأثر العظیم، أم یلزم ذلک زیارة خاصّة؟

والهدف من السیاحة والنظر إلی الأماکن والآثار التأریخیة الموجودة فی أنحاء العالم، هو الوقوف علی الفنون

۱- ۱ العصران: هما الغداة والعشیّ، علی سبیل التغلیب.

۲- ۲ ذیدت: أی دُفعت ومُنعت، مبنی للمجهول من «ذاده یذوده» إذا طرده ودفعه.

۳- ۳ بالکسر: ورودها.

۴- ۴ نهج البلاغة، الدکتور صبحی الصالح، کتاب رقم: ۶۷، الصفحة: ۴۵۷.

۵- ۵ نهج البلاغة، فیض الإسلام: ۹۶۶.

۶- ۶ تحف العقول: ۱۰۷.

ص: ۲۶۸

المعماريـة القديمـة وجهود الفنّـانين فى تلـك العصور، والعلم بالحضارات والثقافات الفانيـة التى أحـدثتها الملل السابقـة، وقـد يكون الهدف من السياحة نفس السياحة، وليس شيئاً آخر؛ وحينئذٍ لا يوجد أى باعث معنوى لتلك السياحة ولذاك النظر.

نعم، قلّمـا يتّفق إثـارة البـاعث المعنوى، كـأن يكون الزائر من الأشـخاص الـذين لاـ ينظرون إلى الظاهر فقط، بل يتوجّهون إلى المعنى والباطن، وفى أثر هذا يدّخرون الحسنات ليوم المعاد.

ثمّ إنّه ليس للنظر ثواب ورحمـة إلّا فى بعض الأشـياء، كالنظر إلى وجه العالم، ونظر الولـد إلى وجه والـديه و...، وأما النظر إلى الكعبة الشريفة، فله ثواب أكثر لم يرد فى الأحاديث مثله.

إنّ ساحـة المسـجد الحرام مملوءة بالرحمات الكثيرة، ولا يمكن الحصول على هـذه الخيرات إلّافى هـذا المكان المقدّس، فالزائر لبيت اللَّه الحرام والمتواجد فيه، لا يخرج من هذه الحالات الثلاث:

إمّا أن يكون طائفاً، وإمّا أن يكون مصلّياً، وإمّا أن يكون ناظراً.

فأمّا الطائف، تنزل لصالحه ستّون رحمة.

وأمّا المصلّى، فتنزل لصالحه أربعون رحمة.

وأمّا الناظر- سواء أكان جالساً فى المسجد أو قائماً- عندما ينظر إلى بيت اللَّه الحرام، فتنزل لصالحه عشرون رحمة.

وأنت ترى ما أنتج هذا السـفر الإلهى من المعنويات والآثار المقدّسة، فهل يمكن اسـتنزال الرحمة فى سائر الأماكن كاستنزالها فى بيت اللَّه الحرام؟

فالسـير إلى ديار الوحى، والنفر من الأهل والولـدان، للحضور فى بلـد اللَّه الآمن الذى سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ...، ليس إلّاالباعث معنوى قوى؛ وهو النظر إلى الكعبة، وآيات اللَّه البيّنات، والتوجّه إلى وسـمات العبودية للَّهسـبحانه وتعالى، وقطع العلاقات عن كلّ شـىء وعن كلّ شخص وحتى عن نفسه.

وفى هذه الساحة المباركة- المسجد

ص: ۲۶۹

الحرام- یمکن إحساس اللحاق باللّه تعالی وبالخلد والخلود والرجوع إلی الفطرة السلیمة البعیدة من التلوّث والانحراف، صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (۱)

.

إقرار العبد عند البیت

إنّ عظمة وجمال المسجد الحرام وخصوصاً الکعبة الشریفة، والأروقة المحیطة بها، والمطاف، ومقام إبراهیم، وحجر إسماعیل والمیزاب والحطیم والملتزم والمستجار وبئر زمزم، کلّ منها یشیر إلی الذکریات التأریخیة المهمّة، وأجمل من ذلک مناجاة الناس فی المطاف المقدّس بمختلف لغاتهم حینما یبدأ کلّ منهم بالإقرار بالعبودیة والتوبة من الذنوب.

والحقّ أنّ هذا المکان الرفیع المقدّس أفضل الأ مکنة للإقرار بالذنوب والمعاصی وطلب العفو من اللّه سبحانه وتعالی.

إنّ الإمام علی بن أبی طالب علیه السلام قال: «... أقرُّوا عند بیت اللّه الحرام بما حفظتموه من ذنوبکم، وما لم تحفظوه فقولوا: ما حفظتَه یاربّ علینا ونسیناه فاغفر لنا، فإنّه من أقرَّ بذنوبه فی ذلک الموضوع، وعدّدها وذکرها واستغفر اللّه جلّ وعزّ منها، کان حقّاً علی اللّه أن یغفرها له» (۲).

ینبغی للإنسان أن یکون عارفاً بما یفعل ویعمل، ویلزم علیه أن یحفظ فی ذاکرته کلّ أعماله، خصوصاً ما کان منها یحتاج إلی طلب عفو، أو إعطاء حقّ، أو غیرهما. فإذا نسی ما لا بدّ له من الجابر، فلا یمکن للناسی الفرار من سخط اللّه سبحانه وتعالی وعذابه، سیّما إذا کان ذلک من حقوق الناس.

ولنعم ما قال صاحب تفسیر آلاء الرحمان، العلّامة الشیخ محمد جواد البلاغی رحمه الله حول هذا الموضوع، حیث قال: «... إنّ کثیراً من النسیان والخطأ ما یقع بسبب التساهل والتقصیر فی التحفّظ لتحصیل ما کلّف به، وهذا ممّا لا تقبح فیه المؤاخذة علی مخالفة الواقع، فطلبوا من اللّه أن لا یؤاخذهم فی ذلک» (۳).

فقوله علیه السلام: «... ومالم تحفظوه فقولوا:

ما حفظته یا ربّ علینا ونسیناه فاغفر لنا». یشعر بذلک المعنی؛ لأنّه لا یخفی علی اللّه شیء فی الأرض ولا فی السماء.

۱- ۱ سورة البقرة: ۱۳۸.

۲- ۲ تحف العقول: ۱۰۷.

۳- ۳ تفسیر آلاء الرحمان ۱: ۲۵۲- ۲۵۳.

ص: ۲۷۰

قال سبحانه وتعالى: ما يلفظ من قولٍ إلّالديه رقيبٌ عتيدٌ (۱).

وقال تعالى: إنْ كلُّ نفسٍ لمّا عليها حافظٌ (۲).

وقال تعالى: إنَّ اللَّه لا يخفى عليه شىءٌ فى الأرض ولا فى السماء (۳).

ثمّ إنّه لا يخفى على المتدبّر أنّ النسيان من النعم الكبيرة التى رزقها اللَّه تعالى عباده، فلو لم يكن النسيان وكان الإنسان متذكّراً دائماً بما أصابه من المصيبات والغموم والهموم، وبما ظلمه الظالمون، لم يبقَ حجر على حجر، ولكثرت الأحقاد والضغائن، والحوادث الدامية فى المجتمع.

فالناظر إلى بيت اللَّه الحرام، والحاضر فى تلك الساحة المقدّسة، يحقّ أن يباهى جميع الناس بأنّه الزائر وأنّ المزور يغفر لزائره، ويا حبّذا من هذا المقام المنيع، يقرّ العبد فى ذلك المكان المقدّس الطاهر بذنوبه، واللَّه سبحانه وتعالى يغفرها.

وبما أنّ الإنسان محلّ للزلّة والخطإ، فلا بدّ وأن يجد مكاناً لغفران ذنوبه وزلّاته، فهل يوجد مكان أفضل من المسجد الحرام لذلك الغرض؟ ولهذا أمرنا الإمام عليه السلام بالحضور الدائم فيه وأوصى الناس أن لا يتركوا البيت العتيق خالياً:

قال عليه السلام فى وصيّته لابنه الحسن المجتبى عليه السلام: «... اللَّه اللَّه فى بيت ربّكم فلا يخلو منكم ما بقيتم فإنّه إن ترك لم تناظروا وأدنى ما يرجع به مَن أمَّهُ أن يغفر له ما سلف» (۴).

إنّ الإمام عليه السلام لم يوص بهذا الأمر فقط، بأن لا يخلو البيت وأن يكون دائماً مملوءاً من المستغفرين، بل إنّه عليه السلام عمل بهذا المعنى ليعلّمنا كيف نستغفر اللَّه وكيف نتقرّب إليه؟! وإليك بعض النصوص الواردة فى هذا الأمر:

كان أمير المؤمنين عليه السلام إذا صعد الصفا استقبل الكعبة ثمّ يرفع يديه ويقول:

«اللّهمّ اغفر لى كلّ ذنب أذنبته قطّ، فإن عدتُ فعد علىَّ بالمغفرة، فإنّك أنت الغفور الرحيم، اللّهمّ افعل بى ما أنت أهله، فإنّك إن تفعل بى ما أنت أهله ترحمنى، وإن تعذّبنى فأنت غنى عن عذابى وأنا محتاج إلى رحمتك، فيامن

۱- ۱ سورة ق: ۱۸.

۲- ۲ سورة الطارق: ۴.

۳- ۳ سورة آل عمران: ۵.

۴- ۴ تحف العقول: ۱۹۸.

ص: ۲۷۱

أنا محتاج إلی رحمته ارحمنی، اللّهمّ لا تفعل بی ما أنا أهله، فإنّک إن تفعل بی ما أنا أهله تعذبنی ولن [لم] تظلمنی، أصبحتُ أتّقی عدلک، ولا أخاف جورک، فیا من هو عدلٌ لا تجور ارحمنی» (۱).

الوقوف

لقد بلغت أرکان الحجّ مرتبة رفیعة من الأهمّیة، بحیث لو ترک واحدة منها لبطل الحجّ ویجب علی التارک التدارک فی العام المقبل.

ومن تلک الأرکان: لزوم الوقوف بالموقفین، عرفات والمشعر الحرام.

فالحاجّ بعد أن أحرم فی الحرم یجب علیه أن یخرج من الحرم حتی یهیّئ نفسه للدخول فیه مرّة أُخری.

ولا یکاد یسمح للحاجّ الدخول فی الحرم الآمن إلّابعد أن یتعب نفسه فی أداء المناسک، والصبر علی الحرّ والبرد، وصرف المال الحلال؛ لأنّه إن صرف المال المشتبه فی هذا السفر المعنوی لم یصحّ حجّه، ولا یصیر حاجّاً، فحینئذٍ بقی العناء وذهب الأجر ولا العکس.

إنّ أمیر المؤمنین علیه السلام سُئل عن الوقوف بالجبل (۲)، لِمَ لم یکن فی الحرم؟

فقال علیه السلام: «لأنّ الکعبة بیته والحرم بابه، فلمّا قصدوه وافدین، وقفهم بالباب یتضرّعون».

قیل له: فالمشعر الحرام لِمَ صار فی الحرم؟

قال علیه السلام: «لأنّه لمّا أذن لهم بالدخول وقفهم بالحجاب الثانی، فلمّا طال تضرّعهم بها أذن لهم بتقریب قربانهم، فلمّا قضواتفثهم تطهّروابهامن الذنوب التی کانت حجاباً بینهم وبینه، أذن لهم بالزیارة علی الطهارة».

قیل: فلِمَ حرّمالصیام أیّام التشریق؟

قال علیه السلام: «لأنّ القوم زوّار اللّه، فهم فی ضیافته، ولا یجمل بمضیف أن یصوّم أضیافه».

قیل: فالتعلّق بأستار الکعبة لأیّ معنی هو؟

قال علیه السلام: «هو مثل رجل له عند آخر جنایة وذنب، فهو یتعلّق بثوبه یتضرّع إلیه ویخضع له أن یتجافی عن ذنبه» (۳).

الرمی

لسنا الآن بصدد بیان فلسفة أحکام الحجّ وکم لها من علل وأسباب، بل

۱- ۱ وسائل الشیعة ۱۳: ۴۷۸.

۲- ۲ المراد هو جبل الرحمة بعرفات.

۳- ۳ وسائل الشیعة، الباب ۲ من أبواب أقسام الحج، الحدیث رقم ۱۸.

ص: ۲۷۲

أردنا أن ننظر إلى البُعد المعنوى الذى به قوام الحكم، وفى ضوئه يتّضح طريق الحقّ ومسيرة الفلاح.

ولا يستثنى الرمى هنا، إنّ رمى الجمار ليس المقصود به مجرّد رمى الجمرات الثلاث؛ الأولى والوسطى والعقبة بعدد من الحصى، بل الرمى هو رمى الشيطان، فبالرمى يبتعد الإنسان المؤمن عن الشيطان، ويتقرّب أكثر فأكثر من حضرة الحقّ، ولا يحصل ذلك للرامى إن كان من حزب الشيطان، وبالتالى فلا يرمى إلّانفسه، فيجب عليه أوّلًا أن يخرج من ذلك الحزب الخاسر، حتى يستطيع اللحاق بحزب اللَّه تعالى.

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ الجمار إنّما رميت لأنّ جبرئيل حين أرى إبراهيم المشاعر برز له إبليس، فأمره جبرئيل أن يرميه، فرماه بسبع حصيات، فدخل عند الجمرة الأخرى تحت الأرض فأمسك، ثمّ برز له عند الثانية فرماه بسبع حصيات أُخر، فدخل تحت الأرض موضع الثانية، ثمّ إنّه برز له فى موضع الثالثة فرماه بسبع حصيات، فدخل فى موضعها» (۱).

وقد نقل عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«رمى الجمار ذخر يوم القيامة» (۲).

وقال صلى الله عليه و آله أيضاً: «الحاجّ إذا رمى الجمار خرج من ذنوبه» (۳).

فتبيّن من جميع ما ذكر أنّ الرمى ليس عملًا عبادياً جافّاً فقط، إنّه عمل معنوى مقارن مع قصد القربة إلى اللَّه سبحانه وتعالى، ويفسد هذا العمل بسبب الرياء الذى هو جند من جنود إبليس.

الذبح

إنّ الأضحية من الواجبات التى أوجبها اللَّه فى الحج. ويرجع ذلك إلى الامتحان الذى ابتلى إبراهيمَ الخليل ربُّهُ به، وقال عزّ من قائل:... قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (۴).

وإبراهيم عليه السلام علم فى المشعر الحرام بأنّ وظيفته هى (ذبح ابنه). روى على ابن إبراهيم فى تفسيره ذيل هذه الآية الشريفة روايةً ننقل فقرات منها:

۱- ۱ وسائل الشيعة، الباب ۴ من أبواب العود إلى منى، الحديث رقم ۶.

۲- ۲ وسائل الشيعة، الباب ۱ من أبواب رمى جمرة العقبة، الحديث رقم ۷.

۳- ۳ المصدر نفسه.

۴- ۴ سورة الصافات: ۱۰۲.

ص: ۲۷۳

«ثمّ أمره اللّه بالذبح، فإنّ إبراهیم علیه السلام حین أفاض من عرفات بات علی المشعر الحرام وهو فزع فرأی فی النوم أن یذبح ابنه... وأقبل شیخ [ظهر الشیطان فی صورته] فقال: یا إبراهیم! ما ترید من هذا الغلام؟

قال: أرید أن أذبحه.

فقال: سبحان اللّه! تذبح غلاماً لم یعصِ اللّه طرفة عین!.

فقال إبراهیم علیه السلام: إنّ اللّه أمرنی بذلک.

فقال: ربّک ینهاک عن ذلک وإنّما أمرک بهذا الشیطان.

فقال له إبراهیم علیه السلام: ویلک إنّ الذی بلغنی هذا المبلغ هو الذی أمرنی به، والکلام الذی وقع فی أذنی...» (۱).

فلمّا تبیّن أنّه علیه السلام عازم جدّاً لذبح ابنه، أرسل اللّه سبحانه وتعالی له کبشاً عوضاً عنه، حیث قال سبحانه:

قَالَ یَا بُنَیَّ إِنِّی أَرَی فِی الْمَنَامِ أَنِّی أَذْبَحُکَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَی قَالَ یَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِی إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّابِرِینَ* فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِینِ* وَنَادَیْنَاهُ أَنْ یَا إِبْرَاهِیمُ* قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْیَا إِنَّا کَذَلِکَ نَجْزِی الْمُحْسِنِینَ* إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِینُ* وَفَدَیْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِیمٍ* وَتَرَکْنَا عَلَیْهِ فِی الْآخِرِینَ* سَلَامٌ عَلَی إِبْرَاهِیمَ* کَذَلِکَ نَجْزِی الْمُحْسِنِینَ* إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِینَ (۲).

وصار الذبح سنّةً ودخل فی الإسلام کواجب شرعی، فوجب علی کلّ حاج أن یشتری من صفو ماله هدیاً لیذبحه.

لقد ذکر العالم والعارف الربّانی ملّا أحمد النراقی رحمه الله کلاماً ننقل منه بعض ما یرتبط بالذبح: «... إنّ الحاج عندما ذبح هدیه، یتنبّه أنّ هذه الذبیحة تشیر إلی حقیقة هی: بسبب الحجّ قد ظفرتُ علی الشیطان والنفس الأمّارة وقتلت کلیهما وفرغت من العذاب الإلهی. وبعد هذا (الذبح) لزم أن یتعهّد علی عدم تراجعه أبداً إلی فعل المعاصی التی ارتکبها سابقاً، وأن یتوب عن الأعمال القبیحة. ویلتزم أیضاً أن یکون صادقاً فی هذا المیثاق. ثمّ إنّه قد أظهر الحاج بعمله هذا أنّه طرد الشیطان وبادر علی تذلیل النفس الأمّارة» (۳).

۱- ۱ تفسیر علی بن إبراهیم القمّی ۲: ۲۲۴- ۲۲۵.

۲- ۲ سورة الصّافات: ۱۰۲- ۱۱۱.

۳- ۳ کتاب مصباح الشریعة الباب ۲۲، الصفحة: ۱۴۲، مجلة المیقات الفارسیة العدد ۷، الصفحة: ۴۸، ۱۳۷۳ ه. ش.

ص: ۲۷۴

ولا يخفى أنّه إذا احتاج أداء الواجب الشرعى لصرف الأموال وبذل النقود فحينئذٍ يكشف البخيل عن الجواد ويفترق المؤمن المنقاد عن غيره وهكذا.

إنّ بذل المال بلغ مرتبة من الأهمّية بحيث صار تلواً لبذل النفس، قال اللّه عزّوجلّ: إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمْ الْجَنَّةَ... (۱)

بل المال عند كثير من الناس صار أهم من النفس، فوا سوأتا! لو ترى من يعيش لجمع المال ولا يصرف المال ليعيش!

والحاجّ حينما وصل إلى منى وصرف المال لأداء الواجب الشرعى، ألا وهو الذبح، فقد رغم أنف الشيطان وهيّأ أرضيةً مناسبة لغفران ذنبه وقبول توبته.

قال الإمام أمير المؤمنين علىّ عليه السلام:

«لو علم الناس ما فى الأضحية لاستدانوا وضحّوا، إنّه ليغفر لصاحب الأضحية عند أوّل قطرة تقطر من دمها» (۲)

.

وقال عليه السلام أيضاً: «سمعتُ رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله يخطب يوم النحر، وهو يقول: هذا يوم الثجّ والعَجِّ. والثجُّ؛ ما تهريقون فيه من الدماء، فمن صَدَقت نيّته كانت أوّل قطرة له كفارة لكلّ ذنب. والعَجُّ؛ الدعاء، فعجُّوا إلى اللّه، فوالذى نفس محمّدٍ بيده لا ينصرف من هذا الموضع أحد إلّامغفوراً له، إلّا صاحب كبيرةٍ مصرّاً عليها لا يحدّث نفسه بالإقلاع عنها» (۳)

.

فقد تبيّن أنّ الذبح طريق لاستنزال رحمة اللّه وغفرانه وقد علّمنا الرسول صلى الله عليه و آله والإمام عليه السلام أنّ هذا الطريق سبب لقبول توبة العباد وغفرانهم.

ولما للذبح من أهمّية وفوائد نرى الإمام عليّاً عليه السلام يضحى عن رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله ويقول فى بداية الذبح:

«بسم اللّه، وجّهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين، إنّ صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى للّه‌ربّ العالمين، اللّهم منك ولك، اللّهم هذا عن نبيّك»، ويذبح كبشاً آخر عن نفسه (۴).

۱- ۱ سورة التوبة: ۱۱۱.

۲- ۲ وسائل الشيعة، المجلّد ۱۴، الباب ۶۴ من أبواب الذبح، الحديث رقم ۲. الحج فى السنّة: ۲۶۳.

۳- ۳ الحج والعمرة فى الكتاب والسنّة: ۲۳۵.

۴- ۴ وسائل الشيعة، المجلّد ۱۴، الباب ۳۷ من أبواب الذبح، الحديث رقم ۲.

ص: ۲۷۵

الهوامش:

الكعبة المشرّفة: سرُّ البناء والموقع قراءة فى خطبة القاصعة

ص: ۲۷۷

الكعبة المشرّفة: سرُّ البناء والموقع (قراءة فى خطبة القاصعة)

عبد السلام زين العابدين

احتلّ حديث الإمام علىّ عليه السلام حول الكعبة المشرّفة فى خطبة (القاصعة) مساحةً واسعةً، ركّز فيها على سرّين أساسيين:

السرّ الأوّل: طبيعة البناء (أحجارٌ لا زمرّد، ولا ياقوت).

السرّ الثانى: طبيعة الموقع (جبالٌ خشنة ورمالٌ دمثة).

لقد كشف الإمام عليه السلام أسرار كون بيت اللَّه الحرام من أحجار «لا تضرّ ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع».

لماذا كانت الاسس والبناء من حجارة، وليس «من زمرّدة خضراء، وياقوتة حمراء، ونورٍ وضياء»؟!

ولماذا كان الموقع الجغرافى «بأعور بقاع الأرض حجراً، وأقلّ نتائق الأرض مدراً، وأضيق بطون الأودية قطراً، بين جبالٍ خشنة ورمالٍ دمثة وعيون وشلة»؟!

لماذا لم يضع اللَّه- عزّوجلّ- بيته الحرام ومشاعره العظام «بين جنّات وأنهار،

ص: ۲۷۸

وسهلٍ وقرار، جمّ الأشجار، دانی الثمار، ملتفّ البنا، متّصل القری، بین بُرّةٍ سمراء، وروضة خضراء، وأریافٍ محدقة وعراصٍ مغدقة، ورياضٍ ناضرة، وطرق عامرة» (۱)؟!

وبکلمةٍ واحدة: لماذا کانت الکعبة أحجاراً بوادٍ غیر ذی زرع؟!

أسئلةٌ مهمّة یجیب عنها أمیر المؤمنین علیّ علیه السلام فی خطبة هی من أروع خطبه التی جمعها الشریف الرضی فی نهج البلاغة تسمّی (القاصعة).

المبحث الأوّل

خطبة القاصعة: الهیکلیة ودلالات السیاق

جاء فی الحدیث عن مکّة والکعبة فی سیاق خطبة القاصعة منسجماً مع محورها العام، وموضوعها الأساس الذی رکّزت علیه من أوّلها إلی آخرها، وفی جمیع فقراتها.

وقد سمّیت الخطبة ب (القاصعة) لأنّها تزیل الکبر عن قلب سامعها أو قارئها إذا أصغی قلبه إلی کلماتها، کما یقصع الماء العطش، من قَصَعَ بمعنی أزال، أو لأنّها تحقر وتشجب المتکبّرین والمترفین الذین ینازعون اللّه رداء عزّه وکبریائه، قصع بمعنی حقر وصغّر، وقیل غیر ذلک.

یطرح العلّامة میثم البحرانی وجوهاً أربعة قد ذکرها الشارحون لنهج البلاغة فی معنی (القاصعة) جاء الوجه الثالث منها: «سمّیت بذلک لأنّها هاشمة کاسرة لإبلیس، ومصغّرة ومحقّرة لکلّ جبّار، وهو وجه حسن»، أمّا الوجه الرابع: «لأنّها تسکِّنُ نخوة المتکبّرین وکبرهم فأشبهت الماء الذی یسکِّنُ العطش، فیکون من قولهم: قصَعَ الماء عطشه إذا سکّنه وأذهبه» (۲).

وجاء فی بحار الأنوار للعلّامة المجلسی فی معنی (القاصعة) «من قصع فلانٌ

۱- ۱ نهج البلاغة، خطبة ۱۹۲ القاصعة.

۲- ۲ میثم البحرانی، شرح النهج ۴: ۲۳۴.

ص: ۲۷۹

فلاناً: أى حقّره؛ لأنّه عليه السلام حقّر فيها حال المتكبّرين» (۱).

تبدأ خطبة (القاصعة) بتقرير حقيقة إذا غفل عنها الإنسان أصابه الكبر؛ ألا وهى أنّ «العزّ والكبرياء» للّهعزّ وجلّ فحسب، لا يشاركهما فيه أحد:

«الحمدُ للّهالذى لبس العزّ والكبرياء، واختارهما لنفسه دون خلقه، وجعلهما حمىً وحَرَماً على غيره، واصفاهما لجلاله، وجعل اللّعنة على من نازعه فيهما من عباده».

المستكبرون عبر التاريخ: نماذج ومصاديق

ثمّ تبدأ فقرات الخطبة باستعراض المصاديق الصارخة لأولئك الذين نازعوا اللّه رداء العزّة والكبرياء، فعاشوا الاستكبار والاستعلاء، منذ مرحلة التمهيد للخلافة (دور جنة آدم عليه السلام) وهى مرحلة ما قبل هبوط آدم، إلى الأرض، إلى (الناكثين) و (القاسطين) و (المارقين) الذين قاتلهم علىّ عليه السلام، وجاهدهم ودوّخهم!

المصداق الأوّل: إبليس إمام المتعصّبين وسلف المستكبرين؛ لذا فإنّ خطبة القاصعة تبدأ بمصداق الاستكبار الأوّل إبليس الذى هو أوّل من قال (أنا)، فأسّس الأنيّة والأنانية: أنا خيرٌ منه خلقتنى من نار وخلقته من طين، لذلك أبى السجود بقوله: أأسجدُ لمن خلقت طيناً، أأسجد لبشرٍ خلقته من صلصالٍ من حمإ مسنون:

«ثمّ اختبر بذلك ملائكته المقرّبين، لتميزَ المتواضعين منهم من المستكبرين، فقال سبحانه وهو العالم بمضمرات القلوب، ومحجوبات الغيوب:

إِنِّى خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ* فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ* فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ* إِلَّا إِبْلِيسَ اعترضته الحميّة فافتخر على آدم بخلقه، وتعصّب عليه لأصله. فعدّه اللّه إمام المتعصّبين، وسلف المستكبرين، الذى وضع أساس العصبية ونازع اللّه رداء الجبريّة، وادّرع لباس

۱- ۱ شرح نهج البلاغة المقتطف من بحار الأنوار ۲: ۵۲۰.

ص: ۲۸۰

التعزّز، وخلع قناع التذلّل. ألا ترون كيف صغّره اللّه بتكبّره، ووضَعَه بترفّعه، فجعله فى الدنيا مدحوراً، وأعدَّ له فى الآخرة سعيراً؟!».

ولم يكن إبليس شخصاً عادياً، فله تأريخٌ عبادى طويل، ترسمه خطبة (القاصعة) بأبلغ وصف:

«فاعتبروا بما كان من فعل اللّه بإبليس إذْ أحبط عمله الطويل، وجهدهُ الجهيد، وكان قد عبد اللّه ستّة آلاف سنة، لا يُدرى أمِنْ سِنى الدُّنيا أم من سِنى الآخرة، عن كبر ساعةٍ واحدة».

ثمّ يتساءل أمير المؤمنين عليه السلام محذِّراً:

«فمن ذا بعد إبليس يسلمُ على اللّه بمثلِ معصيته؟ كلّا»

المصداق الثانى: قابيل

«ولا تكونوا كالمتكبّر على ابن أمّه من غير ما فضل جعله اللّه فيه سوى ما ألحقت العظمة بنفسه من عداوة الحسد، وقدحت الحميّة فى قلبه من نار الغضب، ونفخ الشيطان فى أنفه من ريح الكبر الذى أعقبه اللّه به الندامة، وألزمه آثام القاتلين إلى يوم القيامة».

المصداق الثالث: فرعون الطاغية

وفى سياق التحذير من طاعة السادات والكبراء والأدعياء «الذين تكبّروا على حسبهم، وترفّعوا فوق نسبهم»، والاعتبار «بما أصاب الأمم المستكبرين...

من بأس اللّه وصولاته ووقائعه ومثلاته» (۱)، يذكر الإمام عليه السلام مصداقاً صارخاً للطاغية المستكبر الذى ما فتئ يدقُّ على طبل «أنا ربّكم الأعلى» و «ما علمت لكم من إله غيرى»:

«ولقد دخل موسى بن عمران ومعه أخوه هارون عليهما السلام على فرعون وعليهما مدارع الصوف وبأيديهما العِصىّ فشرطا له إنْ أسلم بقاء ملكه ودوام عزّه، فقال:

«ألا تعجبون من هذين يشرطان لى دوام العزّ وبقاء الملك وهما بما ترون من حال

۱- ۱ العقوبات.

ص: ۲۸۱

الفقر والـذلّ، فهلّا أُلقى عليهما أساوِرةٌ من ذهب»؟ إعظاماً للـذهب وجمعه، واحتقاراً للصوف ولبسه!. ولو أراد اللَّه لأنبيائه حيث بعثهم أنْ يفتح لهم كنوز الذِّهبان (۱)، ومعادن العِقيان (۲)، ومغارس الجنان، وأن يحشر معهم طيور السماء، ووحوش الأرض لفعل، ولو فعل لسقط البلاء (۳)، وبطل الجزاء (۴)، واضمحلّت الأنباء (۵)، ولما وجب للقابلين أجور المبتلين، ولا استحقّ المؤمنون ثواب المحسـنين (۶)، ولا لزمت الأسماء معانيها» (۷).

«ولكنّ اللَّه سبحانه جعل رسله أولى قوّةٍ فى عزائمهم، وضعفةٍ فيما ترى الأعين من حالاتهم، مع قناعةٍ تملأُ القلوب والعيون غنًى، وخصاصةٍ تملأُ الأبصار والأسماع أذًى».

وفى هـذا السياق؛ سياق الحديث عن الابتلاء فى ساحة الصراع، وميدان المواجهة بين المترفين والأنبياء، وسرّ ما يعيشه الأنبياء عليهم السـلام، على مرّ التاريخ، من استضعافٍ ومحنةٍ ومعاناةٍ وخصاصة، لأسباب ومقاصد عديدة.. عرّج الإمام عليه السلام على مكّة المكرّمة والكعبة المشرّفة كمصداقٍ من مصاديق الاختبار والابتلاء، من خلال طبيعة المادّة والبناء أوّلًا، وطبيعة الموقع الجغرافى الصعب ثانياً.

المبحث الثانى

طبيعة البناء: حجارةٌ صمّاء لا ياقوتة خضراء

النصّ الأوّل: «ألا ترون أنّ اللَّه سبحانه اختبر الأوّلين من لدن آدم- صلوات اللَّه عليه- إلى الآخرين من هذا العالم بأحجارٍ لا تضرُّ ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، فجعلها بيته الحرام الذى جعله للناس قياماً»!

النصّ الثانى: «ولو كان الأساس المحمول عليها، والأحجار المرفوع بها، بين زمرّدةٍ خضراء، وياقوتة حمراء، ونورٍ وضياء، لخفّف ذلك مصارعة الشكّ فى

۱- ۱ جمع ذهب.

۲- ۲ نوع من الذهب ينمو فى معدنه.

۳- ۳ البلاء فى ساحة الصراع بين المستضعفين والمستكبرين إذ لا مستضعف يبتلى به المتكبرون: ص وكذلكجعلنا لكلّ نبيّاً عدوّاً من المجرمينش.

۴- ۴ لأنّ العبادات والطاعات تكون عن رهبةٍ أو رغبة دنيويتين.

۵- ۵ فلا رسالة ولا رسل.

۶- ۶ حيث لا معاناة ولا مجاهدة ولا عطاء ولا تضحية.

۷- ۷ فلا معنى لكلمة مؤمن ومجاهد وصابر وزاهد.. فتصدق الأسماء بدون مسمّيات.

ص: ۲۸۲

الصدور، ولوضَعَ مجاهدهٔ إبلیس عن القلوب، ولنفی معتَلَجَ الرَّیب من الناس.

ولکنّ اللَّه یختبر عباده بأنواع الشدائد، ویتعبّدهم بأنواع المجاهد، ویبتلیهم بضروب المکاره، إخراجاً للتکبّر من قلوبهم، وإسکاناً للتذلّل فی نفوسهم، ولیجعل ذلک أبواباً فُتُحاً إلی فضله، وأسباباً ذُلُلًا لعفوه».

فی هـذین النصّـین الرائعین یرسم أمیر المؤمنین سـرَّ طبیعـهٔ بناء الکعبـهٔ المتواضع المتکوّن من أحجارٍ جامدهٔ، ینظرُ إلیها الناظر فیراها لا تمتلک شـعوراً ولا إحساساً.. فلا بصـر ولا سمع، ولا ضرّ ولا نفع.. ومع کلّ ذلک یسعی الحجیج للطواف حولها بکلِّ خشوع واستکانهٔ وخضوع. بل نراهم (یتقاتلون) علی استلام الحجر الأسود والسلام علیه ومعاهدته!! وهو لا یملک بریق الزمرّد، وتلألأ الیاقوت..

وفی ذلک سـرٌّ کبیر یکشـفه لنا أمیر المؤمنین علیه السـلام فی خطبته القاصـعهٔ.. لأنّ البناء لو کان من «زمرّدهٔ خضـراء، ویاقوتـهٔ حمراء، ونورٍ وضیاء، لخفّف ذلک مصارعهٔ الشکّ فی الصدور، ولوضع مجاهدهٔ إبلیس فی القلوب، ولنفی معتلج الرّیب من الناس».

ما معنی ذلک؟ وکیف یحصل کلُّ ذلک؟

لقـد أراد اللَّه عزّوجلّ أنْ یکون القصـد لبیته الحرام نابعاً من معاناهٔ ووعی وإیمان، خالصاً من الـدوافع المادّیـهٔ العاجلهٔ.. ولو کان البیت من تلک الأحجار النفیسهٔ (الزمرّد والیاقوت):

أوّلًا: «لخفّف ذلک مصارعـهٔ (۱) الشکّ فی الصـدور»، لأنّ نفاسـهٔ تلک الأحجار هی التی تـدفعهم إلی التصـدیق والاعتقاد بأنَّ البیت بیته، کما تدفعهم إلی الطواف حولها.

ثانیاً: «ولوضع مجاهـدهٔ إبلیس فی القلوب»، لأنَّ قصـد البیت وزیارته تکون من منطلق الانبهار بجواهره، والتأثّر بـدرره ونفاسهٔ أحجاره، والتمتّع برؤیهٔ زینته

۱- ۱ وقرئ مسارعهٔ، کما قرین مضارعهٔ.

ص: ۲۸۳

ومنظره، ولیس من منطلق مجاهدة إبلیس الداعی إلی التخلّف عن حجّه وإیثار الدعة والسلامة علی قصده.

ثالثاً: «ولنفی معتلج الرَّیب من الناس»، أی لزال تلاطم واضطراب الریب والشکّ من صدور الناس.

إشکالیّة ابن أبی العوجاء:

لو لم یکن البیت من أحجار عادّیة لما تحقّق الابتلاء الإلهی والاختبار الربّانی للإنسانیة علی طول مسیرتها التاریخیة: «من الأوّلین من لدن آدم علیه السلام إلی الآخرین من هذا العالم»، حیث تنجلی قصّة العبودیة للّٰهعزّوجلّ، والطاعة لأوامره فیما شرعه من مناسک الحجّ من طواف وسعی ورجم قد ینظر إلیها من لم یدرک أسرارها ومقاصدها أنّها حرکات غیر عقلائیة لا یمارسها إلّاالذین اختلّت عقولهم.. فما قیمة الطواف حول بیت من حجارة صمّاء، والسعی بین جبلین صلدین، والرجم لأحجار کبیرة بأحجارٍ صغیرة، واستلام حجر أسود کالفحم، وما إلی ذلک من المناسک والممارسات؟

وهذا النمط من التفکیر کان یراود بعضهم فی زمن الأئمّة علیهم السلام من أمثال ابن أبی العوجاء، فخاطب الإمام الصادق علیه السلام قائلًا:

«إلی کم تدوسون هذا البیدر، وتلوذون بهذا الحجر، وتعبدون هذا البیت المرفوع بالطوب والمدر، وتهرولون حوله هرولة البعیر إذا نفر، من فکر فی هذا أو قدّر، علم أنَّ هذا فعل أسّسه غیر حکیم ولا ذی نظر».

ثمّ خاطب الإمام قائلًا:

«فقل فإنّک رأس هذا الأمر وسنامه وأبوک أسّه ونظامه؟»

فأجابه الإمام علیه السلام قائلًا:

إنَّ من أضلّه اللّٰه وأعمی قلبه استوخم الحقّ، فلم یستعذ به وصار الشیطان ولیّه، یورده مناهل الهلکة ثمّ لا یصدره».

ص: ۲۸۴

«وهذا بيت استعبد اللّه به خلقه ليختبر طاعتهم فى إتيانه، فحثّهم على تعظيمه وزيارته، وقد جعله محلّ الأنبياء وقبلة المصلّين، فهو شعبة من رضوانه وطريق يؤدّى إلى غفرانه، منصوب على استواء الكمال، ومجتمع العظمة والجلال..» (۱).

فقد أكّد الإمام فى المقطع الأوّل من جوابه على مدى ضلال تلك النظرة، وعمى قلب صاحبها، ممّا تجعله يستوخم الحقّ، ولا يدرك مدى دلالات وإيحاءات تلك المناسك المشحونة بالدلالات والإيحاءات.

وأعطى فى المقطع الثانى بعضاً منها، كان أوّلها استعباد اللّه خلقه بهذا البيت «ليختبر طاعتهم فى إتيانه».

وهكذا نلتقى بمقصد الابتلاء والاختبار الذى أكّدته خطبة القاصعة: «ألا ترون أنَّ اللّه سبحانه اختبر الأوّلين من لدن آدم- صلوات اللّه عليه- إلى الآخرين من هذا العالم بأحجار لا تضرّ ولا تنفع...».

الحجر الأسود: تجديد العهد والميثاق

لا يتصورنَّ أحدٌ أنَّ مناسك الحجّ هى مجرّد فعّاليات تقام تعبّداً ليس إلّا، من دون أن تختزن أسراراً وبواطن وقيماً وتأريخاً.. لننظر إلى الحجر الأسود- مثلًا- مجرّداً عن كلّ تأريخ ومعنى، بعيداً عن عالم الملكوت.

مرَّ عمر بن الخطّاب على الحجر الأسود. فقال: واللّه يا حجر إنّا لنعلم أنّك حجر لا تضرّ ولا تنفع، إلّاأنّا رأينا رسول اللّه صلى الله عليه و آله يحبّك فنحن نحبّك.

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: كيف يا ابن الخطّاب! فواللّه ليبعثنّه اللّه يوم القيامة وله لسانٌ وشفتان، فيشهد لمن وافاه، وهو يمينُ اللّه عزّوجلّ فى أرضه يبايع بها خلقه.

فقال عمر: لا أبقانا اللّه فى بلدٍ لا يكون فيه على بن أبى طالب (۲).

وسئل الإمام الصادق عليه السلام: لأىّ علّة وضع اللّه الحجر فى الركن الذى هو فيه؟

ولأىّ علّةٍ يُقبّل؟

فقال عليه السلام: إنّ اللّه وضع الحجر الأسود، وهو جوهرة اخرجت من الجنّة إلى

۱- ۱ بحار الأنوار ۹۹: ۲۹.

۲- ۲ علل الشرائع للصدوق: ۴۲۵، والرواية عن الإمام الصادق عليه السلام ينقلها الشيخ الصدوق بهذا السند: «عن محمد بن الحسن، عن الصفّار، عن على بن حسّان الواسطى عن عمّه عبد الرحمن بن كثير الهاشمى، عن أبى عبداللّه عليه السلام. راجع: الوسائل ۱۳: ۳۲۰، تحقيق مؤسسة أهل البيت عليهم السلام، ط ۳.

ص: ۲۸۵

آدم عليه السلام فوضعت في ذلك الركن لعلّة الميثاق، وذلك أنّه لمّا أخذ من بني آدم من ظهورهم ذريّاتهم حين أخذ اللّه عليهم الميثاق في ذلك المكان..

وأمّا القُبلة والاستلام فلعلّة العهد تجديداً لذلك العهد والميثاق، وتجديداً للبيعة ليؤدّوا إليه العهد والميثاق، وتجديداً للبيعة ليؤدّوا إليه العهد الذي أخذ اللّه عليهم في الميثاق، فيأتوه في كلّ سنة ويؤدّوا إليه ذلك العهد والأمانة اللذين أخذا عليهم. ألا ترى أنّك تقول: أمانتي أدّيتها وميثاقي تعاهدته لتشهد لي بالموافاة.

وواللّه ما يؤدّي ذلك أحدٌ غير شيعتنا- إلى أن قال:- وذلك أنّه لم يحفظ ذلك غيركم، فلكم واللّه يشهد، وعليهم واللّه يشهد بالخفر (۱) والجحود والكفر...» (۲).

وروى الصدوق مثله في (علل الشرائع) عن أبيه عن محمّد بن يحيى (۳).

وجاء في (علل الشرائع) عن عبداللّه بن سنان قال: «بينا نحن في الطواف إذ مرَّ رجل من آل عمر فأخذ بيده رجل فاستلم الحجر فانتهره وأغلظ له وقال له: بطل حجّك، إنّ الذي تستلمه حجر لا يضرّ ولا ينفع، فقلت لأبي عبداللّه عليه السلام...

فقال عليه السلام: كذب ثمّ كذب ثمّ كذب. إنّ للحجر لساناً ذلقاً يوم القيامة يشهد لمن وافاه بالموافاة- ثمّ ذكر حديث خلق آدم وأخذ الميثاق على ذريّته، وأنّ الحجر التقم الميثاق من الخلق كلّهم، إلى أن قال:- فمن أجل ذلك أمرتم أنْ تقولوا إذا استلمتم الحجر:

أمانتي أدّيتها وميثاقي تعاهدته لتشهد لي بالموافاة يوم القيامة» (۴).

ولهذاكان الناس منذ عصرالنزول يتقاتلون على استلام الحجر الأسود وتقبيله، رغم استحباب ذلك وعدم وجوبه، ولشدّة الزحام على استلامه كان الإمام الصادق عليه السلام يترك ذلك لمن يستغرب عليه فعله: «أكره أن أؤذي ضعيفاً أو أتأذّى» (۵).

وقد أجاب عن سؤال حول امرأة حجّت وهي حبلى يزاحم بها حتى تستلم الحجر؟ فقال عليه السلام: «لا تغرّروا بها» (۶).

۱- ۱ خفر العهد: نقضه.

۲- ۲ الكافي ۴: ۱۸۴، وعنه: وسائل الشيعة ۱۳: ۳۱۷ باب ۱۳ استحباب استلام الحجر، الحديث ۵.

۳- ۳ علل الشرائع: ۴۲۹.

۴- ۴ علل الشرائع: ۴۲۵. عنه: وسائل الشيعة ۱۳: ۳۱۹- ۳۲۰.

۵- ۵ الكافي ۴: ۴۰۹.

۶- ۶ التهذيب ۵: ۳۹۹.

ص: ۲۸۶

لذا جاء فی الروایات عن أهل البیت علیهم السلام: «إنّ اللّه وضع عن النساء أربعاً، وعدَّ منهنّ استلام الحجر» (۱).

المبحث الثالث: طبیعة الموقع (بین جبال خشنة ورمالٍ دمثة)

لم یکن هناک سرّ فی طبیعة البناء فحسب، بل هناک سرٌّ بل أسرارٌ فی طبیعة الموقع الجغرافی لبیت اللّه الحرام، والذی یعبّر عنه القرآن الکریم علی لسان إبراهیم الخلیل علیه السلام: بوادٍ غیر ذی زرع.

وقد رکّزت خطبة (القاصعة) علی طبیعة الموقع فی سیاق حدیثها عن الاختبار الربّانی التاریخی للبشریة فی طبیعة البناء:

النصّ الأوّل: «ثمّ وضعه بأوعر بقاع الأرض حجراً، وأقلّ نتائق الدنیا مَدَراً، وأضیق بطون الأودیة قُطرا، بین جبال خشنة، ورمال دمثة، وعیون وشلة، وقُرًی منقطعة؛ لا یزکو بها خُفّ ولا حافر، ولا ظلف».

إنّه وصف رائع وبلیغ لمدی صعوبة ذلک الموقع علی صعید الجغرافیا.. فقد اجتمعت فیه کلّ العناصر التی تجعله موقعاً صعباً، یشقّ علی الحجیج مزاره؛ فهو لیس بوادٍ غیر ذی زرع فحسب، بل إنّه «من أضیق بطون الأودیة قطراً» و «أقلّ نتائق الأرض مدراً» و «أوعر بقاع الأرض حجراً»!!، لتکون تلک البقعة للناس رغم صعوبتها وجدبها وضیقها «مثابةً لمنتجع أسفارهم، وغایةً لمُلقی رحالهم».

النصّ الثانی: «ولو أراد اللّه- سبحانه- أنْ یضع بیته الحرام ومشاعره العظام، بین جنّات وأنهار، وسهلٍ وقرار، جمَّ الأشجار، دانی الثمار، ملتفّ البُنی، متصّیل القری، بین بُرّةٍ سمراء، وروضةٍ خضراء، وأریافٍ محدقة، وعراصی مغدقة، ورياضٍ ناضرة، وطُرقٍ عامرة، لکان قد صغّر قدْرُ الجزاء علی حسب ضَعْفِ البلاء».

یقول العلّامة میثم البحرانی بخصوص النصّ الثانی:

«صغری قیاس ضمیر استثنائی حذف استثناؤه. وهی نتیجة قیاس آخر من متصلتین تقدیر صغراهما: إنّه لو أراد أنْ یضع بیته الحرام بین هذه المواضع الحسنة

۱- ۱ من لا یحضره الفقیه ۲، ۱، ۴: ۲۱۰، ۱۹۴، ۲۶۳.

ص: ۲۸۷

المبهجة لفعل، وتقدير الكبرى: ولو فعل لكان يجب منه تصغير قدر الجزاء على قدر ضعف البلاء، وتقدير استثناء هذه المتّصلة؛ لكنّه لا يجب منه ذلك ولا يجوز؛ لأنّ مراد العناية الإلهية مضاعفة الثواب وبلوغ كلّ نفس غاية كمالها، وذلك لا يتمّ إلّا بكمال الاستعداد بالشدائد والميثاق؛ فلذلك لم يرد أن يجعل بيته الحرام في تلك المواضع لاستلزامها ضعف البلاء» (۱).

لقد أراد اللَّه عزّوجلّ لبيته الحرام أن يكون محكّاً لمدى الإرادة والعزم، والتضحية والبذل، والخشوع والخضوع، والحبّ والعشق: «تهوى إليه الأفئدة من مفاوز قفارٍ سحيقة، ومهاوى فجاجٍ عميقة، وجزائر بحارٍ منقطعة، حتى يهزّوا مناكبهم ذُلّلًا يُهلّلون للّهحوله، ويرمُلونَ على أقدامهم شُعثاً غُبراً له. قد نبذوا السرابيل وراء ظهورهم، وشوّهوا بإعفاء الشعور محاسن خلقهم، ابتلاءً عظيماً، وامتحاناً شديداً، واختباراً مبيناً، وتمحيصاً بليغاً، جعله اللَّه سبباً لرحمته، ووُصلة إلى جنّته».

وهكذا نلتقى مرّة اخرى بقصّة الابتلاء والامتحان والاختبار والتمحيص..

التى هى سبب الرحمة والوصلة إلى الجنّة، لتكون المعادلة كما ترسمها خطبة «القاصعة»:

«كلّما كانت البلوى والاختبار أعظم كانت المثوبة والجزاء أجزل».

معادلة الجزاء على قدر الابتلاء

إنّها المعادلة ذاتها التى أراد اللَّه للكعبة أنْ تكون من أحجار عادية وليس من زمرّد وياقوت، كانت مشيئة اللَّه عزّوجلّ أن يكون الإنسان (آدم) من طين، يقول علىّ عليه السلام فى (القاصعة):

«ولو أراد اللَّه أن يخلق آدم من نورٍ يخطف الأبصار ضياؤه، ويبهر العقول رُواؤه، وطيبٍ يأخذ الأنفاس عَرفُه، لفعل.

ولو فعل لظلّت له الأعناق خاضعة، ولخفّت البلوى فيه على الملائكة.

۱- ۱ شرح النهج للبحرانى ۴: ۲۸۲.

ص: ٢٨٨

ولكنّ اللَّه سبحانه يبتلى خلقه ببعض ما يجهلون أصله، تمييزاً بالاختبار لهم، ونفياً للاستكبار عنهم، وإبعاداً للخيلاء منهم».

وهكذا الحال فی تفسيره عليه السلام للأنبياء فی استضعافهم وخصاصتهم:

«ولو كـانت الأنبياء أهل قوّةٍ لا تُرام، وعزّةٍ لا تُضام، ومُلكٍ تمتـدُّ نحوه أعناق الرجال، وتشـدُّ إليه عُقـد الرحال، لكان ذلك أهون على الخلق فی الاعتبـار، وأبعـد لهم فی الاسـتكبار، ولآـمنوا عن رهبـةٍ قـاهرةٍ لهم، أو رغبـةٍ مائلـةٍ بهم، فكـانت النيّات مشتركـة، والحسـنات مقتَسَمة»!

الكعبة: الامتداد التاريخى

من خلال خطبة القاصعة ندرك أنَّ إبراهيم عليه السلام لم يكن هو المؤسّس الأوّل لبنائها:

«ألا ترون أنّ اللَّه سبحانه اختبر الأوّلين من لدن آدم- صلوات اللَّه عليه- إلى الآخرين من هذا العالم بأحجار لا تضرّ ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، فجعلها بيته الحرام الذى جعله للناس قياماً».

يتجلّى من خلال هـذا النصّ أنّ البيت الحرام من لدن آدم عليه السـلام.. وقد يشـير إلى ذلك قوله تعالى: وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنْ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا...، حيث يمكن أن نفهم من الآية أنّ القواعد كانت موجودة، وقد عمل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام على رفعها.

وقد يكون قوله تعالى: إنّ أوّل بيتٍ وضع للناس للذى ببكة مباركاً (١)

، شاهداً على ذلك.

وممّـا يؤيّـد ذلك الروايات الكثيرة الواردة عن أهل البيت عليهم السـلام وغيرهم والتى تتحـدّث عن (دحو الأرض) من تحت الكعبـة، نذكر منها ما جاء فی علل الصدوق عن الإمام الباقر عليه السلام.

«لمّا أراد اللَّه أن يخلق الأرض أمر الرياح فضربن متن الماء حتى صار موجاً ثمّ

١- ١ آل عمران: ٩٦.

ص: ۲۸۹

أزبـد فصـار زبـداً واحـداً فجمعه فی موضع البیت، ثمّ جعله جبلًا من زبـد ثمّ دحی الأرض من تحته، وهو قول اللَّه: إنَّ أوّل بیتٍ وضـع للناس للذی ببکة مبارکاً فأوّل بقعةٍ من الأرض الکعبة، ثمّ مدّت الأرض منها» (۱).

یری العلّامة الطباطبائی أنّ «الأخبار فی دحو الأرض من تحت الکعبة کثیرة، ولیست مخالفة للکتاب، ولا أنَّ هناک برهاناً یدفع ذلک».

کما یری العلّامـة أنّ ما ورد من الروایات من أنّ الکعبـة أوّل بیت بمعنی أوّل بقعة من الأرض، وأنّ الظاهر من قوله تعالی: إنَّ أوّل بیت وضع للناس للذی ببکّة مبارکاً ما تشتمل علیه الروایات التی تقول: «قد کان قبله بیوت، ولکنّه أوّل بیت وضع للناس مبارکاً»، أو «کانت البیوت قبله، ولکنّه کان أوّل بیت وضع للعبادة».

بینما یری العلّامة الطبرسی أنّ الآیة فیها دلالة علی أنّه «لم یکن قبله بیت مبنی، وإنّما دُحیت الأرض من تحتها، وهو أوّل بیت ظهر علی وجه المـاء عنـد خلق اللَّه تعـالی السـماء والأـرض من تحتها...»، ثمّ أمر اللَّه تعالی إبراهیم وإسـماعیل علیهما السـلام «ببنیان البیت علی القواعد» (۲).

وینقل الطبرسـی روایة عن الإمام الصادق علیه السـلام، حیث سـئل عن الحطیم- وهو ما بین الحجر الأسود والباب- لِمَ سـمّی الحطیم؟ قال علیه السلام: «لأنّ الناس یحطّم بعضهم بعضاً، وهو الموضع الذی فیه تاب اللَّه علی آدم علیه السلام» (۳).

والبحث التاریخی یحتاج إلی وقفةٍ أکثر تفصیلًا لا یسع لها المقام.

الهوامش:

دور علیّ فی فتح مکّة

۱- ۱ تفسیر المیزان ۳: ۳۵۶. نقلًا عن علل الشرائع.

۲- ۲ مجمع البیان ۱- ۲: ۶۰۶ ط: بیروت عام ۱۹۹۲ م.

۳- ۳ المصدر نفسه: ۶۰۷.

ص: ۲۹۱

دور علیّ فی فتح مکّهٔ

عفیف النابلسی- زهیر الأعرجی

کان للإمام علیّ علیه السلام دورٌ مهمّ فی فتح مکّهٔ، وقد تکفّلت هذه المقالهٔ بذکر هذا الدور عبر قلمین لعلمین جلیلین، کلّ منهما یکمّل الآخر.

بقلم عفیف النابلسی:

إنالدخول الجماعی فیالإسلام الذیشهدته قبائل العرب المتاخمهٔ لبلاد الشام بعد غزوهٔ مؤتهٔ لم یهز قریشاً وحلفاءها، ولم تفکر قریش بما قد تصیر إلیه الأحوال فی قاصِ الجزیرهٔ وأدناها، فظلت علی وهمها بأن المسلمین قد هزموا فی موقعهٔ مؤتهٔ هزیمهً نکراء، وأنهم باتوا فی حالهٍ یرثی لها، أقلها الضعف والهوان وهذا ما أعادها الی مراجعهٔ حساباتها وردّها إلی التفکیر بحرب محمد صلی الله علیه و آله، ونبذ مواقفها السابقهٔ معه، وهی المواقف التی أجبرت فیها بعد الحدیبیهٔ علی التخلی عن السیطرهٔ التی کانت لها. وقد أفقدتها تلک المواقف الهیبهٔ التی کانت تتصف بها، وخسرت مکانتها الأولی بعد عمرهٔ القضاء فما علیها إذن والحالهٔ تلک إلا العمل لاستعادهٔ تلک السیطرهٔ کاملهٔ، واسترداد الهیبهٔ والمکانهٔ اللتین کانتا لها غیر منقوصتین، وهذا لن

ص: ۲۹۲

یکون إلا بمقاومة محمد صلی الله علیه و آله مقاومةً ضاریةً، والشروع فی قتال من دخلوا معه بحکم عهد الحدیبیة (۱).

صلح الحدیبیّة:

کان صلح الحدیبیة بین رسول اللَّه صلی الله علیه و آله وقریش قد قضی أنّه مَن أحبَّ أن یدخلَ فی عهد محمد وعقده فلیدخل فیه، ومَن أَحب أن یدخل فی عهد قریش وعقدهم فلیدخل فیه. وکانت خزاعة قد دخلت فی عهد محمد صلی الله علیه و آله، ودخلت بنو بکر فی عهد قریش، وکانت بین خزاعة وبنی بکر ثاراتٌ قدیمةٌ سکنت بعد صلح الحدیبیة، وانحاز کلٌّ من القبیلتین الی فریق المتصالحین، فلما کانت مؤتة- وصل لقریش أن المسلمین قُضی علیهم- خُیّل الی بنی الدِّیل من بنی بکر بن عبد مناة أن الفرصة سنحت لهم، لیصیبوا من خزاعةبثاراتهم القدیمة، وحرّضهم علی ذلک جماعة من سادات قریش منهم عکرمة بن أبی جهل، وأمدوهم بالسلاح.

وقوع الحرب:

وبینما خزاعة ذات لیلة علی ماء لهم یدعی الوتیر إذ فاجأتهم بنو بکر فقتلوا منهم جماعة، ففرت خزاعة الی مکّة ولجأوا الی دار بُدَیْل بن ورقاء الخزاعی، وشکوا له نقض قریش، ونقض بنی‌بکر عهدهم مع رسول‌اللَّه صلی الله علیه و آله، وسارع عمرو بن سالم الخزاعی فغدا متوجهاً إلی المدینة حتی وقف بین یدی محمد صلی الله علیه و آله وهو جالس فی المسجد فقال:

لا هُمَّ إنّی ناشدٌ محمدا حلفَ أبینا وأبیک الاتلدا

إن قریشاً أخلفوک الموعدا ونقضوا میثاقک المؤکّدا

هم بیتونا بالعراء هجّدا فقتلونا رکعاً وسُجّدا

فقال له النبیّ صلی الله علیه و آله: نُصرت یا عمرو بن سالم!

ثم خرج بُدیل بن ورقاء فی نفر من خزاعة حتی قدموا المدینة فأخبروا

۱- ۱ مجمع البیان الحدیث، ۲: ۶۱۱.

ص: ۲۹۳

النبیّ صلی الله علیه و آله بما أصابهم، وبمظاهرة قریش بنی بکر علیهم، عند ذلک رأی النبیّ صلی الله علیه و آله أن ما قامت به قریش من نقض عهده لا مقابل له إلا فتح مکّة.

وعاد وفد خزاعة فرحاً بما حظی من التأیید، وظهرت مخاوف قریش، واجتمع حکماؤها وقرروا بعث أبی سفیان لتجدید العهد، وتمدیده الی عشر سنوات.

أبو سفیان فی المدینة:

تأهب أبو سفیان، وسار من وقته وساعته حتی وصل المدینة علی وجل خصوصاً بعدما رأی بُدیلًا ورفاقه علی بعض المیاه، وجعل وجهته ابنته أمَّ حبیبة زوجة النبیّ صلی الله علیه و آله التی تزوجها النبیُّ بعدما ترکها زوجُها وتنصر فی أرض الحبشة فخطبها إلی النجاشی. وعادت بعد فتح خیبر مع جعفر بن أبی طالب علیه السلام وجماعته الذین کانوا مهاجرین إلی الحبشة.

وأمُّ حبیبة کانت قد عرفت ما حدث، وعرفت ما نوی علیه النبیُّ صلی الله علیه و آله، فلم تهتم بأبیها المشرک. ولما أراد أن یجلس علی فراش النبیّ صلی الله علیه و آله طوته عنه فسألها أبوها: أطوته رغبةً بأبیها عن الفراش أم رغبةً بالفراش عن أبیها؟

فکان جوابها: هذا فراش رسول اللَّه صلی الله علیه و آله، وأنت رجل مشرک نجس، فلم أحبّ أن تجلس علیه. وفوجئ أبو سفیان بما لم یکن یتوقعه من ابنته التی وجهت إلیه صفعةً جعلته ذلیلًا مهیناً فقال لها: لقد أصابک بعدی شرٌّ، قالت: بل هدانی اللَّه تعالی للإسلام، وأنت تعبد حجراً لا یسمع ولا یبصر، وا عجباً منک وأنت سید قریش وکبیرها! قال: أأترک ما یعبد آبائی وأتبع دین محمد؟

وخرج أبو سفیان بعد هذه الصفعة مکلوم الفؤاد مضعضع الفکر، مهزوز الجانب مهیض الجناح، لا یدری ماذا یفعل، أیرجع قبل أن یحقق شیئاً، أو یستمر فی محاولة یائسة. فذهب إلی المسجد لعلّه یری محمداً صلی الله علیه و آله ودخل علی الفور یکلمه فی توثیق المعاهدة وزیادة المدة، إلا أن الرسول صلی الله علیه و آله لم یرد علیه بشیء، وألح أبو

ص: ۲۹۴

سفیان والنبی صلی الله علیه و آله لا یجیب، وأصابته الحمی من هذه الصفعة الثانیة فخرج علی بعض مَن کان یعرف من الصحابة، فلم یر من یساعده علی مهمته، أو یتکلم مع النبیّ صلی الله علیه و آله حوله.

دور علیّ علیه السلام:

الدور الأول:

وکان لابدّ لأبی سفیان- الذی یعرف مواقع القوة- من أن یلجأ الی بیت علیّ حیث دخل علی أمیر المؤمنین علیه السلام فوجده مع زوجته وعندهما ولداهما الحسن والحسین علیهم السلام.

فقال: یا علی! أنت أمسُّ القوم بی رحماً، قد جئتُ فی حاجة؛ فلا أرجعنّ کما جئتُ خائباً، اشفع لنا عند محمد صلی الله علیه و آله.

فقال علی علیه السلام: ویحک یا أبا سفیان! واللَّه، لقد عزم رسولُ اللَّه صلی الله علیه و آله علی أمر فلا نستطیع أن نکلّمه فیه.

وأدرک أبو سفیان حراجة الموقف فالتفت الی فاطمة علیها السلام قائلًا: وأنت یا بنت محمد! هل لکِ أن تأمری ابنک هذا- یعنی الحسن- فیجیر بین الناس، فیکون سید العرب الی آخر الدهر؟

قالت فاطمة علیها السلام: واللَّه، ما بلغ ابنی هذا أن یجیر بین الناس، وما یجیر أحد علی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله.

قال: یا أبا الحسن! إنی أری الأمور قد اشتدّت علیّ فانصحنی.

فقال: واللَّه، ما أعلم شیئاً یُغنی عنک، ولکنک سید بنی کنانة، فقم فأجر بین الناس، ثم الحق بأرضک.

قال: أو تری مغنیاً عنی شیئاً؟!

قال أبو الحسن: لا واللَّه، ما أظنّ؛ لکنی لا أری غیر ذلک.

وقام أبو سفیان فأتی المسجد، قائلًا: أیها الناس! إنی قد أجرتُ بین الناس،

ص: ۲۹۵

ولم یلبث أن خرج برکب بعیره، وینطلق عائداً الی مکة، خالی الوفاض، یجرّ أذیال الخیبة والهزیمة، إذ لم یستطع أن یحقق شیئاً مما جاء الیه.

وقدم أبو سفیان علی قومه، فسألوه ما وراءک یا أبا سفیان؟

قال: جئت محمداً فکلمته، فو اللَّه، ما ردَّ علی شیئاً، ثم جئت بعض أصحابه فوجدتهم أعدی الناس إلیّ، ثم جئت علیّ بن أبی طالب فوجدتُه ألینَ القوم، وقد أشار علیّ بشیءٍ صنعته، فو اللَّه، ما أدری هل یغنینی شیئاً أم لا؟

قالوا: وبما أمرک؟

قال: أمرنی أن أُجیر بین الناس ففعلت.

قالوا: فهل أجاز محمدٌ ذلک؟

قال: لا.

قالوا: ما زاد الرجل علی أن لعب بک، فما یغنی عنا ما قلت (۱).

أرأیت إلی علی الشاب النابغة الذی یزن الرجال بمیزان، ویعرف کیف یضرب ضربته الذکیة؟ فهو کمن یطعن خصمه فی المعرکة فیردیه بکلامه وموقفه ودرایته، ویجعل الخصم المجرب قائد القوم وکبیرهم ولداً وطفلًا لا یدری ماذا یفعل. أرأیت علیاً کیف طعن خصمه السیاسی دون أن یخرج السیف من غمده؟

أرأیت إلی العقل الموجه، کیف یفعل فعلته فیشوش علی خصومه ما یجعلهم حیری لا یدرون ما یفعلون؟

هکذا تعامل علی العبقری الشاب مع شیخ قریش وسید کنانة، وأرجعه طفلًا. وهکذا فهم أبو سفیان، وفهم معه قومه أن علیاً لعب بأبی سفیان، وضربه ضربةً موجعة بعد الضربتین اللتین تلقاهما من ابنته أمّ حبیبة ومن الرسول صلی الله علیه و آله هذا هو الدور الأول الذی لعبه علی لتسفیه أبی سفیان واذلاله وجعله کالطفل الصغیر.

الدور الثانی:

بدأ رسول اللَّه صلی الله علیه و آله یخطط لغزو مکة وفتحها، فأمر بشحذ السلاح وجمعه،

۱- ۱ خاتم النبیین، ۲: ۶۲۰- الطبری، ۲: ۱۶۳.

ص: ۲۹۶

وبعث إلى القبائل المحيطة بالمدينة أن يتأهبوا ويأتوا إلى المدينة، فكانت الوفود تأتى ولكنها لا تعرف وجهة المسير، ووضع الحرس والعيون على المدينة يراقبون كل خارج منها وكلّ داخل إليها، ويفتشون من يمرّ ليلًا ونهاراً. وبينما هو يتهيأ للمسير نحو مكة تسرّب الخبر الى أحد أصحابه وهو حاطب بن بلتعة الذى رأى أن رسول اللّه إذا ذهب بهذا الجيش الجرّار الى مكة ربما تكون نهاية قريش وعزّ عليه ذلك، وكان له فيها أرحام وأقارب، وقد تكون العاقبة لقريش فيكون له عندها يد.

هكذا أصحاب النفوس الضعيفة يفكرون فى علاقات ذاتية حتى فى أحرج الأوقات، ويتخذ لنفسه حصناً يأوى إليه عند تقلبات الأحوال، وهكذا يقوم حاطب بن بلتعة بعملية خيانية لا عهد للمسلمين بها، وهى ايصال أخبار عسكرية سرية الى الأعداء.

وفكّر حاطب فى ايصال الخبر كثيراً؛ لأنّه خاف من تفشى الأسرار، وافتضاح أمره، فعمد الى امرأة قينة مغنية أغراها بالمال، وكان هواها فى قريش، ولم تكن أسلمت بعدُ، واتفقا على كيفية وضع الكتاب فى ضفائرها لقاء أجر باهض ونسى حاطب أن اللّه مطلعٌ على كلّ شىء، وأن الوحى يوصل الأخبار السرية بأقل من لمح البصر. وكان الكتاب يحتوى على أسرار عسكريّة بالغة الخطورة عن أهمية الجيش، وعدد الفرسان والرجالة، وكثرة السلاح والخيل والبغال والجمال.

وخوفاً من التفتيش العسكرى وضعت الكتاب مطوياً فى ضفائرها، بحيث لا يمكن لأحد حتى- لو فتشها- أن يهتدى إلى الكتاب، ثم خرجت تسلك طريقاً بعيداً عن عيون الحراس، توهمهم بالحشمة والحياء، وتتستر بهذه المظاهر، لتخفى جاسوسيتها على الدين وعلى الرسول.

وما إن غادرت المدينة حتى نزل الوحى المبارك يخبر النبى صلى الله عليه و آله بالكتاب، وأين موضعه، وما فعل حاطب، فدهش النبىّ صلى الله عليه و آله لهذه المفاجأة، وهذه الخيانة من أحد أصحاب بدر، فدعا علياً على الفور، قائلًا له: إن أحدَ أصحابى كتب إلى أهل مكّة

ص: ۲۹۷

یطلعهم علی أخبارنـا، وقـد کنت سألتُ اللَّه عزّ وجلّ أن یعمی أخبارنا عنهم، وقـد حملت الکتاب امرأهٔ سوداء فهیا أدرکها وانتزع منها الکتـاب. ثم اسـتدعی الزبیر وقـال له: اذهب مع ابن عمتک وأعنه علی تخفیف مأربه، وخرج علی ومعه الزبیر فأدرکاها فی (الخُلیقـهٔ)، وتقـدم منها الزبیر فسألها عن الکتاب فأنکرت علیه التعرض لها من جانب، والسؤال عما لا یعنیه من جانب آخر، کما أنکرت علیه هذه التهمـهٔ الشـنیعهٔ، مما جعل الزبیر یتردّد أولًا، ثم یعود الی علیّ یُقنعه بأنه لیس عنـدها شـیء، بعـدما بکت المرأهٔ لهـذا التعرض والإهانهٔ، وبـدأت دموع التماسـیح علی خـدیها، وأوشک قلب الزبیر أن یرقّ لها فارتد نحو علیّ یقول: لَم أرَ معها کتاباً یا أبا الحسن، ولم یلتفت الزبیر الی لازم قوله هـذا، الـذی یعنی تکذیب الوحی، وتکذیب الرسول صـلی الله علیه و آله وما کاد علیّ یسـمع هذا القول من الزبیر حتی غضب وصـاح: ویحک یا زبیر! یخبرنی رسولُ اللَّه صـلی الله علیه و آله بأنها تحمل کتاباً، ویأمرنی بأخـذه منها، ونأتی لـذلک ثم تقول أنت: إنه لا یوجد معها کتاب!

وتظهر قـدرهٔ علی علیه السـلام وفراسـته، وتصدیقه المطلق الذی لا شک فیه، ویظهر ضـعف الزبیر وأنه غیر صالح للقیام بهذا الدور إلا برفقهٔ علی علیه السلام. ولم یلبث علیّ علیه السلام أن اخترط السیف، وتقدم من المرأهٔ قائلًا وعیناه تقدحان شرراً قائلًا لها:

أَمـا واللَّه، لتخرجن الکتـاب، أو لنکشـفنک، ثم لاضـربن عنقک بسـیفی هـذا، وحاولت المرأهٔ أن تراوغ کما راوغت مع الزبیر، ولکنها رأت عناداً واصـراراً، مما جعلها تتأکـد بأن الرجل متأکـد من وجود الکتاب الذی تحمله، وأنها إن لم ترضخ للطلب سوف تنال عقابها المنـاسب، وقـد یکـون هـو المـوت، وإزاء هـذا التخـوف علی حیاتهـا قـالت له: أعرض بوجهـک عنی، وأشـاح علی بوجهه عن المرأهٔ الماکرهٔ فاذا بها تحل ضفائرها، وتخرج منها الکتاب، ثم تدفعه الی علیّ، فیأخذه علیٌّ علیه السلام دون أن یقول لها شیئاً، ثم یأتی الزبیر معه الی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله یسلمانه الکتاب (۱).

أرأیت معی- أیها القارئ- موقف الزبیر الذی یعنی أنه لو اقتنع بکلام المرأهٔ

۱- ۱ خاتم النبیین، ۲: ۶۲۷- البحار، ۲۱: ۹۴ وکل من ذکرها من المؤرخین.

ص: ۲۹۸

لکذب رسول اللَّه صلی الله علیه و آله الذی لا ینطق عن الهوی، ولکان یعنی أن تفشی الأسرار العسکریهٔ الی الأعداء فیعرفون خطط الهجوم فیفشل.

ولکن الیقین الثابت فی صدر علی بصدق رسول اللَّه صلی الله علیه و آله هو الذی جعله یقف موقفاً ممیزاً وحاداً، وأنه غیر مستعد لسماع کلامها، وقبول أی موقف آخر منها؛ لأنه علی یقین بأن الکتاب معها. أخبره بذلک من لا ینطق إلا عن وحی یوحی به إله السماء والأرض، والمطلع علی خفایا الأمور وظواهرها.

وعلیّ هو الحریص کلّ الحرص أن یبقی للجیش الفاتح هیبته حینما یباغت الآخرین، ویغزوهم فی عقر دارهم لتنهی معرکهٔ الفتح دون إراقهٔ دماء. وهیهات هیهات أنی لنا بمثل علیّ وهو النسخهٔ الفریدهٔ والشخصیهٔ الوحیدهٔ فی عالم الیقین والصدق والاخلاص.

الدور الثالث:

بعدما عثر الإمام علی علیه السلام علی الکتاب مع المرأهٔ التی لا تعرف من مضمونه شیئاً، أعمی الأمر علی قریش، فلم تعرف شیئاً عن استعداد الرسول صلی الله علیه و آله لفتح مکهٔ، وکان النبی صلی الله علیه و آله قد دعا ربّه أن یعمی أخبار جیشه عن قریش حتی یباغتها کی لا تقع معرکهٔ طاحنهٔ فی مکهٔ. فالنبی صلی الله علیه و آله یرید الحفاظ علی شرف الحرم، وإن کان أهله یستحقون الذبح، لمعاداتهم الشدیدهٔ لرسول الهدایهٔ، ولکنه محمدٌ رسولُ الإنسانیهٔ، المحافظ علی القیم. فقد هیأ النبیّ صلی الله علیه و آله کلّ مقدمات المعرکهٔ، وأمر الجیوش بالزحف الهادئ، واستمر حتی وصل الی مر الظهران- وقیل إنه بالجحفهٔ- وهناک أمر الجیش بالنزول، وکان الوقت عشیاً فطلب من الناس أن یوقدوا النار، کلّ واحد یشعل ناراً، وکان الغرض من هذا اظهار عظمهٔ الجیش، وقوهٔ العسکر بهذه النار التی تری من بعید، حتی تأخذهم الدهشهٔ ولا یفکرون إلا بحمایهٔ أنفسهم إما بالإسلام أو بالهروب من المواجههٔ، ویکون بهذا قد حقّق الفتح الهادئ الذی یحافظ فیه علی شرف الکعبهٔ.

ص: ۲۹۹

وهنـاک التحق به عمّه العباس، الـذی کان بقاؤه بمکـهٔ بأمر النبیّ حیث کان یقـدم المعلومات عن قریش، ومظاهرها العسـکریهٔ وقوتها الاقتصادیهٔ، وما کانت تکید وتدبر لحرب الرسول صلی الله علیه و آله.

ولما رأی العباس عظمـهٔ هـذا الجیش الفاتـح وقوته تأکّـد لـدیه أن الجیش إذا دخل بهـذه القوهٔ والعنجهیهٔ سـتذهب قریش والی الأبد. فکان یحاول أن یساعد النبی صلی الله علیه و آله علی الفتح الهادئ حتی لا تراق فی هذا الفتح محجمهٔ دم.

وبینمـا هو غـارق فی التفکیر لاح بخاطره أن یجول علی أطراف المعسـکر، لعلّه یری آتیاً أو ذاهباً، یمکنه أن یوصل خبراً لقیادهٔ قریش حتی تأتی وتستأمن لدمها وأموالها، فتحفظ قریش ویحفظ الحرم.

وبینا هو کذلک إذا بأبی سـفیان ومعه نفر جاءوا یستمعون الأخبار، وقد أذهلهم ما رأوا من نیران حتی أن بعضهم قال: هذه نار خزاعهٔ، قال أبو سفیان:

خزاعـهٔ أقـل وأذل. وینـادی العبـاس أبا حنظلـهٔ! فیجیبه أبو سـفیان فـداک أبی وأمی بعـدما عرفه، وهو منـدهش من هول ما رأی عـدهً وعـدداً، ثم خـاطبه مـا تری فی أمرنـا؟ قال: الإسـلام- التحق بی حتی لا یقتلک الناس، وأردفه خلفه مؤمناً له مانعاً قتله حتی وصل إلی الرسول الأکرم صـلی الله علیه و آله، وعرض علیه الاسـلام، ولکنه کان صـلب الشـکیمهٔ، شدید السخیمهٔ یعزّ علیه فقدان اللّات والعزی والهبـل الأعلی، وقـد حاول عمر بن الخطاب قتله عن طریق إثارهٔ النبیّ صـلی الله علیه و آله، وأن اللَّه قـد أمکن منه بلا عهـد ولا عقـد، ولکن العباس الحریص علی الإسلام رأی الحکمهٔ فی بقائه، لیری عزّهٔ الإسلام، وشرف النبی المطرود، وذلهٔ قریش وصغار أبی سفیان، وطلب من أبی سفیان أن یسلم فتمهل، ولکن النبیّ صلی الله علیه و آله قال لعمّه العباس: أبقه عندک اللیلهَ، وآتنی به صباحاً.

وفی الصـباح أسـلم بعد محاورهٔ قصـیرهٔ، وقال العباس للنبی: إن أبا سفیان رجل یحب الفخر فاجعل له شیئاً، فقال النبی صلی الله علیه و آله فی معرض توصیاته لرؤساء الجند

ص: ۳۰۰

وقادة الکتائب: مَن ألقی سلاحه فهو آمن، ومَن دخل بیتَه وأغلق بابه فهو آمن، ومَن دخل الکعبة فهو آمن، ومن دخل دار أبی سفیان فهو آمن. وکان الغرض من ذلک أن یذهب أبو سفیان، ویخذل الناس عن الحرب ویجلس فی بیته، لأنه رجل له قوة تحریضیة هائلة علی اثارة البلابل، فاسکته النبیّ بهذه المکانة المتساویة مع رجل أغلق بابه، ولا شیء غیر ذلک.

وفرح أبو سفیان بهذه الرتبة الجدیدة والشرف، وذهب مسرعاً إلی مکة یطلب إلی الناس أن یدخلوا داره، وهو لا یعنیه من الشعارات إلا أمان داره، وهو قادر علی تجییر الجو لصالحه، فصار یدعو الی داره فقط لیوهم الناس أنه وحده قد حظی بهذا الشرف، وهذا ما جعل الآخرین إما یلتزمون بیوتهم، أو یهربون إلی الجبال المحیطة بمکة.

ویزحف الجیش الإسلامی المقدام، ویدخل مکّة من طرق أربعة یطوقها من کلّ مکان حتی لا یفکر أحد فی إراقة دم فی بیت اللّه الحرام، وفی البلد الحرام.

وذکروا أن النبیّ صلی الله علیه و آله کان داخلًا وقلبه خاشع للّهعلی هذا التوفیق، ولسانه یردّد إذا جاء نصر اللّه والفتح ورأیت الناس یدخلون فی دین اللّه أفواجاً فسبح بحمد ربک واستغفره انه کان تواباً.

ومضت فرق الجیش تدخل مکة دون أدنی مقاومة، وقد أخذت الحمیةُ سعد ابن عبادة الأنصاری وهو یمرّ أمام أبی سفیان بن حرب فقال له: الیوم یوم الملحمة، الیوم تسبی أو تستحل الحرمة. وتردّد قولُه بین المسلمین فنقلوه إلی النبی صلی الله علیه و آله وقالوا: یا رسولَ اللّه! ما نأمن أن یکون لسعد فی قریش صولة. وقیل: إن العباس سمع ذلک فقال للنبیّ صلی الله علیه و آله: یا رسول اللّه! أما تسمع ما یقول سعد؟ فقال النبی صلی الله علیه و آله لأمیر المؤمنین علیه السلام: یا علی! أدرک سعداً، فخذ الرایة منه، وکن أنت الذی تدخل بها مکة.

فأدرکه أمیر المؤمنین علیه السلام فأخذها منه، ولم یمتنع علیه سعد بل دفعها إلیه.

ولم یر رسول اللّه صلی الله علیه و آله أحداً من المهاجرین والأنصار یصلح لأخذ الرایة من

ص: ۳۰۱

سید الأنصار سوی أمیر المؤمنین علی علیه السلام.

قال الشیخ المفید رضـی الله عنه: واعلم أنه لو رام ذلک غیره، لامتنع علیه سـعد، وکان فی امتناعه فسادُ التـدبیر، واختلاف الکلمة بین الأنصـار والمهـاجرین، ولم یکن وجه الرأی تولی رسول اللَّه أخـذ الرایـة بنفسه، وولی ذلـک من یقوم مقـامه، ولا یتمیز عنه، ولا یُعظم أحـدٌ من المقرین بالملة عن الطاعة له، ولا یراه دونه فی الرتبة، وفی هذا من الفضل الذی تخصـص به أمیر المؤمنین علیه السـلام ما لم یشـارکه فیه أحـد، ولاـ ساواه فی نظیر له مساو، وکان علم اللَّه تعالی ورسوله فی تمام المصـلحة بانفاذ أمیر المؤمنین علیه السـلام دون غیره مـا کشف به عن اصـطفائه لجسـیم الأـمور کمـا کان علم اللَّه تعالی فیمن اختاره للنبوة وکمال المصـلحة ببعثه کاشـفاً عن کونهم أفضل الخلق أجمعین (۱).

وهـذا الدور لا یحتاج الی تعلیق، لأن وضوح أخذ الرایة من سـعد لا یتم الّا برسول اللَّه صـلی الله علیه و آله حیث لا یتنازل سـعد زعیم الأنصار إلّاللنبیّ صـلی الله علیه و آله، ولما کان سـعد یعرف أن علیاً هو الرجل الثانی فی الإسلام، وأنه سیصبح الرجل الأول سلم الأمر إلیه بلا تنازع.

الدور الرابع:

التفاف الجیش الإسـلامی علی أطراف مکة المکرمة، مکّن النبی صـلی الله علیه و آله من السیطرة العامة علی المدینة، حیث لم تحدث أیة مشکلة تذکر، وطبقت أوامر النبیّ بعدم سفک الدماء فی البلد الحرام.

وأسـلم علی أثر الفتح سادةُ مکة، منهم حکیم بن حزام، وبدیل بن ورقاء، وجبیر بن مطعم، وأقبل أبو سـفیان یرکض فاسـتقبلته قریش، وقالوا: ما وراءک وما هـذا الغبار؟ قال: محمـد فی خلق عظیم، ثم صاح وهو مـذعور: یا آل غالب! البیوت البیوت! مَن دخل داری فهو آمن، فعرفت هند زوجته فجعلت تطردهم، ثم قالت: اقتلوا الشـیخ الخبیث لعنه اللَّه من وافد قوم، وطلیعة قوم. قال لها: ویلک إنی رأیتُ ذات القرون، ورأیت فارس أبناء الکرام، ورأیت ملوک کندة وفتیان

۱- ۱ الارشاد للشیخ المفید: ۷۱.

ص: ۳۰۲

حمیر یسلمن آخر النهار، ویلک اسکتی، فقد واللَّه جاء الحقّ ودنت البلیة.

وکان رسول اللَّه صلی الله علیه و آله قد عهد إلی المسلمین أن لا یقتلوا بمکة إلا من قاتلهم سوی نفر کانوا یؤذون النبیّ صلی الله علیه و آله منهم مقیس بن صبابة، وعبد اللَّه بن أبی سرح، وعبد اللَّه بن خطل، وقینتین کانتا تغنیان بهجاء رسول اللَّه صلی الله علیه و آله، وقال: اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقین بأستار الکعبة. فأدرک ابن خطل وهو متعلق بأستار الکعبة فاستبق إلیه سعید بن حریث، وعمار بن یاسر، فسبق سعید عماراً فقتله وقتل مقیس بن صبابة فی السوق، وقتل علی علیه السلام إحدی القینتین وأفلتت الأخری، وقتل أیضاً الحویرث بن نفیل بن کعب.

وبلغ علیاً علیه السلام أن أُخته امَّ هانی بنت أبی طالب قد أوت ناساً من بنی مخزوم، منهمالحارث بنهاشم، وقیس بن السائب، فقصد نحو دارها مقنعاً بالحدید فنادی:

أخرجوا من آویتم، فجعلوا یذرقون کما تذرق الحباری خوفاً منه، فخرجت إلیه أمُّ هانی وهی لا تعرفه فقالت: یا عبد اللَّه أنا أمُّ هانی بنت عمّ رسول اللَّه صلی الله علیه و آله وأخت علیّ بن أبی طالب، انصرف عن داری، فقال: أخرجوهم. فقالت: اللَّه! لأشکونّک الی رسول اللَّه. فنزع المغفر عن رأسه فعرفته فجاءت تشتد حتی التزمته فقالت:

فدیتک، حلفت لاشکونک الی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله، فقال لها: اذهبی فبری قسمک فإنه بأعلی الوادی. قالت أمّ هانی: فجئت إلی النبی صلی الله علیه و آله وهو فی قبة یغتسل وفاطمة علیها السلام تستره، فلما سمع رسول اللَّه صلی الله علیه و آله کلامی، قال: مرحباً بک یا أمّ هانی، قلت: بأبی وأمی ما لقیت من علی الیوم، فقال صلی الله علیه و آله وقد فهم ما ترید: قد أجرتُ من أجرتِ، فقالت فاطمة علیها السلام تشکین علیاً علیه السلام، لأنه أخاف أعداء اللَّه، واعداء رسوله، فقلت:

احتملینی فدیتک، فقال رسول اللَّه صلی الله علیه و آله: قد شکر اللَّه سعیه وأجرتُ من أجارت أم هانی لمکانتها من علی بن أبی طالب (۱).

هل قرأت معی کیف نفذ الأوامر، وقتل الأعداء، ولاحقهم ولم یتراجع، ولم یراعِ بذلک بیوت أهله وأقاربه، ولا بیت أخته الوحیدة، التی لم یرها منذ زمن؟

۱- ۱ البحار، ۲۱: ۱۳۲ طبعة بیروت.

ص: ۳۰۳

ولکنه علیّ المعروف بفنائه بالحقّ، ومعاداته لأهل الباطل، وهو القائل: ما ترک لی الحقّ صاحباً. فبینا تری بعض الصحابة یخاف علی أهله لتصور شیطانی، أو یخاف علی مستقبل وضعه لظنه أو احتماله غلبة قریش، فإذا به یفشی الأسرار العسکریة، أو یتراجع حین البأس ویفرّ من المعرکة، أما علی هو هو فی المسجد والمحراب وفی المعرکة والمواقف مع الأهل والأخت والبنت والأولاد علی حدّ سواء، لا یقدم علی الحقّ أحداً.

الدور الخامس:

بعدما لوت مکة جیدها، وأذعنت لبیرق النبوة، وتحولت الی سلطة الرسول صلی الله علیه و آله، ودخل الناس فی دین اللّه أفواجاً حیث خرجت الرجال من مخابئها، وأسلمت وخرجت النساء من خدورهن واسلمن، وانضوی الناس فی ظل الرسالة الإسلامیة، وعادت مکة الی دورتها الأولی یوم خلق اللّه السماوات والأرض، وعاد البلد الحرام حیث یحرم فیها سفک الدماء، وأصبحت واحة الأمان والراحة والاطمئنان، دخل النبی صلی الله علیه و آله فاتحاً لا کما یدخل الفاتحون عنوةً بل کما یدخل الرسل المتواضعون ذاکراً ربّه، ناظراً الی قربوس فرسه، لم یدخل مستعلیاً ولا مستکبراً وإنما دخل ذاکراً شاکراً مسبحاً مستغفراً.

وبما أن مکةَ المکرمة کانت مجمع عبادة العرب، ومرکز التجمع الصنمی أیضاً، وکان الغرض الأساس من الحرب الفکریة والنفسیة والمادیة إزالة دولة الصنمیة، وتأسیس دولة الإله الواحد الحقّ مکانها، کان لابد من ترکیز الألوهیة فی أذهان الناس، وتحطیم المظاهر الصنمیة وقلعها من الأذهان، وتحطیم کل المظاهر الصنمیة الموجودة فی الکعبة وفی جوارها. قال الإمام الرضا علیه السلام- کما فی البحار- وکانت ثلاثمائة وستین صنماً حول الکعبة عندما فتح النبیّ صلی الله علیه و آله مکة فمر بها وجعل یطعنها بمخصرة فی یده ویقول: جاء الحقُّ وزهق الباطل إن الباطل کان زهوقاً، فجعلت تکب لوجهها (۱). وفی روایة ابن شهر آشوب: إن الإمام علیاً علیه السلام صعد علی أکتاف

۱- ۱ البحار، ۲۱: ۱۱۶.

ص: ۳۰۴

النبی وکسر الأصنام الموجودة علی ظهر الکعبة.

واذکر بعض الأبیات التی أرویها من حافظتی، وکنت قـد حفظتها قبل أکثر من ثلاثین عاماً، والمصدر الآن غیر موجود فی مکتبتی التی أحرقها الظالمون.

وهذه هی الأبیات:

قیلَ لی قلْ فی علی مِدَحاً ذکرها یطفئ ناراً مؤصدة

قلت هل أمدح مَن فی فضله حار ذو اللب الی أن عبدهْ

والنبیّ المصطفی قال لنا لیلة المعراج لما صعَّدهْ

وضع اللّه علی ظهری یداً فأحس القلب أن قد بَرَدَهْ

کان هدف الإسـلام محو الصنمیة من الوجود الخارجی، بل الوجود الذهنی أیضاً، والعقیدة الصنمیة حالة مستعصیة، مرکوزة فی الذهن والوجدان، وبعضـهم رضع عقیدة الصـنم وعبادة الصنم مع الحلیب فأنّی له أن یترک هذه العبادة ولو کانت خرافة فوقها خرافة؟ والذی عشق الخرافة ورضع الخرافـة، لا یراها خرافةً وإنما یراها صـحیحة، وهـذا هو الجهل المرکب. ومشـکلة الرسالـة کانت مع هـذا الجهل المرکب، مع التعقیـد النفسـی والـذهنی. فهل کان الرسول بإمکانه غرس العقیـدة الإلهیة دون إزالة العقیدة الصـنمیة من الأذهان؟ وهل یمکن محوها من الذهن قبل محوها من الواقع؟ ومَن الذی یساعده علی هذه المهمة الصـعبة إلّارجل الصعاب، رجل المواقف، إلا علیّ الذی صـعد علی کتف النبیّ، وحمل فأس النبوة بیده القویة وزنده المتین، حتی کسرها تکسیراً؟ وبذلک تمّ الانتصار الحقیقی للإسلام بازالة کل آثار الصنمیة ومحوها من الوجود.

الدور السادس:

سدانة البیت العتیق فی الجاهلیة والإسـلام مکانة مرموقة، وکان أولاد أبی طلحة قد ثبتوا هذا الشرف، ولا ینافسهم فیه غیرهم من قریش وظلوا علی ذلک

ص: ۳۰۵

زماناً، وکان رسول اللَّه صلی الله علیه و آله قد قال لعثمان بن أبی طلحة- یوماً من الأیام-: ربما یأتی زمان یکون هذا المفتاح فی یدی أضعه حیث أشاء، فهزع عثمان بهذا الکلام.

ومن الطبیعی بعد سقوط مکّة وفتحها بهذا الجیش الجرّار، أن یرکز فیها المواقع الأساسیة کالسدانة والسقایة والولایة وما إلیها، وأحسّ عثمان بأن أیامهم انتهت فأغلق الباب، وصعد بالمفتاح علی السطح، وکأنه أراد أن یختبئ وینجو بهذا العلو فوق سطح الکعبة قائلًا: لو أعلم أنه رسولُ اللَّه لم أمنعه- یعنی بقی علی عناده بعد أن دخل الناس فی دین اللَّه أفواجاً- وعندها أمر النبیّ صلی الله علیه و آله علیّاً علیه السلام أن یصعد السطح، ویأخذ المفتاح منه، ولما وصل علیّ علیه السلام الی عثمان حاول التمنع، ولکن علیاً أمسکه فحاول الانفلات، ولکن هیهات فقد أمسکه ذو قوة لو اجتمع جیش عرمرم علی ازالته منه لما أمکنه ذلک، ثم لوی یده وأخذ المفتاح منه، وفتح باب الکعبة ودخل الرسول صلی الله علیه و آله إلی الکعبة فصلی رکعتین، فلما خرج سأله عمّه العباس أن یعطیه المفتاح فنزل قوله تعالی: إن اللَّه یأمرکم أن تؤدوا الأمانات الی أهلها فأمر النبی صلی الله علیه و آله علیاً أن یرد المفتاح الی عثمان، فقال: یا علی! أکرهت وأدیت ثم جئت برفق. قال لقد أنزل اللَّه عزّ وجلّ بشأنک قرآناً، وقرأ الآیة علیه، فأسلم عثمان فأقرّه النبی صلی الله علیه و آله فی یده (۱).

کل دعوة تحتاج- مهما کانت محقة- الی قوة تساندها، قوة المال، وقوة الزند والسیف، وقد کان رسول الهدایة محمد صلی الله علیه و آله یحتاج الی الاثنین معاً کغیره من أصحاب الدعوات الصالحة، وقد وفق اللَّه بمال خدیجة فانفقته حتی لم یبق منه شیءٌ، وبقی زند علی علیه السلام الذی رافق الدعوة الإسلامیة حتی ثبّت أرکانها.

وفروسیة علی وقوته وشجاعته کانت لا تخفی علی أحد، وکانوا یهابونه صغیراً وکبیراً، وإذا تصدی علی علیه السلام لموقف کانوا یعرفونه لا یرجع حتی یفتح اللَّه علی یده.

من هنا لم یکن بإمکان عثمان بن طلحة ولا غیره أن یختبئ، أو یصعد علی

۱- ۱ البحار، ۲۱: ۱۱۶.

ص: ۳۰۶

سطح الکعبة هروباً من وجود هذا الجیش، خصوصاً وجود الذراع التی تطوی الحدید. فهل بإمکانه مقاومة هذا الساعد الذی یحمل الفرس والفارس أو یضرب الفارس المقنع بالحدید فیقده نصفین؟

ظنَّ عثمان أنه بإمکانه أن یمتنع وهو بعد لم یعرف قدرة علی، وشدّة ساعده، کان یسمع فی علیّ وقوته، والآن تحقق له عندما أمسک علی بیده ماذا حلّ به. کیف استلم دون مقاومة کأنه کان أمام أمرین إما أن یقع بدون حرکة، أو یقدم المفتاح بدون ضجیج، فکان التسلیم للصاعقة الإلهیة لسیف علی وساعده؛ لیدخل النبی الکعبة ولیعلن موقفه واضحاً دون قتال فی هذا البیت العتیق.

الدور السابع:

لا یکفی أن یفتح النبیّ صلی الله علیه و آله مکة المکرمة ویترک ما حولها من جیوب، یترک المحیط بعیداً عنها عقائدیاً وأخلاقیاً، بل لابد من الدعوة الشاملة والخیر العمیم حتی تعود مکة بجوارها وقراها، لتعود أمّ القری بأولادها وأحفادها کما أراد لها ربّ العزة، تمشی فی الطریق السوی لیدخل الناس فی دین اللَّه أفواجاً.

ومن هنا عندما هدأت العاصفة، واستتبَّ الأمن فی البلد الحرام، وأمن من آمن، وقتل من قتل، وتحقق النصر الإلهی، ونصر اللَّه عبده وأعزّ جنده، وهزم الأحزاب وحده. بث السرایا إلی القری المجاورة تدعو الناس للإسلام، وکانت القری- التی سمعت بنصر اللَّه، وخذلان قریش- علی شیء من الاستعداد تنتظر هذه السرایا؛ لتعلن کلمة التوحید وتنضوی تحت لواء الدین الجدید.

وکان ممن بعث خالد بن الولید علی رأس سریة الی بنی جذیمة، وکانت بنو جذیمة قد أصابت فی زمن الجاهلیة عوف بن عوف أبا عبد الرحمن بن عوف والفاکه بن المغیرة، وکان من أقارب خالد، فلما وصل خالد إلی القبیلة حملوا السلاح فی وجهه، فطلب الیهم إلقاء السلاح فلم یقبلوا لخوف من أخذ الثأر منهم، قال رجل منهم یقال له جحدم: ویلکم یا بنی جذیمة! إنه خالد واللَّه، ما بعد إلقاء

ص: ۳۰۷

السـلاح إلاـ الأسـر، وما بعـد الأسـر إلا القتل، فأخـذه رجال من قومه، وقالوا یا جحـدم تریـد أن تسـفک دماءنا؛ إن القوم قـد أسـلموا، ووضـعت الحرب وأمن الناس وما زالوا به حتی نزعوا منه سـلاحه، ووضع القوم السلاح امتثالًا لطلب خالد، فلما وضعوا السلاح أمر بهم فکتفوا، ثم عرضـهم علی السیف فقتل من قتل منهم، فلما انتهی الخبر الی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله رفع یدیه إلی السماء، ثم قال: اللهم انی أبرأ إلیک مما صنع خالد (۱).

ثم دعا علیاً علیه السـلام فقال: یا علی أخرج الی هؤلاء القوم فانظر فی أمرهم، واجعل أمر الجاهلیة تحت قدمیک، فخرج حتی جاءهم، ومعه مال قد بعثه رسولاللَّه صـلی الله علیه و آله فودَی لهم الدماء، وما أصیب من الأموال حتی إنه لَیدِی مِیلغَةَ الکلب، حتی إذا لم یبق شیء من دم ولاـ مـال إلاـ وداه، بقیت معه بقیـة من المـال. فقـال لهم علی علیه السـلام حین فرغ منهم: هل بقی لکم دمٌ أو مالٌ لم یود إلیکم؟ قـالوا: لاـ قـال: فـإنی أعطیکم هـذا المال الباقی احتیاطاً لرسول اللَّه صـلی الله علیه و آله مما لا یعلم ولا تعلمون، ففعل ووافقوا شـاکرین، ثم رجع الی رسول اللَّه صـلی الله علیه و آله فـأخبره الخبر. فقـال: أصـبت وأحسـنت، ثم قـام رسول اللَّه صـلی الله علیه و آله فاسـتقبل القبلـة قائماً شاهراً یدیه حتی إنه لیُری بیاض ما تحت منکبیه وهو یقول: اللهم انی أبرأ الیک مما صـنع خالد بن الولید، ثلاث مرات (۲).

إنَّ تثبیت الدولة یکون بإرخاء رواسـی العدل والمساواة بین الناس، والإسـلام جاء لیمحو أوضاع الجاهلیة وما علیها من شـنآن ویمشـی فی النـاس بالحق والعـدل ولا تزر وازرة وزر أخری. وما قام به خالـد لا علاقـة له بالإسـلام، بل هو الراسب الجاهلی المتحکم فی عقل هذا الرجل الذی أسـلم متأخراً ولا تزال رواسب الجاهلیة فی کیانه، فهو لم یسـتطع أن یترفع عنها مع أن النبی قال فی خطبته البلیغة أمام أهالی مکـة: کل دم فی الجاهلیـة فهو تحت قـدمیّ هاتین. وکأن خالـد لم یسـمع أو لم یعِ ما قاله المصـلح الکبیر، ولهـذا تبرأ منه النبی صلی الله علیه و آله ومن أفعاله، وتأثر لهذه الحادثة النکراء، وبعث علیاً الذی هو نفسه لیمثله فی رأب الصدع واستنکار الجریمة ودفع

۱- ۱ الطبری، ۲: ۱۶۴.

۲- ۲ نفس المصدر.

ص: ۳۰۸

الـدیات وتعویض الخسائر المادیـة، حتی میلغـة الکلب- أی الجرن الـذی یشـرب منه الکلب، وهو وعاء من حجر أو خشب لا قیمهٔ له- حتی یثبت الحق ویرسـی دعـائم العـدل، ومن أولی من علی الأعلم الأقضـی بفک الخصومات، وحلّ المشاکل وإرضاء الناس، وإعادهٔ الأمور إلی نصابها؟ علی الحکیم فی القضاء، والحکیم فی المواقف ومداراهٔ عواطف الناس حتی رجع والقوم مطمئنون کأنه لم یصبهم شیء، فبورک علی وبورک هذا اللطف الرسالی الذی یحمله بین حنایاه، عالماً وقاضیاً ومدافعاً عن الإسلام الحقّ.

وقفهٔ عتاب خفیفهٔ مع محمد حسین هیکل:

بلغ کتـاب هیکل مجـده، حیث وزع علی أکثر الـدول العالمیـهٔ المهتمـهٔ بالتراث، خصوصاً أن هیکل کتب کتابه وفق الأنظمـهٔ الحـدیثهٔ للکتابـهٔ، حتی یجعله مرجعاً سـهلًا للباحثین الغربیین والشـرقیین علی السواء، ولکل من أراد أن یدرس حیاهٔ محمد صـلی الله علیه و آله. والحق أن الکتاب اختصـر التاریخ وأجاد کاتبه فی کثیر من المناسـبات، بل حلق فی بعض المواقف. والکتاب موفق کماً ونوعاً ومنهجاً واسلوباً.

غیر أننـا ونحن نعتز بأحـد أهم کتـاب العصـر الحـدیث، نـأسف لکاتب من هـذا النوع- وهو یسبر أغوار التاریـخ ویشـهد الحقائق بکل نصاعتها- أن یبقی فی ذهنه شـیء من رواسب الماضی العفن حیث الحزبیهٔ والطائفیهٔ المقیتهٔ ونربأ به أن یکون فی ذهنه شیء علی علیّ إمام المتقین وقائـد الغر المحجلین، خصوصاً أن له موقفاً ممیزاً فی کتابـهٔ الطبعـهٔ الأولی من کتابه المطبوع فی مصـر عندما یتحدث عن یوم الدار، ویثبت فیه الوصیهٔ لأمیر المؤمنین علیه السلام ویثور علیه المتعصبون أتباع بنی أمیهٔ، ویقولون له:

هـذا عین ما تقوله الشـیعهٔ، فیقول لهم: هذا عین ما یقوله التاریخ، ثم یمحو ویحذف هذا الکلام من الکتاب عندما یتفق معه علی شـراء خمسمائهٔ نسخهٔ فی الطبعهٔ الثانیهٔ، فیهدم بهذا هیکل کل ما بناه من تحقیق علمی نزیه وبحث موضوعی مجرد.

وهنا فی هذا الموضوع عندما یتعرض لموضوع فتح مکهٔ المکرمهٔ یجرد علیاً

ص: ۳۰۹

عن أی مکرمـة بحـذف مقصودٍ واهمـال مقصود، وإذا اضـطرته حقـائق التاریـخ التی یکتبهـا الطبری وابن الأـثیر والیعقوبی وابن هشام وغیرهم ممن تعرضوا لأکثر تفاصـیل الفتوحات المبارکـة، یختصـرها اختصاراً یکاد معه یمحو ذکر الحادثة. فهو مثلًا فی مسألة الرایة لا یـذکر العباس ولا یـذکر علیاً علیه السـلام، وفی مسألـة أم هانی لا یذکر علیاً وفی مسألة هدور دم الأعداء الألداء فی العداوة الذین أمر النبی صـلی الله علیه و آله علیاً بقتلهم لا یذکر علیاً، وفی مسألة تکسـیر الأصنام یتجاهل علیاً تماماً، وهکذا یبدو هیکل وکأنه فی حرب مع علی علیه السلام غیر معلنة بل معلنة... (۱) بقلم السیّد زهیر الأعرجی:

کانت مکة معلماً شاخصاً فی حیاة الامام أمیر المؤمنین علیه السلام. ففیها ولد، وفیها ترعرع صبیاً بجنب رسول اللَّه صلی الله علیه و آله، وفیها آمن برسالة السـماء یوم کان الشـرک یخیم علیها. لقد کانت مکة بالنسـبة للامام علیه السلام مدینة تحمل کل معانی الصراع بین الحق والباطل. فقد بقی علیه السلام أیاماً بعد هجرة النبی صلی الله علیه و آله منها یرد الامانات، وکان له دور رئیسی تحت امرة رسول اللَّه صـلی الله علیه و آله فی فتح مکة، وکان علیه السلام المؤهل الوحید الذی بعثه النبی صلی الله علیه و آله لتبلیغ سورة براءة فی حج السنة التاسعة للهجرة.

وبکلمـة، فإن لمکـة المکرمـة فی حیاة امیر المؤمنین علیه السـلام وضـعاً خاصاً فی النشاط الدینی الاجتماعی، نعرض له فی الصـفحات التالیة، بإذنه تعالی.

علی علیه السلام وفتح مکّة

فُتحت مکة المکرمة فی شهر رمضان من السنة الثامنة للهجرة. وخبرُها أنه کان من شروط صلح الحدیبیة بین رسولاللَّه صلی الله علیه و آله وبین قریش أنه من أحب أن یـدخل فی عَقْـد رسول اللَّه صـلی الله علیه و آله وعهـده فلیـدخل فیه، ومن أحب أن یـدخل فی عقد قریش وعهدهم فلیدخل فیه. فدخلت بنو بکر فی عقد قریش وعهدهم، ودخلت خزاعة فی عقد رسول اللَّه صلی الله علیه و آله وعهده.

۱- ۱ اقتبس هذا من مجلّة میقات الحجّ العدد الثانی.

ص: ۳۱۰

ولکن بنو بکر وقریش تظاهرت علی خُزاعة واصابوا منهم مقتلًا ونقضوا عهدهم مع رسول اللَّه صلی الله علیه و آله. فقدم عمرو بن سالم الخزاعی الی المدینة ووقف علی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله وهو جالس فی المسجد بین الناس، فقال یستثیره علی قتال اهل مکة من المشرکین:

یاربّ إنی ناشدٌ محمداً حِلْفَ أبینا وأبیه الأتلدا (۱)

قد کنتمُ وُلداً وکنا والدا ثمّتَ أسلمنا فلم ننزِع یدا (۲)

فانصُر هداک اللَّه نصراً أعتداوادعُ عبادَ اللَّه یأتوا مددا (۳) فیهم رسولُ اللَّه قد تجرّداإن سِیم خَسْفا وجهه تربَّدا (۴) فی فیلق کالبحر یجری مُزبِداإنّ قریشاً أخلفوک الموْعِدا (۵) ونقضوا میثاقک المؤکداوجعلوا لی فی کداء رُصّدا (۶) وزعموا أنْ لستُ ادعو أحداًوهم أذلّ وأقلّ عددا

هم بیتونا بالوتیر هُجَّداوقتّلونا رُکعًا وسُجّدا (۷) وأحست قریش بعظمة الجریمة التی ارتکبتها ضد المسلمین. وتسارعت الاحداث، فقدم ابو سفیان المدینة واراد أن یکلّم رسول اللَّه صلی الله علیه و آله لتصحیح ما ارتکب من خطأ فادح بنقضه العهد مع المسلمین ولکنه لم یفلح، فلم یردّ صلی الله علیه و آله علیه شیئاً.

فعندها «دخل علی علی بن ابی طالب رضوانُ اللَّه علیه، وعنده فاطمة بنتُ رسول اللَّه صلی الله علیه و آله، وعندها حسنُ بن علی غلام یدبّ بین یدیها. فقال: یاعلیّ، إنک أمسّ القوم بی رحماً (۸)، وانی قد جئتُ فی حاجة فلا ارجعنّ کما جئتُ خائباً، فاشفع لی الی رسول اللَّه. فقال: ویحک یا ابا سفیان! واللَّه لقد عزم رسول اللَّه صلی الله علیه و آله علی أمر ما نستطیع ان نکلمه فیه. فالتفتَ الی فاطمة فقال: یابنة محمد، هل لک أن تأمری بُنَیَّک هذا فیُجیرَ بین الناس، فیکون سیدَ العرب الی آخر الدهر؟ قالت:

واللَّه ما بلغ بُنیَّ ذاک أن یُجیر بین الناس، وما یُجیر أحدٌ علی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله.

۱- ۱ ناشد: طالب ومذکِّر. والاتلد: القدیم.

۲- ۲ یرید ان بنی عبد مناف امهم من خزاعة، وکذلک قصی امه فاطمة بنت سعد الخزاعیة.

۳- ۳ أعتد: حاضر، والمدد: العون.

۴- ۴ تجرد: شمر وتهیأ للحرب. وسیم: طلب منه وکلف. الخسف: الذل. وتربد: تغیر الی السواد.

۵- ۵ الفیلق: العسکر الکثیر.

۶- ۶ کداء: موضع باعلی مکة.

۷- ۷ الوتیر: اسم ماء باسفل مکة لخزاعة. والهجد: النیام.

۸- ۸ عندما خسر ابو سفیان کل شیء اراد الضرب علی وتر الرحم والدم، وهو الذی قاتل رسول اللَّه صلی الله علیه و آله وعلی علیه السلام من بنی هاشم اشد القتال. لکنه الیوم یتحدث عن علاقة بنی امیة ببنی هاشم من ناحیة الرحم والاجداد!

ص: ۳۱۱

قال: یاأبا الحسن، إنی أری الامور قد اشتدت علیّ، فانصحنی.

قال علیه السلام: واللَّه ما أعلم لک شیئاً یغنی عنک شیئاً، ولکنک سید بنی کِنانهٔ، فقُم فأجِرْ بین الناس، ثم الحق بأرضک.

قال: أو تری ذلک مُغنیاً عنی شیئاً؟

قال علیه السلام: لا واللَّه، ما أظنه، ولکنی لا أجد لک غیر ذلک.

فقام ابو سفیان فی المسجد، فقال: أیها الناس، إنی قد أجرتُ بین الناس. ثم رکب بعیرَه فانطلق. فلما قدم علی قریش قالوا: ما وراءک؟ قال: جئتُ محمداً فکلمته فواللَّه ما ردَّ علیّ شیئاً... ثم جئتُ علیاً فوجدته ألین القوم، وقد اشار علیّ بشیء صنعتُه، فواللَّه ما أدری هل یغنی ذلک شیئاً أم لا؟...» (۱).

وأمر رسول اللَّه صلی الله علیه و آله بالجهاز، فتجهز عشرهٔ آلاف من المسلمین، ولم یتخلف عنه أحد. وخرجوا جمیعاً نحو مکهٔ. فلما نزل رسول اللَّه صلی الله علیه و آله «مرَّ الظهران» قدم ابو سفیان یستظهر الخبر، فأخذه العباس بن عبد المطلب الی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله. فلما رآه صلی الله علیه و آله، قال: ویحک یاأبا سفیان، ألم یأنِ لک ان تعلم انه لا إله الا اللَّه؟ قال: بأبی انت وأمی، ما أحلمک وأکرمک وأوصلک! واللَّه لقد ظننت ان لو کان مع اللَّه إلهٌ غیره لقد اغنی عنی شیئاً بعد. قال: ویحک یاابا سفیان! ألم یأنِ لک أن تعلم أنی رسول اللَّه؟ قال: بابی أنت وامی، ما احلمک واکرمک واوصلک! أما هذه واللَّه فإن فی النفس منها حتی الآن شیئاً. فقال له العباس: ویحک! أسلم واشهد أن لا إله الا اللَّه وأنّ محمداً رسول اللَّه قبل أن تُضرب عنقک. قال: فشهد شهادهٔ الحق، فاسلم! قال العباس: قلت یارسول اللَّه، إن ابا سفیان رجل یحب هذا الفخر، فاجعل له شیئاً. قال: «نعم. من دخل دار ابی سفیان فهو آمن، ومن اغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن» (۲).

وعندما رأی ابو سفیان جنود اللَّه تمر من امامه فی مضیق الوادی التفت الی

۱- ۱ سیرهٔ ابن هشام ۴: ۳۹.

۲- ۲ سیرهٔ ابن هشام ۴: ۴۵- ۴۶.

ص: ۳۱۲

العباس وقال: «واللَّه یا اباالفضل، لقد اصبح مُلکُ ابن اخیک الغداۀ عظیماً، قال العباس: یاابا سفیان إنها النبوۀ. قال: فنعم اذن» (۱).

وحینما دخلوا قال سعد بن عبادۀ: الیومُ یوم الملحمۀ، الیوم تُستحل الحُرمۀ! وهو رأی لم یُستشر فیه رسول اللَّه صلی الله علیه و آله، ویدلّ علی الآثار المترسبۀ ما قبل الاسلام علی اولئک المسلمین. فتدارک النبی صلی الله علیه و آله الموقف الذی یمکن ان یتطور الی سفک دماء، وقال صلی الله علیه و آله لعلی بن ابی طالب علیه السلام: أدرکه، فخذ الرایۀ منه، فکن انت الذی تدخل بها (۲). وهکذا کان، فدخل رسول اللَّه صلی الله علیه و آله وبید علی علیه السلام الرایۀ ثم جیش النبی صلی الله علیه و آله من ورائهما.

وکان رسول اللَّه صلی الله علیه و آله قد عَهِدَ الی امرائه من المسلمین، حین امرهم ان یدخلوا مکۀ، ان لا یقاتلوا الا من قاتلهم. لکنه امرهم بالخصوص بقتل اربعۀ نفر هم: عبد اللَّه بن سعد بن ابی سرح، والحویرث بن نفیل، وابن خطل، ومقبس بن ضبابۀ.

وأمرهم ایضاً بقتل قینتین کانتا تغنیان بهجاء رسول اللَّه صلی الله علیه و آله. وقال صلی الله علیه و آله: اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقین باستار الکعبۀ. فقتل علی علیه السلام الحویرث بن نفیل واحدی القینتین وأفلتت الاخری. وقتل مقبس بن ضبابۀ فی السوق. وادرک ابن خطل وهو متعلق باستار الکعبۀ، فاستبق الیه سعید بن حریث وعمار بن یاسر، فسبق سعید عماراً فقتله.

اما عبد اللَّه بن سعد الذی کان قد ارتد مشرکاً بعد ان کتب بعضاً من الوحی وحرّفه، فظُفر به ولکن عثمان بن عفان غیّبه وطلب له الامان من رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فی قصۀ ذکرت فی سیرۀ ابن هشام. ثم ولاه عمر بن الخطاب بعض اعماله فی خلافته، ثم ولاه عثمان بن عفان بعد عمر (۳)!!

ولما دخل رسول اللَّه صلی الله علیه و آله مکۀ، دخل صنادید قریش الکعبۀ وهم یظنون ان السیف لا یرفع عنهم. فاتی صلی الله علیه و آله الحرم وقام علی باب الکعبۀ فقال: «لا اله الا اللَّه وحده لا شریک له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الاحزاب وحده، الا کل مأثُرۀ او

۱- ۱ سیرۀ ابن هشام ۴: ۴۷.

۲- ۲ سیرۀ ابن هشام ۴: ۴۹.

۳- ۳ سیرۀ ابن هشام ۴: ۵۲.

ص: ۳۱۳

دم او مال یُدَّعی فهو تحت قدمیَّ هاتین إلا سدانة البیت (۱) وسقایة الحاج... یامعشر قریش، إنّ اللّه قد اذهب عنکم نخوة الجاهلیة، وتعظُّمها بالآباء. الناس من آدم، وآدم من تراب، ثم تلا هذه الآیة: یاایها الناسُ إنا خلقناکم من ذکرٍ وانثی وجعلناکم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن اکرمکم عند اللّه اتقاکم الآیة کلها. ثم قال:

یامعشر قریش، ماترون انی فاعل فیکم؟ قالوا: خیراً، أخ کریم، وابن اخ کریم.

قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء» (۲).

وکان اللّه سبحانه قد امکنه من رقابهم عنوة فکانوا له فیئاً، فلذلک سُمی اهل مکة الطلقاء.

و «لما فتح اللّه مکة علی رسول اللّه صلی الله علیه و آله امر النبی صلی الله علیه و آله علیاً (کرم اللّه وجهه) ان یصعد علی منکبه لیقذف الصنم التی کانت اعظم الاصنام عن المسجد الحرام» (۳).

وتفصیل ذلک علی لسان علی بن ابی طالب علیه السلام کما یرویها احمد بن حنبل، قال علیه السلام:

«انطلقت أنا والنبی صلی الله علیه و آله حتی أتینا الکعبة فقال لی رسول اللّه صلی الله علیه و آله: اجلس وصعد علی منکبی فذهبت لانهض به فرأی منی ضعفاً فنزل وجلس لی نبی اللّه صلی الله علیه و آله وقال:

اصعد علی منکبی، فصعدتُ علی منکبیه، فنهض بی. قال: فانه یخیل الیّ انی لو شئت لنلتُ افق السماء حتی صعدت علی البیت وعلیه تمثال صِفر او نحاس، فجعلت ازاوله عن یمینه وعن شماله وبین یدیه ومن خلفه حتی اذا استمکنتُ منه قال لی رسول اللّه صلی الله علیه و آله: اقذف به، فقذفتُ به فتکسر کما تنکسر القواریر» (۴)

. وفی روایة اخری أن علیاً علیه السلام لما عالجه کان رسول اللّه صلی الله علیه و آله یقول له: ایه ایه... جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل کان زهوقاً (۵)

» (۶).

تصرفات خالد بن الولید: آثار ما قبل الاسلام

وعندما فتحت مکة، بعث رسول اللّه صلی الله علیه و آله السرایا فیما حول مکة تدعو الی اللّه عزّوجلّ، ولم یأمرهم بقتال. وکان ممن بَعثَ خالد بن الولید وأمره أن یسیر بأسفلِ تهامة داعیاً، ولم یبعثه مقاتلًا، ومعه قبائل من العرب: سُلیم بن منصور، ومُدلج بن

۱- ۱ سدانة البیت: خدمته.

۲- ۲ سیرة ابن هشام ۴: ۵۴- ۵۵.

۳- ۳ مفتاح النجاء، البدخشی: ۴۶.

۴- ۴ مسند احمد، رواه احمد بن حنبل باسناده عن ابی مریم عن علی علیه السلام ۱: ۸۴.

۵- ۵ سورة الاسراء: آیة ۸۱.

۶- ۶ المستدرک علی الصحیحین ۲: ۳۶۶.

ص: ۳۱۴

مُرَّة. فوطئوا بنی جذیمة بن عامر. فلما رآه القوم اخذوا السلاح. فقال خالد: ضعوا السلاح، فان الناس قد اسلموا.

فلما وضعوا السلاح أمر بهم خالد عند ذلک. فكُتِفوا، ثم عرضهم علی السیف، فقتل من قتل منهم. فلما انتهی الخبر الی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله رفع یدیه الی السماء، ثم قال: اللهم انی أبرأُ الیک مما صنع خالد بن الولید (۱).

فدعا رسول اللَّه صلی الله علیه و آله علی بن ابی طالب (رضوان اللَّه علیه)، فقال: یا علی، اخرج الی هؤلاء القوم، فانظر فی امرهم، واجعل امر الجاهلیة تحت قدمیک. فخرج علی علیه السلام حتی جاءهم ومعه مال قد بعث به رسول اللَّه صلی الله علیه و آله، فوَدَی لهمُ الدماء وما أصیب لهم من الاموال، حتی انه لَیدی لهم میلَغة الکلب (۲).

حتی اذا لم یبق شیء من دم ولا مال إلا وَدَاه، بقیت معه بقیة من المال. فقال لهم علی (رضوان اللَّه علیه) حین فَرَغ منهم: هل بقی لکم بقیة من دم او مال لم یُودَ لکم؟ قالوا: لا. قال: فإنی اعطیکم هذه البقیة من هذا المال، احتیاطاً لرسول اللَّه صلی الله علیه و آله مما لا یعلم ولا تعلمون، ففعل. ثم رجع الی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله، فأخبره الخبر، فقال صلی الله علیه و آله: أصبت وأحسنت. ثم قام رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فاستقبل القبلة قائماً شاهراً یدیه، حتی انه لیری ما تحت مَنکِبیه، یقول: «اللهم إنی ابرأ الیک مما صنع خالد بن الولید، ثلاث مرات» (۳).

الدلالات العلمیة للنصوص

هناک دلالات علمیة یمکن استنباطها من النصوص التی اوردناها فی فتح مکة. ومن تلک الدلالات: تنبأ الدین ببقاء الحق وزوال الباطل، والطراز الرفیع لفتح مکة بین الفتوحات، وبطولة الامام علیه السلام التی کان من اهم آثارها: فتح مکة وانکسار دولة الشرک الی الابد.

۱- الحق والباطل: من زاویة فلسفیة

عندما تکسرت اصنام قریش فی فتح مکة علی یدی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله وعلی بن

۱- ۱ سیرة ابن هشام ۴: ۷۲.

۲- ۲ میلغة الکلب: شیء یحفر من خشب، ویجعل لیلغ فیه الکلب. وکان یستعمل عند اهل البادیة واصحاب الغنم.

۳- ۳ سیرة ابن هشام ۴: ۷۲- ۷۳.

ص: ۳۱۵

ابی طالب علیه السلام، قال صلی الله علیه و آله: ایه ایه جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل کان زهوقاً (۱)

. فما هو الباطل الذی حُکم علیه بالموت والزوال؟ وما هو الحق الذی اقرّ له بالحیاة؟

یعبّر الحق عن صفات الکمال المطلق، وکل شیء یتصل باللّه سبحانه هو حق: هو الذی ارسل رسوله بالهدی ودین الحق (۲)

، فتعالی اللّهُ هو الملک الحق (۳)

، هنالک الولایة للّهالحق هو خیر ثواباً وخیر عقبا (۴)

، ذلک بان اللّه هو الحق وانه یحیی الموتی (۵)

. بینما لا یمثّل الباطل الا الشیطان وکل ما یدعو الیه هو شر وفساد، کما اشار تعالی: فماذا بعد الحق الا الضلال فأنی تصرفون (۶)

، ذلک بان اللّه هو الحق وأن ما یدعون من دونه هو الباطل (۷).

أ- الباطل:

هناک تساؤل وجیه یمکن ان یُطرح فی هذا المقام وهو: هل الباطل قضیة متعلقة بالاخلاق ام انه قضیة متعلقة بالدین؟ وهل یمکن طرد الباطل من العقل، ثم من الحیاة الاجتماعیة، من دون مساعدة الدین؟

طبیعیاً، یعدُّ الباطل حقیقة مستقلة بذاتها بسبب قابلیة النفس الانسانیة علی الاقتراب منه او الابتعاد عنه. واهم مصادیق الباطل: الفجور والکفر. فقد خلق اللّه سبحانه النفس الانسانیة والهمها الفجور والتقوی فقال: ونفس وماسواها. فالهمها فجورها وتقواها... (۸).

فالنفس الانسانیة کیان یمتلک القدرة والعلم والحکمة، وقد سواها سبحانه وتعالی ورتب خلقها ونظّم قواها واعضاءها. والقی فی روعها وافاض علیها صوراً علمیة من التصور والتصدیق، وعرّفها صفات الافعال من التقوی والفجور.

فالعنوان المشترک بین التقوی والفجور هو متن الفعل. مثال ذلک: اکل المال وهو مشترک بین اکل مال الیتیم وهو فجور، واکل المال الحلال وهو من التقوی. ومثال آخر: المباشرة وهو عمل مشترک بین الزنا وهو فجور، والزواج الشرعی وهو من

۱- ۱ سورة اسراء: آیة ۸۱.

۲- ۲ سورة التوبة: آیة ۳۳.

۳- ۳ سورة طه: آیة ۱۱۴.

۴- ۴ سورة الکهف: آیة ۴۴.

۵- ۵ سورة الحج: آیة ۶.

۶- ۶ سورة یونس: آیة ۳۲.

۷- ۷ سورة الحج: آیة ۶۲.

۸- ۸ سورة الشمس: آیة ۷- ۸.

ص: ۳۱۶

التقوی. ومثال ثالث: العبادة وهو عمل مشترک بین عبادة الصنم وهو فجور، وعبادة اللَّه سبحانه وهو تقوی.

والمحصَّل من الآیات الشریفة هو ان اللَّه عز وجل عرّف الانسان بخصائص الافعال من فجور او تقوی، ومیّز له الافعال المتصلة بالتقوی والاخری المتصلة بالفجور.

ومن تلک الآیات الشریفة نستلهم أن هناک تناقضاً منطقیاً بین الحق والباطل. فلابد ان یهزم احدهما الآخر ویدحره، ولا یمکن ان یجتمعا فی مکان واحد فی نفس الوقت. بل لابد من استقلالیة تحمی احدهما عن الآخر. فاما هذا واما ذاک. ای اما الفساد والظلم والشیطان: وهو الباطل. واما الخیر والصلاح والعدالة: وهو الحق.

ولم یقف القرآن الکریم موقفاً حیادیاً من الباطل بل ادانه فی مواطن عدیدة، فخاطب اهل الکتاب: یااهل الکتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتکتمون الحق وانتم تعلمون (۱)

، وخاطب عبدة الاوثان: أفبالباطل یؤمنون وبنعمة اللَّه یکفرون (۲)

، ونقل عن المنکرین: ویجادل الذین کفروا بالباطل لیدحضوا به الحق (۳)

. ونقل عن الکافرین ومجادلتهم بالباطل لدحض الحق: وجادلوا بالباطل لیدحضوا به الحق فأخذتهم فکیف کان عقاب (۴)

، وخاطب المسلمین بضرورة مراعاة شرعیة التعامل التجاری عبر قوله: یاایها الذین آمنوا لا تأکلوا اموالکم بینکم بالباطل الا ان تکون تجارةً عن تراضٍ منکم (۵)

، وادان الکافرین اجمالًا بقوله: والذین آمنوا بالباطل وکفروا باللَّه اولئک هم الخاسرون (۶).

ومن ذلک نفهم ان طبیعة الاشیاء فی الکون تتناغم مع الخیر والصلاح والعدالة والتوحید، ومع کل ما یمثله الحق من مفاهیم وافکار. وعندما یقوم الانسان بفعل الباطل من فساد وظلم وعبادة للشیطان والوثن، فانه انما ینتهک

۱- ۱ سورة آل عمران: آیة ۷۱.

۲- ۲ سورة النحل: آیة ۷۲.

۳- ۳ سورة الکهف: آیة ۵۶.

۴- ۴ سورة غافر المؤمن: آیة ۵.

۵- ۵ سورة النساء: آیة ۲۹.

۶- ۶ سورة العنکبوت: آیة ۵۲.

ص: ۳۱۷

طبیعة الاشیاء التی خلقها اللّه سبحانه. فهنا لابد من دحر الباطل الذی ینتهک النظام الکونی المبنی علی اساس العدالة والخیر والتوحید. کما قال تعالی: ولو اتبع الحق اهواءهم لفسدت السموات والارض... (۱).

ومجیء الاسلام کان انذاراً للباطل بالتوقف عن الوجود فی ذات المؤمن علی الاقل. فالمؤمن بتعالیم الدین السماوی یؤمن بالحق ویبنی وجوده الاجتماعی والذاتی الجدید علی اساس ایقاف الباطل وحذفه من حیاته. وهذا یعنی اننا اذا الغینا الباطل من الساحة الاجتماعیة، کما فعل رسول اللّه صلی الله علیه و آله وعلی علیه السلام بتحطیم الاصنام، فان ذوات الناس سوف تنفتح علی الخیر والاستماع الی الحق. وهنا یتخیر الانسان بحریة، فی ذلک الجو المنفتح وتلک الارضیة الواسعة، بین الحق والباطل.

ولو کان الباطلُ قضیةً متعلقةً بالاخلاق لاستطاع الانسان دحرها من دون مساعدة الدین، بل لکان العقل سلاحاً کافیاً من اسلحة دحر الباطل. ولکن الحقیقة تقول بان للباطل کیاناً مستقلًا لا یقف امامه الا الدین. فمع ان العقل یدعو الی التوحید والعدل، الا ان العقل المجرد عن الایمان قد یدعو الی الفساد والدمار والشرک. فالعقل لوحده لا یستطیع دحر الباطل. ولو کان العقل کافیاً لادراک معانی الوجود لانتفی دور الدین فی الحیاة الانسانیة. فقضیة الباطل اذن لیست متعلقة بالفلسفة الاخلاقیة فقط، بل ان ازالة الباطل موکولة الی تعالیم الدین ومقدار ادائها من قبل المؤمنین.

فلاشک ان زوال الباطل یتحقق عندما یمارس المکلّفون تکالیفهم الشرعیة ویتنعمون برحمة القوانین الدینیة، وعندها ینتفی الفساد والظلم والشرک. فتثبیت الحق مرهون بتقویة شوکة الدین. ومن هنا نفهم مغزی مخاطبته صلی الله علیه و آله لعلی علیه السلام: ایه ایه... جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل کان زهوقاً (۲)

. فبتحطیم رمز الوثنیة والشرک فی مکة، بدأ الاذعان لتقبل فکرة انتصار الاسلام وانتشار قیمه السماویة

۱- ۱ سورة المؤمنون: آیة ۷۱.

۲- ۲ سورة الاسراء: آیة ۸۱.

ص: ۳۱۸

فی الخیر والعدالهٔ والمحبهٔ والصلاح علی مبادئ الظلم والفساد والشرک. ومن هنا جاء الحق وزهق الباطل بکل ما تحمله تلک الالفاظ من معانٍ ومفاهیم وافکار.

فقـد جاء الحق عبر رسالـهٔ السـماء محمّلًا بمفاهیم العدالـهٔ والخیر والاخوهٔ والمحبهٔ والتعاون، وعندها انفتح الباب للانسان لاختیار طریق الخیر بدل طریق الشر، وعندها کانت الحکمهٔ الالهیهٔ: لا اکراه فی الدین قد تبین الرشد من الغی... (۱)

لان الانسان بطبیعته یختار الخیر علی الشر، ویختار الحق علی الباطل.

ذلـک ان الباطـل یؤدی دائمـاً الی الالـم والمعانـاهٔ علی صـعید الانسانیـهٔ، ولاـ یؤدی الشـر الاـ الی الحرب، والظلم، والاجحاف بحقوق الآخرین. ولذلک فان الدین یحارب الباطل أینما وُجد؛ لان الدین لا ینمو ولا یستقر بوجود الباطل. فالدین یدعو الی الصفاء، والامانهٔ، والمحبهٔ، والولاء. بینما یدعو الباطل الی الخیانهٔ، والبغض، والدماء، والاضطراب.

وبکلمـهٔ فان الشـر یحطم الروح الانسانیـهٔ، ویعکر الصـفاء الـذهنی والنفسـی الذی یجلبه الدین، ویدمر الفرص العقلائیهٔ لانتخاب الدین کبدیل فی الحیاهٔ تمشیاً مع قوله تعالی: لا اکراه فی الدین قد تبین الرشد من الغی... (۲)

. اما الخیر- وهو احد مصادیق الحق- فانه یجلب علی الانسان سعادهٔ ابدیهٔ، لان الخیر یربط الانسان باللّه سبحانه، ویربط الافراد بعضهم ببعض عن طریق القیم العلیـا فی الحب والتعاون والتآخی. وجوهر الفکرهٔ ان العقل لاینهض الی مسـتوی طرد الباطل. فلابـد من تـدخل الدین فی طرد الباطل من النفس اولًا ثم سحق الباطل علی المستوی الاجتماعی واحقاق الحق عن طریق الادارهٔ الدینیهٔ للمجتمع.

ب- الحق:

ان الحق فی ذاته امرٌ حسنٌ له قیمهٔ اخلاقیهٔ علیا فی حیاهٔ الانسان. فالحق یشـمل الخیر فی کل جوانبه، ولذلک وصف اللّه سـبحانه نفسه بانه الحق المبین کما

۱- ۱ سورهٔ البقرهٔ: آیهٔ ۲۵۶.

۲- ۲ سورهٔ البقرهٔ: آیهٔ ۲۵۶.

ص: ۳۱۹

قال: ویعلمون ان اللَّه هو الحق المبین (۱).

ولکن یمکن تصنیف الحق الی صنفین: الحق علی الصعید الذاتی، والحق علی الصعید الموضوعی.

فعلی الصعید الذاتی: فقد وصف اللَّه عز وجل نفسه بالحق، لان الحق یمثل کل جوانب الخیر، فهو تعالی الحق الذی یحقق کل شیء حق، ویجری فی الاشیاء النظام الحق. فالمولی عز وجل هو الذی یمسک باسباب الخیر والعدالهٔ والقوهٔ والعزهٔ والقدرهٔ. وهو الذی خلق الخلق والحیاهٔ وصمم الکون والاشیاء لتکون خیراً بذاتها. وقد ورد فی القرآن الکریم مایدلل علی ذلک. فهو علّهٔ جمیع العلل من الایجاد والتدبیر والمُلک والإماتهٔ والبعث، کما فی قوله: ثم ردوا الی اللَّهِ مولاهم الحق الا له الحکم (۲)

، فذلکم اللَّه ربکم الحق فماذا بعد الحق الا الضلال فانی تصرفون (۳)

. والامر کله بیده فهو الخالق لکل شیء المدبر لکل امر، ولیس لغیره الا الاوهام من اجل الابتلاء والامتحان، فقال: هنالک الولایهٔ للَّهالحق هو خیر ثواباً وخیر عقباً (۴)

، فتعالی اللَّه الملک الحق... (۵)

، ذلک بان اللَّه هو الحق وانه یحیی الموتی (۶)

، ویعلمون ان اللَّه هو الحق المبین (۷)

. وتلک بدیهیات لا ستار علیها بوجه من الوجوه. فالحق من اسماء اللَّه الحسنی لثبوته تعالی بذاته وصفاته ثبوتاً لا یقبل الزوال ویمتنع عن التغییر.

وعلی الصعید الموضوعی: فان الحق- بقیمه الاخلاقیهٔ- قد تمثل بالاسلام.

فالاسلام لیس فرداً ولا شخصاً ولا مفردهٔ، بل هو موضوعٌ للخیر العام. فهذا الدین یمثل حالهٔ معنویهٔ لنشر العدالهٔ بین الناس، ویعکس صورهٔ لنظامٍ فی ادارهٔ صلهٔ الانسان بربه، وصورهٔ لنظام الادارهٔ الاجتماعیهٔ والحقوقیهٔ. ولذلک عُبّر عن الدین بانه الحق، کما یُستخلص من التأمل فی قوله تعالی: فاما الذین امنوا فیعلمون انه الحق من ربهم (۸)

، انا ارسلناک بالحق بشیراً ونذیراً (۹)

، فهدی اللَّه الذین امنوا لما اختلفوا فیه من الحق باذنه (۱۰)

، ولا تتبع اهواءهم

۱- ۱ سورهٔ النور: آیهٔ ۲۵.

۲- ۲ سورهٔ الانعام: آیهٔ ۶۲.

۳- ۳ سورهٔ یونس: آیهٔ ۳۲.

۴- ۴ سورهٔ الکهف: آیهٔ ۴۴.

۵- ۵ سورهٔ طه: آیهٔ ۱۱۴.

۶- ۶ سورهٔ الحج: آیهٔ ۶.

۷- ۷ سورهٔ النور: آیهٔ ۲۵.

۸- ۸ سورهٔ البقرهٔ: آیهٔ ۲۶.

۹- ۹ سورة البقرة: آیة ۱۱۹.

۱۰- ۱۰ سورة البقرة: آیة ۲۱۳.

ص: ۳۲۰

عما جاءک من الحق (۱)

، هو الذی ارسل رسوله بالهدی ودین الحق (۲)

. وفی الآیات الکریمة دلالة ظاهرة علی ان الدین الذی نزل علی محمد صلی الله علیه و آله هو حق فیما وافق ما بین یدیه من الکتب، وحقٌ فیما خالفه لکون القرآن مهیمناً علی جمیع الکتب السماویة السابقة.

وبذلک یکون الحق الذی بشرّ بمجیئه رسول اللَّه صلی الله علیه و آله عندما کان علی علیه السلام یکسر الاصنام یمثل کل معانی الخیر والعدالة والتوحید والعبودیة للَّهالواحد القهار. وان کان ذلک الحقُ یغطی مساحة قانونیة او معنویة او انسانیة او طبیعیة، فانه انما یدلّ علی شمولیة الدین لکل تلک الحقوق. فالدین یحفظ حق الانسان فی التعبد، وحق الانسان فی العیش بکرامة تحت اجواء الخیر. وبکلمة، فان الحق هو بشری السماء للبشریة المعذّبة التی تبحث عن طریق للهدایة والنجاة من العذاب.

۲- فتح مکة: طراز الفتوحات الکبری

لو اردنا ادراک اهمیة «فتح مکة» باطار الفهم المعاصر الحدیث، لافترضنا اننا یجب ان نفهم آثارها او مقتضیاتها بنفس درجة فهم اسبابها او عللها. فمع ان شجاعة رسول اللَّه صلی الله علیه و آله وامیر المؤمنین علیه السلام الفائقة کانا من اهم عللها، فان آثارها کانت خطیرة للغایة. ذلک أن فتح مکة وضعَ القیادة الدینیة الاجتماعیة للعالم بید المسلمین بعد ان کان المشرکون یعیثون فی الارض فساداً. فدخل الناس، مؤمنین باطناً او ظاهراً، فی دین اللَّه افواجاً. وقد تنبأ کتاب اللَّه المجید بتلک الاحداث بالقول: اذا جاء نصر اللَّه والفتح* ورأیت الناس یدخلون فی دین اللَّه افواجاً* فسبح بحمد ربک واستغفره إنه کان تواباً (۳).

وتلک سورة مدنیة نزلت بعد صلح الحدیبیة وقبل فتح مکة. حیث کانت السورة إخباراً بتحقق أمر لم یتحقق بعد. وهو الوعد الجمیل بالنصر والفتح. وتلک السورة تنطبق علی فتح مکة الذی هو امّ فتوحاته صلی الله علیه و آله فی حیاته، حیث تکلل ذلک النصر بهدم بنیان الشرک فی جزیرة العرب. ولذلک طلب اللَّه عز وجل من

۱- ۱ سورة المائدة: آیة ۴۸.

۲- ۲ سورة التوبة: آیة ۳۳.

۳- ۳ سورة النصر: آیة ۱- ۳.

ص: ۳۲۱

رسوله صلی الله علیه و آله أن یسبحه وینزهه بقوله: فسبح بحمد ربک واستغفره انه کان تواباً الآیة. حیث تم اذلال الشرک وتعزیز التوحید وابطال الباطل وأحقاق الحق.

واصبح الاسلام بعد فتح مکة قوة عالمیة تستطیع مواجهة قوی الفرس او الروم والانتصار علیهما، وتثبیت الامن العالمی فی ذاک الوقت تحت شعار: لا اله الا اللّه، محمد رسول اللّه. وهذا کله یمثّل مصداقاً من مصادیق المقولة القرآنیة: جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل کان زهوقاً.

ولاشک أن فتح مکة لم یکن مجرد عملیة انهیار قوة عالمیة وهی قوة المشرکین، وانتصار قوة اعظم فی المبدأ والعقیدة وهی قوة المسلمین. بل کانت عملیة بدء عصر جدید یستمر فیه الاسلام حیاً نابضاً فعّالًا الی یوم القیامة؛ لان الاسلام بطبیعته دین عالمی ولیس دیناً محلیاً یهتمّ بعرق معین او طائفة معینة.

ویؤیده قول اللّه تبارک وتعالی: وما ارسلناک الا کافّة للناس بشیراً ونذیراً (۱)

.

وقد کان للبطولة الخارقة دور حاسم فی فتح مکة وتحطیم الاصنام فوق الکعبة وحولها، کما بحثنا ذلک سابقا. وبتحطیم الاصنام أزف الوقت لإعلان عدم شرعیة الشرک فی معقل المشرکین بمکة بقوة السلاح والایمان، واعلان انتقال السلطة العالمیة من ید الشرک الی ید الایمان، وانتهاء التحدی الفکری للشرک القرشی ضد الاسلام.

ومن منطلق تلک الاحداث لابد من ادراک مقدار المکاسب التی حققتها بطولة اهل بیت النبوة علیهم السلام فی المعارک الاسلامیة الکبری. فقد دمر ذلک التفانی العجیب من اجل الدین، کل احلام الوثنیة فی البقاء. فلم تکن تلک المعارک صراعاً شخصیاً بین بنی هاشم وبنی امیة. ولم تکن مواجهة شخصیة بین رسول اللّه صلی الله علیه و آله وابو سفیان، او بین حمزة وابو جهل، او بین علی علیه السلام ومعاویة.

بل کان الصراع بین الخیر والشر او الحق والباطل صراعاً تأریخیاً بین معسکرین ذی مبدأین متصارعین الی ابد الدهر. ولم یکن تسامح رسول اللّه صلی الله علیه و آله مع

۱- ۱ سورة سبأ: آیة ۲۸.

ص: ۳۲۲

اهل مکة الطلقاء لیغیر من موقف النخبة الجاهلیة. فحتی مع اظهار اسلامه، لا یزال ابو سفیان فی قلبه شیء من رسالة محمد صلی الله علیه و آله، ولا یزال یؤمن بانه المُلْک الذی حازه محمد صلی الله علیه و آله واصبح عظیماً به، لا النبوة الخاتمة. ولا یزال خالد بن الولید یتصرف علی ضوء عنجهیته الجاهلیة فیقتل من لا یجوز قتله، وعندها یتبرأ رسول اللَّه صلی الله علیه و آله من افعاله.

ان العداء التأریخی الذی کانت تکنّه قریش للاسلام ولرسول اللَّه صلی الله علیه و آله ولعلی علیه السلام لم یکن لیزول باعلان الشهادتین علی اللسان دون القلب. ذلک ان فتح مکة کان اظهار قدرة اللَّه سبحانه علی اعزاز الاسلام وتکریمه وتجلیل خاتم الانبیاء صلی الله علیه و آله. وقد نصر اللَّه الاسلام علی رغم انوف صنادید قریش من الذین تشربت فی قلوبهم عبادة الاوثان والاصنام.

ولذلک کانت النبوة امراً لا تستطیع قریش هضمه او استیعابه. فما هی تلک القوة الهائلة التی تستطیع ان تحرک القلوب نحو اللَّه ضد الشیطان والشرک والرجس؟ وما هو سر ذلک التسامی العظیم لرسالة محمد صلی الله علیه و آله بین الامم؟ وما هو سر شجاعة علی علیه السلام الفائقة وتفانیه فی حمایة الرسالة السماویة؟ وما هو السر فی استبسال تلک النخبة المؤمنة التی کانت تحیط برسول اللَّه صلی الله علیه و آله وتصحبه؟ لاشک ان تلک النخبة کانت اشد تماسکاً فی اتباع قائدها صلی الله علیه و آله من غیرها من نخب الملل والمذاهب، فهذا علی علیه السلام یصعد علی کتف رسول اللَّه صلی الله علیه و آله لیحطم الاصنام، فی وقت کان شعارهما: جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل کان زهوقاً. وکان حمزة (رض) متفانیاً فی الدفاع عن الاسلام ونبیه صلی الله علیه و آله، وکان ابو طالب ومواقفه الاجتماعیة العظیمة تفصح عن عمق ایمانه برسالة محمد صلی الله علیه و آله، وکان تفانی جعفر بن ابی طالب مشهوداً من اجل الاسلام ورسالته السماویة للبشریة.

وبذلک فقد کان الشعور الوجدانی بین النخبة المؤمنة هو ان یزدهر الخیر بین البشر وتتحقق کلمة التوحید وعبادة اللَّه سبحانه. وبذلک کان فتح مکة اعادة لبناء

ص: ۳۲۳

الترکیب السیاسی والاجتماعی للعالم علی ضوء الدین الجدید. فی وقت کان العالم یبحث فیه عن قیادة جدیدة تحقق العدل الاجتماعی والامان والتوحید، فکانت قیادة رسول اللَّه صلی الله علیه و آله تحقق ثبات دولة الایمان العالمیة ونظامها الامنی والحقوقی. والسبب فی ذلک ان العالم یتضمن شعوباً متباینة فی التقالید والعادات واللغات، ولایمکن ان یجمعها الا دین سماوی واحد. فکان الاسلام هو الدین القادر علی جمع ذلک العدد الهائل من البشر تحت سقف خیمة واحدة فی ظل لواء واحد. ولا یستطیع احد تحمل مسؤولیة ادارة ذلک التجمع العالمی اجتماعیاً وسیاسیاً الا رسولٌ یوحی الیه. فکان رسول اللَّه صلی الله علیه و آله هو حامل المسؤولیة العالمیة.

وکان من خلفه المؤهل الاول لتسلم القیادة الدینیة بعده صلی الله علیه و آله امیر المؤمنین علیه السلام.

فقد کان علیه السلام موضع ثقة رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فی فتح مکة. فعندما قال الناس: الیومُ یوم الملحمة، الیوم تُستحل الحرمة. دعاه النبی صلی الله علیه و آله لتدارک الوضع الخطیر الذی کان سیؤدی حتماً الی سفک الدماء. فکان علی علیه السلام منقذ الموقف. وعندما قام خالد بن الولید بقتل منقتل منبنیجذیمة، وداهمرسولاللَّه صلی الله علیه و آله فبعثعلیاً علیه السلام لتسویة الوضع.

وقبلها کان علی علیه السلام ثقة ابو سفیان رأس الشرک الذی حارب الاسلام والنبی صلی الله علیه و آله وعلیاً علیه السلام اشد حرب. فکان علی علیه السلام، اذا صحت الروایة، ألینهم معه. وهکذا کان خلق الانبیاء والاوصیاء علیهم السلام. وهکذا تعامل رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فی مکة مع الطلقاء.

ویمکننا الآن ان نقول باطمئنان بان فتح مکة کان من طراز الفتوحات الکبری للاسباب التالیة:

۱- رجع رسول اللَّه صلی الله علیه و آله منتصراً الی البلدة التی حاربته واضطهدته وتآمرت علی قتله واخرجته بالإکراه. فبعد ثمان سنوات فقط من الهجرة الکبری من مکة الی المدینة، رجع المصطفی صلی الله علیه و آله الی بلدته مکللًا بالانتصار.

۲- دخل خاتم الانبیاء صلی الله علیه و آله الکعبة وبجنبه علی علیه السلام وحطما الاصنام التی کانت تعتبر رمز الشرک فی عالم ذلک الزمان، وفی کل زمان. وارجع صلی الله علیه و آله للکعبة الشریفة

ص: ۳۲۴

حرمتها النبویة التی وضعها النبی ابراهیم علیه السلام ولوثتها جاهلیة الاوثان والاصنام.

۳- کان رداء المصطفی صلی الله علیه و آله التسامح مع ألد اعدائه: مشرکی قریش. فاعطاهم الامان، وقال لهم: اذهبوا فانتم الطلقاء. وکان هؤلاء قد ارتکبوا اعظم الفظائع ضد الموحدین المسلمین.

۴- کان بفتح مکة سقوط الجزیرة العربیة تحت سلطان الاسلام. وتهیؤ رسول اللّه صلی الله علیه و آله لمحاربة القوی الاخری فی العالم.

۳- فتح مکة: استراتیجیة جاء الحق وزهق الباطل

ان الآیة الشریفة: وقل جاء الحق وزهق الباطل. ان الباطل کان زهوقاً (۱)

حبلی بالمعانی العدیدة التی یمکن ان یستظهرها ذهن العالِم باحکام الدین وتشریعاته. ومن تلک المعانی نظریة «حتمیة ازهاق الشرک والظلم وحتمیة انتصار الدین» علی المدی البعید. فتلک النظریة تعرض علینا امکانیة صیاغة استراتیجیة الاسلام بالنسبة للدنیا والتأریخ. فالدین هو الحق، والکفر هو الباطل.

ولابد ان ینتصر الدین وینحدر الباطل ویموت. لان الحق باقٍ الی الابد، والباطل میتٌ الی الابد بظهور الاسلام وانتشاره فی آفاق الارض. وفی الآیة دلالة علی ان الباطل لا دوام له ومصیره الهلاک کما قال تعالی فی مکان آخر عن الباطل حیث مثّله بالشجرة الخبیثة:... مثل کلمة خبیثة کشجرة خبیثة اجتثت من فوق الارض ما لها من قرار (۲).

وفی هذه المناسبة لابد من استخدام بعض المصطلحات الحدیثة التی دخلت قاموس اللغة الاجتماعیة والسیاسیة وهما اصطلاحا: البعید المدی «الاستراتیجیة»، والقصیر المدی «التکتیک». وهما مصطلحان اعجمیان دخلا اللغة العربیة. فالمعروف فی الاوساط العلمیة: ان التکتیک هو حرکة میکانیکیة لاجسام وضعت فی مسار بواسطة الخطة الاستراتیجیة. وبتعبیر اوضح ان الاعمال التی تتطلب زمناً طویلًا فی الانجاز تحتاج الی خطة وتصمیم مسبق، وتحتاج ایضاً

۱- ۱ سورة الاسراء: آیة ۸۱.

۲- ۲ سورة ابراهیم: آیة ۲۶.

ص: ۳۲۵

الی من یقوم بالحرکهٔ الآن هو ما یسمی بالمدی القصیر او التکتیک. فحرکهٔ السیارهٔ او العربهٔ هو تکتیک لخطهٔ یضعها السائق من اجل الوصول الی المدینهٔ المقصودهٔ «الاستراتیجیهٔ».

واذا کانت الحرب تکتیکاً قصیر المدی، فان التخطیط لها واستثمار نتائجها فی النصر هو استراتیجیهٔ بعیدهٔ المدی. وقد کان فتح مکهٔ من هذا القبیل. فقد کان الفتح جزءًا من خطهٔ مستقبلیهٔ بعیدهٔ المدی لنشر الاسلام خارج حدود الجزیرهٔ العربیهٔ لیصل العالم الواسع کله. وبصورهٔ اخری، فان النهوض باعباء الرسالهٔ السماویهٔ من اجل نشرها فی العالم الی یوم القیامهٔ لا یمکن ان یتم ما لم یجتاز المسلمون مرحلهٔ الانتصار النهائی علی الشرک فی الحروب التکتیکیهٔ التی کان یخوضها علی علیه السلام جنباً الی جنب مع رسول اللَّه صلی الله علیه و آله، ثم ینتقلون الی مرحلهٔ الاستراتیجیهٔ البعیدهٔ المدی. فهنا انتقل المسلمون من مرحلهٔ الدائرهٔ المحلیهٔ الی مرحلهٔ الدائرهٔ العالمیهٔ. فالاسلام انذارٌ وبشارهٌ... کافّهٔ للناس (۱)

، بعد ان کان الانذار محصوراً ب... ام القری ومن حولها (۲)

ومن قبلهم ب... عشیرتک الاقربین (۳).

ان رسول اللَّه صلی الله علیه و آله کان یخطط لاهداف استراتیجیهٔ بعیدهٔ المدی فی المعارک التی کان یخوضها، لانه کان قائداً عسکریاً ملهماً من الطراز الاول، ولانه کان صلی الله علیه و آله مکلّفاً بدعوهٔ الناس جمیعاً الی الاسلام. وکان علی علیه السلام الی جنبه دائماً الوسیلهٔ القویهٔ «التکتیک» التی تحقق نبؤات المصطفی صلی الله علیه و آله وطموحاته فی نشر الدین علی بقاع المعمورهٔ. والاستراتیجیهٔ لا یمکن ان تحقق اهدافها ما لم یکن التکتیک فعالًا وحیویاً.

ولاشک ان تکتیک المعرکهٔ فی ذاک الوقت کان ینصّب علی شجاعهٔ المقاتل بالدرجهٔ الاولی وبطولته القصوی فی انتزاع النصر من العدو؛ لان معارک الاسلام الاولی ضد الشرک کانت معارک بریهٔ بسلاح رئیسی واحد هو السیف. فلم تکن

۱- ۱ سورهٔ سبأ: آیهٔ ۲۸.

۲- ۲ سورهٔ الانعام: آیهٔ ۹۲.

۳- ۳ سورهٔ الشعراء: آیهٔ ۲۱۴.

ص: ۳۲۶

هناک معارک جویـة وبحریة وبریة کما هو الحال الیوم مع عشـرات الانواع من الاسـلحة المعقدة. ولذلک فان ای معرکة اسـلامیة تقع بـدون وجود بطل اسـتثنائی مقـدام کعلی علیه السـلام لا یُکتب لها النصـر. فلم یحقق المسـلمون شـیئاً فی معارک غاب عنها علی علیه السلام کمعرکة ذات السلاسل، ومعرکة خیبر قبل استلامه علیه السلام الرایة، ومعرکة مؤتة.

ان فلسـفة الزمان والمکان تدعونا للایمان بان نزول الرسالة السماویة فی ذلک الوقت وفی تلک البقعة من الارض، کان له معانٍ سامیة تبقی مع التأریـخ والبشـریة الی یوم القیامـة. فقـد کان ذلک الزمان وسـطاً بین تأریخ سابق وتأریخ لاحق، وکان ذلک المکان ولا یزال قلب العالم قـدیماً وحدیثاً. وبذلک، فان احداثاً جسـیمة- کاحداث الاسـلام ومعارکه ضد الشـرک- سـتبقی فی ضـمیر البشـریة یمکن فهمها واستیعاب معانیها الجلیلة الی آخر یوم یعیش الانسان فیه علی وجه الارض.

ولاشک ان احداثاً جسـیمة کتلک کانت تقتضی وجود بطل عظیم مطیع یذود عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله المخاطر، ویستوعب اهداف الرسالة، وعلی اسـتعداد تام للتضـحیة من اجل مبدئه. فکان علی علیه السلام یمثل ذلک الرجل المثالی الذی تفهمه البشریة فی کل وقت وتفهم بطولته النادرة وتضحیاته الجسیمة من اجل الاسلام.

وبلحاظ فلسـفة الزمان والمکان لابـد من الایمان بان اسالیب القتال تتغیر وتتبـدل من زمن لزمن ومن مکان لمکان، الا ان الثابت الـذی نفهمه فی کل جیل هو اخلاقیـة الحرب وتعامل المحاربین فیها وطبیعـة دوافعهم الخیرة. واذا فهمنا ذلک وآمنا بان اخلاقیة الاسـلام فی الحروب کانت القمة فی الکمال، استطعنا فهم بطولة علی علیه السلام وتضحیاته فی سبیل مبدئه وعقیدته. واذا کان قول النبی صلی الله علیه و آله للامام علیه السلام:

«ایه ایه. جاء الحق وزهق الباطل. ان الباطل کان زهوقاً» یفُسِّر بان الحق قد انتصر وسوف ینتصر، وان الباطل قد سُحق وسوف ینهزم فی کل مرة یتواجد فیها مؤمنون مخلصون متفانون، فاننا لابد ان نؤمن بان تلک هی اهداف استراتیجیة

ص: ۳۲۷

بعیدهٔ المدی للاسلام ولرسالته السماویهٔ. ومن هنا نفهم ان فتح مکهٔ کان البوابهٔ العظمی للانفتاح علی البشریهٔ فی القلب والعقل والادراک علی طول الزمن.

وهناک دوران مهمّان للإمام علیّ علیه السلام فی مکّهٔ، تعرّض لهما السیّد الأعرجی وللضرورهٔ نذکرهما:

اخلاقیهٔ رد الامانات الی الناس

اقام علی علیه السلام بمکهٔ بعد هجرهٔ النبی صلی الله علیه و آله الی المدینهٔ یردّ الودائع ویقضی الدیون (۱). وکان وضعه علیه السلام مع المشرکین فی مکهٔ خطیراً للغایهٔ، فما الذی دعاه لذلک؟

إنّ الحدیث عن رد الامانات الی الناس یقودنا الی الحدیث عن الاخلاقیهٔ الدینیهٔ عند علی علیه السلام والتی تعلّمها من رسول اللّه صلی الله علیه و آله.

فلاشک ان اهم ثمار الشخصیهٔ الاخلاقیهٔ التی کان یحملها علیه السلام هو أن سلوکه بین الناس کان ترجمهٔ عملیهٔ لمفاهیم الدین. فهو الاسلام المتحرک فی المجتمع، ومن هنا کان سلوکه الاخلاقی متطابقاً مع النظریهٔ الاخلاقیهٔ للسماء. ومن الطبیعی فان السلوک الاخلاقی فی رد الامانات والودائع وقضاء الدیون یساهم فی نشر الانسجام الدینی والاخلاقی بین الناس. ومع ان مجتمع مکهٔ کان مشرکاً، الا ان العدید من افراده کانت عندهم القابلیهٔ علی اعتناق الاسلام اذا لمسوا من الدین تغییراً فی حیاتهم الاجتماعیهٔ والاخلاقیهٔ. فکان رد الامانات التی کانت بعهدهٔ رسول اللّه صلی الله علیه و آله الی الناس مهمهٔ- من الناحیهٔ الاخلاقیهٔ- الی درجهٔ ان تلک الاهمیهٔ کانت متناسبهٔ مع حجم الخطورهٔ التی کان یواجهها علی علیه السلام وهو فی مکهٔ دون مناصر. ورد الامانات تعدُّ من القیم الاخلاقیهٔ التی یحنُّ لها المجتمع الانسانی ایّاً کان منشؤه وایّاً کانت اهدافه وطموحات اعضائه ومنتسبیه. ولاشک ان فضیلهٔ الوفاء برد الامانهٔ کان قد

۱- ۱ الطرائف، ابن طاووس ۱: ۳۴.

ص: ۳۲۸

امضاها الدین الحنیف، بینما اوکل رسول اللَّه صلی الله علیه و آله علیاً علیه السلام بتنفیذ تلک المهمهٔ الصعبهٔ.

ومن هنا نفهم امضاء الدین الاتفاق الاجتماعی حول الوفاء برد الامانهٔ، لانها عمل خیّر یؤدی- عاجلًا او آجلًا- الی استتباب الامن الاجتماعی والاقتصادی بین الناس، واظهار الروحیهٔ المثلی للمسلم الملتزم بتعالیم الاسلام. وبذلک فقد عمل الاسلام فی انارهٔ الامور التالیهٔ:

اولًا: ان الوفاء برد الامانات کان عملًا اخلاقیاً امضی فیه الاسلام عمل رسول اللَّه صلی الله علیه و آله قبل البعثهٔ وبعدها. حیث اؤتمن صلی الله علیه و آله باموال الناس وحاجاتهم، ولذلک شاع عنه صلی الله علیه و آله بانه الصادق الامین.

ثانیاً: لم تؤخذ فی قضیهٔ الوفاء برد الامانهٔ حجم الخسارهٔ والربح من حیث احتمالیهٔ مقتل علی علیه السلام من قبل مشرکی قریش او انزال مطلق الاذی به علیه السلام. وبذلک یعدُّ الوفاء برد الامانهٔ من الاعمال الاخلاقیهٔ التی تنظر الی قیمهٔ العمل، لا الی حجم الربح والخسارهٔ.

ثالثاً: ان الوفاء برد الامانات طُبّق علی المجتمع الوثنی الکافر. حیث ان اغلب الذین ائتمنوا محمداً صلی الله علیه و آله بعد البعثهٔ ولم یهاجروا الی المدینهٔ وبقوا فی مکهٔ کانوا من الذین لم یسلموا بعد. ولذلک بقی علی علیه السلام فی مکهٔ لردها. ولو اسلموا لهاجروا. نعم بقی عدد قلیل من المسلمین فی مکهٔ فی الخفاء. ولکن لسان دلیل الروایات المتعلق بهذه المسألهٔ لایخص تلک القلّهٔ، بل إن ظهور اللفظ یدل علی اطلاقها علی المسلمین وغیرهم. وفیه قوله تعالی: إن اللَّه یأمرکم أن تؤدّوا الامانات الی اهلها (۱).

وردّ الامانهٔ الی الکافر فضلًا عن المسلم تعدُّ قیمهٔ اخلاقیهٔ مُثلی تبناها الاسلام، وحثَّ اتباعه والمؤمنین به علی تطبیقها فی حیاتهم.

رابعاً: متانهٔ الرابط بین الاخلاق والدین. فالاسلام هو الذی أمر برد الامانات الی اهلها، حتی لو کان اصحابها من المشرکین. فیکون الوفاء برد الامانات من القیم الدینیهٔ الاجتماعیهٔ. ذلک أن الدین واحکامه الشرعیهٔ تدعوان

۱- ۱ سورهٔ النساء: آیهٔ ۴.

ص: ۳۲۹

الی القیم الاخلاقیة الفاضلة، وضرورة تطبیقها علی النظام الاجتماعی.

خامساً: کان الوفاء برد الامانات من قبل الدین احتراماً للفرد المؤتمِن، ولا یمثّل احتراماً لسلطة المشرکین من قریش. وبذلک فقد کان الحکم هنا تحکیماً للحق علی الباطل علی مستوی شریحة خاصة من الافراد من الذین وضعوا ثقتهم برسول اللَّه صلی الله علیه و آله.

وبکلمة أخیرة، فان الوفاء برد الامانات الی اهلها کشف عن قدرة الدین الفعالة علی التمییز بین الابعاد الموضوعیة والذاتیة للقیم الاخلاقیة. فقد کانت تضحیة الامام علیه السلام فی البقاء ثلاثة ایام متواصلة فی مکة تضحیة ذاتیة، رغم المخاطر المحیطة به، من اجل ان یبقی موضوع الوفاء برد الامانات حکماً ثابتاً یلتزم به المؤمنون الی یوم القیامة.

علی علیه السلام وسورة براءة: «لا یؤدی عنی الا رجل من اهل بیتی»

رجع رسول اللَّه صلی الله علیه و آله من غزوة تبوک فی شهر رمضان من السنة التاسعة للهجرة. وفی ذی الحجة من نفس السنة تحرک المسلمون بأمر رسول اللَّه صلی الله علیه و آله لاداء فریضة الحج وکان علی امرتهم ابی بکر. فلما «نزلت سورة التوبة (براءة) قیل له: یا رسول اللَّه، لو بعثت بها الی ابی بکر. فقال صلی الله علیه و آله: لا- یؤدی عنی الا- رجل من اهل بیتی. ثم دعا علی بن ابی طالب (رضوان اللَّه علیه)، فقال له: اخرج بهذه القصة من صدر براءة، وأذّن فی الناس یوم النحر اذا اجتمعوا بمنی، انه لا یدخل الجنة کافر، ولا یحج بعد العام مشرک، ولا یطوف بالبیت عُریان، ومن کان له عند رسول‌اللَّه صلی الله علیه و آله عهد فهو الی مدته... فعندما کان یوم النحر قام علی بن ابی طالب (رضی اللَّه عنه)، فأذّن فی الناس بالذی أمره به رسول اللَّه صلی الله علیه و آله. فقال: ایها الناس، انه لا یدخل الجنة کافر، ولا یحج بعد العام مشرک، ولا یطوف بالبیت عُریان، ومن کان له عند رسول‌اللَّه صلی الله علیه و آله عهدٌ فهو الی مدته. وأجّلَ الناس اربعة اشهر من یوم أذّن فیهم، لیرجع کل قوم الی مأمنهم او بلادهم، ثم لا عهد لمشرک ولا ذمة الا أحدٌ کان له

ص: ۳۳۰

عند رسول اللَّه صلى الله عليه و آله عهد الى مدة، فهو له الى مدته. فلم يحج بعد ذلك العام مشرك، ولم يطف بالبيت عُريان» (۱).

وسورة براءة امرت بنقض ما بين رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وبين المشركين من العهد العام الذى كانوا عليه فيما بينه وبينهم، والعهود الخاصة بينه صلى الله عليه و آله وبين بعض قبائل العرب، وتحدثت عمن تخلّف من المنافقين عنه فى تبوك، فكشفت سرائر الناس خصوصاً المنافقين. فكان علىّ عليه السلام البديل الوحيد لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله فى تبليغ تلك السورة المبعثِرة المقشقشِة الحافرة، بكل قوة، فى مكة. فهو لا يخاف مشركاً ولا كافراً ولا شجاعاً ولا فارساً ولا راجلًا، بل انه ارعب فى ساحات الوغى ابطال المشركين وقتلهم شر قتلة. وكان اطهر الناس بعد النبى صلى الله عليه و آله واكثرهم خشوعاً وتعلقا باللَّه سبحانه واكثرهم زهداً وتعففاً عن الدنيا.

ولذلك كان على عليه السلام ابلغ المؤمنين فى توصيل سورة (براءة) الى عالَم ذلك الزمان، من اجل ايقاع اقصى التأثير بهم، ليؤمنوا وتخشع قلوبهم لذكر اللَّه سبحانه.

الهوامش:

الامام على عليه السلام باقلام المعاصرين

۱- ۱ سيرة ابن هشام ۴: ۱۹۰- ۱۹۱.

ص: ۳۳۴

الإمام على عليه السلام بأقلام المعاصرين

ماجد محمّد على

مقدّمة

لم تختلف أمّة فى دنيا الناس على عظيم من عظمائها كما اختلفت الأمّة الإسلامية حول شخصية الإمام على عليه السلام ولعلّ سرّ هذا الاختلاف هو حكمة وجود الاختلاف نفسه بين بنى البشر، وذلك لتجلية فلسفة التدافع والابتلاء، وإتمام رحلة التكامل والارتقاء التى يقضى الإنسان عمره كلّه كادحاً لقطعها نحو خالقه سبحانه يا أيّها الإنسان إنّك كادحٌ إلى ربّك كدحاً فملاقيه.

وكلّما اشتدّ الاختلاف، تعمّق الوعى وألقيت الحجّة وتكشّفت الحقيقة، رغم ما فى ذلك من ألم ومرارة ومعاناة لابدّ من دفع ضريبتها لمن يريد الوصول إلى الحقيقة، فيتكامل من يتكامل ويتسافل من يتسافل، وفى رحلة كدح ومكابدة سيكون شعارها يوم الحساب اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً.

لم نكن فى هذا العرض الموجز راغبين فى تقديم قراءة واحدة لشخصية الإمام على عليه السلام بأقلام الكتّاب الشيعة القدماء والمعاصرين، وإنّما صار الخيار أن نقدّم هذه القراءة بأقلام أخرى حُسِب بعضها على التشيّع وبعضها لم يُحسب... فكان منها مثلًا (سلطة الحقّ)

ص: ۳۳۵

للمفکّر الشیوعی المعروف عزیز السیّد جاسم، وأخری للکاتب المصری الأستاذ صالح الوردانی، ومثلها للکاتب المغربی إدریس الحسینی وعلی شاکلتها قراءة الشیخ معتصم سید أحمد من السودان، وقراءة للکاتب المصری عبد الکریم الخطیب فی کتابه «علی بن أبی‌طالب- بقیّة النبوّة وخاتم الخلافة» لنعیش ساعة أو ساعتین مع ما کتبه هؤلاء من مشارب مختلفة وأقطار مختلفة فی العالم الإسلامی، وحول شخصیة عظیمة ألّهها أُناس وعبدوها، فیما شتمها آخرون بعد رحیلها، ثمانین عاماً کاملة، لُتمنح الدهر کلّه بعد ذلک خلوداً وعزّاً ومجداً.

فإلی بعض القطرات التی ابتلّت بها أصابع هؤلاء الکتّاب من بحر هذه الشخصیة الفریدة، وإلی بعض السطور ممّا اقتطفناه نحن من إنصافهم وموضوعیّتهم وشرف کلماتهم وبحثهم عن الحقیقة والحقّ.

السیف والسیاسة: صالح الوردانی: هذا هو عنوان کتاب معروف للکاتب والصحفی المصری الاستاذ صالح الوردانی، وقد وسمه بعنوان آخر مرادف هو «صراع بین الإسلام النبوی والإسلام الأموی» مؤکّداً أنّ السیاسة بدأت تلعب لعبتها بعد وفاة الرسول مباشرة حیث انشطر الإسلام شطرین وتوزّع علی خطّین (خط الإسلام القبلی) و (خط الإسلام النبوی)- حسب تعبیره- وراح الأخیر مشتبکاً فی ساحة المواجهة یُصارع السیف تارةً، والسیاسة تارةً أُخری ویصارعهما معاً تارةً ثالثة.

یؤکّد الکاتب فی معرض کتابه أنّ رائد الإسلام النبوی فی هذه المعرکة هو الإمام علی علیه السلام ویصفه بالقول:

«هذه الشخصیة الربّانیة تربّت علی ید الرسول صلی الله علیه و سلم وارتوت من معینه، وهذا أمر له دلالته وانعکاساته علی شخصیة الإمام، فتربیة الرسول له ثمّ مصاهرته إنّما یعنی الاصطفاء، فکما أنّ الرسول تمّ اصطفاؤه فإنّ علیّاً أیضاً تمّ اصطفاؤه» (۱).

ویروح الاستاذ الوردانی یستدلّ علی الاصطفاء هذا من أقوال النبی صلی الله علیه و سلم نفسه التی منها:

۱- ۱ السیف والسیاسة- صالح الوردانی، الطبعة الأولی ۱۴۱۷ ه: ۱۰۶.

ص: ۳۳۶

«أنت منّی بمنزلة هارون من موسی» (۱).

«علیّ منّی وأنا منه» (۲).

«من کنتُ مولاه فعلیّ مولاه» (۳).

«لا یحبّه إلّامؤمن ولا یبغضه إلّا منافق» (۴).. ویضیف الکاتب قائلًا:

«ویکفی فی حقّ علیّ شموله بقوله تعالی:

إنّما یرید اللَّه لیُذهب عنکم الرجس أهل البیت ویطهِّرکم تطهیراً معلّقاً: وهذا النصّ دلیل ساطع وبرهان قاطع علی ربانیّته» (۵).

کما یؤیّد بأنّ علی بن أبی طالب هو الأفقه من بین جمیع صحابة النبی، فیقول:

«وقد تفوّق الإمام علی بفقهه علی جمیع الصحابة ولم یضاهِه فی ذلک أحد حتّی إنّ عمر بن الخطّاب الذی یشهدون له بالفقه والعلم شهد لصالح علیّ وأقرّ بتفوّقه علیه» (۶)، ویضیف:

«وهناک شهادات للإمام علی علی لسان کثیر من الصحابة وعلی رأسهم عمر نفسه الذی کان یستعین بعلیّ فی کلّ معضلةٍ وکان یتعوّذ باللَّه من معضلةٍ لیس فیها (أو لها) أبو الحسن» (۷).

وفی دلیل آخر، أو أدلّةٍ أخری علی اصطفاء علی علیه السلام واختیاره من قبل النبی فی إعدادٍ خاصّ وتربیةٍ خاصّة، یشیر الوردانی فی کتابه هذا إلی هذه الحقیقة قائلًا:

«یروی ابن عبّاس: دفع رسول اللَّه صلی الله علیه و سلم الرایة إلی علیّ وهو ابن عشرین سنة» (۸).

«وقال الرسول صلی الله علیه و سلم یوم خیبر:

لأعطینّ الرایة غداً رجلًا یفتح اللَّه علی یدیه یحبّ اللَّه ورسوله، ویحبّه اللَّه ورسوله؛ فلما کان الغد دعا علیّاً فدفعها إلیه» (۹).

«وکان الصحابة- والکلام کلّه هنا للاستاذ صالح الوردانی- یردّدون:

لاسیف إلّاذو الفقار ولا فتی إلّاعلی.

وقد قتل أشهر فرسان العرب یوم الخندق وأصاب المشرکین بنکسة معنویة کبیرة» (۱۰).

ویستدلّ الکاتب علی الدور الذی أُنیط بعلیّ وعلی المهمّة التی أختُزن لها فی مسلسل الرسالة السماویة بقوله:

«وشهادة الرسول صلی الله علیه و سلم لعلیّ فی حجّة

۱- ۱ انظر البخاری ومسلم- کتاب فضائل الصحابة، باب فضائل علی... وانظر الترمذی.

۲- ۲ انظر صحیح البخاری.

۳- ۳ انظر مسند أحمد ج ۱.

۴- ۴ انظر مسلم کتاب الإیمان.

۵- ۵ السیف والسیاسة: ۱۰۷ عن مسلم: کتاب فضائل الصحابة- مناقب علی وآل البیت.

۶- ۶ نفس المصدر السابق: ۱۰۷ عن: طبقات ابن سعد ج ۲، ومسند أبو داود الطیالسی.

۷- ۷ نفس المصدر السابق: ۱۰۸، عن: طبقات ابن سعد، ومستدرک الحاکم، والإصابة فی تمییز الصحابة لابن حجر، وسیر أعلام النبلاء للذهبی.

۸- ۸ نفس المصدر: ۱۱۰ عن الطبرانی.

۹- ۹ نفس المصدر: ۱۱۰ عن البخاری مسلم، باب فضائل علی، ومسند أحمد ج ۲.

۱۰- ۱۰ نفس المصدر: ۱۱۰.

ص: ۳۳۷

الوداع أمام أكبر حشد من الصحابة والمسلمين فى تاريخ الدعوة إنّما تؤكّد هذه الخاصّية وهذا الدور الذى وكّل إليه، وهى تؤكِّد من جانب آخر شرعية هذا الدور وارتباط خطوات الإمام ومواقفه المستقبلية بحدود الشرع وبالإسلام النبوى» (۱) مضيفاً:

«يروى أنّ عليّاً نشد الناس قائلًا:

من سمع رسول اللَّه صلى الله عليه و سلم يقول يوم غدير خمّ إلّاقام. فقام اثنا عشر بدرياً فشهدوا أنّهم سمعوا رسول اللَّه صلى الله عليه و سلم يقول لعلىّ يوم غدير خم: أليس اللَّه أولى بالمؤمنين؟ قالوا: بلى، قال: اللهمّ من كنتُ مولاه فعلىّ مولاه. اللّهم والِ من والاه وعادِ من عاداه» (۲).

ويبدو من دراسة السيّد الوردانى لهذا الاصطفاء وتحليله له أنّه أراد التمييز بين الإسلامين المذكورين لئلّا يُذرّ الرماد فى عيون المسلمين ولكى لا ـ تلتبس عليهم خطوط الإسلام النبوى عن الآخر الأموى، فيقول مندّداً بمن يحاول تسطيح الفكرة أو عدم التمييز بينهما:

«إنّ محاولة رفع بنى أميّة، أو التقليل من شأن الإمام على، أو مساواته بمعاوية كما هى عقيدة (البعض) ليس فقط تؤدّى إلى التمويه على حقيقة الصراع الذى دار بين الإمام وخصومه كما هو الهدف الظاهر منها، وإنّما سوف تؤدّى إلى التمويه على حقيقة الإسلام النبوى الذى يمثّله الإمام نيابةً عن الرسول صلى الله عليه و سلم وبالتالى سوف تكون النتيجة ارتفاع الإسلام القبلى، إسلام بنى أمية وعلوّ مكانته على حساب الإسلام النبوى» (۳).

وهذا ما هو حاصل فعلًا- كما يرى الكاتب- وما تبرّم منه ويتبرّم متألّماً متوجّعاً حيث يقول:

«وتلك هى النتيجة التى استقرّت عليها الأمّة بعد وقعة صفّين وبعد اختفاء الإسلام النبوى وسيادة الإسلام القبلى على يد بنى أمية، ذلك الإسلام الذى تُعبّر عنه عقيدة أهل السنّة، والذى تحوّل إلى دين الأغلبية بدعم الحكومات المتعاقبة من عصر بنى أمية وحتّى اليوم» (۴) وهو الإسلام المزيّف الذى روّج لمفاهيم عجيبة غريبة وصفها أنّها «لا تخرج عن كونها أطروحات

۱- ۱ نفس المصدر: ۱۱۱.

۲- ۲ نفس المصدر السابق: ۱۱۱ عن مسند أحمد ج ۱.

۳- ۳ نفس المصدر السابق: ۱۱۲.

۴- ۴ نفس المصدر السابق: ۱۱۲.

ص: ۳۳۸

فرضتها السیاسة وبارکها الفقهاء» (۱)مشیراً إلی بعض هذه المفاهیم بقوله:

«لماذا یحاول الفقهاء إجبار الأمّة علی الاعتقاد بضرورة الصلاة وراء کلّ برٍّ وفاجر؟ ولماذا تحیّز فقهاء السلف لرأی یناقض القرآن والعقل؟» (۲).

وعلی طریقته فی التندید والتحلیل والإثارة وإلفات نظر جمهور المسلمین إلی المسألة الجوهریة فی سرّ تمزّق وحدة المسلمین، وسرّ عدم موفقیتهم فی الوصول إلی الهدف المنشود، یقول الوردانی ویتساءل:

«کنتُ علی الدوام أطرح علی نفسی السؤال التالی: هل ما بین أیدینا تراث أم دین؟» (۳) ویضیف:

«لیس هناک ما یُسمّی بشیعة أو سنّة أو شافعیة أو مالکیة أو أحناف أو حنابلة.. فکلّ هذه تسمیات تأریخیة من اختراع السیاسة.. والحقّ أنّ هناک إسلام حقّ وإسلام باطل وإسلام ربّانی وإسلام حکومی.. ولکن الذی ساد علی مرّ التاریخ هو الإسلام الحکومی، والذی اختفی هو الإسلام الربانی..» (۴).

وللخروج من هذا المأزق ولتأکید حقّانیة الإمام علی علیه السلام فی اصطفائه وریادته أو ضرورة ریادته (أی ریادة منهجه) للإسلام النبوی یوصی الوردانی بأنّ الباحث عن الحقّ یجب أن یتّبع النصّ ولیس أقوال الرجال؛ لأنّ الثانی یجعل بین الباحث والنص وسائط، وهؤلاء یجعلون (الباحث رهین الرجال لا رهین النص) حسب تعبیره- وحتّی فی مسألة هؤلاء الوسائط یشیر الکاتب إلی أنّ النصّ الشیعی، أو التراث الشیعی یعتمد علی آل البیت، فیما یعتمد الآخر علی الصحابة، وفیما یرفض التراث الشیعی التعایش مع الحکام یؤکّد تراث الآخر علی التعایش معهم، وقاعدة الشیعة ترتکز علی متن الروایة فیما یعتمد الآخر علی سندها وهکذا (۵).

ومن هنا جاء نص روایة مالک أو تمّ الاحتفاظ بها، والقائلة «إنّی ترکتُ فیکم الثقلین کتاب اللّه وسنّتی» وحُجبت، أو اختفی نص روایة مسلم التی تقول «کتاب اللّه وعترتی» (۶).

أمّا فکرة (عدالة الصحابة) التی

۱- ۱ الخدعة، صالح الوردانی، طبعة ۱۹۹۵: ۳۰.

۲- ۲ نفس المصدر السابق: ۲۹ حتّی وصل الأمر حسب قول الوردانی أیضاً إلی «أن تسمع وتطیع للأمیر وإنْ ضرب ظهرک وأخذ مالک» عن کتاب «الامارة وطاعة الأمیر» صحیح مسلم.

۳- ۳ الخدعة، المصدر السابق: ۳۹.

۴- ۴ نفس المصدر السابق: ۴۵.

۵- ۵ نفس المصدر السابق: ۴۵- ۵۰.

۶- ۶ نفس المصدر السابق: ۶۶.

ص: ۳۳۹

فنّدها الاستاذ أحمد حسین یعقوب فی کتابه الشهیر (نظریة عدالة الصحابة) وضعّف عدالة الکثیر منهم بالأرقام والوثائق التاریخیة المعتبرة، والتی غمطت حقّ علیّ علیه السلام باعتباره واحداً من (الصحابة) فقط دون أی امتیاز، فإنّ الوردانی فنّد هو الآخر هذه الفکرة مفنداً معها فکرة الإجماع التی أفرزتها السیاسة قائلًا:

«إنّ الهدف من فکرة الإجماع هو نفس الهدف من فکرة العدالة، کلاهما یدفع الأمّة إلی الاستسلام للخط السائد وإضفاء المشروعیة علیه. وکما أنّ فکرة العدالة من اختراع السیاسة، فإنّ فکرة الإجماع أیضاً من اختراع السیاسة» (۱).

إنّ مواجهة الهدف هو الذی قاد المؤسسة الدینیة الشیعیة لأن تقف فی حالة صِدام مع الواقع الظالم أو الحکّام الظلمة رافضةً مبدأ الطاعة المذکور، فیما جاءت المؤسسة الدینیة للآخر عکس هذا الاتجاه، فهی کما یقول الوردانی:

«مؤسسة مرتبطة بالحکّام وواقعة فی دائرة نفوذهم ویتقاضی الفقهاء منهم أجورهم من الحکّام، ومن ثمّ فإنّ ولاءهم یتّجه علی الدوام نحو الحاکم ولیس نحو الجماهیر، وفتاواهم تصدُر لحساب الحاکم لا لحساب الجماهیر ..» (۲).

ومن هنا تأتی ضرورة الاصطفاف مع الجماهیر قبال الحکام، والعمل علی إقناع الحکّام بتحقیق مطالب الأمّة، ولیس إلزام الأمّة بتحقیق مصالح الحکّام، وانطلاقاً من وصیة الإمام علی علیه السلام لوالیه علی مصر مالک الأشتر والتی جاء فیها:

«ولیکن أحبّ الأمور إلیک أوسطها فی الحقّ وأعمّها فی العدل، وأجمعها لرضا الرعیة، فإنّ سخط العامّة یجحف برضا الخاصّة، وإن سخط الخاصّة یغتفر مع رضا العامّة» (۳).

إدریس الحسینی- نموذج آخر

فی کتابه (الخلافة المغتصبة) فقد عبّر عن تقدیره وإجلاله لشخصیة الإمام علی علیه السلام- موضوع بحثنا- ودور هذا الإمام العظیم فی ترسیخ کیان الإسلام ولو علی حساب حقّه الشخصی وسکوته عن أولئک الذین اغتصبوا

۱- ۱ نفس المصدر السابق: ۱۰۲.

۲- ۲ نفس المصدر السابق: ۱۵۳.

۳- ۳ نهج البلاغة ج ۳.

ص: ۳۴۰

الخلافة- حسب تعبیره- فیقول:

«أدرک الإمام علی علیه السلام بعد کلّ ما وقع أنّه قد وقع فی مأزق وداخل شراک خطیر، فالعرب تظاهرت علیه واستضعفته وتیّار الاغتصاب لم یرکب الخلافة فحسب، وإنّما طوّق بیت الإمام علیه السلام وحاصره بعد أن مدّ جسور التعاون مع المنافقین...».

وهذا یعنی أنّ علی الإمام أحد طریقین لفکّ هذا الحصار وتدمیر هذا التعاون غیر المقدّس: فهو إمّا أن یثور ویجهز علی هذا التیّار المتحالف ضدّه مع ما فی ذلک من مجازفة قد تأتی علی الإسلام کلّه ورجاله المخلصین، وإمّا أن یصبر حتّی یعید الأمور إلی نصابها.

یقول إدریس الحسینی فی هذا السیاق:

«.. أمّا الخیار الأوّل فهو یسیر علی علی علیه السلام وهو مَنْ أرعبَ بسیفه العرب واهتزّ لشجاعته الأبطال، وتیّار الاغتصاب کان مدرکاً لکلّ ذلک، غیر أنّهم أدرکوا أنّ أبا الحسن لا یُقاتل فی أمر لا مصلحة للشرع فیه، أدرکوا ذلک علی مدی سنوات من الجهاد الذی کان یتزعمه. ولذلک تجاسروا علیه وأبدوا بطولاتهم المزیّفة...» أمّا الخیار الثانی، والقول للکاتب طبعاً، «والإمام علی وهو ینتظر، لم یقف مکتوف الیدین، لم یکن انتظاره سلبیاً کما یبدو للکثیر..

کان نشیطاً یعمل حسب ما تسمح به الظروف متحرّکاً خلف الحصار المفروض علیه (۱).. (کان مقدّراً سلام اللَّه علیه) أنّ الذین التفّوا حوله لم یکونوا علی نفس الدرجة من الإخلاص (وربّما الوعی)..

ویذکر الیعقوبی أنّه اجتمع جماعة إلی علی بن أبی طالب یدعونه إلی البیعة فقال لهم:

«اغدوا علیّ محلّقین الرؤوس فلم یغدُ إلّاثلاثة نفر» (۲).

وهنا یقول الإمام علی علیه السلام: «لو وجدتُ أربعین ذوی عزم لناهضتهم» ثمّ قال قولته المشهورة: «فرأیتُ الصبر علی هاتا أحجی، فصبرتُ وفی العین قذی وفی الحلق شجی» (۳).

وحین اشتدّ الحصار، وکثر الابتعاد عن الدین وتحوّل الخلاف إلی صراع حقیقی بین ما کان یفعله عثمان وما یریده

۱- ۱ تاریخ الیعقوبی ۲: ۱۲۶، وهم- کما هو معروف- أبو ذر والمقداد وسلمان.

۲- ۲ المصدر السابق نفسه.

۳- ۳ شرح نهج البلاغة ۱: ۱۵۱.

ص: ۳۴۱

الإمام، راح الإمام يعلن اعتراضه على عثمان بشكل واضح وصريح. يقول السيّد إدريس الحسينى فى هذا الإطار:

«لقد كان ثمّة صراع حقيقى بين علىّ وعثمان، وبلغ بالإمام أنّه بدأ يُبدى اعتراضه الصريح على عثمان ولا يأبه بأىّ تهديد منه، كيف يسكت على وهو لم يسكت قبلها، إذْ سكت إلّامراعاةً لحرمة الإسلام وحواريى الرسول صلى الله عليه و آله.

أما وقد بدأ عثمان يختلف فى الدين ويستهزئ بشريعته، وينزّل من مقام حوارى الرسول ويرفع من شأن الطلقاء» (۱)، «فلم يكن السكوت أحجا وليكن ما يكون» (۲).

ولعلّ أكثر مواقف الصراع بين الرجلين هو ما يذكره التاريخ عن نفى عثمان لأبى ذر ووقوف الإمام مع الثانى فى تشييعه له وتوديعه، وما ينقله الكاتب إدريس الحسينى عن كتب التاريخ المعتبرة، إذ يقول:

«إنّه عندما أزمع عثمان على تسيير أبى ذر الغفارى رضى الله عنه إلى الربذة ومنع الناس أن يسيروا معه، فلمّا طلع عن المدينة ومروان يسير عنها طلع عليه على بن أبى طالب ومعه ابناه وعقيل أخوه وعبداللَّه بن جعفر وعمّار بن ياسر، فاعترض مروان فقال: يا على انّ أمير المؤمنين (عثمان) قد نهى الناس عن أن يصحبوا أباذر فى مسيره ويشيّعوه.

فإذا كنت لم تدر بذلك فقد أعلمتُك، فحمل عليه على بن أبى طالب بالسوط وضرب بين أُذنى راحلته، وقال: تنحّ نحّاك اللَّه إلى النار. ومضى مع أبى ذر فشيّعه ثمّ ودّعه وانصرف. فلمّا أراد الانصراف بكى أبو ذر، وقال: رحمكم اللَّه أهل البيت إذا رأيتك يا أبا الحسن وولدك ذكرتُ بكم رسولاللَّه صلى الله عليه و آله.

فشكا مروان إلى عثمان ما فعل على بن أبى طالب، فقال عثمان: يا معشر المسلمين من يعذرنى من على؟ ردّ رسولى عمّا وجّهته له، وفعل كذا، واللَّه لنعطينه حقّه. فلمّا رجع علىّ استقبله الناس، فقالوا له: إنّ أمير المؤمنين عليك غضبان لتشييعك أبا ذر، فقال: غضب الخيل على اللجم» (۳).

وفى محاولة جادّة من قبل الاستاذ إدريس الحسينى لإعادة كتابة التاريخ، والانعتاق من الموروث المؤدلج

۱- ۱ الخلافة المغتصبة: ۱۰۳.

۲- ۲ مروج الذهب ۲: ۳۵۲.

۳- ۳ الخلافة المغتصبة، مصدر سابق: ۱۰۴، عن مروج الذهب ۲: ۳۵۱.

ص: ۳۴۲

والمصبوغ بأصباغ الحكومات ومعجون السياسة، أى محاولة إعادة الحقّ إلى نصابه بعد تغييب متعمّد أو غير متعمّد دام قروناً عديدة، وخاصّة فيما يتعلّق بمنهج الإمام على عليه السلام مقارنة بمناهج غيره، يقول الكاتب:

«لقد كان وما يزال أغلب المؤرِّخين والناقدين للتراث، يسبحون فى بحر التكرار، ويبنون إبداعاتهم النقدية على عناصر وهمية، ومعطيات جاءت بها رغبة الخلفاء وطمع المؤرّخين. وإذا ما انتبهنا إلى الماضى ومجريات أحداثه سوف يتبيّن لنا الأمر على درجة كاملة من الوضوح، فالسياق التاريخى الذى ظهر فيه التدوين والتأريخ هو نهاية العصر الأموى والعصر العبّاسى، وهو سياق شهد نموّاً خطيراً ومنظّماً لتيارات مختلفة الاتجاه، وشهد- أيضاً- صراعاً سياسياً حادّاً تفتّق عن صراعات ايديولوجية. ولمّا كانت السلطة طرفاً فى هذا الصراع، كان من الطبيعى أن تستثمر إمكانياتها وموقعها كسلطة صاحبة القرار فى سبيل تدمير الأطراف الاخرى، وتشكيل ايديولوجية الدولة.

وكان الدين دائماً هو الضحية الأساس.

لأنّ تشكيل الايديولوجية هذه لا يستقيم إلّابإجراء سلسلة من التحريفات ليكتمل التناغم والانسجام بين الاثنين..» (۱).

خلاصة الذى أراد ويريد الكاتب إدريس الحسينى قوله فى كتبه الثلاثة؛ (الانتقال الصعب)، (الخلافة المغتصبة) وآخرها (لقد شيّعنى الحسين) أنّ الإمام عليّاً عليه السلام استشهد مهضوم الحقّ مظلوماً، لم يعرف التاريخ حقّه والمؤرّخون بعد، ولئن كانت حُلّت أزمة التاريخ بعد توفّر الدراسات العلمية الدقيقة فإنّ أزمة المؤرِّخين لم تحلّ بعد، وهذا ما يقتضى استنهاض هؤلاء لإنصاف دينهم ورسالتهم ودعوتهم لدراسة التاريخ بعيداً عن الايديولوجية الجاهزة، ومحاولة التعرّف على الرجال من خلال الحقّ وليس العكس.

على بن أبى طالب- سلطة الحقّ:

عزيز السيّد جاسم

جاء هذا العنوان أو هذا الكتاب بقلم عزيز السيّد جاسم عضو اللجنة

۱- ۱ نفس المصدر السابق: ۲۳۶.

ص: ۳۴۳

المرکزیة للحزب الشیوعی العراقی فی الستینیات ومسؤول صحیفة (الثورة) العراقیة فی الخمسینیات، فراح یلقی أضواء جدیدة علی إمام المتّقین ومدینة العلم وبابها- حسب تعبیره- ویوضّح لماذا وکیف اصطفاه الرسول صلی الله علیه و آله لیصبح وریث علمه والمحافظ علی سلالته؟

ویستعرض الکاتب فی کتابه هذا حیاة الإمام علی علیه السلام واقفاً علی أهمّ أحداثها بالتحلیل والدراسة ابتداءً من جهاده مع الرسول صلی الله علیه و آله مروراً بمحنتی الجمل وصفّین وحتی استشهاده موضّحاً أهمّ صفات أو سمات شخصیة هذا الإمام العظیم الأخلاقیة والفکریة والنفسیة، وکذلک سیاساته الاقتصادیة والاجتماعیة والعسکریة ومنهج حکمه الذی یُعتبر أو یتمحور العدل فیه درّة لم یتخلّ عنها حتّی مع قاتله (۱)، وینتهی الکاتب مع الإمام فی اسلوب الإمام الخطابی وبلاغته الفذّة التی عُبّر عنها أو عَبّر عنها البلغاء والفصحاء أنّها تحت کلام الخالق وفوق کلام المخلوق، ثمّ أفصح الکتاب عن شخصیة الإمام کقدوة تحتذی، محرّکاً سیرته وملامح شخصیته من بطون کتب التراث إلی حیث نبض الحیاة وعراکها- حسب تعبیر الکاتب أیضاً- لیتحقّق الهدف الأکبر من دراسة هذه الشخصیات الخالدة وهو التواصل بین التراث وهمومنا المعاصرة، أی کی لا یبقی هؤلاء العظماء مجرّد قمم شامخة فی سماء الناس معلّقین فی الهواء للإعجاب والانبهار والتجارة بالسِیر والکلمات والمواقف.

یقول الکاتب فی مقدّمة کتابه هذا:

«ثمّة قادة عسکریون کبار، ومفکِّرون، وفقهاء عظماء، وبلغاء وزهّاد وعباقرة، وعلماء وأُدباء. وفی التاریخ هناک الاسکندر العظیم یعشق الفلسفة، فیأخذ معه (ارسطو) استاذه، وهناک (افلاطون) الفیلسوف واستاذه سقراط، وهناک بوذا وکونفوشیوس، وقادة الثورات والمصلحون، کلٌّ متخصّص فی میدانه، أمّا علی بن أبی طالب، فهو الحاوی علی جمیع سمات العبقریات المتعدّدة، فهو الخلیفة القائد، وهو المحارب العظیم، وهو الفیلسوف، وهو الاستاذ فی العدل والمؤسس لعلم

۱- ۱ من تقریض الناشر للکتاب فی ظهر الطبعة الثانیة.

ص: ۳۴۴

النحو، وهو الفقیه، القاضـی، العالم بالحساب والفلک، وهو أمیر البلاغـهٔ والشاعر، والحکیم والحافظ لتراث محمد رسول اللّه صـلی الله علیه و آله وهو الأخلاقی الرفیع، والأنموذج فی کلّ شیء» (۱).

ویضیف:

«یسـتطیع المرء أن یتعلّم أشـیاء کثیرهٔ من علی أو یعلم عنه ولکنّه لاـ یسـتطیع أن یکون مثله.. فکان فی زمنه وحیـداً إلّا من قلّـهٔ مخلصـهٔ إخلاصـاً نـادراً، ومن أنصـار ومؤیّـدین یجتمعون ویتفرّقون لأـمر أو أمور کـان علی أعلم بها من غیره. وحین خـذلته المحنـهٔ فی زمنه، أنصـفه التاریـخ، إذ أصـبح أفواج المحبّین من رجـال الفکر والکفـاح الإنسانی، والعـدل والمعرفـهٔ، یتّصـلون به بحسب الفکر والإیمان ونسبهما، وأصبح حبّ علی بن أبی طالب حقیقهٔ موضوعیهٔ یقرّ بها المحبّ والمبغض» (۲).

أمّـا لمـاذا ناوأه المناوئون وناجزه المناجزون، واعترض علیه المعترضون، فقـد اختصـر ذلک عزیز السـید جاسم بأروع اختصار وأوجزه بأجمل إیجاز قائلًا:

«کان الرجل وحیداً فی عبقریاته، عجیباً فی مسـلکه، لذلک لم یکن جمیع أعدائه من طینهٔ واحدهٔ، فبعض الذین حاربوه کانوا یرون فیه عدوّهم الأکبر، أی عدوّ باطلهم، أو کفرهم أو شرکهم أو ظلمهم، وبعض الذین حاربوه رأوا فیه المقیاس الذی یکشف عن بُعدهم من الحقّ والعـدل، رأوا- من خلاـله- هُزالهم فی حین کـانوا یحسـبون أنفسـهم مهمّین. فـإذا بهم فی الضآلـهٔ، بالمقارنـهٔ مع شخصـیهٔ علیّ. وکـانوا یهیئون أنفسـهم لـدور کبیر بین أتبـاعهم، فیأفـل نجمهم أمـام شـمس علیّ النیّرهٔ، فحـاربوه لافتضاحهم بالمقارنـهٔ ولعجزهم عن الارتفاع إلی مستوی الحقّ والصدق...» مضیفاً:

«أمّا الـذین ترکوا معسـکره- وهم کثرهٔ- فإنّهم إنّما فعلوا ذلک لأنّهم لم یطیقوا عـدله، وحقّه وصدقه» مستشـهداً بمقولهٔ الاسـتاذ عبّاس محمود العقّاد الذی یُفسّر هذه الظاهرهٔ قائلًا:

«وهکذا فُرضت علی الرجل العظیم ضریبهٔ العظمهٔ الغریبهٔ فی دیارها وبین آلها وأنصارها، فالعلاقهٔ بینه وبین کبار

۱- ۱ علی بن أبی طالب، سلطهٔ الحقّ: عزیز السیّد جاسم- مقدّمهٔ الطبعهٔ الثانیهٔ: ۱۰.

۲- ۲ نفس المصدر السابق: ۱۱.

ص: ۳۴۵

الصحابة کانت علاقة الزمالة التی ینوب فیها الواجب مناب الإلفة. والعلاقة بینه وبین الخصوم کانت علاقة حسد غیر مکفوف وبغضٍ غیر مکتوم، والعلاقة بینه وبین سواد العامّة کانت علاقة غرباء یجهلونه ولا ینفذون إلی لبابه.

وإن قاربه الناس معجبین، وباعده أُناس نافرین. تلک أیضاً آیة الشهید».

ثمّ یعلّق السیّد عزیز السیّد جاسم علی هذا ویروح یتساءل:

«هل کان ممکناً نجاح شخصیة علی بن أبی طالب- فی عصرها- نجاحاً سیاسیاً علی ما هو علیه من (الحقّانیة) التامّة والعدل التامّ؟»

ویضیف:

«لقد أحبّه- فی زمنه- أُناس حبّاً خارقاً وبالغ بعضهم فی الحبّ فألّهوه وکفروا، فأمر بالقذف بهم فی النار، وهم غیر نادمین. وهذا أمر عجیب نادر. یفرض نفسه فی طلب التحلیل لظاهرته الغریبة المثیرة» (۱).

هذه التساؤلات وغیرها، وهذا التدافع فی تحلیل شخصیة الإمام، وهذا الاستغراق فی دراسة مواقفه ومواقف الناس منه وموقفه من الناس ترک للتاریخ والناس لکی یغترف کلّ غارفٍ غَرفة، ویقول کلّ محلّل قوله، وهذا هو العمق وحیازة التاریخ والخلود...

یقول عزیز السیّد جاسم فی هذا السیاق:

«لقد حسم اغتیال الإمام علی المناقشة.. وقطع الطریق أمام محاولته التصدّی للهجمة المضادّة، ووجد فی الموت فوزه الأکبر وهو یرقب مغادرة روحه: «فزت وربّ الکعبة» واستمرّ الناس فیما همّ علیه من صراعات سیاسیة ودنیویة ودینیة ومصلحیة» (۲).

ویصف الکاتب عجزه عن دراسة هذه الشخصیة العظیمة بالحبّ العظیم له وکیف أنّه (سلام اللّه علیه) جدیر بالحبّ والاحترام والإکرام من قبل کلّ إنسان حرّ ذی ضمیر نجیب- حسب تعبیره-... وکیف أنّ کلّ شیء یمکن أن یختتم إلّاالکتابة عن علی فإنّها لا تختتم. ولا یجد الکاتب مناصاً للتعویض عن عجزه هذا إلّاالاستشهاد ببعض کلمات وصیة الإمام علیه السلام لولده الحسن حیث یجد فیها ناموساً فکریاً

۱- ۱ نفس المصدر السابق: ۱۱.

۲- ۲ نفس المصدر السابق: ۱۱.

ص: ۳۴۶

وأخلاقياً، ودليلًا للضمير، ودستوراً للناس، وخاصة حين يسمعه يقول فی هذه الوصية الخالدة:

«يـا بنی اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك، فاحبب لغيرك ما تحبّ لنفسك، واكره له ما تكره لها، ولا تظلم كما لا تُحب أن تُظلَم، واحسن كمـا تحبّ أن يُحسن إليـك واسـتقبح من نفسك ما تسـتقبحه من غيرك... وارضَ منالناس بماترضاه لهم من نفسـك ...» ..

ويروح الكاتب فی معظم فصول الكتاب يضع عناوين شاخصة معبِّرة يستظهر من خلالها دلالات واضحة على عظمة الإمام وعدم تكرار نموذجه فی دنيا الناس، فيضع عنوان الفصل الأوّل مثلًا: «مشـيئة الرب» مؤكّداً أنّ للإمام على مواقف وصـفات وسمات لم يشاركه أحد فيها من دنيا الناس على الإطلاق. ويأتی عنوان الفصل الثالث «شجاعة علی: البدء المتطابق» وما يحمله هذا العنوان من دلالة التطابق بين علی الإنسان وعلى النموذج الفريـد، وكيف أنّ جميع الـذين أسـلموا لم يكونوا بطبيعة الحال مؤمنين، ولم يحافظ جميع الذين أسـلموا على جوهر الإسلام، فمنهم من ارتدّ مكشوفاً، ومنهم من كانت ردّته خفية أو حتى لا شعورية..

مع أنّ الإسلام فی زمن الابتداء كان ذروة التربية وثورة التربية» (1) إلّاعلی الذی تطابق إسلامه مع إيمانه ولم يحدْ لحظة أو قيراطاً.

ويأتی عنوان الفصل الخامس والسادس على التوالی: «السـياسة العسـكرية لعلی بن أبی طالب، وتاريخ لأوليات سياسـية» ويقول العنوان الثانی:

«من المؤكّد مع أنّ اللوحة الاجتماعية العامة للكثير من الصـراعات فی زمن الجاهلية كانت تشير إلى صراعات اقتتالية بين أبناء العمومة فی العشـيرة الواحدة، بأن أشهر الحروب وأخطرها كانت حروباً من النوع المذكور، فحرب (البسوس) التی استمرّت ما يقارب الأربعين عاماً كانت حرباً بين (بكر) و (تغلب) ابنی وائل بسـبب ناقـة كانت تملكها امرأة عجوز من بكر تـدعى البسوس، وكذلك كانت حرب (داحس والغبراء) وهی حروب

۱- ۱ نفس المصدر السابق: ۴۱.

ص: ۳۴۷

قیس بن عبس وذبیان ابنی بغیض بن وریث بن غطفان، واستمرّت أیضاً أربعین عاماً..» لیؤکّد أنّ جذور هذه الأوّلیات هی تلک حتّی شاءت تلک المقدّمة (الدراماتیکیة)- حسب تعبیره- أن توفّر ما توفّر بین بنی عبد شمس وبنی عبد مناف (۱).

وحین یصل الکاتب إلی الفصل السابع من کتابه یضع عنوانه المفصح المعبّر: «سلطة الحقّ فی رفض السلطة» لیکون عنوان الکتاب نفسه، وفیه، أی فی هذا الفصل یضع الکاتب دیباجته من کلام صریح واضح للإمام علیه السلام یقول فیه:

«أما والذی فلق الحبّة وبرأ النسمة، لولا حضور الحاضر وقیامِ الحجّة بوجود الناصر، وما أخذ اللّه علی العلماء أن لا یقارّوا علی کظّة ظالم ولاـ سغب مظلوم، لألقیتُ حبلها علی غاربها...» ویشیر عزیز السیّد جاسم أنّ السلطة لیست مهمّـة بحدّ ذاتها وأنّها لیست هدفاً للعظماء بحدّ ذاته وإنّما هی مهمّة بمقدار النتائج التی یحقّقها صاحب السلطة للناس وللأجیال والتاریخ، فیقول:

«ولا یهمّ البشریة أن یقال هذا حاکم قویّ، وذاک حاکم ضعیف، فقد حفل التاریخ الإسلامی مثلًا بآلاف الأمثلة فی ذلک دون فائدة تُذکر» ویضیف:

«إنّ البشریة بحاجة إلی الحاکم النبراس الذی یقدِّم للمجتمعات ثماراً أبدیة فی العدل وفی الفکر، وفی الممارسة. أی أنّ المقیاس فی تقویمات کهذه، هو مقیاس موضوعی یخصّ الفوائد الوطیدة للبشر، ولیس مقیاساً فردیاً، کما یجنح عادة بعض الکتّاب والمؤرِّخین إلی تفصیل الخصائص الشخصیة والعائلیة للحاکم...» (۲).

ولا یقتصر هذا الخلط علی الکتّاب والمؤرِّخین والنخب السیاسیة والاجتماعیة، بل إنّه یمتدّ ویکون خطره أفظع حین یعمّ کلّ مساحة الناس ممّن سمّاهم الإمام علیه السلام «الهمج الرعاع: أتباع کلّ ناعق (الذین) یمیلون مع کلّ ریح، ولم یستضیئوا بنور العلم. ولم یلجأوا إلی رکنٍ وثیق».

وهنا یدعو السیّد جاسم إلی تحریر

۱- ۱ نفس المصدر السابق: ۱۲۲.

۲- ۲ نفس المصدر السابق: ۱۶۶.

ص: ۳۴۸

النفس البشریة من هذه الرعویة والهمجیة والغوغائیة، والتی هی کما یسمّیها طبیعة حیوانیة غیر مهذّبة فیقول:

«وشخّص علیّ تشخیصاً فذّاً تلک المجامیع من الجماهیر، التی هی من طراز الهمج الرعاع، وهی مجامیع لا تشکّل جوهر المجتمع، ولیست هی الجماهیر بتمامها بل هی شرائح اجتماعیة رهینة شروطها الفکریة الذاتیة وبنت التخلّف الطویل المقیم.. وأولئک الهمج الرعاع أعداء کلّ تقدّم، وتطوّر، واستقرار، وهم یعاکسون إرادة الحقّ، ومسار العلم، واتجاه العدل، ویعطون الشرعیة التهریجیة للظالمین، فهم خدمهم الذین یُنفِّذون إرادتهم الطغیانیة، وهم لا مانع لدیهم من استبدال سلطان بآخر، فهم مع الأقوی والمنتصِر. وکان علیّ فی رؤیته متنبئاً بما سیحمله (الشرق) من کوارث سیاسیة، سببها الصراعات الدامیة حول السلطة، ودور الهمج الرعاع فی تأجیجها وفی دفعها إلی الثورة...» (۱).

هؤلاء الهمج الرعاع الذین ینعقون مع کلّ ناعق ویمیلون مع کلّ ریح والذین لا ینصرون حقّاً ولا یخذلون باطلًا ویحدّدون مواقفهم (مع مَنْ غلب) کما یقول التاریخ هم الذین ملأوا قلب الإمام علی قیحاً وشحنوا صدره غیضاً.. والأسوأ منهم هم أعوان الظلمة وحواشیهم وبطانتهم من الذین تنقل الروایات أنّ منادی یوم القیامة یعلو صوته منادیاً: «أین أعوان الظلمة قبل الظلمة» باعتبارهم أذرع السلطان وأدواته التنفیذیة الذین مکّنوا الظالم وحکّموه وتحکّموا به...

هذا التشخیص الواعی للإمام علی بن أبی طالب (سلام اللّه علیه) هو الذی جرّعه ألوان الغصص، فلا هو قادرٌ علی مجاراة الهمج الرعاع أو مسایرتهم فی أهوائهم وأطماعهم، ولا هو قادر عن التخلّی عنهم وهو المسؤول عن تربیتهم وتأدیبهم... فلا هم أطاعوه لیرتاح من زجرهم وتقریعهم ولا فهموه لکی یستقرّ علی قرار... فبقی حیاته کلّها مقارعاً مستغیثاً نادباً حظّه وحظّهم إذْ ابتُلی بهم وابتلوا به کما یقول علیه السلام وحیث أرادهم لدینه وأرادوه لدنیاهم، وشتّان بین الإرادتین...

۱- ۱ نفس المصدر السابق: ۱۶۸.

ص: ۳۴۹

علی بن أبی طالب، بقیّة النبوّة، وخاتم الخلافة: عبد الکریم الخطیب

هـذا هو العنوان الذی اختاره عبد الکریم الخطیب لکتابه وذیّله بحدیث شـریف للنبی الأکرم صـلی الله علیه و آله یقول فیه: «یا علیّ لا یُحبّک إلّامؤمن، ولا یبغضک إلّا منافق»، ثمّ راح یدوّن فی تقدیمه لکتابه هذا قائلًا:

«إنّ تاریـخ العظمـاء لیس مجرّد حیـاة وموت، وأحـداث وقعت فیمـا بین الحیـاة والموت فضـبطتها صـحف التاریـخ، وختم علیها الزمن بخاتمه، وإنّما تاریـخ حیاتهم میراث کریم تتوارثه الإنسانیـهٔ کلّها، وتقتـدی بما فیه من عظات وعبر، وتقطف من مجانیه، ما تطول یدها وتبلغ همّتها من قدوهٔ صالحهٔ ومثَلٍ کریم» (۱).

وحین یصل إلی الإمام علی علیه السـلام بعد زفراتٍ طرحها علی ما حلّ بالمسلمین من اختلاط مرویّاتهم عن صحابهٔ رسول اللَّه وکیف (اختلط فیها الحقّ بالباطل والصدق بالکذب، والواقع بالخیال)- حسب تعبیره- راح یقول:

«... وعلی- کرّم اللَّه وجهه- هو بقیّهٔ النبوّهٔ، وخاتم خلافهٔ النبوّهٔ، وحیاته کلّها معرکهٔ متّصلهٔ فی سبیل اللَّه، وإیثار سخیّ لإعزاز دین اللَّه، وإعلاء رایهٔ الإسلام التی حملها رسول اللَّه، والتفّ حولها المهاجرون والأنصار، فکانوا جند اللَّه وکتیبهٔ الإسلام...

واحتملوا تبعات الجهاد فی سبیل اللَّه، صابرین مصابرین... أمّا علیّ، فقـد کان صـدره درعاً واقیاً لـدعوهٔ الإسـلام، من أوّل یوم الإسـلام إلی أن تداعت حصون الشرک، وذهبت معالمه..» وأضاف:

«وکان سـیفه شـهاباً راصداً، یرمی أعداء الإسـلام بالمهلکات، ویشیع فی جموعهم الخزی والخذلان، ویُلبس أبطالهم وصنادیهم المذلّهٔ والهوان، حتّی لیکون سـیفه علمـاً یسـمّی (ذا الفقار) وحتّی لیکون صاحب السـیف مثلًا یحـدِّث الناس به فی مواقف البطولات الخارقهٔ فیقال (فتیً ولا کعلیّ)» (۲).

وحین یأتی إلی موضوع الخلافهٔ ککاتب یری رأیاً آخر- لا یجد مناصاً من التصریح بالحقیقهٔ رغم مرارتها فیقول:

۱- ۱ علی بن أبی طالب، بقیهٔ النبوّهٔ، وخاتم الخلافهٔ، عبد الکریم الخطیب، الطبعهٔ الثانیهٔ سنهٔ ۱۹۷۵: ۸.

۲- ۲ نفس المصدر السابق: ۲۱.

ص: ۳۵۰

«فقد كانت الخلافة أقرب إليه بعد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله من أىّ صحابى آخر» ولكنّه يضيف:

«فلمّا تمّت البيعة لأبى بكر، توقّف قليلًا وأمسك يده عن البيعة له بالخلافة، حتّى إذا رأى القبائل تتنادى بالردّة والخروج عن طاعة الخليفة الجديد، بادرَ فسدّ هذه الثغرة، وأعطى الخليفة كلّ ولائه ونُصحه» (۱).

ويأتى عبد الكريم الخطيب إلى فتنة الخليفة الثالث عثمان بن عفّان وابن عمّه مروان ويفتح ملفّها ولا يستطيع غلقه فيقول:

«أسلم الحكم (والد مروان) عام الفتح إسلام الطلقاء، وكان طريد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ولعينه... وقد قال فيه البلاذرى: إنّ الحكم بن العاص كان جاراً لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله فى الجاهلية وكان أشدّ جيرانه له أذًى فى الإسلام...

وكان قدومه إلى المدينة بعد فتح مكّة، وكان مغموصاً عليه فى دينه (أى مطعوناً عليه ومتّهماً فى دينه» (۲).

وبعد رحيل النبى صلى الله عليه و آله كلّم عثمان أبا بكر فى ردّ الحكم وولده فكان جوابه «ما كنتُ لآوى طرداء رسول اللَّه» ولمّا استُخلف عمر، قال قول أبى بكر، ولما استُخلف عثمان أدخلهم المدينة فأنكر عليه المسلمون إدخالهم المدينة، ثمّ ولّى الحكم صدقات قضاعة (حىّ فى اليمن)- والكلام للخطيب طبعاً- فبلغت ثلاثمائة ألف درهم، فوهبها له حين أتاه...

ومات الحكم (طريد رسول اللَّه) فى خلافة عثمان فصلّى عليه عثمان وضرب على قبره فسطاطاً» (۳).

وعن مروان بن الحكم ينقل الخطيب ما ذكره ابن سعد فى طبقاته حين قال:

«فلم يزل مروان مع ابن عمّه عثمان ابن عفّان، وكان كاتباً له، وأمر له عثمان بأموال، وكان عثمان يتأوّل فى ذلك صلة قرابة، وكان الناس ينقمون على عثمان تقريبه مروان وطاعته له، ويرون كثيراً ممّا ينسب إلى عثمان لم يأمر به، وأنّ ذلك عن رأى مروان، دون عثمان، فكأنّ الناس شنّعوا بعثمان، لما كان يصنع بمروان ويقرّبه» (۴).

ومن هنا جاء تعليق الإمام على عليه السلام على الفتنة التى أودت بحياة عثمان مخاطباً الثوّار: «جزعتم فأسأتم الجزع،

۱- ۱ نفس المصدر السابق: ۲۲.

۲- ۲ نفس المصدر السابق: ۴۵.

۳- ۳ نفس المصدر السابق: ۴۶ عن أنساب الأشراف للبلاذرى ۵: ۲۷.

۴- ۴ نفس المصدر السابق: ۴۶.

ص: ۳۵۱

واستأثر فأساء الأثرة».

«والحقّ أنّ علیّاً کان أوفر الناس حظّاً، وأطولهم صحبةً لرسول اللَّه صلی الله علیه و آله، فمنذُ وُلد علیّ، وهو بین یدی محمد، قبل النبوّة وبعدها. لم یفترق عنه فی سلم أو حرب، وفی حلٍّ أو سفر، بل کان بین یدی النبی، وتحت سمعه وبصره إلی أن لحق الرسول بالرفیق الأعلی، وهو علی صدر علیّ، حیث سکب آخر أنفاسه فی الحیاة» (۱) ویضیف:

«فقد کان علی بطل الإسلام دون منازع... وکان فقیه الإسلام، وعالم الإسلام، وحکیم الإسلام، غیر مدفوع عن هذا أو منازَع فیه...» إلی أن یقول:

«ولو أنّ إنساناً غیر علی بن أبی‌طالب، امتُحن بما امتحن به من شدائد وأهوال، لتبلّدت مشاعره، وعطّلت ملکاته، ولما وجد العقل الذی یفکِّر ویقدّر ولا ـ اللسان الذی ینطق ویبین! ولکنّها النفس الکبیرة العمیقة، تمرّ بها الأحداث المزلزلة، والکوارث المکربة، کما تمرّ الأعاصیر بالجبال الشامخة فتتطاحن عندها وتتخاشع بین یدیها، وتتکسّر متداعیة تحت قدمیها...» (۲).

وفی مقاربة معبّرة بین زواج الخلیفة عثمان من بنتی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله رقیة وأمّ‌کلثوم ومنحه لقب (ذی النورین)، وبین زواج الإمام علی من فاطمة علیها السلام یقول عبد الکریم الخطیب أو یکتب قائلًا:

«.. فإنّ فی زواج علیّ من فاطمة شیئاً أکثر من هذا الذی ظفر به عثمان! فأوّلًا، فاطمة (رض) اختُصت من بین أخواتها بهذه الدرجة الرفیعة التی رفعها اللَّه إلیها فجعلها فی مقام مریم ابنة عمران، حیث وصفها الرسول صلی الله علیه و آله بأنّهما خیر نساء العالمین، وثانیاً: أنّ فاطمة- وحدها من دون أبناء النبی وبناته- هی التی کان منها سبطا رسول اللَّه صلی الله علیه و آله الحسن والحسین ومنهما کلّ نسل رسول اللَّه. وإذْ ننظر إلی هذا الأمر- والکلام للخطیب- مع ضمیمة ما سبق من مواقف فی هذا المقام، نجد أنّ ذلک الموقف متسق مع ما سبقه، جار علی الغایة المُنجحة له، والبالغة بابن أبی طالب، ما أراد اللَّه له من کرامة وتکریم!

۱- ۱ نفس المصدر السابق: ۵۸.

۲- ۲ نفس المصدر السابق: ۸۸.

ص: ۳۵۲

فهذا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يكون له بنين وبنات ثمّ يختارهم اللَّه جميعاً إلى جواره فى حياة الرسول، عدا فاطمة (رض)، ثمّ لا يقف الأمر عند هذا، بل يكون من حكمة اللَّه ألا يعقب أحد من أبناء الرسول وبناته ولداً، ومن كان له ولد من بناته مات هذا الولد صغيراً..

وهكذا يصبح الرسول- صلوات اللَّه وسلامه عليه- لا يرى له ولداً غير فاطمة، ولا نسلًا متّصلًا إلّاما كان من فاطمة وعلى» (۱).

ويأتى الخطيب إلى قضية حسّاسة يحاول أن يتجاوزها بفذلكة وذكاء وذلك عند تمييزه بين شخص الرسول ورسالته، فيقطع الطريق على الرأى الآخر القائل بأنّ الإمام علياً عليه السلام إنّما هو امتداد لرسالة الرسول وإنْ كان لشخصه فيه النصيب الأوفى، فيقول فى هذا الإطار معترفاً ممرّراً:

«فإذا قيل: إنّ علياً أخو النبى وزوج ابنته فاطمة، سيّدة نساء العالمين، وأبو السبطين، ريحانتى شباب الجنّة، الحسن والحسين.. ثمّ إذا قيل: إنّ عليّاً هو الشخص القائم مقام الرسول فى كلّ موقف يُلتمس فيه شخص الرسول، لا رسالة الرسول، إذا قيل ذلك فى (على) فإنّه لا يعطى أكثر من دلالة واحدة، هى أنّ علياً أقرب الناس إلى الرسول، وألصقهم به وأولاهم، فيما يمسّ ذاته، ويتّصل بشخصه!» (۲).

وعن عدل (على) وترفّعه عن حطام الدنيا واندكاكه بمبادئ الدين وعدم اهتمامه بما تقوله السياسة ورجالها فيه، يقول عبد الكريم الخطيب:

«روى أنّه حين تفرّق أصحاب على بعد مقتل الخوارج ودخل مسجد الكوفة فخطبهم، وكشف لهم عن الحال التى صاروا إليها، وما ينتظرهم من ذلّ على أيدى أهل الشام بعدها، قام إليه بعض أصحابه فقال:

«يا أمير المؤمنين... أعطِ هؤلاء هذه الأموال، وفضّل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالى، ممّن يتخوّف خلافه على الناس وفراقه، إنّ هذا هو الذى كان يصنعه معاوية بمن أتاه، وإنّما عامّة الناس همّهم الدنيا، ولها يسقون، وفيها يكدحون، فاعط هؤلاء الأشراف، فإذا استقام ذلك ما تريد

۱- ۱ نفس المصدر السابق: ۱۲۶.

۲- ۲ نفس المصدر السابق: ۱۲۸.

ص: ۳۵۳

عُدت إلى أحسن ما كنتَ عليه من القسْم» (۱).

ويواصل الخطيب رؤيته هذه معلّقاً:

«هذه هى السياسة التى كان يمكن أن يغلب بها الإمام، وأن يستكثر بها من الأنصار والأتباع! ولكنّه يأبى بأن يستجيب لهذا الرأى، ويردّ على أصحابه قائلًا:

«أتـأمرونى أن أطلب النصـر بـالجور.. فواللَّه لا أفعل ذلك ما لاح فى السـماء نجم، واللَّه لو كان المال مالى لسويتُ بينهم! فكيف وهى أموالهم».

هـذا هو حكم الـدين- والتعليق هنا للخطيب طبعاً- ودعوة الحقّ والعـدل! ولكن أين الناس من الـدين، ومن الحقّ والعدل؟! لقد تعثّرت أقدامهم على هذا الطريق وثقل خطوهم عليه، وتقطّعت بهم الأسباب دونه... أتريدون شاهداً؟

وهل شاهد بعد أن نرى عليّاً وحده فى الميدان، لا يقوم تحت رايته غير خمسين رجلًا؟» (۲).

لكن المؤلم المؤسف أنّ الخطيب نفسه وفى طول الكتاب وعرضه استمرّ مـدارياً متهيباً يقترب من قول الحقيقـة الساطعـة وينسلّ منها، وتسـطع شـمسه فتضـلّلها غيمـة الموروث وغمامة الحكم الجاهز وكأنّى به يريد أن يقول شـيئاً ولكن الضـريبة باهضة والموقف صـعب والحقّ مرّ ولا حول ولا قوّة إلّاباللَّه العلى العظيم.

الحقيقة الضائعة: الشيخ معتصم سيد أحمد:

رغم أنّ (الحقيقـة) لا- تضـيع ولن تضـيع، وإنْ كـانت ضُـيعت أو غُيبت لهـذه الفترة أو تلـك، إلّاأنّ (الحقيقـة) عنـد الاسـتاذ والكاتب السودانى الشـيخ معتصم سـيد أحمـد قـد ضاعت، أى ضاعت عليه هو نفسه فراح يبحث عنها فى كتابه هـذا بجدّيـة وصـدق وإخلاص حتّى عثر عليها موفقاً مسدّداً إن شاء اللَّه.

ولعلّ أوّل ما يبـدأ به الكاتب فى بحثه عن الحقيقـة هو تنقيبه الـدقيق وفحصه الأكثر دقّة لمتون وأسانيد الحديث الشـريف: «إنّى تارك فيكم الثقلين:

كتاب اللَّه وسنّتى، أو عترتى أهل بيتى» وصراعه بين هذين الاثنين

۱- ۱ نفس المصدر السابق: ۵۶۶ عن: الإمامة والسياسة: ۱- ۱۶۰.

۲- ۲ نفس المصدر السابق: ۵۶۷.

ص: ۳۵۴

(سنّتی أم عترتی) وارتیاحه فی اکتشاف الخیط الدقیق بین سنّة رسول اللَّه صلی الله علیه و آله وعترته أهل بیته وعلی رأسهم أو فی مقدّمتهم الإمام أمیر المؤمنین علی بن أبی‌طالب علیه السلام.

وبعد فراغه من هذا البحث الذی قال: إنّه کلّفه «مجهوداً فکریاً ونفسیاً، وجعلنی أعیش صراعات مع ضمیری وأخری مع زملائی وأساتذتی فی الجامعة» (۱) وانتهائه إلی أنّ الآیة القرآنیة الکریمة إنّما ولیّکم اللَّه ورسوله والذین آمنوا الذین یُقیمون الصلاة ویؤتون الزکاة وهم راکعون إنّما نزلت فی علی علیه السلام وانّ لها دلالة خاصّة- حسب رؤیة الکاتب- راح غائصاً فی تقصّیها والبحث فی مغزاها وأسباب نزولها.

بعدها راح الکاتب یبحث فی مغزی الآیة القرآنیة الکریمة الاخری: یا أیّها الرسول بلِّغ ما أُنزل إلیک من ربّک وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته واللَّه یعصمک من الناس وکیف أنّ هذا الأمر الإلهی الواجب تبلیغه صار یوازی تبلیغ الرسالة فإذا لم یبلِّغه فکأنّما لم یبلِّغ الرسالة» (۲) ویضیف:

(وإنّ هذا الأمر، هو مردّ خلاف عظیم بین الناس، بل إنّ الرسول خاف علی نفسه من الناس ولذا طمأنه اللَّه تعالی بقوله عزّ من قائل: واللَّه یعصمک من الناس) (۳).

ومن استجلاء معانی هذه الآیات البیّنات وغیرها یروح الاستاذ معتصم یلقی باللائمة علی المؤرِّخین الذین یکتمون الحقائق ولا ینقلونها إلی الناس، وهذا ما یقصده بضیاع الحقیقة إذْ یقول:

«وما تعانیه الأمّة الإسلامیة الیوم من فرقة وشتات وتمزّق فی الصفوف ما هو إلّانتاج طبیعی للانحرافات التی حدثت فی التاریخ من تدلیس المؤرِّخین وکتمهم للحقائق.. من أجل مصالح سیاسیة (ودنیویة).. وهو مخطّط استهدف مدرسة أهل البیت علی کافّة الأصعدة والمستویات لیشکِّل تیّاراً آخر ذا مظهر إسلامی فی قبال الإسلام الحقیقی الأصلی» (۴).

ولم تکن المسألة مسألة مصالح سیاسیة فقط وإنّما مسألة رعب ورهبة

۱- ۱ الحقیقة الضائعة: الشیخ معتصم سید أحمد، الطبعة الاولی ۱۴۱۷ ه: ۱۰۹.

۲- ۲ نفس المصدر السابق: ۱۶۵.

۳- ۳ نفس المصدر السابق: ۱۶۵.

۴- ۴ نفس المصدر السابق: ۱۷۲.

ص: ۳۵۵

وخوف لمن یجرأ ویکشف الحقیقـة إذْ «کان مجرّد التظاهر بالحبّ لعلی بن أبی طالب وأهل بیته کفیل بهـدم الدار وقطع الرزق، حتّی تتبع معاویهٔ شیعهٔ علی قائلًا: اقتلوهم علی الشبههٔ والظنّهٔ، وحتّی بات ذکر فضائلهم جریمهٔ لا تُغتفر..» (۱).

وأکثر ما یجرح قلب الکاتب ویمزّق فؤاده فی مواقف هؤلاء المؤرّخین هو جنایهٔ التکتّم علی مظلومیهٔ الإمام علی علیه السلام وحذفهم لرسائل عدیدهٔ مهمّهٔ کان علیه السلام بعثها إلی معاویهٔ وحذف أخری بین هذا الأخیر ومحمد بن أبی بکر، وراح الکاتب یندِّد بموقف الطبری کمثال قائلًا:

«أخفی المؤرِّخون وأوّلهم الطبری الرسائل التی جرت بین محمد بن أبی‌بکر ومعاویهٔ بن أبی سفیان..

فاعتـذر الطبری بعـدما ذکر إسـناد الرسالتین، بأنّ فیهما ما لا یتحمّل العامهٔ سـماعه، ثمّ جاء من بعده ابن الأثیر وفعل ما فعله الطبری، ثمّ سار علی نهجهم ابن کثیر فأشار إلی رسالهٔ محمد ابن أبی بکر، وحذف الرسالهٔ وقال (فیها غلظهٔ)» إلی أن یقول (أی الکاتب):

«وما فعله المؤرِّخون الثلاثهٔ هو من أبشع أنواع کتْم الحقائق، وهو یکشف بکلّ وضوح عدم أمانتهم العلمیهٔ» (۲).

ولم یتردّد الکاتب فی ذکر بعض فقرات هذه الرسالهٔ التی (فیها غلظهٔ) وینقلها عن مروج الذهب للمسعودی، وجاء فیها:

«من محمـد بن أبی بکر إلی الغاوی معاویـهٔ بن صـخر، وبعـد الثناء علی النبی وکیف أنّ اللَّه أرسـله رحمـهٔ وبعثه رسولًا ومبشِّراً ونذیراً، فکان أوّل من أجاب وأناب وآمن وصدّق وأسلم وسلم أخوه وابن عمّه علی بن أبی طالب:

صدقه بالغیب المکتوم وآثره علی کلّ حمیم، ووقاه بنفسه کلّ هول وحارب حربه وسالم سلمه... لا نظیر له...

اتّبعه ولاـ مقـارب له فی فعله، وقـد رأیتُک تُسامیه وأنت أنت، وهو هو، أصـدق الناس نیّهٔ، وأفضل الناس ذریّهٔ، وخیر الناس زوجـهً...

وأنت اللعین ابن اللعین لم تزل أنت وأبوک تبغیان لرسول اللَّه صلی الله علیه و آله الغوایهٔ وتجهدان

۱- ۱ نفس المصدر السابق: ۱۷۳.

۲- ۲ نفس المصدر السابق: ۱۷۹.

ص: ۳۵۶

فی إطفاء نور اللَّه، تجمعان علی ذلک الجموع وتبذلان فیه المال، وتؤلّبان علیه القبائل، وعلی ذلک مات أبوک وعلیه خلفته...» إلی أن یقول:

«فکیف یا لک الویل! تُعدل أو تقرن نفسک بعلی وهو وارث رسول اللَّه صلی الله علیه و آله ووصیّه وأبو ولده؛ أوّل الناس اتباعاً وأقربهم به عهداً، یخبره بسرّه، ویطلعه علی أمره، وأنت عدوّه وابن عدوّه، فتمتّع فی دنیاک ما استطعت بباطلک ولیمددک ابن العاص فی غوایتک، فکأنّ أجلک قد انقضی وکیدک قد وهن ثمّ یتبیّن لمن تکون العاقبة العلیا...» (۱).

أمّا رسالة معاویة فی الردّ علی محمد بن أبی بکر، فقد جاء فیها، ما تهیّب عن ذکره المؤرِّخون الثلاثة المذکورون سابقاً، ولکن الشیخ معتصم أورد بعضاً من نصوصها کما جاء فی مروج الذهب أیضاً. نذکر فقرات منها خدمةً للقارئ الکریم وبدون تعلیق:

«من معاویة بن صخر، إلی الزاری علی أبیه محمد بن أبی بکر... ذکرتَ ابن أبی طالب، وقدیم سوابقه وقرابته إلی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله ومواساته إیّاه فی کلّ هول وخوف فکان احتجاجک علیَّ وعیبک لی بفضل غیرک لا بفضلک، فاحمد ربّاً صرف هذا الفضل عنک وجعله لغیرک، فقد کنّا وأبوک فینا نعرف فضل ابن أبی طالب وحقّه لازماً لنا مبروراً علینا، فلما اختار اللَّه لنبیّه علیه الصلاة والسلام ما عنده، وأتمّ له ما وعده، وأظهر دعوته وأبلج حجّته، وقبضه اللَّه إلیه صلوات اللَّه علیه، فکان أبوک وفاروقه أوّل من ابتزّه حقّه وخالفه علی أمره، علی ذلک اتّفاقاً واتساقاً، ثمّ إنّهما دعوه إلی بیعتهما فأبطأ عنهما وتلکأ علیهما، فهمّا به الهموم وأرادا به العظیم. ثمّ إنّه بایعهما وسلّم لهما وأقاما لا یشرکانه فی أمرهما ولا یطلعانه علی سرّهما حتّی قبضهما اللَّه...» إلی أن یقول:

«أبوک مهّد مهاده وبنی لملکه وساده، فإن یک ما نحن فیه صواباً فأبوک استبدّ به ونحن شرکاؤه، ولولا ما فعل أبوک قبل ما خالفنا ابن أبی طالب وسلّمنا إلیه، ولکن رأینا أباک فعل ذلک به قبلنا فأخذنا بمثله، فعِبْ

۱- ۱ نفس المصدر السابق: ۱۷۹- ۱۸۰ عن مروج الذهب للمسعودی ۳: ۲۰ تحقیق محمد محیی الدین، دار المعرفة- بیروت.

ص: ۳۵۷

أباک بما بدا لک أو دع ذلک. والسلام علی من أناب» (۱).

وهنا لا یملک الشیخ معتصم نفسه فیروح مذیعاً ما استفزّ سریرته واستصرخ وجدانه فیقول:

«وقد عرفتُ بذلک السرّ الذی منع الطبری وابن الأثیر وابن کثیر من نقل هذه الرسالة؛ لأنّها تکشف واقع الصراع والخلاف الذی حدث بین المسلمین فی أمر الخلافة، التی هی حقّ لعلی- کما یری طبعاً-» ویضیف:

«فهـذا معاویـة یعترف بـذلک ولکنّه یعتذر بأنّ خلافته هی امتداد لخلافة أبی بکر وشـنّع بذلک علی ابنه... ولکن لا علیک یا معاویة- والکلام للکاتب- فإنْ لم یسکت محمد بن أبی بکر ولم یستر أمرک فقد سکت عنه الطبری وابن الأثیر وابن کثیر...» (۲).

وهکـذا هو التاریـخ والمؤرِّخون علی امتـداد العصور والأزمان، یُظهرون نصف الحقیقـة، ویسدلون السـتار علی نصـفها الآخر فیترکون الناس فی طرائق شتّی لا یهتدی فیها الضال ولا یستیقن المهتدی، وکلّ ذلک من أجل مصالح خاصة أو مواقف سیاسـیة مدفوعة الثمن تروح ضـحیتها الحقیقـة أو المؤرِّخ، وما أعظم المؤرِّخ الـذی یروح ضـحیةً للحقیقـة! وما أعظم الحقیقـة التی لا یعتّمها مؤرِّخ ولو غیّبها الزمن والسلاطین وسنین طویلة من عمر الدهر الخؤون!

الهوامش:

۱- ۱ نفس المصدر السابق: ۱۸۱ عن مروج الذهب ۳: ۲۱.

۲- ۲ نفس المصدر السابق: ۱۸۱.

تعریف مرکز

بسم الله الرحمن الرحیم

جاهِدُوا بِأَمْوالِکُمْ وَ أَنْفُسِکُمْ فی سَبیلِ اللَّهِ ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَیهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْیَا أمْرَنَا... َ یَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ یُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ کَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنـادِرُ البِحـار – فی تلخیص بحـار الأنوار، للعلاّمة فیض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُیونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّیخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائمیّة" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إیرانَ: الشهید آیة الله "الشمس آباذی" – رَحِمَهُ اللهُ – کان أحداً من جَهابذة هذه المدینة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَغفِهِ بأهل بَیت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَیهِم) و لاسیَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (علیه السّلام) و بِساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّریفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درایته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجریّة الشمسیّة (=۱۳۸۰ الهجریّة القمریّة)، مؤسَّسةً و طریقةً لم یَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ کلَّ یوم.

مرکز "القائمیّة "للتحرِّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إیرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریّة القمریّة) تحتَ عنایة سماحة آیة الله الحاجّ السیّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّیجی الحوزات العلمیّة و طلاب الجوامع، باللیل و النهار، فی مجالاتٍ شتَّی: دینیّة، ثقافیّة و علمیّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشیعة و تبسیط ثَقافة الثَّقَلَین (کتاب الله و اهل البیت علیهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزیز دوافع الشَّباب و عموم الناس إلی التَّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّینیّة، تخلیف المطالب النّافعة – مکانَ البلاتیثِ المبتذلة أو الرّدیئة – فی المحامیل (=الهواتف المنقولة) و الحواسیب (=الأجهزة الکمبیوتریّة)، تمهید أرضیّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافیّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت –علیهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققین و الطّلاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلامیّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهیل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعیّة: التی یُمکِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحدیثة متصاعدةً، علی أنّه یُمکِن تسریعُ إبراز المَرافِق و التسهیلاتِ – فی آکناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلامیّة و الإیرانیّة – فی أنحاء العالَم – مِن جهةٍ اُخرَی.

– من الأنشطة الواسعة للمرکز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبٍ، کتیبة، نشرة شهریّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقیقیّة و مکتبیة، قابلة للتشغیل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثُلاثیّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکة و... الأماکن الدینیّة، السیاحیّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائمیّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخـَرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضیّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعیّة، الاخلاقیّة و الاعتقادیّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّة و اعتباریّة، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّة، الجوامع، الأماکن الدینیّة کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع "ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعلیمیّة عمومیّة و دورات تربیة المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلة السَّنَةِ

المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع"مسجد سیّد/ "ما بینَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائی/"بنایة"القائمیّة"

تاریخ التأسیس: ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریة القمریّة)

رقم التسجیل: ۲۳۷۳

الهویّة الوطنیّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البرید الالکترونی: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاکس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مکتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التِّجاریّة و المَبیعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمین ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

المیزانیّة الحالیّة لهذا المرکز، شَعبیّة، تبرّعیّة، غیر حکومیّة، و غیر ربحیّة، اقتُنِیَت باهتمام جمع من الخیّرین؛ لکنّها لا تُوافِی الحجمَ المتزاید و المتّسِعَ للامور الدّینیّة و العلمیّة الحالیّة و مشاریع التوسعة الثّقافیّة؛ لهذا فقد ترجّی هذا المرکزُ صاحِبَ هذا البیتِ (المُسمَّی بالقائمیّة) و مع ذلک، یرجو مِن جانب سماحة بقیّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللّهُ تعالی فرَجَهُ الشَّریفَ) أن یُوفِّقَ الکلَّ توفیقاً متزائداً لِإعانتهم - فی حدّ التّمکّن لکلّ احدٍ منهم – إیّانا فی هذا الأمر العظیم؛ إن شاءَ اللّهُ تعالی؛ و اللّهُ ولیّ التوفیق.